

# النظورُ والجديدُ

في الشعرِ الأمويِّ



# النُّطُورُ وَالْبُحْدِيدُ

في الشعر الأموي

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ آداب اللغة العربية في كلية الآداب

بجامعة القاهرة

الطبعة الثامنة

مقحة



دار المعارف



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الطبعة الثانية

ظنَّ بعضُ من قرأوا هذا الكتاب في طبعته الأولى أنني أنكر به الصلة بين الشعر الأموي والشعر الجاهلي وأزعم أنها كانت منبثّة منقطعة . ولست أدري من أين جاءهم هذا الظن ، وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر في العصر الأموي ، بل أنا لا أنكرها ولا أدفعها عن الشعر العربي في جميع عصوره التالية ، فقد ظلت الصلة قائمة متينة بين عصوره وأقاليمه المختلفة وبين الجاهلية وحياة العرب البدوية القديمة ، فهي تفرض نفسها على الشعر والشعراء ، لا من حيث الصيغ والأخيلة والصور فحسب ، بل أيضاً من حيث الموضوعات والأغراض . ذكر الأطلال والرسوم ووصف الإبل وحيوانات الصحراء وسالكها ومنازلها .

كلُّ ذلك لا أنكره في الشعر العربي مهما اختلفت عصوره ، فهو يحفظ بكثير من طوابعه البدوية الجاهلية مهما شَرَّقَ وغَرَّبَ وتغايرت أوطانه وتباعدت . ولكن ليس هذا هو الجانب الذي عُنيت ببحثه في الشعر الأموي إنما عُنيت بالجانب المقابل ، جانب التطور والتجديد فيه ، فهو مع محافظته على العناصر البدوية واستقرارها في كيانه قد تطور وتجدد كما يتطور ويتجدد كل شعر يتحول من عصر إلى عصر ، وخاصة إذا كان العصر الجديد يختلف عن العصر القديم في الدين والسياسة والحضارة والثقافة . لقد دخل العرب في الإسلام وخرجوا من جزيرتهم واتصلوا بالأمم الأجنبية واتخذوا القصور والرقيق والحواري وهكلموا من شئون الفكر ما لم يكونوا يعلمون كما عرفوا من شئون الحياة المادبة ، لم يكونوا يعرفون . ولم يحدث ذلك خارج الجزيرة فقط ، فقد تغلقت العناصر الحضارية في الحجاز وفي المدينة ومكة حيث قامت أفواج كبيرة من الموالى على خدمة الحجازيين . فكان طبيعياً أن يحدث تطورٌ خطيرٌ في حياة العرب داخلياً وخارجياً ، وأن يتبع ذلك

تطوراً واسع في شعرهم، وهو تطور لم تُتْلَغ فيه إلغاء الأصول الفنية التقليدية الموروثة بل ظلت قوية بارزة .

فالشاعر الأموي لم يعيش في عالم في طليق من القيود والعناصر التقليدية القديمة، بل ظل متمسكاً بها شديد التمسك، ولكن مع إنعائها والملازمة بينها وبين حياته المادية والمعنوية الجديدة، فهو يخوض فيها يخوض فيه معاصروه ويواصل السير معهم في ميادين التطور السياسي والاجتماعي والديني والعقلي . وهذا هو ما حُتبت بالكشف عنه والتبصير به، لسبب مهم، وهو أن محافظة الشعر الأموي على السنن التقليدية الموروثة أوضح من أن تُبْحَث وأن تُفْرَد لها الكتب، إنما الذي يفتر إلى البحث والكتب حقاً هو مدى ما حدث في هذا الشعر من تطور وتجديد .

وقد رجعت إلى دواوين الشعراء في العصر ونصوصهم المختلفة، فاستخرجت منها — ما استطعت — الأدلة والشواهد على أن احتفاظهم في شعرهم بالأصول التقليدية لم يعقهم عن إدخال عناصر تجديدية كثيرة، وهي تختلف في العصر باختلاف البيئات والشعراء قوة وضعفاً وسعة وضيقاً . وإنما دفعتني إلى تفسيرها وتصويرها في كتاب أنني وجدت مؤرخي الأدب العربي ونقاده لا يكادون يلتمون بها فرأيت أن أبسط القول فيها، حتى أزيل من الأفهام أن العصر الأموي كان عصر جمود وركود في الشعر وأن الشعراء فيه كانوا يحاكون الجاهليين عما كاة تامة، فقد عبروا عن ذات أنفسهم وذات عصرهم وكل ما اضطربوا فيه من مذاهب دينية وسياسية وثقوية حضارية مادية أو ثقافية . ولست أزعج أني بلغت الغاية مما أردت من تفسير وتصوير للحقائق الفنية المستحدثة في العصر، إنما حاولت وبذلت الجهد . وقد أضفت إلى هذه الطبعة الثانية تمهيداً عن الشعر في صدر الإسلام، حتى تتضح خطوات التطور الأولى التي خطاها الشعر العربي قبل العصر الأموي ومدى سرعتها وبطئها . والله يهدي إلى سواء السبيل .

## مقدمة الطبعة الأولى

يقومُ هذا البحثُ على أسسٍ نظريّةٍ جديدةٍ تناقضُ أشدَّ المناقضة ما استقرَّ في نفوس الباحثين في الشعر العربي من أن الطبقة التي كوَّنها هذا الشعر في عصر بني أمية تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية ، إن لم تتَّحدْ معها في خصائصها الفنيّة تمام الاتحاد . فالعربُ — في رأيهم — استمروا بنظِّموني شعرهم بعد الفتح الإسلامي ونزولهم في الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة على شاكلته ما كان ينظِّمه أسلافهم ، حتى أرسل الله لهم المولى في العصر العباسي ، فطوّروا لهم صورة شعرهم ، وجدّدوا في إظهارها ونحطوطها وألوانها فنونًا مختلفة من التجديد . ولا يعرف تاريخ الشعر العربي بحكْمًا جائرًا على حفاظه الأدبية مثل هذا الحكم الذي يجعل العرب أحجارًا ، ينقلون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طورٍ بداءة إلى طورٍ حضارة ، دون أن يتأثروا بما يصادفهم في كل ذلك من مؤثرات حضاريّة وغير حضاريّة .

ولا ريبَ في أن العرب ليسوا بدعًا من الأمم والشعوب ، بل هم كغيرهم يتطورون ويتأثرون بالزمان والمكان وظروفهما ، سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً . وشحان بين عربيّ الصحراء القديم وعربيّ العصر الأمويّ الذي ورث كسرى وقبصر ، وخرج من صحرائه ، ونزل في الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم الإسلاميّة .

لقد كان العربيّ القديمُ ساذجًا في حياته ووسائلها ومطالبها ، وكان أيضًا ساذجًا في تفكيره ، بل كان لا يجد وقتًا كي يفكر في الأشياء ، إذ كان مشغولًا دائمًا بالسعي في طلب قوته . أما عربيّ العصر الأمويّ فكان يعيش في حياة معقّدة عمّدتها الحضارات الفارسيّة والإغريقيّة الرومانيّة التي غزا أهلها واستعمرهم سياسيًا ، وغزوه واستعمره حضاريًا وثقافيًا . وقد أخذ يفكر في الأشياء ويحلل التفكير ، بل أخذ يحترف التفكير احترافًا في كل شئون حياته من سياسة واقتصاد .

ومن المخالفة لطبائع الأشياء أن تكون الطبقة الفنية التي كونها الشعر العربي في هذه الحياة الجديدة مُسَائِلَةً للطبقة الفنية الجاهلية تمام المائلة ، فقد اختلفت الحياة في بنايعها ، وأصبح العربي يعيشُ معيشةً جديدةً ، ويقع تحت مؤثراتٍ دينيةٍ وحضارية لم يكن يعرفها في الجاهلية . ومن أجل ذلك كنا نزعم أن نفسيته تبدلت . وفترق بعيدٌ بين نفسه وتسنّى ونفسية مُسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويستشعرُ السعادة فيها يؤديه من تقوى وعبادة . وفترق بعيدٌ بين عقلية بدوى يعيشُ معيشة بسيطة في الخيام لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود وعقلية حضري يعيشُ في مسكن مستقرّ البنيان ، ويخضع لضرورات الحياة في الدول والمدن ، ويختلف إلى دور اللهو والغناء والموسيقى أو إلى دروس العلماء وحلقاتهم في المساجد حيث كانوا يفرصون في مجار الفكر غرضاً ، وحيث فتحوا للناس أبواب البحث ، في مشاكلهم السياسية والدينية والعقلية ، على مصاريعها .

والحق أن الأدب العربي لا يعرف في تاريخه حكماً فائلاً مثل هذا الحكم الذي يُنكرُ على العرب أن ينهضوا بشعرهم وفنهم في عصر بني أمية ، كأن العرب قوم يستعصون على التحول والتطور ، مهما تكن التغيرات والانقلابات التي تصادفهم في حياتهم ، ومهما تكن الميزات العنيفة التي تسمتهم في عقولهم وأفئدتهم .

ونحن لا نكاد نُلقي عنا هذا الحكم وما مدد بين أعيننا وبين رؤية الحقائق الفنية لهذا العصر من حجب ، ونخلُ في دراسة دواوين الشعر الأموية باحثين وفاقدين محللين حتى نرى رأى العيين أننا نخلُ في عالم جديد مبكين أشدّ المابينة وأوضَحها للعالم الفني القديم ، عالم العصر الجاهلي .

ففي كل جانب من جوانب هذه الدواوين نجد ظواهر الحضارات الأجنبية ، بل ظواهر الترف الذي غيّر ما بأنفس العرب ، حتى ليتحول الغزل عند ابن أبي ربيعة عن طبيعته المألوفة ، وهي غزل عاشق يصفُ حبه لمشوقه ، إلى طبيعة جديدة ، هي غزلُ معشوق يصفُ حبّ المرأة العاشقة له . وبجانب ابن أبي ربيعة نجد ضريبة الانغماس في الترف عند الوليد بن يزيد مبتدع فنّ



الخميرية في العربية قبل أبي نؤاس وأضرابه من العباسيين .  
 وكان الإسلام يقوى قوس العرب بتعاليمه ، وتتمسك أشعة هذه التعاليم  
 قلوبهم ، فتغيرت مثالياتهم في الحياة ، وظهر ذلك بينك واضحاً في مدائحهم  
 وأهاجيهم ، إذ نرى الصفات الدينية تتلأل في قصائدهم ، فهم يصفونها على  
 مملوحهم ، ويظلمونها عن مهجورهم . وقد زهد فريق في حطام الدنيا ،  
 فحول يتبتل إلى ربه ، ويتناجيه في شعره ، أو يهجو إبليس ويحذر من  
 الرجوع في حياته .

ونهضت الحياة العقلية في هذا العصر نهوضاً واسعاً ، كان من آثاره أن  
 عمّت موجة من المناظرات في حقائق الأشياء دليّة وغير دينية . وتحت تأثير  
 هذه المناظرات ألف جرير والفرزدق والأخطل نقائضهم في الدفاع عن قبائلهم  
 أو عن قبائل أخرى ومهاجمة الخصوم ودمغ حُججهم . ولم تكن مناظرات  
 جادة ، إنما كان يراد بها قطع الفراغ المائل الذي واجهه العرب حين استقروا  
 في الكوفة والبصرة وكفّتهم الدولة أرزاقهم ، فلم يعرفوا كيف يمتصون أوقاتهم ،  
 وإذا جرير وصاحبه يحولون الهجاء القديم إلى هذه النقائض ليلسوم بها ، وليقطعوا  
 لهم أوقات فراغهم . وكانوا يخرجون للفرجة عليهم ، وخاصة على جرير والفرزدق ،  
 كما نخرج نحن الآن لاسماع المناظرات في مشاكلنا الاجتماعية ، أو كما نخرج  
 لتمضية بعض الوقت في دور التمثيل والخيالة .

وخطاً الكميّة بالمناظرة والجدال خطوة أخرى إذ كان شيعياً على مذهب  
 زيند بن علي بن الحسين ، وكان في الوقت نفسه تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس  
 الاعتزال وسُنّيته . فألف على هندی أستاذه وعقله واحتجاجه أول دفاع  
 في تاريخ النحلة الزيدية ويحفل الشيعة عامة ، ولم يكتب هذا الدفاع ثراً ، وإنما  
 كتبه شعراً في ديوانه المسمى بالهاشميات .

وكانت المدرسة اللغوية بالبصرة أخذت تؤنّب ثمارها ، فأعدت طائفة من  
 الشعراء لتصنع لها شعراً يُعنيها على بحوثها اللغوية ، أو على الأكل النهتهم  
 ذلك . وبرز في هذا الجانب رؤبة بن العجاج ، فكان يعمق العريب  
 والوحش الشارد في اللغة ، وكان يحتمد على حسه وسليبه العربية في نحت

الألفاظ واشتقاقها وتحريف صورتها في حروفها وحركاتها . وبذلك كانت أراجيزه متوتراً لغوية ، وكانت أقدم صورة من صور الشعر التعليمي في العربية .

ونجد في هذا العصر شاعراً يبرز في وصف الطبيعة تبرزاً بديعاً ، وهو ذو الرمة الذي نشأ في الصحراء ، ثم نزل في البصرة والكوفة ، فتلقن ما كان بهما من ثقافات . وشغف بصحرائه القديمة ، فعاش يرحل إليها ، يتأمل فيها ، ويصور في جمالها وسحرها تصوير المأمم المفتون . وبهذا الهيام دبج لوحات رائعة لصحرائه ، تنفصل انفصالا عن أشعار من سبقوه من الجاهليين ، وهي لوحات تتداعى فيها الألفاظ والصور تداعياً غير مترابط ، وهو تداعٍ يجعل شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً بهيجة .

وإمل في هذا كله ما يدلُّ أصدق الدلالة على أن العرب لم ينتظروا إلى العصر العباسي ليجدد لهم الموالى شعرهم ويحدِّثوا فيه فنوناً مختلفة من التطور به ، بل لقد سبقوا إلى ذلك في العصر الأموي ، إذ أحسوا إحساساً عميقاً واضحاً أنهم امتدادٌ لقديم ونهوضٌ بجديد ، فاستمر في شعرهم كثيرٌ من التقاليد الأدبية الموروثة ، وفي الوقت نفسه اندفعوا بمشئون هذا الجليل وما انطوى فيه من تطوُّر انبعاثاً شليداً .

والصفحات التالية من هذا البحث تبسُّط ما حدث من ذلك التطور والتجديد في الشعر الأموي ، بحيث كان نتيجة طبيعية لهذا القانون المعروف ، قانون الفعل ورد الفعل ، فروح العصر الأموي ، ومزاجه ، وحضارته ، وسياسته ، وثقافته ، وكل ما اتصل به ، مائل فيه مصور أدق تصوير . والله ولي التوفيق .

## تمهيد

### الشعر في صدر الإسلام

١

#### الإسلام

أخرج الإسلامُ العربَ من ظلمات حياتهم الجاهلية الوثنية المادية إلى أضواء حياة روحية سماوية تتعَنُّو فيها الوجوهُ للحيِّ القيُّوم الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، إله قوي عزيز وسِعَتْ قدرته ورحمته كل شيء . إنها حياة ربَّانية جديدة فُرِضَتْ فيها فروض وواجبات دينية من مثل الحج والزكاة وصوم رمضان والصلاة في أوقات معلومة ، وقد حُرِّمَتْ فيها جملة الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، من مثل الزنا والخمر ، ومنَّ عمل صالحاً فلنفسه ومن أنما فعلها ، فإن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يُحشَرُ فيها الناس ليحاسَبوا على أعمالهم ، فيعاقبوا أو يثابوا عليها ، فمن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره ، فأما الأبرار فلهم الجنة والنعم المقيم ، وأما العصاة فلهم النار والحجيم . ودأب القرآن الكريم يدعو إلى البر بالفقراء والمساكين وصلة الرحم وحسن الجوار والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد والعدل وكل ما هو خير .

وطبى أن يكون لهذه الحياة الدينية الجديدة أثرها البعيد في العرب ، وخاصة في صحابة الرسول من المهاجرين والأنصار فقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ، وانتصبت أمام أبصارهم الجنة والنار ، فهم يراقبون الله في كل ما يأتون من صغيرة وكبيرة ، يخشون عقابه ويرجون ثوابه ، فإنه ( يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ) ( ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٌ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٌ ولا يابس إلا في كتاب مبين ) .

وأفضى ذلك كله بالعربي الذي حسن إسلامه إلى تلقى روجي عظيم ، فقد

أصبح خائفًا ورجلاً من سلطان أعلى يسيطر على الكون والناس ، وهو سلطان حدّ حرّيته ، فلم تعد حرية مطلقة كما كان الشأن في الجاهلية ، بل أصبحت حرية مقيدة بأوامر الدين الجديد ونواحيه . وليس هذا فحسب ، فهي حرية في حدود حرية الآخرين ، فلا نهب ولا سلب ، ولا تفاخر بالأحساب والأنساب ، فكل الناس لآدم من تراب ، يقول جلّ وعز : ( يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) فلا عصبية ولا دعوة قبلية ، أو جنسية ، فالمؤمنون جميعًا من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة ، وجماعة واحدة ، اثلت تحت راية كبيرة هي راية الإسلام ودعوته أو شريعته ، بل دولته ، وهي دولة قد نُقِلَ إليها حقُّ الأخذ بالتأثر من رد والقبيلة ، فهي التي ترعى حقوق الأفراد ومصالحهم ، وهم جميعًا متعاونون على ر ، أذلةً على المؤمنين أعزةً على الكافرين رحماءً فيما بينهم ، يأخذ قلوبهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ، بل يتناصرون ويتآزرون .

وكل هذه مثالية روحية سامية ، ولكن هل استقرت في نفوس العرب جميعًا بصورة واحدة ؟ الحق أن الناس لبسوا سواء في التدين ، منهم من يتعمقه الإيمان ، ومنهم من لا يتعمقه مثل بعض الأعراب الذين وصفهم القرآن بقوله تعالى : ( الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرمًا ويربص بكم اللواثر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ) . وأكبر الدلالة على ذلك حروب الردة فإن بعض هؤلاء الأعراب سارعوا إليها بمجرد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهذا السبب وهو أن الإسلام لم يتغلغل في ضمائر كثير منهم وقلوبهم ، وقد ردّهم أبو بكر إليه بعد حرب مريّة . وربما كان مرجع ذلك إلى أنهم كانوا يبالغون في التمسك بسنة الآباء . وكل ذلك معناه أن العرب لم يكونوا سواء في تقبل الدعوة الإسلامية ، ومن غير شك كان أكثرهم قبولًا لها المهاجرون والأنصار ممن عاشوا بجوار الرسول وتلقوا عنه مباشرة تعاليمه . أما الأعراب فعلى الرغم من أن الرسول وخطفاه أقاموا بينهم من يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وما شرع الإسلام من فروع دينية ، فقد ظل نقرّ منهم بعيدين عن روح الإسلام ، فهي لا تتعمقهم إلا قليلا .

## الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

كان لهذا الانقلاب الديني الذي مس حياة العرب من جميع الوجوه الروحية والاجتماعية والسياسية أثره المحقق في حياة الشعر والشعراء ، فقد وقف شعراء المدينة مع الرسول ينددون عنه بالاستهتة ويناضلون عنه بأشعارهم ، بينما وقف في الصفوف المقابلة شعراء مكة والطائف يردون عليهم ويمسسون لهمهم ضد الرسول ودعوته . ولم تكن مكة تُعرَف في الجاهلية بشعر ولا شعراء ، وكان هذا الانقلاب الروحي الخطير أتاح الفرصة لكي يظهر فيها شعراء ، لولا الحوادث الجليلة ما ظهروا ولا عرفوا مثل ضِرَار بن الخطّاب الفهري وعبد الله بن الزُّبَيْرِي والحارث بن هشام وأضرابهم ممن نجد أسماءهم مثورة في السيرة النبوية لابن هشام ، وهم الذين نزلت فيهم الآيات الكريمة : ( والشعراء يتبعهم الغاويون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات بذكروا الله كثيراً ) .

وواضح أن القرآن الكريم إنما يهاجم الشعراء الوثنيين ، أما الذين اتبعوا هداه وآمنوا برسوله فإنه يستثنيهم ، بل إن الرسول ليدفعهم دفعا إلى نصرته ، إذ يقول لسان بن ثابت : « اهنج قريشا فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في خلّس الظلام ، اهجهم ومك جبريل روح القدس »<sup>(١)</sup> . وعلى نحو ما أظهرت خصومة الرسول شعراء جلداء لم يكونوا معروفين في مكة كذلك أظهرت في المدينة شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الإسلام مثل عبد الله بن رواحة .

وإذا رجعنا نقرأ في شعر المكيين وجدناه لا يختلف في شيء عن الشعر الجاهلي لسبب طبيعي ، وهو أنهم كانوا لا يزالون على دين آبائهم ، يقلسون السنن الجاهلية التي ورثوها في الشعر وغير الشعر ، وحقا نسبت إلى أمية بن أبي الصلت شاعر قبيك وعدو الإسلام ورسوله أشعار كثيرة تفيض بروح اللغائات النجاوية وقصصها الديني ، ولكن لا شك في أنها نُحلت عليه ، إذ نجد فيها نفس المعاني التي

(١) كلسة لابن رثيق (طبعة القاهرة سنة

ساقها القصاص في تفسير الذكر الحكيم . وقد زعم « هيار » أنه اكتشف فيها مصلاً للقرآن الكريم (١) ، ولو صح ذلك لأعلنه أمية نفسه في عصر الرسول وتناقلته الرواة وأصحاب الأخبار ، والصحيح أنه كان عدواً للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن أن يقال إنه نأثر بالقرآن كما لا يمكن أن يقال إن الرسول تأثر به ، إلا ما يزعمه خصوم الإسلام ، وإنهم ليتعلقون كما قلنا بشر منحول ، ووضعت على لسان أمية وضعتاً ، ويظهر أنه وضع قديم ، فقد روى الجاحظ في كتاب الحيوان أطرافاً منه .

على كل حال ليس في شعر المكيين ولا في شعر غيرهم من حادوا الله ورسوله أي تأثر بالقرآن الكريم ودعوته ، لسبب واضح وهو أنهم لم يؤمنوا به ولا بهتد به ، وهناك قصيدة تُنسب إلى الأعشى في مديح الرسول ، وفيها أثاره من الإحساس برسالة كما نرى في قوله (٢) :

نبي يرى مالا نرون وذكره أغار - لعمرى - في البلاد وأنجدنا  
وأكبر الظن أنها موضوعة . وليس معنى ذلك أن الأعشى لم يحاول مديح الرسول الكريم ، ففي أخباره أنه فعلاً فكر في الولاية عليه مادحاً له وأن قريشاً علمت بذلك فردته عن غايته ، إذ ذكرت له أن محمداً يحرم الخمر والزنا والقمار ، فانصرف عن الذهاب إليه ، وتوفى الأعشى عقب ذلك ولم يدخل الإسلام قلبه .

أما شعراء المدينة الذين نافحوا عن الرسول الكريم ودعوته ووقفوا يرمون خصومه المكيين وغيرهم بسهام شعرهم وقذائف أبياتهم فإننا حين نقرأ ما نظموا من شعر نجد كثرتهم - وخاصة عند حسان - تنظم في ضوء الصورة الجاهلية ، وتقصد صورة الهجاء القائمة على بيان الضعة في الأنساب والعجز عن حماية الجار والفرار عن الثأر والفرار من الحرب وغير ذلك من معاني الهجاء التي كان يدور فيها الشعر الجاهلي . وفي الأغاني : « كان يهجو قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار

(٢) ديوان الأعشى طبعة جابر ، القصيدة رقم ١٧ ، وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) ج ٩ ص ١٢٥ .

(١) المجلة الآسيوية ج ١٠ ق ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ وانظر ترجمة أمية في دائرة المعارف الإسلامية .

يجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكفر ، فكان في ذلك الزمان أشدُّ شيء عليهم قول حسان وكعب وأهونُ شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة<sup>(١)</sup> .

وأسابغٌ مختلفة اجتمعت لتظل للهجاء عند حسان وكعب معانيه القديمة ، إذ كانت متمكنة من نفسيهما ، وكانت هي المعاني التي تؤذي تدرس أعداء الإسلام من قريش ، ولو أنهما هجياهم بكفرهم وعنادهم أو توعداهم النار لما كان لذلك وقع عليهم ، فهم لا يؤمنون بنار ولا يبحث ، وهم يفتخرون بكفرهم ويعتزون بأنهم متمسكون بدين آبائهم . فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقاً هجاء ، مما يتصل بالأنساب والأحساب ، وبالوقائع والمزائم التي يُصلبهم الرسول وأصحابه نيرانها . وقد وجه الرسول نفسه حساساً هذه الوجهة إذ قال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم امجهم وجبريل معك<sup>(٢)</sup> » ، وكان الرسول يعرف أن هجاءهم بفضائلهم لا يسجدى ، وهم أنفسهم يتهجون بالمثل الجاهلية الماثورة في الهجاء ، ومهمة شعرائه أن يناقضهم ، ولو أنهم عيروهم بعبادة الأصنام مثلاً لسخروا منهم لأنهم فعلاً يعدونها ويتخلونها زلتمى إلى ربهم ، ويقدمون لها الأدعية والقرابين . وليس معنى ذلك أننا لا نجد عند حسان أى أثر للإسلام ، إنما معناه أن هذا الأثر لم يتسع عنده ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد فيه شعاعات إسلامية مختلفة كقوله في رثاء حمزة عم الرسول حين قُتل في موقعة أحد ، يذكر مصيره ومصير قتلى قريش<sup>(٣)</sup> :

وإن جنان الخلد منزلته بها  
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم  
وأمر الذي يقضى الأمور سريع  
حميم معاً في جوفها وضريع<sup>(٤)</sup>

رقم ١٧٥ .  
(٤) الحميم : الماء الحار ، والضريع : نبات كزبه غييث .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ج ١٥ ص ٢٨ وانظر  
(طبعة دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ١٢٨ .  
(٢) أغاني ج ٤ ص ١٢٨ .  
(٣) ديوان حسان (طبعة أوروبا) القصيدة

وقوله - إن صح أنه له - (١) :

ونعلم أن الله لا ربَّ غيرُه وأن كتابَ الله أصبح هادياً

وقوله (٢) :

فأنزل ربِّي للنبيِّ جنسودَهُ وأبده بالنَّصرِ في كلِّ مشهدٍ

وتتسع هذه المعاني الدينية عند عبد الله بن رواحة ، غير أنه لم تكن له شاعرية حسان الذي ذاع اسمه في الجاهلية ، حتى عدَّ من شعرائها البارزين .

على كل حال لم يحدث في هذه الفترة انقلاب في هجاء المسلمين للمشركين بتأثير الإسلام ومثاليته إلا في حدود ضعيفة . ويتضح ذلك بالمقارنة بين هجائهم ومثالية القرآن الكريم في الهجاء ، فهو لا يقذف في الأعراس ولا يتوعَّد بغارة تُسبِّبُ فيها الأطفال والنساء وتسيل الدماء ، وإنما يتوعَّد بعذاب النار . وقد يعرض المنافقين فيصور نفاقهم وكذبهم على المسلمين وتثيبتهم عن حرب الكافرين في غير مساس بأعراضهم ولا عمد إلى شتم وسباب ، ويتلطف معهم فيدعوهم إلى التوبة والأسوة بالرسول والمؤمنين الصادقين ، وهو مهما قسا عليهم فلن يزيد على وصفهم بأنهم لا يفقهون ( وإذا رأيتمهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسنَّةٌ ، يحسبون كلَّ صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله ) . وهكذا الوعيد والهجاء في القرآن ليس سباً ولا شتماً ولا قذفاً في الأعراس . ولم يتحول هجاء حسان وشعراء الرسول إلى هذه الصورة القرآنية الجديدة بل ظل غالباً في حدود الصورة الجاهلية القديمة ، إلاَّ حيوطاً إسلامية متناثرة ، ولكنها لم تؤثر في النسيج العام تأثيراً واسعاً .

وهذا نفسه نلاحظه في المديح ، فقد كان حسان وغير حسان يمدحون الرسول الكريم بالشجاعة والسعة في الكرم والبطش بالأعداء والوفاء بالعهود ، وكأنهم يمدحون ملوكهم وساداتهم القلماء . وقد اشتهر كعب بن زهير بقصيدة نظمها في مديح

(١) ديوان حسان ، القصيدة رقم ١٩ . (٢) ديوان حسان ، القصيدة رقم ٤٥ .



الرسول ، وهي القصيدة التي يستهلها بقوله (١) :

بانتَ سعادُ قلبي اليومَ مقبولٌ متيسمٌ إثرها لم يُلهدَ مكشُوبُ

ويستطرد في الغزل ، ويخرج منه إلى وصف الناقة على الطريقة الجاهلية ، حتى إذا استوفى ذلك أخذ يعتذر إلى رسول الله من سقطة له في هجاء أخيه بسجيتر حين أسلم من قبله ، وقد جاء يتنصّل من عثرته ويعلن إسلامه ويمدح الرسول ودعوته ، ومع ذلك فلولا ما جاء في القصيدة من قوله :

أثبتُ أن رسولَ الله أوعىني والعفوُ عند رسول الله مأمولُ  
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً إلا قرآنَ فيها مواعظٌ وتفصيلُ  
إن الرسولَ لنورٌ يستضاء به مهتدٌ من سيوف الله مسلولُ

لما عرفنا أنها في مديح الرسول ، ولتبادر إلينا أنها في مديح سيد من سادة القبائل فهو يمدح الرسول بالشجاعة والظفر بأعدائه كما يمدح المهاجرين من قريش بالقوة ، وشدة المراس وإباء الضيم ، وأنهم يلبسون الدروع السابعة في القتال ، ولا يفرحون بنصر ولا يجزعون من هزيمة ، بل يترامون على حياض الموت ترامياً . وتبلغ به العصبية القديمة في المديح أن يعرض بالأنصار في غير موضع من قصيدته ، وكأنه يمدح محمداً القرشي وقبيلته من قريش ، لا محمداً الرسول الذي هدم العصبية القبلية ، والذي آثر بعد فتح مكة المقام مع الأنصار على قومه .

وقد حسن إسلام كعب وأخذ يصدر في أشعاره عن هدى الإسلام ، على نحو ما يتضح ذلك في ديوانه (٢) ، وهي ظاهرة تعم في أشعار كثيرين من مثل قول الحصين المرسي (٣) :

أعوذ بربي من المخزيا ت يوم ترى النفسُ أعمالها  
وخفّ الموازينُ بالكافرين وزلزلت الأرضُ زلزالها

(٢) انظر ديوان كعب ص ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥/١٤ .

(١) انظر ديوان كعب (طبع دار الكتب)

ص ٦ وما بعدها ، وبانت : فارقت ، ومكشوب :

سقيم ، ومكبول : مقيد .

وقول النَّمِيرِ بْنِ تَوَلِّبٍ<sup>(١)</sup>:

أَعِذْنِي رَبُّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ      ومن نَفْسٍ أَعَابَهَا عَاجِزًا

وعلى هذا النحو لا تزال تلقانا اشعاعات إسلامية مختلفة عند من بايعوا الرسول بالإسلام ؛ ومن المؤكد أن هذه الإشعاعات كانت تسيل على السنة أهل المدينة بأكثر مما كانت تسيل على السنة النجديين .

### ٣

#### الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

وقف الهجاء بين المدينة ومكة وبينها وبين العرب ، فقد دخلوا جميعا في دين الله ، وحقاً حدثت حروب الردة في عصر أبي بكر ، ولكن سرعان ما انطفأت نيرانها ، واتجه العرب إلى الفتوح ، ففضوا على الدولة الفارسية واستولوا على أهم إقليمين يتبعان الدولة البيزنطية وهما مصر والشام .

وفي هذه الأثناء لم تعد ترتفع أصوات المكيين بالشعر ، فقد انتهت الحروب التي كانت تثيره ، وكذلك الشأن في المدينة ، إلا بعض قصائد وأشعار تنظم في مناسبات كبيرة كأن يُستَوْفَى خليفة فيريثه حسان أو غير حسان بصورة من التأبين يمازجها شيء من مثالية الإسلام وما يدعو إليه من تقوى الله والعدل في الناس .

وإذا تركنا المدينتين الكبيرتين في الحجاز إلى نجد وفيها فيها التقينا بشعراء الأعراب وكان منهم نفر لم يتعمقهم الإيمان ولم يمس قلوبهم إلا قليلا ، وخير من يمثلهم الخطيئة تلميذ زهير في صقل الشعر وتنقيحه ، فإنك لا تكاد تجد عنده اختلافا في شعره بين ما نظمه منه في الجاهلية والإسلام ، وكان أحد من

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٩٢/١٩ .

سارعوا إلى الردة ، وهجا أبا بكر بيبتين مشهورين<sup>(١)</sup> ، ثم دخل فيها دخل فيه العرب ثانية ، دخل في الإسلام وحسن إسلامه ، ولكنه كان كثير الشر ، فأكثر من هجاء الأشراف ، حتى اضطر عمر إلى حبسه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أخذ عليه المواثيق أن يكف أذاه عن الناس .

وبجانب الخطيئة شعراء كثيرين حسن إسلامهم وسقطت إلى أشعارهم خيوط كثيرة من مثالية الإسلام وروحانيته ، ومن أشهرهم الشَّمَاخ وله ديوان مطبوع مثل الخطيئة ، وهو فيه كثير الهجاء والوصف للقوس والحُمُر ، وأجمل ما أثر عنه أبيات نظمها في رثاء عمر بن الخطاب ، حين امتدت إليه يد أبي لؤلؤة الجوسى الآثمة في الظلام ، وطعنته طعنة مسمومة ، لقي بهاربه ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ      يَدُ اللهِ فِي ذَلِكَ الْأَدِيمِ الْمَرْقِ  
فَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نِعَامَةً      لِيُدْرِكَ مَا حَاوَلَتْ بِالْأَمْسِ بُسْبُجِي  
فَقَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا      بِوَأْتِقِ<sup>(٣)</sup> فِي أَكْثَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ

وهو يدعو لعمر أن يجزيه الله خيرًا عما قدمت يداه لرعيته وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبي لؤلؤة ، وانتقل يتحدث عن سيرته في المسلمين وتفقدته اليقظ لشئونهم ، وأنه أحكم أمورهم ، وقد خلف موته دواهي لا تزال في أكثامها لم تفتق . وواضح أنه يصور الكارثة فيه تصويراً قوياً .

وقد أخذت روحانية الإسلام تتعمق في نفوس أهل نجد ، ولعل خير من يصور ذلك ليبد والناطقة الجعدي ، فأشعارها تفيض بمواعظ كثيرة ، وقد قصر ليبد نفسه على تلك المواعظ يتغنى بها مخوفاً من كارثة الموت ويوم الحساب وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح بمثل بيته المشهور :

أَلَا كَلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهُ بِاطِلُ      وَكَلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ  
وتجري أضواء الإسلام في أشعار النابغة ، وقد روى ابن قتيبة في ترجمته له بكتابه الشعر والشعراء موعظة بارعة يتحدث فيها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والبعث والقرون البائدة والأمم الخالية ، وهو حديث يستعمله مباشرة

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ج ٢ (٢) أغاني ج ٩ ص ١٥٩ .

(٣) بوائق : فنن وشورر .

من آى الذكر الحكيم . ولم يلبث العرب أن خرجوا من جزيرتهم يجاهدون في سبيل الله ودينه الحنيف ، وقد نظموا حينئذ كثيراً من الأشعار الحماسية .

واقراً في الطبرى وفي فتوح البلدان للبلاذرى فستجد الشعر على كل لسان ، وستجد الروح الدينية تنفذ فيه نفوذاً قوياً ، فالشاعر يتغنى بشجاعته وبما قتل من أعدائه ، ويلم بفكرة الجهاد الدينى في الحين بعد الحين على نحو ما نرى في هذه المقطوعة التى جرت على لسان قيس بن المكشوح المرادى عقب قتله لرسم قائد الجيوش الفارسية في موقعة القادسية إذ يقول (١) :

جكبتُ الخيلَ من صنعاء تردي (٢) بكل مدجج كاللث مام  
إلى وادى القرى فديار كلب إلى اليرموك فالبلد الشام  
وجئن القادسية بعد شهر مسومة دوابرها دواى (٣)  
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرابطة (٤) الكرام  
فلما أن رأيتُ الخيل جالتُ قصدتُ لموقف الملك الهمام  
فأضربُ رأسه فهوى صريعاً بسيف لا أفل ولا كهام (٥)  
وقد أبلى الإلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

واللمسة الدينية واضحة في نهاية المقطوعة . وعلى هذا النحو شعر الفتوح كله ، لا تزال تلقانا فيه هذه اللمسات التى يتصايح بها الشعراء معبرين عن حُسن بلائهم في سبيل إعلاء الدين الحنيف ، ويقال إنه كان لأوس بن مغراء قصيدة عد د فيها بلاء العرب في الفتوح ، وفيها يقول :

محمدٌ خيرٌ من يمشى على قدمٍ وكان صافيةً لله خلصاناً

وقد شاعت الإشاعات الإسلامية في أشعار كثيرين من الفاتحين وغير الفاتحين ، فمن ذلك أننا نقرأ لسويد بن أبي كاهل اليشكرى وصفاً طويلاً للمنافق في قصيدته رقم ٤٠ في المفضليات وقد امتد هذا الوصف من البيت ٦٧ إلى ٩١ وهو

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة ليدن)

ص ٢٦١ .

(٢) تردى الخيل : ترمم الأرض بموافرها .

(٣) مسومة : مملنة ، والدوابير : المراقيب ،

دواى : ملطخة بالدم .

(٤) المرابطة : رؤساء الفرس .

(٥) أفل : مثلم ، وكهام : كليل لا

غناه فيه .

فيه يتأثر بصورة المناق في القرآن الكريم تأثيراً واضحاً كما يتأثر بما جاء فيه عن الغيبة والمغتائبين . ونجد عبدة بن الطبيب يوصي أبناءه بتقوى الله وبر الولد والحذر من التسمم الذي يبث الضغائن حتى بين الإخوة ، يقول (١) :

أوصيكمُ بتقَى الإله فإنه يُعطي الرغائبَ من يشاء ويمنعُ  
ويبرِّ والدكم وطاعة أمره إن الأبرَّ من البنين الأطوعُ  
واعصوا الذي يُزجي التأممَ بينكم متنصِّحاً ، ذاك السامُ المنفَعُ

وعبدة هذا كان ممن شهدوا حروب العرب مع الفرس وأبلى في موقعة القادسية بلاء حسناً وله قصيدة يصف فيها موقعة المدائن (٢) ذكر فيها جهاده وجهاد قومه للفرس ، بمثل قوله :

يقارعون رموسَ العُجمِ ضاحيةً منهم فوارسُ لا عزُلُ ولا ميلُ (٣)

وزاه يحدثنا عن هجرته مع قومه للجهاد وأنهم يبتغون بذلك ثواب الله ، يقول :

نرجو فواضلَ ربِّ سببهُ حسنٌ وكلُّ خيرٍ لديه فهو مقبولُ

وقد ختم القصيدة بوصف طويل لمجلس شراب ، ويظهر أنه كان للقصيدة أصل جاهلي أضاف إليه عبدة بعد إسلامه وجهاده حديثه عن موقعة المدائن . وهي ظاهرة لانتلاخظ في هذه القصيدة وحدها ، بل تلاحظ أيضاً في شعر نفر من المخضرمين ، إذ نجدهم يسوقون في بعض قصائدهم الإسلامية الحمر التي حرمها الإسلام . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور أثر الإسلام في شعر المخضرمين وأنه لم يكن أثراً ضئيلاً ، كما زعم بعض الباحثين من المستشرقين وغير المستشرقين . ومن الحق أن في هذا الزعم مخالفة صريحة لطبيعة الأشياء فما كان العرب ليؤمنوا ويطلبوا الاستشهاد في سبيل دينهم الخفيف ، ابتغاء رضوان الله ، ويظل الإسلام بعيداً عن نفوسهم وأشعارهم ، وما الشعر إلا مرآة لناظمية وتعبير عن خوالجهم وكل ما يعتقدونه ويؤمنون به . ويرجع هذا الزعم في رأينا أن أصحابه لم يطلعوا اطلاعاً كافياً على نصوص الشعر في هذا العصر ، وهي تفيض كما رأينا بأضواء الإسلام التي كان المخضرمون يصلدون عنها صلور الضوء عن الشمس الساطعة .

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ١٤٦ .

(٢) عزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه ،

والميل : جمع أميل وهو من لا ترس معه ، والجبان .

(٣) المفضليات ص ١٣٤ .

## الفصل الأول

### بيئات الشعر الأموي

١

#### الحجاز

يمتد الحجاز في غربى الجزيرة العربية محاذياً للبحر الأحمر من أبلّة ( العقبة ) شمالاً إلى اليمن جنوباً . وكلمة الحجاز ، ومعناها الحجاز ، تدل على حقيقة هذا الإقليم ، فهو سلاسل من جبال تسمى جبال السّراة تحجز بين نجد شرقاً وتِهامة غربياً ، وتتخلل هذه السلاسل وديان ذات زرعٍ وأخرى غير ذات زرع . وفى وادٍ من الوديان الأخيرة تقوم مكة حول بئر زمزم بينما تقوم الطائف على بعد سبعين ميلاً جنوبيها في بقعة خصبة تشتهر بالبساتين النضرة ، وتقوم في الشمال يشرب في هذه الواحة الحميلة التى شققتها الطبيعة بين حرّات مختلفة .

وكان الحجاز في العصر الجاهلى طريق القوافل المُصعِدة شمالاً إلى البحر المتوسط ، إلى الشام ومصر ، والمنحدر جنوباً إلى حوض المحيط الهندى ، إلى اليمن والحبشة<sup>(١)</sup> . وقد استقرت مفاتيح هذه القوافل وما تحمل من عرُوض التجارة في أبلدى أهل مكة فكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً ، وشرقاً أيضاً حيث كانت تحمل سِلَع الفرس ، وما ينزل على الخليج الفارسى من سِلَع الهند .

ونشطت مكة في هذه التجارة أواخر العصر الجاهلى نشاطاً هائلاً ، حتى ليظن بعض الباحثين أنها كانت جمهورية تجارية ممتازة<sup>(٢)</sup> ، فقد كانت حينئذ أهم حلقة للاتصال بين حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى . وساعد على ذلك

(Beyrouth, 1924) p.175.

وانظر في شؤون مكة المالية ، الفصول : الثامن والتاسع والعاشر .

(١) انظر هنا : O'Leary, Arabia Before :

Muhammad (London, 1927) p. 179.

(٢) انظر : Lammens, La Mecque :

أن طريق المَوْصِل إلى الشام كان مُقَفَّلًا بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وأيضًا فإن الملاحة في البحر الأحمر ضغطت بسبب كثرة القرصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ولكفّل ثوابل الهند وعروض اليمن وسيلع الحبشة والعراق سوى هذه القوافل التي أمسكت مكة بزمامها .

وهذا المركز لمكة في الجاهلية جعلها - بحكم قوافلها وتجارها - تتصل بعناصر مسيحية وإغريقية وفارسية مختلفة ، فقد كان بها جالية من الحبشة والروم المسيحيين ، ويظهر أنه كان بها لبيزطة مندوبون<sup>(١)</sup> . وهذا لا شك يؤكد الصلة بينها وبين العالم المسيحي الإغريقي ، عالم البحر المتوسط ، وهو العالم الذي كانت تتجرف فيه . وكان بعض القساوسة يزورون أسواقها ويعطون فيها الناس<sup>(٢)</sup> ، ويذكر العقوبى في تاريخه أن جماعة من أهل مكة تنصروا في الجاهلية ، منهم ورقة بن نوفل<sup>(٣)</sup> .

وفي يَثْرِب وعلى طول الطريق إلى الشام في الشمال كانت هناك مستعمرات يهودية منبثة في خَيْبَرَ ووادي القُرَى وتَيْمَاء ، وهي مستعمرات رحل إليها اليهود منذ اضطهادهم أباطرة الرومان من مثل أدريان الذي طردهم من فلسطين عام ١٣٢ م .

وقد استمر اليهود قبل نزولهم الحجاز أحقابًا متطاولة تحت الحكم اليوناني الروماني وكانوا منتشرين في حوض البحر المتوسط على العموم ، وكان إذ ذاك حوضًا للثقافة ، وطبيعي أيضًا أن يتسرب شيء من ذلك إلى يهود الحجاز ، يحملونه معهم - في أثناء هجرتهم - تارة ، ويحملة إليهم يهود جُدُدٌ راحلون تارة ثانية .

ومعنى ذلك أن الحجاز في العصر الجاهلي كان متصلًا بالحضارة الرومانية الإغريقية وأيضًا فإنه اتصل بالحضارة الفارسية ، إذ كان كثير من أهله يغلبون على الحيرة ويتصلون بالفرس ، ويأخذون عنهم ، ففي السيرة أن النَّضْرَ بن الحارث وقَدِمَ الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسْتَم وإسْفِينْدِيَار ،

وانظر السيرة الحلبية (طبعة القاهرة سنة

١٣٠٨ هـ) ٧٥/١ .

(٢) البيان والتبيين (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ٣٠٨/١ .

(٣) العقوبى (طبعة هونغا) ٢٩٨/١ .

(١) انظر أوليري ص ١٨٤ ولاس ص ٢٥٧

وارجع إلى أسد الغابة (طبعة الوهيبة)

٣٢/٣ ، ٤٢٧/٤ وكذلك ١٩٤/٥ ،

٤٦٢/٥ ٤٨١/٥ حيث تجد أبياء رومية

لرجال ونساء كانوا في مكة قبل الإسلام .

فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكر بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم إليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإستينديار<sup>(١)</sup> . وفي الأغاني أن ابن جندب عان كان سيّداً من قريش فوفد على كسرى ، فأكل عنده الفالوذ ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا الفالوذ ، قال وما الفالوذ ؟ قالوا لئساب البرّ يلبسك مع عسل النحل ، قال ابغوني غلاماً يصنعه ، فأتوه بغلام يصنعه ، فابتاعه ، ثم قدم به مكة معه<sup>(٢)</sup> . واسم سلمان الفارسي الذي أسلم حين هاجر رسول الله إلى المدينة ذائع مشهور .

فالحجاز لم يكن مختلفاً في العصر الجاهلي أمام الحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية ، بل كان على اتصال بهما ، حتى إذا أفاء الله عليه نعمة الإسلام وأخذت ألويته تخفّت في ربوع فارس والشام ومصر اندمج اندماجاً تاماً في الحضارتين ، إذ صبّت فيه كنوز الأرض ، وانصبّت معها ألوان الحضارتين الكبيرتين .

وهنا يحدث تطور واسع في حياة الحجاز ، فقد أصبح لا يقل في شيء عن العالمين المتحضرين من حوله ، إذ أصبح أبناؤه — وخاصة من قريش — سادة العالم ، وقد احتكوا احتكاكاً شديداً بأبناء الأمم الأجنبية الذين استرقوهم ، وأحضروهم معهم إلى مكة والمدينة ، لينهضوا بهما في جميع جوانب الحياة .

ويذهل الإنسان حين يقرأ ما صار إليه الصحابة من ثراء عريض ، وخاصة كبارهم ، فقد روى الرواة أن الزبير بن العوام توفّي عن خمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، وقيل بل عن اثنين وخمسين ألف ألف<sup>(٣)</sup> ، وتوفّي طلحة بن عبيد الله عن ثلاثين ألف ألف درهم<sup>(٤)</sup> ، ويقال إن دخلته يوماً من بعض ضياعه في العراق بلغ ألف دينار . وقد عقد المسعودي في كتابه (مروج الذهب) فصلاً طريفاً عن هذه الثروات الكبيرة ، فقال : إن يعلى بن مثنى مات عن خمسمائة ألف

١ ص ٧٧ .

(٤) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ١٥٨ .

(١) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١/٣٢١ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/٣٢٩ .

(٣) طبقات ابن سعد (طبع ليدن) ج ٣



دينار ، ومات زيد بن ثابت عن مائة ألف دينار ، وبلغ الربيع في تركة عبد الرحمن ابن عوف أربعة ومائتين ألف دينار ، أما عثمان بن عفان فخلّف خمسين ومائة ألف دينار وألف درهم وعظارات قيمتها مائة ألف دينار . وعلّق المسعودي بعد ذكره لهذه الثروات الفصحمة بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه <sup>(١)</sup> » .

ولا ريب في أن هذا الثراء الذي سال في حجور الحجازيين وخاصة من أهل مكة والمدينة تبعه تبدلٌ واسع في حياتهم وحياة أبنائهم فقد اتخذوا القصور وبنّوها بالآجر والجصّ والسّاج ، وجعلوا في أعلاها الشرفات ، وكانت قصور عثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة والمقداد وعبد الرحمن بن عوف تسترعى الأنظار <sup>(٢)</sup> . وأصاب مكة ما أصاب المدينة ، فقد بنى فيها معاوية دوراً يقال لها الرقطة لاختلاف ألوانها ، وأحضر لها البسّانيين من الفرس <sup>(٣)</sup> ، وتبعه سراة مكة يشيدون قصوراً باذخة في عهده وبعد عهده . روى الأزرق أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب عبد الله بن الزبير : « هيهات هيهات تركت والله سنة عمر ، قضى عمر أن أسفل الوادي وأعلاه منسّاج للحجاج وأجساداً وقعبينعمان للمريجين والداهيين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً <sup>(٤)</sup> » .

وعلى هذا النحو أصبحت المدينتان الكبيرتان في الحجاز لا تَمْلآن في شيء عن مدن البحر المتوسط وقد أخلقتا تغرقان في الحضارات الأجنبية إلى آذانها ، ولم يحلّ تحول الخلافة إلى دمشق في العصر الأموي بينهما وبين شيء من ذلك ، بل لعله أعطاهما الفرصة لكي تنهلا من الحضارات الأجنبية كما تريدان ، أو كما يريد أهلها . وفرق بعيد بين الصحابة وأبنائهم في التحضر ، فإن أولئك عاشوا في البجاهلية ، وفي شطّاف العيش ، أما أبنائهم فإنهم عاشوا في عصر جديد ، هو عصر الفتوح والثراء ، وكان الأمويون يكثرون من نشر الأموال عليهم ، حتى يصرفوهم عن الخلافة <sup>(٥)</sup> .

(١) أخبار مكة للأزرق (طبع لبيك)

(١) مروج الذهب (طبع باريس) ٢٥٥/٤ .

ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢٥٤/٤ .

(٥) انظر الفخرى (طبعة دنيبرغ) ص ١٤٥ =

(٣) أفان (طبع دار الكتب) ٢٨١/٣ .

وليس كل ما يلاحظ في حياة الحجازيين في أثناء العصر الأموي القصور والأموال فحسب، بل يلاحظ أيضاً الترف، فقد طعموا وشربوا في أوالي الذهب والفضة<sup>(١)</sup> ولبسوا الخنز<sup>٢</sup> والديباج والإستبرق والحلّل المشاة<sup>(٢)</sup>، وغالوا في ذلك، فكان العرجي الشاعر يلبس الخلتين بخمسمائة دينار<sup>(٣)</sup> أو نحو ثلاثمائة جنيه، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء علقى بألني درهم<sup>(٤)</sup>. أما النساء فكان يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة<sup>(٥)</sup>، وكن يبالغن في التحلى باللؤلؤ والياقوت والخواهر الكريمة<sup>(٦)</sup>.

وسرّ بنا في أول هذا الكلام أن الحجاز كان على صلة بالحضارتين الفارسية والرومانية الإغريقية في الجاهلية، أما في هذا العصر فقد اندمج اندماجاً تاماً في هاتين الحضارتين بواسطة الرقيق الأجنبي الكثير الذي حتّل به منذ الفتح. ويكفي أن نعرف أن معاوية أرسل إلى عمر أربعة آلاف من سبئي قيسارية<sup>(٧)</sup> وحدها ولا بد أن سببياً كثيراً جداً دخل من المدن الرومية الأخرى التي فُتحت ثم المدن الفارسية. ولعل مما يوضح كثرة هذا الرقيق الأجنبي في الحجاز ما يروى من أن الزبير بن العوام ترك ألف عبد وأمة<sup>(٨)</sup>، وأيضاً فإنه يروى أن من قتلوا في موقعة الحرّة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية من الموالى بلغوا خمسة آلاف، بينما قُتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف<sup>(٩)</sup>. فإذا قلنا بعد ذلك إن الحجاز اقتحمت في هذا العصر الأموي الحضارتان الفارسية والرومانية الإغريقية لم نكن مجاوزين للواقع في شيء.

ومعنى ذلك أن الحجاز إن كان قد فتح الدولتين الكبيرتين: فارس وبيزنطة،

وديان ابن أبي ربيعة (طبع ليمسك) ص ٣،  
٤٥٠٢١، وابن سعد ٣٥٢/٨.

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧٣/٨  
و (طبع الساسي) ١٦١/١٤ وابن سعد ٣٤٣/٨  
وديان ابن أبي ربيعة ص ٢٥.

(٧) فتوح البلدان لبلاذري (طبع دي غويه)  
ص ١٤٢.

(٨) المسعودي ٢٥٤/٤.

(٩) انظر كلمة حرّة في معجم البلدان لياقوت.

والعقد الفريد (طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ)  
١٤٥/١ والطبرى (طبعة دي غويه) ٤/٢  
وكذلك ٤٢٢/٢، ٤٠٢/٢.

(١) ابن عبد ربه ١١١/١.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٢١/١،  
٢٧٨/١، وكذلك ٣١٠/١، ٦٥/٥،  
١٣/٦ و (طبعة الساسي) ٢٠٤/١٨.

(٣) أغاني ٣٩٥/١.

(٤) أغاني (طبعة الساسي) ٨٩/١٧.

(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٠٤/١.

فإن حضارتيهما فتحتاه عن طريق هذه العناصر الكثيرة التي انتقلت إليه ، وقامت على نخلة أبنائه وإعداد الحياة لهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، واستعملوهم في مهتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المشورة في أمثال ذلك والقسومة عليه ، فألادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترقى في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخزائى<sup>(١)</sup> ، فأتوا من ذلك وراء الغاية<sup>(٢)</sup> . »

وأظن في هذا ما يوضح كيف تطورت الحياة في الحجاز تحت تأثير العناصر الجديدة من الموالي ، فقد تطورت هناك الحياة المادية تطوراً كبيراً ، وسعت الأيدي الأجنبية عليها ، وقلقتها إلى ما يشبه الحياة المألوفة لما في مدن بى ساسان ومدن البحر المتوسط .

وسرعان ما وجدت في مكة والمدينة هذه الطبقة العاطلة التي توجد في الأمة حين تنحصر ، فقد فرغ كثير من الشباب ، وأنتهم الدنيا مجذافيرها ، فإذا يصنعون بأوقاتهم ؟ وكيف يُسْئَلُونها ؟ . إن طائفة منهم عنيت بالدرس الدينى في المساجد ، ولكن بقيت طوائف تريد اللهو والمتعة بالحياة . وهنا نجد هذا الرقيق الأجنبى ينهض بغيره كان معروفاً في الجاهلية ولكنه كان لا يزال قريباً من طور السذاجة ، وهو فن الغناء ، فنراه يُقبل على هذا الفن كى يُرفقه عن الشباب فنراه يفتح له النوادى في المدينة وبكافة جميعاً ، بحيث تصبح نواديه أشبه ما تكون بدور الحياطة والمسارح في عصرنا . واشتهر في المدينة نادى جميلة ، أو كما كانوا يقولون دارها التي خرجت مئات المغنين والمغنيات .

يكل من يقرأ الأغاني لأبى الهرج الأصهبانى يجده راخراً بأسماء المغنيات والمغنين من الموالي الذين عاشوا في مكة والمدينة من مثل ابن سُرْبِج ، وابن مِسْجَح ، وابن مُحَرَّر ، ومثل طُويس ، وسائب خاثر ، ونشيط ، ومحبَّد ،

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤

(١) الفرى : أمثال البيت .

وسلامة القسّ ، وحبابة ، وغير هؤلاء كثير . وتحت أيديهم وأيدي زملائهم وزميلاتهم ظهرت نظرية الغناء الجديلة المعروفة في كتاب الأغاني إذ يذكر أبو الفرج الصوت ، أو كما نقول الآن الدور ، ثم يذكر وراعه الرقيم الموسيقي الخاص به ، من مثل ثقيل أول ، وخفيف الثقيل ، وخفيف الرّمْل ونحو ذلك .

وإذن فالحجاز هو الذي استحدث نظرية الغناء الجديلة عند العرب ، استحدثها موالى مكة والمدينة ، ولم يستحدثها أهل دمشق البيزنطية ، ولا أهل البصرة والكوفة القريبتين من فارس . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن البلدين القديمتين في الحجاز لم تقصراً هذا العصر في التحضر والحضارة . وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس هناك فرغوا للهو والغناء وسماع المغنين والمغنيات ، فقد صمّت لهم الدنيا إلا فترة قليلة نحو ثمانى سنوات ، هي سنوات ابن الزبير ، أما بعد ذلك وقبل ذلك فكانت الريح ساكنة ، وكان العيش هادئاً رصيناً . وقد أقبلوا يحبون من الترف والنعيم ، كما أقبلوا على الغناء يسمعون ويظربون .

وأكبر الظن أن هذه البيئة من بيئات الشعر في عصر بني أمية قد اتضحت لذا ، فهي من ناحية بيئة تحضرت ، وأثرت ذوقها ، وأصبح أهلها يمثلون رقة في الشعور ورقة في الحس لم تكن لأبائهم ، لسبب طبيعي ، هو أنهم أبناء حضارة جديدة وعصر جديد ، فيه ترف ونعيم ، وفيه هذه التأثيرات الحضارية التي تُرهِف الحس ، وترقق الشعور ، بل تجعل بعض الناس حساً وشعوراً خالصين .

وطبيعي أن ينفصل شعر هذه البيئة المتحضرة عن الشعر الجاهلي القديم ، فكل من يتابع درس شعر الحجازيين لهذا العصر يلاحظ أن الهجاء يقل فيه قلة شديدة ، كما يلاحظ أن المديح لم يعد اللون الصارخ في الشعر ، فإن أكثر الحجازيين لم يكونوا في حاجة إلى التكسب بشعرهم ، إنما اللون الذي يستفدهم هو الغزل ، وهو لون يتلامم مع رقة الحس ورقة الشعور ، وأيضاً فإنه يتلامم مع فن الغناء الجليد .

ومن هنا كان أكثر الشعراء في الحجاز لهذا العصر شعراء حُبّ وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبي ربيعة والعمرجي وابن قيس الرقيات في مكة

والأحواس في المدينة ، فقد ذهب شعرهم جميعاً في التفتي بقصة الحب وأحداثه ووقائعه ، وعبروا في ذلك عن رقة حس شلييلة ، وكاد شعرهم يتحول في كثير من جوانبه إلى أنفاس خالصة .

ومعنى ذلك أن الشعر طُبع في أثناء العصر الأموي في الحجاز بطواع حضارية أثرت في الحس والشعور ، كما أثرت في عمل الشعر نفسه عن طريق فن الغناء ونظريته الجديدة . ولعل من أهم ما يلاحظ بصدد هذا الفن أنه أحال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملاً مشتركاً بين الشعراء وبين المغنيات والمغنين ، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثم يعرضه على حسن حوله من المغنين والمغنيات ليغنوا به ، فكانوا يحورون فيه حتى يتلاءم مع أحاسيسهم والباعث .

وإذن فالشعر لم يعد في الحجاز عملاً مستقلاً يقوم به الشاعر ، بل أصبح عملاً يعتمد على عمل آخر ، أو قل أصبح فنناً يعتمد اعتماداً على فن الغناء والحانته وأنغامه ، وهو فن كان ينهض به الموالى من المغنين والمغنيات .

وهؤلاء الموالى لم يؤثروا في الشعر فقط عن طريق نظرية الغناء التي استحدثوها ، بل أخذوا يؤثرون فيه مباشرة ، فإن كثيراً منهم أخذ يتقن صناعته ، بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول للهجرة وأوائل الثاني حتى نجد بين الموالى من بشهرون بنظم الشعر من مثل أبي العباس الأعمى في مكة<sup>(١)</sup> وإسماعيل بن يسار النسائي وإخوته في المدينة<sup>(٢)</sup> . وأخذ يظهر بين المغنين الأجانب أنفسهم من بحس نظم الشعر مثل أبي سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً<sup>(٣)</sup> ، ومثل سلامة القس وكانت تحسن الشعر والغناء جميعاً<sup>(٤)</sup> .

فالحجاز في هذا العصر الأموي كان مسرحاً لشعر غنائى تام يقوم على وصف قصة الحب من جهة كما يقوم على الصلة الدقيقة بالغناء والحانته من جهة أخرى ، فهو شعر قبيل ليغنى ، وليصحب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية مما سنعرض له في غير هذا الموضع .

(٣) أغاني ٤/٢٣٠ .

(٤) أغاني ٨/٢٣٣ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٥/٥٧ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٤٠٨ .

وما يبعثها .

## نجد

هي الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ، وهي تمتد من الحجاز غرباً إلى الخليج العربي ووادي الفُرات شرقاً ، وليس فيها أنهار جارية ، إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار ، وتنمو حولها بعض الأعشاب والمراعى . ويمكننا أن نميز في هذه الرقعة الكبيرة صحراء النفود التي تقع في شمالها ، وتشتهر بكثبانها الرملية ، وقلة آبارها ، ولولا رطوبة الجو بها التي تسمح بنمو النباتات الصحراوية ذات الجذور الطويلة من مثل الأثل والأرطى وكذلك نمو بعض الأعشاب لتمذرت الحياة فيها . وفي جنوبي هذه الصحراء الشمالية نجد جبال طيبي : أجباً وستسى ، وهما يمتدان في شكل هلال كبير ، والجو بهما صحى ، والطقس منعش ، وتسقط بعض الأمطار التي تؤهل للمراعى .

وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقاً حتى نصل بواسطة برزخ ضيق إلى صحراء الدهناء الشرقية ، تلك الصحراء التي تسقط سقوطاً شديداً نحو الخليج العربي ، وتمتاز بكثرة وديانها وينايبها . وإذا انتهينا إلى جنوب هذه الدهناء وسرنا غرباً ، أصبحنا في دهناء كبيرة تسمى الربع الخالى ، وهي تُعدُّ مجهولة حتى اليوم . والبقية الباقية من نجد في شمالي الربع الخالى وشرق الحجاز تكثر فيها المرتفعات ، كما تكثر الوديان ، إلا أن طقسها أكثر احتمالاً .

وهذه الصحراء هي موطن البدو أو القبائل الرُّحَّل من العرب الذين يرعون الأغنام والأنعام ، وينتقلون حول المراعى معتمدين على ما تهبه السماء لهم من مطر ، ولعلمهم من أجل ذلك سموه غَيْثاً . وإذا احتبس هذا الغيث جفَّت الحياة وهلكت القطعان والرُّعاء ، ولذلك كثرت رحلة البدو في الصحراء يطلبون مساقط الغيث ، ويتجمعون الكلاً والماء .

وإذا ضاقت بهم صحراؤهم رحلوا إلى المناطق المتحضرة من حولهم بغزون

أو ينهبون ، وأحياناً نراهم يقيمون جنباً إلى جنب مع أصحاب هذه المناطق ، ويحاولون أن يتعلموا الزراعة منهم كما حدث لقبائل ربيعة في العراق قبل الإسلام ، وكان ذلك سبباً مهماً في اقتباسها بعض العادات والأفكار من سكان أحواض دجلة والفرات .

ولكن الكثرة الغالبة بقيت في الصحراء نهاحر داخلياً من كلاً إلى كلاً ومن مرعى إلى مرعى ، وقتلت في سبيل ذلك مع جيرانها ومن تصادفهم في طريقها ، وقد طبع ذلك الحياة الجاهلية في نجد بطابع الغزو والإغارة ، فكثرت أيام العرب ، وكثرت حروبهم .

ومعنى ذلك أن حياة البدو في نجد لم تعرف الاستقرار ، فقد كانت من جهة حربياً مستمرة ، وكانت من جهة ثانية رحللاً مستمراً . وهذا الرحيل المستمر الدائر لم يؤهل هؤلاء البدو لحضارة ، بل جعلهم في شبه عزلة ، فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون في سبيل حضارة متدرجة . ومن هنا تخلقت قبائل نجد عن التقدم في حضارة الحضارة إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطاً عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام .

ويقسم النسابون قبائل العرب قسمين كبيرين يشعبان من قحطان وعدنان ، ويسميان القبائل القحطانية والعدنانية<sup>(١)</sup> ، وهو تقسيم يُردُّ إلى حقيقة تاريخية ، فالقبائل القحطانية أو اليمنية قبائل جنوبية هاجرت إلى الشمال في أزمان متفرقة ، وخاصة بعد أن ضعفت الدولة الحميرية ، أي منذ القرنين الرابع والخامس للميلاد ، أما القبائل العدنانية فهي القبائل التي كانت تسكن في الشمال دائماً .

والمعروف أنه كانت هناك لغة جنوبية تفرق عن لغة عرب الشمال ، وهي اللغة الحميرية ، وهي أقرب إلى الحبشية منها إلى العربية الشمالية . وكان عرب الجنوب أكثر تحضراً من عرب الشمال ، وهم في واقع الأمر متحضرون تيمناً ، غير أن من يرجع إلى أسفار هذه القبائل حين ظهور الإسلام يلاحظ أنهم طبعوا بطوابع

(١) انظر هنا كتاب أولرى السابق ص ١٥ وما بعدها .

عرب الشمال لا من حيث البداوة فقط ، بل من حيث اللغة أيضاً ، فقد هجروا لغتهم الحميرية أو اليمنية إلى العربية الشمالية ، ولذلك قلما نلاحظ فروقاً بين لغة شعرهم ولغة شعر جيرانهم العدنانيين .

والذي يلفت النظر حقاً هو أن قبائل نجد تكتلت في هذين الفرعين الكبيرين وقامت بينها منافسات كثيرة على أساس هذا التكتل ، وهو ما يُعرَفُ في تاريخ العرب بالعصبيات القحطانية والعدنانية ، أو اليمنية والمضرية . وقد ظلت هذه العصبيات بعد الإسلام في صورة لا تدع للباحث مجالاً للشك في أنها تعبر عن نزعات قديمة توارثتها القبائل العربية .

وأهم القبائل القحطانية لَحْمٌ وقد نزلت في الحيرة ، وَجُهَيْنَةَ وكتَلَبٌ وقد نزلتا في بادية الشام ، وَغَسَّانُ التي نزلت على الحدود السورية ، وعامِلَةٌ وَجُدَامٌ وَقُضَاعَةُ اللاتي نزلن شماليّ الحجاز وعلى حدود فلسطين ، وَعُدْرَةَ التي نزلت بالقرب من تَيْمَاءَ ووادى القُرَى . ثم الأوسُ وَالثَخَزَرَجُ في يثرب ، وَخَزَاعَةُ حول مكة ، وَطَيْبِيَّةٌ في جبليّ أجبأ وسلمى ، وَبَجِيلَةَ في الطائف ، وَأَزْدُ السَّرَاةِ في الحجاز ، وَأَزْدُ عُمَآنَ ، وَكِنْدَةَ في حَضْرَمَوْتِ ، وَهَمْدَانَ وَمَذْحِجَ في اليمن ، وإلى مذحج تنسب قبيلة الحارث بن كعب ، وَتُعرَفُ بَيْلَمَحَارِثُ ، وكانت تنزل ناحية نَجْرَانَ .

وأهم القبائل العدنانية بَنَكْرٌ وَتَغَلَبٌ وكانتا تنزلان في الشمال الشرقي للجزيرة ، وَتَمِيمٌ وكانت تنزل في صحراء الدَّهْنَاءِ ، وعبد القَيْسِ وكانت تنزل في البحرين ، وَكِنَانَةَ وَهَنْذِيلَ بالقرب من مكة ، وَأَسَدٌ في شمالي نجد . ثم قبائل قَيْسِ عَيْلَانَ ، وأشهرها هِوَاذَنُ وَسُلَيْمٌ وعامر وَغَطَفَانُ : وإلى غطفان تنسب عَبَسٌ وَذُبْيَانُ . وكانت هذه القبائل تنزل في شرقيّ الحجاز .

وواضح أن أكثر القبائل العدنانية كان يقيم في داخل الصحراء العربية ، وعلى العكس كانت القبائل اليمنية يقيم أكثرها على الحدود وفي منشآت متاخمة للأمم الأجنبية . وجعلها ذلك تحكك أكثر من القبائل العدنانية بالحضارات المجاورة في العراق والشام ، ولذلك كثرت فيها المسيحية .

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن ما أشرنا إليه من انعزال قبائل نجد عن



جيرانهم المتحضرين إنما هو نظرة عامة ، ولكن من يتفحص صلتهم بمن جاورهم ، وخاصة هذه القبائل القحطانية التي كانت تنزل متاخمةً للفرس في العراق والبيزنطيين في الشام ، يرى أنهم لم يكونوا بمنزلة ألبنة عن جيرانهم بل كانوا على صلة دائمة بهم . وكان للقوافل التجارية التي تحدثنا عنها قبل ذلك أثر لا ينكر في هذه الصلة ، وكذلك الأسواق التي أقامتها الدول المجاورة لتبادل السلع معهم . وليس ذلك فحسب فإن المستعمرات اليهودية كانت منبعثة في الحجاز ، وكانت البعث المسيحية نشيطة ، واستطاعت أن تنصّر نَجْران . فذلك كله كان له أثره في تسرب بعض العناصر الحضارية إلى الجزيرة العربية .

وكما قدمنا كانت هذه القبائل تعيش في الجاهلية على الرعي والارتحال وراء مساطق الغيث ، وهي معيشة اعتمدت على منافسات قبليّة شديدة بين الفرعين الكبيرين من القحطانيين والعدنانيين ، ثم انقسم الفرعان إلى غصون وشعب كثيرة ، كلها تحاربت وكلها تقاتلت ، بحيث كان تاريخ العرب في الجاهلية ليس إلا أياماً وحروباً ، يربص فيها بعضهم ببعض ، ويأكل فيها بعضهم بعضاً .

وحاول الإسلام أن يبيت فيهم هذه الروح ، واستجابوا لهديه إلا نفرًا ظلوا يحكمون السيوف ، ويعظمون السماء ، ويفعلون انفعالاً شديداً عندما تمسّ كرامتهم بأذى شيء ، إلا أن يدخل السلطان فيا بينهم . ونستطيع أن نلاحظ في وضوح أنهم ظلوا بعد الإسلام محتفظين بكثير من صفات بداوتهم ، إذ كانت الجيوش العربية الفاتحة تمونّ منهم ، وكانوا من أجل ذلك كثيرى الهجرة شرقاً وغرباً لحاجة الثغور إليهم ، ولأن الدولة كانت ترى أن يقوم العرب أنفسهم بنشر الإسلام وفتح البلدان .

على أن هذه الهجرة أحدثت شقاقاً جديداً بين هذه القبائل ، فإن القبائل القيسية المضربة حين هاجرت إلى الشام والجزيرة وزاحمت كلباً في الشام وأخوانها من القبائل اليمنية ، كما زاحمت تغلب في الجزيرة ، شبّبت الحرب جدّةً بينها وبين هذه القبائل التي زاحمتها . وسرعان ما رأينا الجماعتين تتحولان إلى ما يشبه حزبين سياسيين ، فكانت تغلب العدنانية وكلب وغيرها من القبائل اليمنية حزباً للدولة الرسمي ، وكانت قيس تقف ، بحكم منازعتها لأصحاب هذا الحزب في

## الصفوف المعارضة .

وقد ورث العصر الأموي بسبب هذه الخصومة أياماً كثيرة ، وأشعاراً كثيرة أيضاً نظمتها كل قبيلة ، أو قُلْ نظمها كل حزب في الانتصار لنفسه . ولعل الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري خيرٌ مرجع لهذه الأشعار الكثيرة التي نظمها الفريقان في تلك الحروب .

أما القبائل التي قسرت واستمرت في داخل الجزيرة فقد وجدَ عندها نشاط أدبي محدود ، إذ وجد بينها شعراء يشبهون آباءهم الجاهليين في طباعهم وفي موضوعاتهم التي طرقتها . على أن هناك جانباً إسلامياً جديداً في حياتهم لم يكن مألوفاً لهم في الجاهلية ، وكان له صدهاء في شعرهم ، وتقصده الجانب السياسي وما نظمته الدولة بينها وبينهم من العلاقات ، وما فرض عليهم الإسلام من الصدقات ، فإن ذلك دعا إلى إقامة ولاة وسعاة عليهم يجمعون الصدقات منهم ، ويظهر أن بعضهم كان يشتط في ذلك ويبالغ ، فكثرت سخطهم على الولاة والسعاة ، وصور شعيرهم ذلك تصويراً طريفاً ، مما سنعرض له في مكان آخر .

ومن غير شك كان النشاط الأدبي في نجد في أثناء هذا العصر الأموي أقل مما كان عليه في العصر الجاهلي لسبب بسيط ، وهو كثرة من هاجروا منها شرقاً وغرباً . على أن ضرباً طريفاً من الغزل شاع فيها ، ولم يكن مألوفاً من قبل ، وهو غزل عُدْرِيّ عفيف . وقد اشتهرت به قبيلة عُدْرَة ، وكلنا نحفظ اسم جَمِيلِ بُشَيْنَةَ العُدْرِيّ ، كما اشتهرت به بعض القبائل النجدية الأخرى ، فظهر فيها مثل قيس بن ذريح ، وأيضاً ظهرت فيها أسماء أشبه ما تكون بالرمز مثل مجنون لبلى العامري ، وهو - فيما نظن - شخصية أسطورية .

على كل حال ظهر هذا الغزل العُدْرِيّ ، وشاع في نجد وبادي الحجاز في أثناء عصر بني أمية ، وهو غزل ينم عن نفس صافية ، صفاءها الإسلام ، وأحال الحب فيها إلى براءة وطهارة ، فقد سما بالنفوس ، وكان لهذا السمو أثره في هذا الغزل العُدْرِيّ الذي يرتفع في بعض جوانبه عن المادة والحس .

## العراق

كان جريان دجلة والنهرات في العراق وما عُرِف به من خصب أرضه سبباً في قيام حضارات على رافديه كحضارة بابل وآشور ، وقد سكنه منذ أقدم الأزمنة عناصر مختلفة منها السامى كالأكديين ، ومنها غير السامى كالسومريين . وكل من يرجع إلى تاريخ العراق قبل الإسلام يلاحظ كثرة الغارات والهجرات إليه من الغرب تارة ومن الشرق تارة ثانية ، وطبيعى أن تكثر الغارات عليه لما يَطْوِقه من صحارى مجدبة وجبال قاحلة كجبال طوروس التى تقع في شماليه ، ولذلك كثر وفود القبائل عليه غازية ناهية .

ولما علا نَجْمُ الفرس ونشب الصراع بينهم وبين الرومان كان كل منهما يمتدُّ عينه إلى ما بيد الآخر ، فالرومان يريدون أن يستولوا على الرافدين وما يكوّنانه من الهلال الخصيب ، والفرس يريدون أن يستولوا على مستعمرات الروم : الشام ومصر . ورأى كل منهما أن يقيم دولة من العرب تكون درعاً له أمام جشع الآخر ، فكوّن الرومان دولة الأنباط وتدمر .

وفي العهد الساسانى قبل الإسلام وبعد انقسام الدولة الرومانية إلى غربية وشرقية أو إلى روما وبيزنطة رأينا كلاً من الطرفين يحاول بكل ما وسع من قوة أن يتألف جماعة من العرب يقيم منها دولة ، فكوّن الروم أو كونت بيزنطة إمارة الغساسنة في الشام على حدود سوريا ، بينما كوّن الساسانيون إمارة الحيرة في العراق ، واعتبرا حاكمها العربى أميراً من أمرائهم ، وكانوا يختارونه عادة من قبيلة لحم اليمنية .

ووصلت الحيرة إلى الذروة في القرن السادس الميلادى ، فإن الدولة الحميرية ضعفت ضعفاً شديداً ، فتحولَّ عرب الجنوب كما تحول كثير من قبائل نجد الوسطى وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فكان لها عليهم شبه سيادة ، ولعل ذلك هو الذى جعل الفرس يستولون على اليمن حقة من الدهر .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التفوق الذي وصلت إليه الحيرة إذا عرفنا أن المنذر الثالث الذي كان يعاصر جوستينيان صاحب بيزنطة ، اضطرب الرومان حين عقدوا الصلح بينهم وبين الفرس سنة ٥٣٢ م أن يدفعوا له قدرًا من المال ، مثله في ذلك مثل ملك الفرس<sup>(١)</sup> ودار الزمن دورات وولى الحيرة النعمان بن المنذر الخامس صاحب النابغة الذبياني ، وساءت العلاقات بينه وبين الفرس فحبسوه<sup>(٢)</sup> حتى توفي سنة ٦٠٢ م . وبهذه السنة انتهى حكم الأسرة اللخمية للحيرة ، وولّى الفرس عليها إياساً الطائي ، وغضبت قبيلة بكر اللخمين ، واتجهت جنوباً إلى البحرين ، حيث ظلت تناوى الفرس إلى أن جاء الإسلام .

ومن غير شك سقطت إلى عرب الحيرة في العصر الجاهلي عناصر حضارية كثيرة بعضها عن طريق أصدقائهم من الفرس ، وبعضها عن طريق أعدائهم من البيزنطيين . فكان منهم من يعرف اللغة الفارسية مثل عدى بن زيد ، وكان من تراجمة أبرويز ملك الفرس ، وكان أبوه زيد شاعراً خطيباً وقارئاً كتب العرب والفرس<sup>(٣)</sup> . وعدى وأبوه زيد إنما هما رمزان لهذه الصلة الحضارية بين أهل الحيرة وجيرانهم الفارسيين .

وكان اشترك اللخمين في الحروب مع بيزنطة سبباً في أن تقتبس الحيرة كثيراً من الأفكار والعناصر الرومانية الإغريقية ، إذ كان ينزل بها بعض الأسرى من البيزنطيين ، كما تدل على ذلك المصادر اليونانية واللاتينية<sup>(٤)</sup> ، ويذكر لامنس أنه كان بها بيزنطي يدعى ابن تيوفيل الطبيب<sup>(٥)</sup> . ويروى أن النعمان الأول استخدم في بناء حصونه بعض البنائين من الإغريق<sup>(٦)</sup> .

وهذه النصوص تشير إشارة قاطعة إلى تأثيرات رومانية إغريقية وصلت إلى الحيرة قبل الإسلام . على أن هناك جانباً مهماً جداً لم نتحدث عنه حتى الآن ، وكان

الأغاني (طبع الساسي) ٩١/١٤ وما بعدها  
حيث يقول أبو الفرج : إنه كان من تجار  
الشام وكان حريفاً للنعمان يبايعه وكان أديباً  
حسن الحديث والادام .  
(٦) أوليري ص ١٥٨ .

(١) انظر أوليري ص ١٥٩ .  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٢٢/٢  
- ١٢٨ وانظر المسعودي ٣/٢٠٥ وما بعدها .  
(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٦ .  
(٤) أوليري ص ١٥٩ .  
(٥) كتاب سكة للانس ص ٣٤٥ وانظر

أعرق في الحيرة من كل ما سبق، وهو جانب المسيحية وما كان من تنصّر أهل الحيرة .  
 وحققاً تأخرت الهيئة الحاكمة في التنصّر إلا أننا نجد هنداً أم عمرو بن المنذر بن ماء  
 السماء تبتنى ديراً<sup>(١)</sup> في أواسط القرن السادس ، ويقال إن النعمان بن المنذر  
 دخل في المسيحية<sup>(٢)</sup> .

ولا نصل إلى الإسلام حتى تصبح الحيرة مسيحية ، وكانت تتبع الكنيسة  
 النسطورية التي سيطر عليها السريان في العراق والجزيرة . وصلة السريان وكنيستهم  
 النسطورية بالثقافة الإغريقية مقررّة معروفة<sup>(٣)</sup> ، فقد أنشأوا في نصيبين وغيرها  
 مدارس لاهوتية كانت تقتبس عن الأكاديميات الفلسفية ، وكانت تحاول أن توفق  
 بين اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية .

ولم تكن المسألة مسألة صبغة إغريقية عمّمت في الكنيسة النسطورية ، بل  
 كانت أكثر من ذلك ، فإن السريان انطلقوا يترجمون كثيراً من المؤلفات الإغريقية ،  
 وقد عرض دى بور لما ترجموه وقال إنهم أحلوا في الإلهيات عناصر مسيحية  
 محل ما هو وثني ، فبطرس وبولس ويوحنا يترامون أحياناً بدل سقراط وأفلاطون  
 وأرسطو ، وحلّ الإله الواحد محل القدر والآلهة ، ويقول : إنهم ترجموا الرياضيات  
 والطب ومجموعات من الحكم الخلقية والتهديبية ، وعُتوا أشدّ العناية  
 بالفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية ومنطق أرسطو<sup>(٤)</sup> .

وكان هؤلاء السريان ينتشرون في حوض دجلة الأعلى وفي الجنوب حول الحيرة  
 وفي الحيرة نفسها . فإذا قلنا بعد ذلك إن العرب المقيمين في شرق الجزيرة قبل  
 الإسلام وقعوا تحت تأثيرات فارسية مجاورتهم لفارس ، وليس ذلك فحسب ، بل  
 لقد وقعوا تحت تأثيرات إغريقية بواسطة هؤلاء السريان من النساطرة الذين  
 نشروا المسيحية فيهم لم تكن مبالغين ولا مغالين ، فقد دخلت المسيحية في بكر  
 بقلب كما دخلت في الحيرة ، وإذا كان بين عرب الحيرة من عرفوا اللسان الفارسي  
 مثل عدى وأبيه زيد فأكبر الظن أن كثيراً منهم عرفوا اللسان السرياني . ونقلوا به

(٢) أوليوى ص ١٢١ وما بعدها .  
 (٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام أي بور  
 طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٢٠ .

(١) انظر مسمي البلدان لياقوت في اسم دير  
 البند الصفري ودير همدان الكبرى والأغانى (طبع دار  
 الكتب) ١٣١/٢ .  
 (٢) أغانى ١٠٦/٢ .

إلى تمثل كثير من الثقافة الإغريقية .

ومعنى كل ذلك أن عرب العراق خضعوا قبل الإسلام لتأثيرات فارسية وأخرى رومانية إغريقية ، فلما جاء الإسلام وخرجت قبائل كثيرة من نجد إلى العراق خضعوا لنفس التأثيرات ، بل إن التأثيرات كانت أعنف وأحدّ ، فقد انتقل الفرس بحضارتهم إلى الإسلام كما انتقل كثير من نصارى العراق إلى الإسلام أيضاً . وحلّت البصرة والكوفة محل الحيرة ، واحتفظتا بكل التراث الثقافي الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان منبثاً هناك . ومن المحقق أن حركة عقلية كبيرة انبثقت في الكوفة والبصرة في أثناء عصر بني أمية ، وكان العرب هم الذين أشعلوا جذوتها ، فقد أخذوا يقبلون على دراسات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام الحنيف ، وأخذت تتكون مدارس مختلفة تُعنى بالتفسير والفقه ورواية الحديث النبوي ، كما تكونت مدرسة كلامية تبحث في مسائل القدر ، وكلنا نعرف المدرسة العقلية التي كان من أهم دعائمها الحسن البصري وتلميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، وهي المدرسة التي أُسست بالبصرة والتي كانت تقول بجزية الإدارة .

وكل ذلك أتاح للعرب هناك نشاطاً عقلياً جَسماً ، فهم يثيرون المسائل في الدين ، ويجيبهم عليها جِلَّة من الفقهاء ، وهم يبحثون في الإيمان وفي القضاء والقدر ، ويجيبهم عليها المتكلمون الورعون ، من أمثال الحسن البصري ، الذين وقفوا أنفسهم على وعظ المسلمين وإرشادهم وتوضيح ما يغمض عليهم مستندين إلى آي الذكر الحكيم ونصوص الحديث الشريف .

على أنه ينبغي أن نضم إلى إقليم العراق في هذا العصر الأموي لإقليم فارس وما كان به من تأثيرات رومانية إغريقية عن طريق البيزنطيين الذين كانوا يتزلون هناك إما مأسورين أو فارين من الدولة البيزنطية حين اضطهدت من لا يقول بعقيدتها المسيحية في طبيعة المسيح . ومعروف أن كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) أسس في جَسُدِ سَابُور معهداً للدراسات الفلسفية والطبية ، وقام على هذا المعهد أستاذة من المسيحيين السريان يعاونهم بعض اليونان .

ونحن إننا نضم هذا الإقليم إلى العراق لأنه كان مضموماً في هذا العصر الأموي فعلاً إليه ، إذ كان يتبعه في السياسة ، فكان والي العراق هو الذي يُديره ، وهو

الذي يولّى عليه من يشاء من موظفيه . وكذلك الشأن في إقليم خراسان وما فتح من الهند ، فالعراق كان يضم تحت جناحيه شرق الدولة العربية كلها .

ومهما يكن فإن العراق أهدى هو وما وراءه من فارس إلى العرب كل ما عرف الفرس من حضارة ، وكل ما سقط فيه أو في فارس من تأثيرات بيزنطية . وقد اتسعت هذه التأثيرات في العصر الأموي ، وأخذت تدفع العرب دفعاً أن يؤسّسوا — على مناهج صحيحة — دراساتهم المختلفة .

وإذا كان العراق أهدى إلى العرب كل ما احتفظ به من تراث ثقافي فارسي أو روماني إغريقي ، فإنه أهدى إليهم أيضاً منافسة القديمة لعرب الشام الذين كانوا يحاربون دائماً في صفوف بيزنطة ، بينما كان يحارب هو في صفوف الدولة الساسانية . فلما جاء الإسلام أسدل الستار مؤقتاً على هذه المنافسة ، وشغل اللخميون والغساسنة جميعاً بالفتوح ، وحوّل إلى الناس أن نيران هذه المنافسة استحالت رماداً ، ولكن لم تكد تظهر أول فتنة في الإسلام حتى تبين أنه لا يزال تحت الرماد وميض جمر ، فاشتبكت الفتنان في سلسلة حروب ، واستطاعت الشام يمثلها معاوية أن تنتصر على العراق التي كان يمثلها علي . وصور شاعران في الإقليمين التنافس تصويراً واضحاً هذه النزعة ، فقال شاعر الشام :

أرى الشام تكبره ملك العراق      وأهل العراق لهم كارهونا  
وقالوا على إمام لنا      فقلنا رضينا ابن هند رضينا

وقال شاعر العراق :

أناكم على بأهل العراق      وأهل الحجاز فما تصنّمونا  
فإن يكبر القوم ملك العراق      فقدمنا رضينا الذي تكبرهونا<sup>(١)</sup>

ومن هنا ظهر التنافس شديداً طوال عصر بني أمية بين أهل العراق وبينهم من فارس وبين أهل الشام . فكان الأولون دائماً في اضطراب مستمر ، إذ كانوا معارضين للأمويين أصحاب أهل الشام ، وكانوا دائماً طيرون

(١) الأخبار الباقية للدينوري (طبع لندن)

مع أول ناعق للثورة عليهم ، طاروا أو ثاروا مع الحسين بن علي ، أو على الأقل حاولوا ، وثاروا مع المختار الثَّقَفِيُّ ، وثاروا مع مُصْعَبِ بن الزبير ، وثاروا مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وثاروا مع يزيد بن المهلب . فتاريخ العراق في العصر الأموي ثورات متعاقبة لسبب طبيعي ، وهي أنه كان يُكِنَّ خصومة حفيقة للأمويين وأنصارهم من أهل الشام .

وعبّر العراق عن هذه الخصومة في حزينين كبيرين هما حزبا الخوارج والشيعة ، وملاً كل من الحزبين صفحات الأدب العربي في هذا العصر بخطبه وشعره ، بحيث يستطيع الباحث أن يؤلف دراسة ممتعة لشعر كل من الطائفتين . وهو شعر كان يدور في كثير من جوانبه على الدعوة للانتفاض على الأمويين وبث هذه الخصومة العنيفة التي تُستَخدم فيها السيوف وتُسْفَكُ الدماء ، يسفكها الخوارج دائماً ، ويسفكها الشيعة من حين إلى حين .

وتصادف أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانيين ، بينما كان أكثر عرب الشام من القحطانيين ، فاتخذ الصراع بين الإقليمين شكل عصبية قَبَلِيَّة بين الفرعين العربيين الكبيرين . ولم تقف هذه العصبية عند القحطانيين والعدنانيين فقد ذهبت كل قبيلة بل كل عشيرة تجتر تاريخها في الجاهلية وأيامها وحروبها ، فاندلعت نيران خصومة شديدة بين القحطانيين والعدنانيين من جهة ، وبين شعبيهم وأحيانهم من جهة ثانية .

ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن كلا من البصرة والكوفة خُطِّطَ تخطيطاً قَبَلِيًّا ، فكل قبيلة لها خِطَّتْها ، ففي البصرة مثلاً لكل من تميم والأزد وبكر وعبد القيس خِطَّتْها التي تنزل فيها ، وكانت الكوفة مقسمة إلى خِطَطٍ مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين<sup>(١)</sup> ، وكان القحطانيون اثني عشر ألفاً ، بينما كان العدنانيون ثمانية آلاف<sup>(٢)</sup> .

قبيلة قبل نزول علي بن أبي طالب الكوفة وبعد نزوله . ومن طريف ما ذكره أن البصرة سبقت الكوفة في التحضر ، فقد بنيت منازل وشيدت مساكنها قبل الكوفة بزمن بعيد .  
(٢) فروع البلدان للبلاذري ص ٢٧٦ .

(١) انظر خطط الكوفة وشرح غريبتها لماسينيون ترجمة المصمعي (طبع مطبعة العراق - صيدا) حيث يوضح ماسينيون ص ١٠ منازل كل قبيلة قحطانية أو عدنانية ، وقد ذكر أن القبائل حشمت في سبع خطط ، وأوضح خطة كل



وساعد هذا التخطيط نفسه على احتدام العصبية بين القبائل ، وكانت هذه العصبية أو الخصومات القبلية موضوعاً خطيراً ، يُدلى كل شاعر فيه بدلوه ، ويحاول أن يأتي فيه بكل ما يستطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فتخري يتوجها بها ، وفي الوقت ذاته يحاول أن يخسر من خصومها بل يحاول أن يرميهم بكل ما يستطيع من حجارة هجاء وقتذف . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يعد من الممكن دفع هذا السيل ، فكل قبيلة أصبح لها شاعرها الذي يتغنى بمآثرها في الجاهلية وما كان لها من أيام وحروب وأجداد مختلفة ، وفي الوقت نفسه يصب جام غضبه على القبائل المعادية ، ويحاول أن يطعنها في صميم شرفها وحسبها الطعنة القاضية . وأصبحت البصرة والكوفة مسرحاً لهذه العصبية أو قل لهذه السهام التي كانت تترىشها القبائل المختلفة هناك ، وتصوبها كل منها إلى صدر جارتها . وشاركتهم في ذلك القبائل المجاورة كقبيلة تغلب في الجزيرة . وهكذا أخذت كل قبيلة تزحف على جاراتها بشرائها ومآثرها .

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن بيئة العراق أهلت الشعر العربي في هذا العصر لأن يخوض في موضوعين كبيرين . أما أولهما فهذه الخصومة السياسية التي اشتعلت بين الخوارج والشيعة وبين الأمويين ، وأما ثانيهما فهذه الخصومة القبلية التي التهمت بين العدنانيين والقحطانيين ، ثم بين أغصانهم وشعبهم المختلفة . فالشعر الذي وجد في العراق لعصر بني أمية إما شعر سياسي ، وهو الذي كان يُقال في الخصومة الأولى ، وإما شعر قبلي وهو الذي كان يقال في الخصومة الثانية .

وتأثرت موضوعات الشعر المختلفة في العراق بهذين الموضوعين الكبيرين . وظهر التحامهما خاصة في مديح بني أمية على نحو ما نجد عند جرير والفرزدق والأخطل ، فقصيدة المديح عندهم تتأثر بالخصومات السياسية ، كما تتأثر بالخصومات القبلية .

على أننا إذا كنا لاحظنا على شعراء الحجاز تأثرهم بالحضارة المادية وما اندمج فيها من موسيقى وغناء ، فإننا نلاحظ على شعراء العراق أن التأثيرات الحضارية المعنوية فيهم كانت قوية . فهذا التراث الفارسي والروماني الإغريقي الذي كان

هناك قبل الإسلام وجبّد سبيله إلى الشعراء مما سنعرض له في موضع آخر وليس هذا كل ما نلاحظه على هذه البيئة ، فنحن نلاحظ عليها أيضاً كثرة الشعر والشعراء ، بحيث تكاد تستقلُّ بأكثر ما جاءنا من شعر عن عصر بني أمية . وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى أن عرب العراق كان أكثرهم من العدنانيين أصحاب العربية الشمالية ، فقد اندفعت القبائل العدنانية من قيس ومُضَرَ إلى العراق ، وهي القبائل التي تتميز بالشعر الكثير . ويكفي أن يعود الإنسان إلى ما تركت تسميم في هذا العصر من شعر ليرى أن العراق كان حقاً البيئة الأولى للشعر والشعراء في زمن بني أمية .

وأخرى نلاحظها على هذه البيئة ، وهي أنه إذا كان وجبّد في العصر الجاهلي من عرف اللسان الفارسي من عرب العراق كعديّ وأبيه زيد ، فإن الذين عرفوا هذا اللسان في العصر الأموي كانوا أكثر عدداً ، خاصة أن الفارسية كانت شائعة في البصرة والكوفة<sup>(١)</sup> ، وتذكر كتب الأدب شاعراً بصرياً ، هو يزيد بن مفرغ الحميري ، كان يعرف الفارسية ، وكان ينظم فيها بعض شعره<sup>(٢)</sup> . وفي الوقت نفسه نجد هؤلاء الموالي الكثيرين الذين كان يطفح بهم العراق يشاركون في الشعر العربي ، فيظهر من بينهم بعض شعراء يحسنون صنّع هذا الشعر ، ويجاولون أن يتفوقوا فيه ، مثل زياد الأعجم مولى عبد القيس<sup>(٣)</sup> . وكل هذا دليل قوّة الشعر الشديدة في العراق ، وكثرة ينايحه التي شاركت فيه .

رأيه بنصوص مهمة . وأورد بيثان في فهارس نقائض جرير والفرزدق التي نشرها بابا للألفاظ الفارسية التي استخسماها . انظر الجزء الثالث الخاص بالفهارس ص ٦١٢ .  
(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ .  
(٣) أغاني (طبعة السامي) ٩٨/١٤ .

(١) انظر في ذلك كتاب (العربية-دراسات في اللغة واللهجات والأساليب) ليوهان فكترجمة الدكتور النجار (طبع جماعة الأزهر للشر والتأليف) ص ١٤ وما بعدها ، حيث يذهب المؤلف إلى أن سبل العناصر الإيرانية في القرن الأول كان من القوة بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل المكان الأول في البصرة والكوفة ، ودعم

## الشام

يشتهر هذا الإقليم بكثرة مياهه ، واعتدال مناخه ، والتخفاف غاباته وأشجاره من زيتون وغير زيتون ، وكان خصيبه ووقوعه على حافة البحر المتوسط الشرقية سبباً في أن تقوم به وتتعاقب عليه حضارات مختلفة ، فقد يمتدّ كان فيه الفينيقيون والعبريون ، وقديماً استعمره المصريون واليونان والرومان . وأهله ذلك دائماً للاتصال بالأمم القديمة وتمثّل ما عندها من مدنّيات .

وكان قبل الإسلام تابعاً لبيزنطة ، وكان الفرس يفكرون دائماً في الاستيلاء عليه ، فرأت بيزنطة ، كما رأت روما من قبل ، أن تستعين بالعرب المجاورين له ، فكوّنت الإمارة المعروفة باسم إمارة الغساسنة من آل جفّنة .

والمصادر العربية التي تحت أيدينا عن تاريخ هذه الإمارة غامضة ، ولعل مرجع ذلك أن وثائقها التاريخية كانت بيزنطية بخلاف الحيرة ، فقد كانت وثائقها فارسية أو سريانية ، وكان كثير من أسلم في العراق يعرف الفارسية والسريانية ، فاتصل العرب بتاريخ الحيرة مباشرة . أما تاريخ الغساسنة فلم يستطيعوا الاتصال به لعدم معرفتهم اليونانية ، ومن هنا بدأ ما كتبه عن هذا التاريخ مضطرباً مشوشاً ، وغامضاً مبهماً ، فبينما تعد بعض المصادر ملوك الغساسنة عشرة إذ تجعلها أخرى سبعة وثلاثين<sup>(١)</sup> ، وبينما يجعل حمزة الأصفهاني حكم الحارث بن جبّلة عشر سنين إذ المصادر اليونانية تجعله أربعين . ثم إن حمزة يذكر بعد الحارث عدة أمراء حكموا ، على زعمه ، نحو خمسة قرون مع أنه من المحقق أن خلفاء الحارث لم يملكوا بعده أكثر من خمس وستين سنة<sup>(٢)</sup> .

ويشير نولدك إلى أن مؤرخي العرب المختلفين لم تكن لهم معرفة واضحة بغير

(١) انظر أمراء غسان لنولدك (طبع بيروت) ص ٥٧ وما بعدها .

(٢) أمراء غسان ص ٥ .

أفراد قلائل من بني جفنة ، ويذكر أن الطبري ومن نقلوا عنه كانوا يجهلون هذه الأسرة جهلاً يكاد يكون تاماً<sup>(١)</sup> .

والتاريخ الحقيقي لآل جفنة إنما يبدأ بالحارث بن جبلة فهو أول أمير غساني يثق المؤرخون بإمارته ، إذ كان معاصراً لجومستيان ، وقد جعله أميراً على كل القبائل العربية الشمالية سنة ٥٢٩ م بعد حادثة مهمة هي انتصاره على المنذر أمير الحيرة . ولم يكتف جومستيان بذلك ، بل منحه لقب « فيلارك و بطريق » . وكانت حياة الحارث سلسلة حروب بينه وبين المنذر ، وقد قضى عليه عام ٥٥٤ م ، وزار بيزنطة عام ٥٦٣ م وتوفي عام ٥٧٠ م .

وعيّنت بيزنطة من بعده ابنه المنذر ، وفي عهده هاجم عرب الحيرة الحدود السورية ، فانصر عليهم في وقعة « عين أباغ » . وفي سنة ٥٨٠ م زار بيزنطة مع ولدين له فاستقبل استقبالاً عظيماً ، وهناك ألبسوه التاج ، واعترفوا به ملكاً أو أميراً على العرب . غير أنهم لم يلبثوا أن اتهموه وقبضوا عليه ، فثار عليهم أولاده بقيادة النعمان ، ووقع هو الآخر في قبضة أيديهم . ومن حيثئذ ضعف شأن الغساسنة ، وكادوا يُعدّون منتهين ، ولذلك لا نسمع بهم في الحروب البيزنطية الفارسية التي شبت عام ٦١٣ م ، وإن كنا نجد مؤرخي العرب يذكرون لهم أميراً في عصر الفتوح هو جبلة<sup>(٢)</sup> بن الأيهم الذي أسلم ، ثم ارتد ، وهرب إلى قيصر ، وظل عنده حتى مات .

وإذا كان عرب العراق اللخميون عُرفوا بمدينة اشتهرت هي الحيرة فإن عرب الشام الغساسنة لم يعرفوا بمدينة معينة . والمؤرخون والشعراء يذكرون لهم عدة مواضع ، كانوا ينزلون فيها ، إذ كانت إمارتهم تمتد من شمال بادية الشام من بصرى إلى فلسطين ، فكانت تشمل مقاطعات الجولان وحوّزان والبسقاء . ويتردد على ألسنة الشعراء ذكر جليق ، وكانت منازل بالقرب من دمشق في موضع على نهر برّدي الذي يشتهر ببساتينه . وأشهر من جليق الجايبة وكانت على مسافة يوم إلى الجنوب الشرقي من دمشق .

(٢) أمراء غسان ص ٤٩ .

(١) أمراء غسان ص ٦٠ .

ويظهر أن الغساسنة لم يحلوا هاتين القريتين إلى مدينتين حقاً ، فكأننا خليطاً من الخيام والمباني البسيطة ، وإن كان حمزة الأصفهاني يُشيد دائماً بما بناه الغساسنة ، إلا أن نولدكه يتشكك في كل ما يزعمه من ذلك<sup>(١)</sup> . وربما كان للعلاقات السيئة بين بيزنطة والغساسنة في أواخر العصر الجاهلي أثر في أنهم لم يستقروا تماماً ، إذ جعلوا أنفسهم دائماً على أهبة الفرار داخل الصحراء .

على أن هذا كله ليس معناه انقطاع الصلة بين عرب الشام والعناصر الحضارية البيزنطية ، فقد دخل هؤلاء العرب في المسيحية وأكثروا من بنائهم للأديرة . والذي لا شك فيه أن تأثيرهم بالعناصر الرومانية الإغريقية كان أقوى من تأثير عرب العراق لأنهم كانوا في نفس المجال البيزنطي . وقد اختاروا المذهب يعقوبي ، فإذا كان النساطرة هم الذين أثروا في عرب العراق فإن يعقوبيين هم الذين أثروا في عرب الشام . ويذهب أوليري إلى أن البعاقبة يتفوقون على النساطرة في ترجمة الفلسفة الأرسطائية ، وشرحها ، والتعليق عليها<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن ما تسرب إليهم من الفلسفة اليونانية لا يقل ، إن لم يزد ، عما تسرب إلى النساطرة .

ونحن نعرف أن الشام أو أكثرها تحول إلى الإسلام عربياً وغير عرب ، وكانت الشام كلها مسيحية ، وقد وضعت الكنيسة لاهوتها على أصول إغريقية رومانية . وإذا كنا لاحظنا عند النساطرة إنشاء المدارس اللاهوتية على سُننٍ مقتبسة من الأكاديميات الفلسفية كمدسة نصيبين فإننا نلاحظ ذلك أيضاً في الشام حيث أُسِّسَت منذ القرن الثالث الميلادي مدرسة في قيساريّة وأخرى في أنطاكية<sup>(٣)</sup> . ولما فُتِح باب الجدل في القرن الخامس الميلادي في طبيعة المسيح استعان المتجادلون بالفلسفة اليونانية ومنطقها ، حتى بدعوا آراءهم بالحجج والبراهين .

وإذن فالشام قبل الإسلام كانت غارقة في تأثيرات رومانية بيزنطية ، فلما فتحتها العرب واستقروا فيها تحولت إليهم هذه الترواات العقلية . يقول فون كريبمر :  
« وبهذا الطريق وحده يجب أن يُفسَّر التشابه البين الذي نلاحظه في مظاهر

(٢) أوليري ص ١٢٨ .

(١) أمراء غسان ص ٥٣ .

(٢) أوليري ص ١٤١ .

المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية . وإن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين عند العرب ، فأقدم علماء المسلمين يَشْفَتُونَ أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التي تدور حول القضاء والقدر والإرادة (١) .

ومعنى ذلك أن الشام ساعدت مساعدة فعالة في تكوين العقيدة الإسلامية لهذا العصر الأموي ، ومن أهم الذين ناقشوا في هذا الجانب وأعظمهم يوحنا الدمشقي الذي كان يكتب اليونانية ، وكان يلقب لفصاحته بدفءاق الذهب ، وكان في شبابه نديماً ليزيد بن معاوية ، وولى إدارة الشؤون المالية في دمشق لغير خليفة ، وله مؤلفات مختلفة ، منها محاورَةٌ مع مسلم في ألوهية المسيح ونظرية حرية الإدارة ، وكتابٌ لأرشاد النصارى في جدالهم مع المسلمين . ويرجع أنه ناقش كثيرين منهم في القدر ، وأن مناقشاته تلك كانت تدور أحياناً في حَضْرَةِ الخليفة . ولا شك أنه نقل إلى العرب في أثناء ذلك كثيراً من النزعات النصرانية والأفكار الإغريقية (٢) .

وكل الدلائل تدل على أن العرب في الشام كما قبلوا على يوحنا قبلوا على كل ما كان هناك من عناصر عقلية ، ولم يجنوا حرجاً في ذلك ، بل لقد دفعوهم دفءاً الى أن يترجموا لهم بعض المؤلفات اليونانية . وخالد بن يزيد بن معاوية خبيرٌ من يصور لنا ذلك ، فقد تتلمذ لراهب يسمى مَرِيَانُوس ، وأخذ عنه صنعة الطب والكيمياء (٣) ، ويقول ابن النديم عنه إنه : « عَسِيَّ بإخراج كتب القدماء في الصنعة . . . وهو أول من تُرْجِمَ له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه كتابَ الحرات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة (٤) » .

ولا شك في أن خالداً إنما هو رمز للحركة الكبيرة التي قامت في الشام وما شاع فيها من تبادل هذه السلَّع العقلية: يعطى العربُ شعرهم وقرآنهم وحديث رسولهم ،

(٣) وفيات الأيمان لابن خلكان (طبع

ديسلان) ٢٤٦/١ .

(٤) فهرست ابن النديم (طبع لبيسك)

ص ٣٥٤ .

(١) الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات

الأجنبية (نشر دار الفكر العربي) ص ٦٦ .

(٢) انظر تاريخ العرب (مطبع) لتوليب

حتى (نشر دار الكشاف) ٣١٤/٢ .

ويأخذون الفلسفة اليونانية والأفكار المسيحية، ويتأثرون في أثناء ذلك بما كان شائعاً هناك من تشريع بيزنطى ومن نُظُم إدارية في الدولة ونظم حربية .

فالتأثير الرومانى الإغريقى فى الشام كان عنيقاً ، وكان من آثاره هنا التنظيم الحربى الذى نجده فى رسالة عبد الحميد الكاتب إلى ولى عهد الخليفة الأموى الأخير : مروان بن محمد . وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ، ويترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس<sup>(١)</sup> . وهذا كله يجعل الشام فى مكان علبى من حيث وصل العرب بالحضارة الرومانية الإغريقية ، وهو وصل بدأ منذ الجاهلية ، ولكنه اتسع فى هذا العصر اتساعاً شديداً .

وقد لاحظنا أن العرب الذين كانوا فى الشام قديماً كان أكثرهم إن لم يكن كلهم من القحطانية ، وكان لهذا تأثيره على هذه البيئة من حيث شاعريتها ، فإن من يستعرض نصوص العصر الأموى لا يكاد يجد للشام نشاطاً يُندكر من حيث الشعر ، وأكبر الظن أن هذا يرجع إلى أن السكان هناك كان أكثرهم يمنيين ، اصطنعوا العربية الشمالية اصطناعاً ، فلم تؤهلهم لقول الشعر ونظمه ، ولذلك لا نجد لهم شعراء مشهورين فى هذا العصر سوى عدى بن الرقاع العاملى .

وفرق بعيد جداً بين نشاط الشعر فى العراق ونشاطه فى بيئة الشام ، فى العراق نستطيع أن نعد أسماء شعراء ممتازين بالعشرات ، فصحف الشعر تتلى فى كل مكان ، أما فى الشام فلا يكاد يظهر على المسرح شاعر ممتاز سوى عدى بن الرقاع ، ومع ذلك فهو لا يعد شيئاً بالقياس إلى فحول العراق من مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة والكميت وهلم جرا .

فبيئة الشام لم تكن بيئة شاعرة كما كانت بيئة العراق ، وأكثر ما كان يقال فيها من شعر كان يتعد عليها من الخارج . واتخذ ذلك صورتين : الأولى أن يفد الشعراء بشعرهم على دمشق يُنشدونه الخلفاء ، والثانية أن تحدث فى الشام حوادث تقتضى نظم الشعر كهذه الحوادث ، أو قل كهذه الحروب ، التى نشبت بين القبائل القيسية حين هاجرت هناك وبين القبائل اليمنية فى الشام . فقد اقترنت هذه

الحروب بشعر كثير . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أكثر هذا الشعر كان وافداً على الشام مع هذه القبائل القيسية مثل عامر وسليمان التي وفدت هناك من بوادي نجد والحجاز ، واستقر كثير منها في قيسرين وفلسطين العليا . وسرعان ما تطورت الظروف وجاءت موقعة مَرَجَ رَاهِطَ ، واشتبكت الفئتان في حروب دامية ، واشتبك شعراؤهما في مفاخر ومثالب كثيرة .

ومع ذلك يمكن أن نعد هذا الشعر طارئاً ، لأنه أتى مع هذه القبائل القيسية . والحق أن الشام لا تقارَنُ بما كان في العراق من نشاط أدبي ونشاط في الشعر خاصة ، لهذا السبب الذي ذكرناه ، وهو أن كثرة أهلها كانوا يعينين أو لم يكونوا يُحَسِنُونَ لسان العربية الشمالية كما أحسّه أهلها ، فتأخروا عنهم في نظم الشعر ولم يستطيعوا أن يجاروهم فيه .

على أن هناك نشاطاً في الشعر حدث في هذه البيئة ، ولكنه لم يحدث عن طريق هذه القبائل اليمنية ، إنما حدث عن طريق الأسرة المُضَرِّيَّة هناك ، وهي الأسرة الحاكمة من بني أمية ، فإن بعض أمراء هذه الأسرة انصرفوا إلى حياة اللهو والغناء التي سبق أن تحدثنا عنها في الحجاز ، وكان كل شيء من حولهم يؤهلهم لذلك ، فقد نعيموا بحياة مترفة غاية الترف وعاشوا في قصور باذخة ، وأحاطوا أنفسهم بكل ما يستطيعون من مظاهر الفخامة . ويخيّل إلى الإنسان كأن الجو كله أصبح عِطراً خالصاً ، أو كأن البيئة أصبحت كلها حلية وزينة<sup>(١)</sup> .

وقد ذهب هؤلاء الأمراء والخلفاء يستقدمون مغني الحجاز ومغنياته ، فأهلوا بذلك الشام لأن تنتقل إليه هذه الحركة الغنائية التي سبق أن وصفناها في الحجاز ، وقد انتقل معها هذا الشعر الغنائي الذي كان ينظمه عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومن إليهما من الشعراء في مكة والمدينة . وهناك أسماء خلفاء ثلاثة يتردد ذكرهم في هذا المجال ، وهم : يزيد بن معاوية ، وابن أخته يزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد ، فإن هؤلاء الخلفاء طلبوا الغناء الحجازي ، وفسحوا له في مجالسهم ، وعقدوا للمغنين والمغنيات الحفلات المختلفة .

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلام لسيد أمير على (ترجمة رياض رأفت) ص ١٦٨ وما بعدها .



وكان من آثار ذلك أن أخذت الشام تقلد الحجاز ، وتنقل عنه هذا الغناء  
الجلديد وما ارتبط به من هذه النظرية التي سبق أن أشرنا إليها ، ولعلت حيثئذ بعض  
أسماء ، أشهرها أبو كامل الغزيريل مغي الوليد بن يزيد .

وليس هذا كل ما يلاحظ على هذه الحركة ، فقد انتقل أيضاً هذا الفن الجديد  
من الغزل المطبوع بالطابع الغنائى التام . ونحن لا نصل إلى الوليد بن يزيد حتى  
نجدده ينفذ من أثناء ذلك كله إلى أن يصبح مغنياً يحسن الإيقاع والضرب على  
الأدوات الموسيقية ، بل تُنقلُ عنه أصوات تُؤنثر في بيئات المغنين . وليس هذا  
فحسب ، فقد كان شاعراً غنائياً بالمعنى الكامل فشعره كله مقطوعات حُبٌّ  
وخمر ، وشعره كله ألف من أجل الغناء . وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع .

ولعل في هذا ما يدل على أن الشام لم تعرف الشعر في هذا العصر الأموي إلا  
طارثاً ، إما على لسان هؤلاء الشعراء الواقديين الذين كانوا يمدحون الخلفاء في  
دمشق ، وإما تحت تأثير ظروف طارئة كهذه الحروب التي شبّت ناراها بين  
القيسية والبيمية منذ فتنة ابن الزبير ، أو على لسان هذه الأسرة القرشية المضربية  
من بني أمية . وهذا كله واضح الدلالة على أن بيئة الشام كانت متخلقة في هذا العصر،  
من حيث الشعر ، عن بيئة العراق وبيئة الحجاز ، ومع ذلك فهناك بيئات إسلامية  
كانت أكثر تخلصاً .

٥

## بيئات أخرى

وهذه البيئات التي كان تخلفها أكثر من تخلف الشام هي : اليمن ، ومصر ،  
وبلاد المغرب ، والأندلس . أما اليمن فعروف أنها كانت أكثر تحضراً من  
الحجاز ونجد ، وقد قامت بها دولة قديمة كسبياً ومعين ، وأتت من بعدها  
الدولة الحميرية منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، ومن اسم هذه الدولة تسمى اللغة الجنوبية  
باسم اللغة الحميرية ، وهي تخالف العربية الشمالية في كثير من مفرداتها ووجوه  
اشتقاقها .

ومن أجل ذلك يكون من الطبيعي أن لا نجد في هذه البيئة العربية الجنوبية نشاطاً أدبياً لا في الشعر ولا في النثر، لسبب بسيط وهو أن أهلها لم يساهموا في الشعر الأموي كما أنهم لم يساهموا سابقاً في الشعر الجاهلي. فأهل اليمن، الذين استمروا فيها ولم يهاجروا، ظلوا يعيشون كما كانوا يعيشون في الجاهلية، أو ظلوا يُجرون حياتهم على نحو ما كانوا يجرونها قديماً، وأيضاً فإنهم ظلوا يستخدمون غالباً اللغة الحميرية كأسلافهم السابقين.

ولا ريب في أن لغة قریش أو لغة القرآن الكريم أخذت تؤثر فيهم، ولكنه كان تأثيراً بطيئاً، فلم تظهر آثاره سريعاً في هذا العصر، إنما ظهرت في عصور متأخرة. ومن هنا كانت بيئة اليمن متخلفة في الشعر في أثناء هذا العصر الأموي، فليس لها نشاط فيه، إلا من هاجروا منها في الفتح، واختلطوا بعرب الشمال، واستخدموا لغتهم في التعبير عن خواطرمهم. ولكن هؤلاء المهاجرين يُعَدُّون منفصلين عن بيئتهم، فقد عاشوا في بيئات أخرى. والذي نسجله هنا أن بيئة اليمن نفسها لم تشارك مشاركة ذات قيمة في الشعر في أثناء عصر بني أمية، لأنه كان يقال في لغة تُعَدُّ غريبة بالقياس إليها، فطبيعي أن لا تُنظَّم فيه أو على الأقل أن لا تبرع فيه براعةً من شأنها أن تُحدث لها فيه نشاطاً أدبياً يذكر.

وأما مصر التي وصفها هيرودوت بأنها هبة النيل، فقد كانت أعرق من اليمن في الحضارة، وقد شاركت في المدنية الإنسانية منذ بُنيت الأهرام، وعنها تلقَّت الأمم القديمة من فينيقيين وبابليين ويونان. وكما أعطت أخذت، فاتصلت بالحضارة اليونانية والرومانية، وشاركت مدرسة الإسكندرية في الفكر الإغريقي، وطوّرت فلسفته إلى الأفلاطونية.

فلما فتح العرب مصر كانت الثقافة الإغريقية الرومانية منتشرة فيها، وكانت اليونانية تُدرَّس في الإسكندرية، وكذلك كانت تدرس السريانية<sup>(١)</sup>. وهذا طبيعي لأن السريانية كانت لغة اللاهوت المسيحي وكانت مصر مسيحية، فانتشرت بأديرتها، ولقيت عنايةً من وهبائها.

(١) فتح العرب لمصر لبتلر (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٤.

وكلُّ ما سبق أن قلناه عن اتصال المسيحية في الشام والعراق بالثقافة الرومانية الإغريقية بَطَبَّتْ تطبيقاً على مصر ، بل لقد سبقت مصر الإقليمين السالفين بما أوجدت من الأفلاطونية الحديثة ، وانبرى علماء اللاهوت فيها يفيلون من الفلسفة اليونانية ، ويعلقون عليها ، ويشرحون ، كما انبرى معهم علماء الإسكندرية . وظلت عناصر من هذه الثقافة في البيئة المصرية وأثرت في الأجيال التالية ، على الرغم من إغلاق مدرسة الإسكندرية ، فقد هجرها أساتذتها إلى أنطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولكن على كل حال ظلت آثارهم ، وظلت عناصر من هذه الثقافة القديمة منتشرة في مصر بدليل ما عُرِفَتْ به في العصور التالية من كثرة الأطباء .

ونحن نعرف أن كثيراً من القبائل العربية هاجرت إلى مصر حين سمعت بخيراتها وثمارها ، ومع ذلك نلاحظ أن نشاطها الأدبي في هذا العصر الأموي كان محدوداً جداً ، فإذا عرفنا أن أكثر القبائل العربية التي هاجرت إليها كانت يمنية أمكننا أن نعرف لماذا تخلّفت في الأدب والشعر لهذا العصر ، فإن القبائل اليمنية حتى التي تركت مواطنها قبل الإسلام إلى الشمال لا تنبغ في الشعر العربي نبوغ القبائل الشمالية المصرية والقيسية .

والواقع أننا لا نجد في مصر شعراً يُذكر في هذا العصر إلا شعر الشعراء الوافدين عليها ، فقد زارها طائفة غير قليلة من الشعراء ، حينما كان عبد العزيز بن مروان والياً عليها من قبل أخيه عبد الملك ، إذ كان ممدّحاً كثير النوال جزيل العطاء ، فكان الشعراء يفدون عليه لملحه ، ومن وفد عليه كُثِيرٌ ونُصِيبَ وابن قيس الرُقَيْيَاتِ وأبِي مَنَ بن خُرَيْمٍ وعبد الله بن الحجاج التَّغْلِبِيّ وجَمِيل . ونجد في ( كتاب الولاة والقضاة ) للكندى و ( كتاب الأغاني ) نصوصاً كثيرة لهؤلاء الشعراء في مديح عبد العزيز .

فالشعر الذي ظهر في هذه البيئة لم يكن من صنْعها ، إنما كان وافداً عليها مع هؤلاء الشعراء ، وهو ليس شعراً مصرياً يمكن أن يُنسَبَ إليها . وإذا تصفحنا ( كتاب الولاة والقضاة ) للكندى ، وهو خير مرجع للشعر العربي في مصر في أثناء عصر الولاة ، لم نجد شاعراً مصرياً نابهاً في هذا العصر . وحقاً تمثل

الكندي ببعض أشعار لشعر من المصريين ، ولكنها أشعار ضعيفة ، ولا تعبر عن وجود نَسَبِ فياض بمصر . وربما كان خير من يذكرهم ابن أبي زَمْرَمَة ، وكان معاصراً لعبد العزيز بن مروان ، ولكنه على كل حال شاعر متوسط إن لم يكن ضعيفاً ، فأجنحته لا تكاد تنهض به في أفق الشعر العربي العام لهذا العصر .

ومعنى ذلك أن مصر في عصر بني أمية ليس لها نشاط يُدْكَرُ في الشعر العربي ، لأن العرب الذين حملوا فيها لم يكونوا ذوي استعداد تام لأن يتفوقوا في هذا الشعر ، فقد كانوا يمينين ، ولم يكونوا ينظمون من الشعر إلا البيتين والثلاثة أو القطع القصيرة ، على نحو ما نجد في كتاب الولاة والقضاة . وأظن في ذلك ما يدل دلالة واضحة على هذا الضعف والتخلف .

وإذا تركنا مصر وولَّيْنَا وجوهنا نحو بيئة المغرب وجدناها بيئة مترامية الأطراف إذ تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي بمحاذاة البحر المتوسط . وقد سكنها البربر منذ أقدم الأزمنة ، ونزل بها الفينيقيون في قرطاجنة بالقرب من تونس ، ثم استولى عليها الرومان ، وحاولوا أن ينشروا بها لغتهم ، كما حاولوا أن ينشروا بها المسيحية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفدوا بذلك بعيداً عن الساحل إلا في مناطق قليلة .

وقد استولى العرب على المغرب من يد بيزنطة ، إذ كان تابعاً لها حينئذ ، وكانت في شواطئه هذه العناصر الفينيقية والرومانية ، وأيضاً الإغريقية ، لأن العناصر الإغريقية ، كما هو معروف ، اختلطت بالعناصر الرومانية اختلاطاً واسعاً في حوض البحر المتوسط كله .

ونحن نلاحظ هنا ما لاحظناه في مصر من أن القبائل التي نزلت في بلاد المغرب كان أكثرها من اليمن ، فلم تكن من هذه القبائل الشاعرة : قبائل عدنان الشمالية . وإذا كنا قد لاحظنا أن شعراً طارئاً ظهر في مصر على السنة هؤلاء الشعراء الذين زاروها للمديح عبد العزيز بن مروان ، فإننا نلاحظ هنا أنه حتى هذا الشعر الطارئ لم يوجد في بلاد المغرب ، لأنه لم يوجد فيها الحاكم القوي كثير البذل والعطاء الذي يجذب إليه الشعراء من الحجاز ، أو نجد ، أو العراق .

فبلاد المغرب في عصر بني أمية أكثر تخلفاً من مصر في مجال الشعر والشعراء . وكذلك الشأن في الأندلس ، على الرغم من النخائر اللاتينية التي كانت

مباشرة فيها قبل الفتح، وما اختلط وامتزج بهذه الدخائل من عناصر فينيقية ويونانية، فقد كان للفينيقيين واليونان مستعمرات بها قبل الغزو الروماني واستيلاء روما عليها .

على كل حال كان في بلاد الأندلس عناصر عقلية وحضارية بثتها الحضارات التي مرت بها ، وكان أهلها مسيحيين ، وكانوا متأثرين تمام التأثر بروما اللاتينية . غير أن هذه البلاد لم تُسَخِّصْ في عصر بني أمية إلا فترة محدودة ، فعلمية المزج العقلي والحضاري بينهم وبين العرب لم تجد الفرصة للتكامل حيثئذ . وإذا رحنا إلى القبائل العربية التي نزلتها وجدناها من نفس القبائل التي نزلت في مصر وبلاد المغرب ، فهي غالباً قبائل يمنية . ومعنى ذلك أن الأندلس لم تكن نشيطة في الشعر العربي لهذا العصر ، بل كانت متخلفة ، لأن العرب الذين نزلوها أنفسهم كانوا متخلفين من حيث الشعر والشعراء .

وأظن أننا بعد هذه الجولة في الدولة الإسلامية نستطيع أن نحدد المواطن والبيئات الجغرافية النشيطة التي أنتجت الشعر العربي في العصر الأموي ، وأن نعرف أي أنواع الشعر كان يسود في هذه المواطن والبيئات . فأما اليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس فكانت متخلفة ولم يكن لها أي خطَر في الشعر والمواطن والبيئات التي كان فيها شعرٌ يستحقّ الدرسَ حقاً هي الأربعة الأخرى : الحجاز ونجد والعراق والشام .

أما الحجاز فاختصت بنوع من الشعر الغنائي الكامل الذي كان يُصْحَبُ بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . وأما نجد فاختصت بنوع من الغزل العذري العفيف ، كما اختلفت بشعر يدور حول الشكوى من الخراج والصدقات وعسْف الولاية والسعاة . وأما العراق ، فهي أهم بيئة نشط فيها الشعر ، وقد اختلفت بنوعين كبيرين منه ، هما : الشعر السياسي والشعر القيسلي . أما الشعر السياسي ف شعر الخوارج والشيعة ومن كان يقابلهما من أنصار الأمويين ، إذ نجد لكل حزب من هذه الأحزاب شعراء الذين كانوا يناضلون عنه تضالاً عنيفاً . ولم ينقطع هذا النضال يوماً طوال العصر ، إذ كانت أصوات هؤلاء الشعراء ترتفع في كل مكان في العراق ، إما من قبيل الخوارج أو من قبيل الشيعة أو من قبل أنصار بني أمية . وأما الشعر

القبلي فيشعر العصبية والفخر والهجاء ، إذ اصطفت القبائل في البصرة والكوفة ، وأثرت الأحساب والأنساب القديمة ، ونهض شعراء كل قبيلة ينددون عنها ويرمون خصومها بكل ما يستطيعون من حجارة قذف مُدْمِية ، وسهام هجاء مُصْمِيَّة ، يريدون أن يقهروهم ويظهروا عليهم ويفخروهم . ويخيل إلى الإنسان كأن العراق تحول إلى ما يشبه بركاناً ثائراً ، فدائمًا هذه الحُصَم القبليَّة ، ودائمًا أختها السياسية تصوب من كل مكان وإلى كل مكان .

أما الشام فكان لها نشاط في الشعر أيضًا لهذا العصر ، ولكنه لم يكن يأتي من داخلها ، فقد كان أكثر سكانها من اليمينية الذين لا يمارسون الشعر على نحو ما يمارسه العدنانيون والمصريون ، إنما كان يأتي من خارجها ، إما بسبب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتفدون على الخلفاء من الحجاز ونجد والعراق ينشدونهم مدائحهم ليأخذوا جوائزهم ، وإما بسبب القبائل القيسية من عامر وسليمان التي هاجرت هناك بعد الفتح واشتركت مع القبائل اليمينية في معارك حربية وأخرى لسانية أداتها الشعر كما أسلفنا ، وإما بسبب هذه الأسرة القرشية الحاكمة من بني أمية التي أمعن أبنائها في الترف ، وتفنونوا في ضروب اللهو ، واتصلوا بفن الغناء والموسيقى الذي شاع في الحجاز . فكان ذلك كله سببًا في أن تحاول الشام أواخر هذا العصر أن تشارك مشاركة قوية في الشعر الغنائي ، الذي عُرف في الحجاز ، على نحو ما نجد عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وهكذا دائمًا كانت الشام تنقل من الخارج ، فنشاط الشعر فيها لهذا العصر غالبًا نشاط طارئ .

## الفصل الثاني

### تطور الشعر الأموي مع الحياة

١

#### الحياة الدينية

كان عرب الجاهلية في أكثر أنحاء الجزيرة العربية وثنيين ماديين ، لا يهتم من الحياة سوى المُتَّع الحسية ، فلما جاء الإسلام أضاء قلوبهم بمثالية روحية كريمة ، تقوم على نَبْذ الحياة الدنسة القديمة إلى حياة ظاهرة جديدة ، كلها عبادة ، يتشَلُّ إلى الله ، وتوسل إليه ، ومجاهدة للنفس ، حتى ترفض عَرَضَ الدنيا وتطلب ثواب الآخرة .

وقد حضَّ القرآن الكريم في غير موضع على التقوى ، فقال جل شأنه :  
( إنما يتقبل الله من المتقين ) كما حضَّ على ذكر الله وتسيحه ، فقال جَلَّ وعز :  
( يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ) . وقال تعالى : ( إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكركم الله أكبر ) .

وبجانب ذلك نجد دعوة إلى التوكل على الله حتى التوكل من مثل قوله تعالى :  
( وعليه فليتوكل المتوكلون ) كما نجد دعوة إلى الزهد في متاع الدنيا ومغانمها من مثل قوله عز وجل : ( فعند الله مغامٌ كثيرة ) . وصور الذكر الحكيم تصويراً رائعاً نعم الجنة التي أعدت للمتقين ، وعذاب النار التي أعدت للعاصين . وفي الوقت نفسه حضَّ القرآن الكريم في غير موضع على الخلوص لله والاستسلام له والانتقاد إليه ، فهو ذو السلطان غير المحدود ، وهو أيضاً غفور رحيم : ( كتب على نفسه الرحمة ) ( ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ) .

وإذاً نجد إشارات وتوجيهات إلى العمل الصالح وأن الفاترين برضوان الله هم : ( التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون

بالمعروف والنَّاهون عن المنكر ) وكذلك الفائزات ( مسلمات مؤمنات قانتات  
تأبأت عابدات سائحات ) وكلمة سائحين وسائحات قد تُفيد الرحلة عن الدنيا  
ومتَّعها .

وهذا كله صرف كثير من المسلمين الأولين إلى الزهد في حطّام الدنيا  
وأكد لهم الحديث النبوي ذلك ، من مثل ما يُروى من أن رجلاً قال للنبي  
صلى الله عليه وسلم : « دُلّني على عمل إذا أنا عملته أحببني الله وأحبنى الناس ،  
قال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس <sup>(١)</sup> » .

فاندفع كثير من الصحابة في حياة ناسكة ، كلها تقوى ، وعبادة ، ورفق  
لنخرُف الدنيا وتخشُّف ، وابتهاج إلى الله ، وتوكل عليه ، وانتظار لما عنده . ومن  
هؤلاء الصحابة معاذ بن جبل ، وأبو بكر ، وعلي ، وعمر الذي كان يقول :  
استغزروا الدموع بالتذكر <sup>(٢)</sup> . وكان ابنه عبد الله من كبار الزهاد ، ورسم ابن  
سعد لزهده في طبقاته صورة طريفة ، فقال : إنه كان يترك الحمام يعدّه من  
رقيق العيش ، وكان لا يلبس الخبز ، ولا يشرب في أقذاح مفضضة ولا من زجاج ،  
إنما كان يشرب في أقذاح من عيدان <sup>(٣)</sup> . ومثله كان عبد الله بن عمرو بن العاص ،  
إذ يُجمع الرواة على أنه كان شديد المجاهدة لنفسه ، فكان يتقضى الليل مصلياً  
والنهار صائماً <sup>(٤)</sup> .

ومن الصحابة الأولين الذين اشتهروا بالعبادة والزهد حذيفة بن اليمان ،  
وأبو الدرداء الذي يُروى عنه في الزهد عبارات مأثورة من مثل قوله : « أضحكني  
ثلاث وأبكاني ثلاث ، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ولا يُغفل  
عنه ، وضاحك مِلء فيه ، ولا يتدري ساخط ربه أم راض . وأبكاني هول  
المطلّح ، وانقطاع العمل ، وموقف بين يدي الله لا يدري أيامر بي إلى الجنة أم  
إلى النار <sup>(٥)</sup> » وكذلك كان سالم مولى أبي حذيفة الذي يقول فيه عمر : « إن سالمًا  
كان شديد الحب لله <sup>(٦)</sup> » .

(٤) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩ وما بعدها .

(٥) بيان ١٥١/٣ .

(٦) بيان ١٥٠/٣ .

(١) البيان والتبيين ١٦٦/٣ .

(٢) نفس المصدر ١٤٩/٣ .

(٣) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد

ج ٤ ق ١ ص ١٠٥ وما بعدها .



وشهرة أبي ذرّ الغفاري في هذا الباب ذائعة ، فقد ثار على معاوية ، وهو وال بالشام لعثمان بن عفان ، حين رآه يستأثر بالفتىء<sup>(١)</sup> ويبيح للناس ، تبعاً لسياسة عثمان ، أن يمتلكوا الضياع . وجادل معاوية في ذلك ، واحتج عليه بقوله تعالى : (والذين يكتزون الذهب والنفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . واستمر في ثورته ، فرفع معاوية أمره إلى عثمان ، فرسم بإشخاصه إلى المدينة . فلما ذهب هناك ثار ثانية حين رأى بعض الصحابة يمتنون الدور والقصور ، فنفاه عثمان إلى قرية مجاورة للمدينة تسمى الربذة . ويروى عنه أنه قال : « فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوتى من الجمعة إلى الجمعة مُدَّ ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه » ، وكان يقول : « إنما مالك لك ، أو للجائحة ، أو للوارث ، فاعنّ ، ولا تكن أعجز الثلاثة<sup>(٢)</sup> » .

وعلى هذا النحو انتشرت موجة النسك في صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهد الأمة وعابدها الأول : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر معها كثير من المجاهدات والرياضات ، وخاصة في الصوم والصلاة<sup>(٣)</sup> : ووصف هذه الطائفة الحسن البصرى فقال : « أدركت من صدور هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنتهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفرشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خلودهم ، يناجون مولاهم في فيكاك رقابهم<sup>(٤)</sup> » : ولا ريب في أن هذه الطائفة هي مقدمة طوائف البكائين الذين نسمع بهم فيما بعد .

ولعل في ذلك كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية . على أننا لا نتقدم إلى عهد الفتوح حتى ندخل فيه عناصر أجنبية ، على رأسها عناصر مسيحية ، من تلك التي كانت في العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة في المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثرها في هذه النزعة ، لا في وجودها ولا في تنشئتها ، ولكن في نموها من بعض الوجوه .

(٣) بيان ١٥٦/٣ .

(٤) بيان ١٣٦/٣ .

(١) الفقه : غنائم الحرب .

(٢) بيان ١٩١/٣ .

ولعل من الطريف أن نجد لعهد عثمان شخصاً يُحترّم الزواج واللحم على نفسه ، وهو عامر بن عبد قيس ، زاهد البصرة وناسكها<sup>(١)</sup> . ونهج نهجه في عهد عمر بن عبد العزيز ناسك المدينة المشهور زياد<sup>(٢)</sup> بن أبي زياد أحد موالى بني مخزوم . وكان كثير من هؤلاء الزهاد يُلقَّب بالراهب لكثرة عبادته وصلاته<sup>(٣)</sup> . وقد لُقِّب عبد الرحمن بن أبي عمَّار الجُسمى المكيُّ بالقسِّ لعبادته ، وكثرة تبتله إلى الله<sup>(٤)</sup> .

واستمرت صور المجاهدات والرياضات للنفس في أشكال مختلفة ، فكان بعضهم يُكثر من الصلاة ، حتى ليصلي ألف ركعة في اليوم<sup>(٥)</sup> ، واشتهر محمد بن طلحة ابن عبيد الله بأنه كان يسجد فيُطيل في سجوده ، حتى إن العاصفبر لتسقط على ظهره تحسبه حائطاً<sup>(٦)</sup> . وفي طبقات ابن سعد أن معصَّد بن يزيد العجلبيُّ أحد عبَّاد الكوفة كان يخرج في جماعة إلى الحبيَّانة يتعبَّدون<sup>(٧)</sup> . وكانت تزداد هذه المجاهدات حين يصنع بعضهم ذنباً يتدم عليه ، فقد ارتكب أبو لُبَّابة معصية ، فربط نفسه إلى عمود في مسجد المدينة ، وبقي مدة على هذه الحال حتى ظنَّ أن الله غفر له<sup>(٨)</sup> ، ويُرَوَّى عن الزُّهرى أن ذنباً فرط منه ، فهام على وجهه ، خوفاً من ربه<sup>(٩)</sup> .

ومن المجاهدات التي نقرؤها كثيراً الحجُّ إلى مكة لا على الإبل ، وإنما مشياً على الأقدام ، ويُرَوَّى أن علي بن الحسين الملقَّب بزين العابدين حجَّ خمساً وعشرين حجَّةً راجلاً<sup>(١٠)</sup> وعلى هذه الشاكلة أخذ الزهد يتحول في كثير من الصور إلى ضروب مختلفة من المشقة وتعذيب النفس وإعانتها طلباً لما عند الله من الثواب ، وخوفاً مما أعدَّه من العقاب .

وكل من يدرس هذه الموجة من الزهد ويتعقبها في الأقاليم الإسلامية في أثناء عصر بني أمية يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو

- |  |   |
|--|---|
| (١) أسد الغابة ٣ / ٨٨ .                      | (٦) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٥ / ٢٣٨ .                      |
| (٢) ابن سعد ٥ / ٢٢٥ .                        | (٧) ابن سعد ٦ / ١١١ .   |
| (٣) ابن سعد ٥ / ١٥٣ وانظر ج ٧ ق ١ ص ٧٣ .     | (٨) هذه الحادثة كانت على عهد الرسول ، انظر أسد الغابة ٥ / ٢٨٤ . |
| (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٨ / ٣٣٤ .          | (٩) بيان ٣ / ١٦٨ .  |
| (٥) أغاني ١ / ٢٧٧ والبيان والتبيين ٣ / ١٢٩ . | (١٠) المقد الفريد ١ / ٣٦٦ .                                     |

إقليم العراق وقد تأثر فيها بعناصر أجنبية ، إذ نرى قِتَادَةَ أحدَ زهاده ينقل عن التوراة<sup>(١)</sup> كما نرى الشَّعْبِيَّ أحدَ عبَّاده ينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام<sup>(٢)</sup> وقد يكون ذلك لاتصال العراق بالرهبة المسيحية ، ومع ذلك فلم يكن أكثر صلة بها من الشام ومصر ، فلا بد من أسباب أخرى دفعت أهله إلى اعتناق هذا الزهد والمبالغة فيه . وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت هناك طوال عصر بني أمية هي التي أعدت لذلك ، فإن بعض من خسروا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها ، ووضعوا أمانيتهم في الآخرة وما وعد الله به عباده المتقين . ولا ريب في أنه كان لظلم ولادة بني أمية وتصرفهم مع العراقيين أثر في ذلك ، ويكفي أن نعرف أن الحجاج قتل - فيما يقال - صَبْرًا وغيلة ، مائة ألف وعشرين<sup>(٣)</sup> . وغيره من ولادة العراق مثل خالد القسري ويوسف بن عمر لم يبلغوا في القتل مبلغه ، ولكنهم كانوا أيضًا قساة ظالمين . ولم يكن لدى الناس أمام هذا الظلم وتلك القسوة وما استولى على نفوسهم من فزع وخوف إلا أن يعتصموا بحسب الله وينصرفوا عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة .

ومعنى ذلك أن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد في العراق . وإن من يقرأ الجاحظ في بيانه وهو يعدد أسماء زهاد الكوفة والبصرة ويطنل في تعدد آدهم ويفتح الفصول الخاصة لذكورهم والنقل عنهم يُخَيَّلُ إليه أن زهاد العصر الأموي كلهم كانوا منبئين في العراق . ولا شك في أن الزهد كان له أصحابه في الحجاز ، كما كان له أصحابه في الشام ومصر ، ولكن العراق هي التي سبقت فيه للأسباب التي ذكرناها ، فقد اندفع كثيرون هناك إلى العبادة والتسك ، وعُرف جمهورهم باسم القراء . والكلمة أخذت أولًا من قراءة القرآن ثم أصبحت تطلق على هؤلاء الذين أخلصوا أنفسهم لله ، فتقشفوا وتنسكوا وعاشوا معيشة زاهدة ، بل معيشة تقوم على المجاهدة ورياضة النفس .

(٢) ابن عبدبره ٢١/٣ وانظر الطبري ١١٢٣/٢

(١) بيان ١٠٤/١

(٢) بيان ٢٩٧/١

ومن أشهر زهاد الكوفة<sup>(١)</sup> علقمة بن قيس ويصفونه بأنه كان من الربانيين<sup>(٢)</sup> وابن أخيه الأسود بن يزيد ، ويقولون إنه كان صَوَامًا قَوَامًا<sup>(٣)</sup> ، وعمرو بن عتبة ابن فَرْقَدَ وكان من البسكائين<sup>(٤)</sup> ، والربيع بن خَشِيم ، ويقولون إنهم لم يسموه يذكر شيئاً قط من الدنيا<sup>(٥)</sup> ، وهمام بن الحارث النَّخَعِي وكان يقول : « اللهم اكفني من نوى بيسير ، واجعل سهري في طاعتك ، فكان لا ينام إلاَّ هُنْبِيهَةً وهو قاعد<sup>(٦)</sup> ، وأوْبَسَ القَرَّتِي وكان من البسكائين ، وكان يتحرَّج أن يُحدِّث أو يُقَصِّر أو يُفْتِي<sup>(٧)</sup> .

ومن أشهر قراء البصرة ونُسَّاكها<sup>(٨)</sup> صلة بن أشيم ، وكان يصلي حتى لا يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً<sup>(٩)</sup> ، ومُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير ، وكان يقول لأهل البصرة : « لا تنظروا إلى خنق عيشهم ( بنى أمية ) ولين لباسهم ، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم ، وسوء منقلبهم<sup>(١٠)</sup> ، ومورق العجلى ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلُّ على ربه<sup>(١١)</sup> » ، وبكر بن عبد الله المُرْتَبِي ، وكان يقول : « الدنيا ما مضى منها فحلم ، وما بقي منها فأمان<sup>(١٢)</sup> » ، ويزيد بن أبان الرقاشي الواعظ البكاء ، ويروى أنه تمنى قوم في مجلسه ، وقالوا تمنَّ ، فقال : « ليتنا لم نُخلِّق ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعدب ، وليتنا إذ عدبنا لم نخلد<sup>(١٣)</sup> » .

وواضح من أقوال هؤلاء الزهاد والنسك أنهم لم يملثوا أجواءهم بعبادتهم وتقشفهم فحسب ، بل ملأوها أيضاً بمواعظهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم . وقد اشتهر في المدينة أبو حازم الأعرج ومحمد بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز ، واشتهر في العراق الشعبي واعظ الكوفة .

- |                                   |                                   |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| ( ١ ) انظر البيان ١/٣٦٣ ، ٣/١٩٢ . | ( ٢ ) انظر البيان ١/٣٦٣ ، ٣/١٩٢ . |
| ( ٣ ) ابن سعد ٦/٦١ .              | ( ٤ ) ابن سعد ٣/١٥٩ .             |
| ( ٥ ) البيان ٣/١٥٢ .              | ( ٦ ) ابن سعد ٦/١٤٣ .             |
| ( ٦ ) ابن سعد ٣/١٥٨ .             | ( ٧ ) ابن سعد ٦/١٢٧ .             |
| ( ٧ ) ابن سعد ٣/١٥٢ .             | ( ٨ ) ابن سعد ٦/٨١ .              |
| ( ٨ ) ابن سعد ٣/١٥٩ .             | ( ٩ ) ابن سعد ٦/١١٤ .             |

وواعظ العراق غير مدافع الحسن البصرى ، ومواعظه مثورة في البيان والتبيين ، وكلها تنعنى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرته ، وما أعد له الله من ثواب وعقاب . ويحس الإنسان في مواعظه دائماً بالرجفة والفرع من العذاب ، وكأنه يرى بعينه الجحيم ، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد في حطام الدنيا ، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والمحبة . ويروى عنه أنه كان يقول : « ليس الإيمان بالتحلى ولا التمنى ، ولكن ما وقّر في القلوب وصدّته الأعمال <sup>(١)</sup> » . ومن قوله أيضاً : « مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة <sup>(٢)</sup> » .

ويظهر من نصوص هذا العصر أن فريقاً من زهاده كانوا يلبسون الملابس الخشنه وخاصة الصوف <sup>(٣)</sup> وكان ذلك لا يعجب الحسن ، فكان يقول : « أكنوا الكبر في قلوبهم ، وأظهروا التواضع في لباسهم <sup>(٤)</sup> » . وكان يقرأ القرآن ويبكى حتى يتحدّر الدمع على لحيته <sup>(٥)</sup> .

ولم تقف هذه الموجة عند الرجال بل تعدتهم إلى النساء ، وقد عدّ منهم الجاحظ رابعة القيسية ، ومعاذة العدوية امرأة صلّة بن أشيم ، ومن نساء الخوارج البلّجاء وغزّالة وقطام وحمّادة وكحبيّلة ، ومن نساء الغالية ليلي الناعظية وصنوف وهند <sup>(٦)</sup> .

إنما استطرّدنا كل هذا الاستطراد في بيان هذه الموجة الدينية من الزهد والتقشف والنسك والتعبّد ، لننلّ في وضوح على أن شعراء عصر بني أمية نبّتوا في جوجديد فيه روحية ومثالية ، وفيه إيمان بعالم آخر فوق حيسهم وشعورهم ، وأن هناك علة نهائية تُدبّر هذا الكون ، وتعلّم لها وجوه البشر ورقابهم .

وهذا كله طبّع نفسية كثير من الشعراء في العصر الأموي بطوايح جديدة لم تكن مألوقة في العصر الجاهلي ، عصر الوثنية ، لسبب بسيط وهو أن الشعر تعبير

(١) البيان ١٤٤/٣ .

(٢) رسالة القشيري (طبع مصر سنة ١٣١٩هـ)

ص ٨٠ .

(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٢٧ .

(٦) البيان ٣٦٤/١ .

(٣) ابن سعد ٣٤٨/٨ وكذلك ج ٤ ق ١

النفس ، وهو يتأثر بكل ما يؤثر في النفس من ظروف طبيعية : مادية ، أو روحية معنوية .

فالشعر الأموي كُتِبَ في ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقيّة صالحة ، فيها نسك وعبادة ، وفيها تقوى وزهد . وليس معنى ذلك أن كل الشعراء كانوا ناسكين زاهدين ، وإنما معناه أن الحياة الروحية الجديدة لم تنفصل عن حياتهم الفنية ، بل أثرت في كثير من جوانبها وطوّرتها ، وظهر هذا التطور في صور مختلفة . ويكفي أن نتصفح ديوان شاعر كالفرزدق الذي اشتهر بفسقه واستهتاره لنعرف أنه لم ينفصل من الإسلام وأنه تأثر به ، فقد حضّر هو والحسن البصري جنازة زوجه النّوّار ، فقال له الحسن وهو بإزاء القبر : « ماذا أعددتَ لهذا المضجع ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فقال له الحسن هذا العمود فأين الطنّب ؟ فقال في الحال :

أخافُ وراء القبر إن لم يُعافني أشدَّ من القبر التهابًا وأضيقتما  
إذا جاعني يوم القيامة قائد عَنيفٌ وسواقٌ يسوق الفرزدقا  
لقد خاب من أولاد دارم<sup>(١)</sup> من مشي إلى النار مغلول القلادة مؤثقا  
يُقَاد إلى نار الجحيم مسرّبتلا سراويلَ قِطْرانٍ لباسًا عرقا<sup>(٢)</sup> .

فالفرزدق المستهتر لم يكن الإسلام بعيداً عن نفسه، بل كان يعمل في سريره . وسنرى حين ندرس ملابحه أنه كان يمدح بعناصر إسلامية كثيرة ، ويروى أنه قيّد نفسه ، وآلى أن لا ينزع القيد من رجله حتى يحفظ القرآن<sup>(٣)</sup> . ولعل من الطريف أن نجد في ديوانه قصيدة يهجو فيها إبليس ، ومن قوله فيها<sup>(٤)</sup> :

ألم تَرَنِي عاهدتُ ربي وإنني لم يبن رِجاجٍ قائما ومقام  
على قَسَمٍ لا أَشْتَمُ الدهرَ مسلماً ولا خارجاً من في سوءُ كلام  
أطعنتك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شَيْبِي وتمَّ تَمَای

(١) هم قومه من تميم .

(٢) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوي) ص ٦٣/١ .

(٣) الديوان ص ٧٦٩ .

(٤) ٥٧٧ ، وانظر أمال المرتضى (طبع مطبعة

مُسَلِّقٍ لِأَيَّامِ الْمَتُونِ حِمَامِي  
أَبُو الْجَيْنِ إِبْلِيسُ بِغَيْرِ خِطَامِ  
يَكُونُ وَرَائِي مَرَّةً وَأَمَامِي  
سَيِّخْلِدُنِي فِي جَنَّةٍ وَسَلَامِ  
بِمِنْكَ مِنْ خُضْرِ الْبَحْرِ طَوَامِ (١)  
كَفْرَةَ طَوْدِي يَتَذَبُلُ وَشَمَامِ  
نَكَصْتُ وَلَمْ تَحْتَلْ لَهُ بِمَرَامِ  
بِأَنْعَمِ عَيْشٍ فِي بَيْوتِ رُخَامِ (٢)  
لَكُمْ أَوْ تُنْخِوْهَا لِقُوحِ غَرَامِ  
وَكُنْتَ نَكُوصًا عِنْدَ كُلِّ ذِمَامِ  
وَزَوْجَتَهُ مِنْ خَيْرِ دَارِ مَقَامِ  
أَحَادِيثَ كَانُوا فِي ظِلَالِ غَمَامِ  
رِضَاهُ وَلَا يَقْتَادُنِي بِزِمَامِ  
إِلَيْهِ جَرُوحًا فَيْكَ ذَاتِ كَلَامِ

فَرَرْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيَقُنْتُ أَنِّي  
أَلَا طَالَمَا قَدِ بَتُّ يُوَضِعُ نَاقِي  
يَظَلُّ بِمَنْبِي عَلَى الرَّحْلِ فَارِكًا  
يُشِيرُنِي أَنْ لَنْ أَمُوتَ وَأَنَّهُ  
فَقَلْتُ لَهُ هَلَا أُخَيِّبُكَ أَخْرَجْتَنِي  
رَمَيْتَنِي بِهِ فِي الْيَمِّ لَمَّا رَأَيْتَهُ  
فَلَمَّا تَلَقَى فَوْقَهُ الْمَوْجُ طَامِيًا  
أَلَمْ تَأْتِ أَهْلَ الْحِجْرِ وَالْحِجْرُ أَهْلُهُ  
فَقَلْتُ : اعْبُرُوا هَذِي اللَّقُوحَ فَإِنَّهَا  
فَلَمَّا أَنَاخَوْهَا تَبَيَّرَاتٍ مِنْهُمْ  
وَأَدَمٌ قَدْ أَخْرَجْتَهُ وَهُوَ سَاكِنٌ  
وَكَمْ مِنْ قُرُونٍ قَدْ أَطَاعُوكَ أَصْبَحُوا  
وَمَا أَنْتَ يَا إِبْلِيسُ بِالْمُرِّ أُنْعَمِي  
سَاجِدُكَ مِنْ سَوَاتٍ مَا كُنْتَ سَقْتِي

وعلى هذا النمط يسترسل الفرزدق في هجاء إبليس معبراً عن نزعة دينية كانت  
تشمّل عليها نفسه، ومستعيراً من القرآن الكريم بعض قصصه ليُحْكَمَ هذا الهجاء .  
وما من ريب في أننا كلما أنعمنا النظر في ديوان شاعر أموي وجدنا هذا الجانب  
الديني الجديد في صور مختلفة . وإذا كان الفرزدق على استهتاره ، الذي شهّره به ،  
يتأثر هذا التأثير بالإسلام في شعره فأولى ، شيره أن يكون تأثرهم أعمق وأحد ، وخاصة  
من عرفوا بالعفاف والتدين ، فخصمه جرير التقيّ العفيف نجد في شعره مظاهر  
كثيرة لتدينه وعفته ستعرض لها في غير هذا الموضع ، ويروى عنه أنه كان  
يبكي حين تمرُّ به الجنائز ، ويقول : « أحرقتني هذه الجنائز » وله ، في زوجه  
أم حنّرة ، رثاء مشهور ، يقول فيه (٣) :

(٢) الحجر : ديار ثمود .  
(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوي) ص ٢٠١

(١) لعله يشير إلى قصة فرعون وغرقه المشهورة  
في القرآن الكريم أو لعله يشير إلى قصة ابن نوح  
التي وردت في سورة هود ، آية ٤٣ وما بعدها .

صَلَّى الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تُخْبِرُوا وَالطَّيِّبُونَ عَلَيْكَ وَالْأَبْسَرَارُ

وسرى حين نعرض لمدائحه أنها كانت تستمد من العناصر الإسلامية ، وكذلك كانت أهاجيه مع الأخطل المسيحي ، ومع الفرزدق الذي يرميه دائماً بالفسق والحجون .

ومعنى ذلك أن الحياة الدينية طَوَّرَت الشعر الأكموي وأثرت أثراً عميقاً في نفوس الشعراء ، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعراً لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة ، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحداً ولا يهجون أحداً إلا ووضعوا الصفات الدينية إيجاباً وسلباً في مدحهم وهجائهم . واستمع إلى كَثِيرٍ يمدح عمر عبدالعزيز<sup>(١)</sup> :

وَصَدَّقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالَ مَعَ الَّذِي	أَتَيْتَ فَأَمْسَى رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمٍ
وَقَدْ لَبِستَ لِبِسَ الْهَدُوكِ ثِيَابَهَا	تَرَاءَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفِّ مِعْصَمٍ
وَتَوْمَضُ أحيانًا بَعينَ مَرِيضَةٍ	وَتَبَسُّمُ عَن مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنظَمِ
فَأَعْرَضْتَ عَنْهَا مَشْمُزًا كَأَنَّمَا	سَقَّتَكَ مَدُوفًا مَن سِيَامٍ وَعَلَنَمِ
تَرَكْتَ الَّذِي يَفْتَنِي وَإِن كَانَ مُؤَنِقًا	وَأَثَرْتُ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مِصْمَمِ
وَأَضْرَرْتَ بِالْفَاقِي وَشَمَّرْتَ لِلَّذِي	أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِّنَ الشَّرِّ مُظْلَمِ

فهو يمدح عمر بانصرافه عن الدنيا مع تعرضها له ، ويقول إنه زاهد في ملذاتها وتمارها الفانية ، لأنه يريد الثمرة الباقية من ربه ، يريد رضوانه وفردوسه . وغير الخلفاء من الولاة والعمال كان الشعراء يمدحونهم أيضاً بهذه العناصر الدينية وما يشبهها من مثل قول ابن قيس الرقيبات في مصعب بن الزبير وإلى العراق لأخيه عبد الله<sup>(٢)</sup> :

لَمَّا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدِّ	ه تَجَلَّتْ عَن وَجْهِ الظُّلْمَاءِ
مَلِكُهُ مَلِكٌ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ	جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

(٢) ديوان ابن قيس (طبع بيروت) ص ٩١ .

(١) ديوان كبير (طبع الجزائر) ١٢٣/٢ .



يتقى الله في الأمور وقد أذ لمح من كان همه الانتقاء

فهو يجعل مصعباً قَبَساً من نور الله ، ويقول إنه مسلم أشد ما يكون الإسلام  
ففيه تقوى وصلاح ، وحكمه فيه تواضع وانقياد لله .

وبصورة مبايئة لهذه الصورة الدينية كان الشعراء يتهاجون ويهجون الناس ، إذ  
كان الهجاء بالدين أقدم صور الهجاء ، واستمع إلى قول الطرماح يهجو تميمًا  
ويتصر قومه الأزدي<sup>(١)</sup> :

لو حان وِرْدٌ تَمِيمٍ ثُمَّ قِيلَ لَهَا      حَوْضُ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الأَزْدُ لَمْ تَرِدِ  
أَوْ أَنْزَلَ اللهُ وَحَيْسًا أَنْ يُعْتَدَّ بِهَا      إِنْ لَمْ تَعُدِّي لِقِتَالِ الأَزْدِ لَمْ تَعُدِّي

فهو يقول إن تميمًا تهلج من الأزدي ، حتى لو كان لها وِرْدٌ إلى الماء ،  
وعلمت أنها تَرِدُ على حوض الرسول ، ثم عرفت أن هناك الأزدي لرجعت إلى نفسها ،  
يقودها الخوف والفرع ، وأقامت على العطش والظم . وهو بذلك يرميها بالجن وضعف  
الإيمان بالإسلام وصاحب رسالته . ثم عاد فذكر هذا الفرع في صورة  
أخرى ، فلو أن وحيًا نزل من عند الله ، وفيه يأمر تميمًا بقتال الأزدي بعد  
نكوصها ، وأنها إن لم تفعل حتى عليها العذاب ، لو أن ذلك حدث ما عادت إلى  
هذا القتال .

وعلى نحو ما أثير الإسلام في المديح والهجاء أثير في الغزل ، بل لعل تأثيره  
فيه كان أوسع ، فقد ظهر في نجد ضرب جديد من الغزل العذري الطاهر العفيف ،  
كما تسربت إلى نفوس أصحابه في نجد وغير نجد غير قليل من المشاعر الدينية  
لا من حيث تصفية النفوس من أدائها ، بل أيضًا من حيث الألفاظ والأساليب ،  
فقد أخذوا يستخدمون بعض المعاني والألفاظ الإسلامية كي يؤثروا في قلوب من  
يحبونهم ، من مثل قتل النفس المحرمة ومثل الذنب والظلم والغفران ، يقول ابن  
أبي ربيعة<sup>(٢)</sup> :

(١) ديوان الطرمح (نشر كرئكو) ص ١٤٥ . (٢) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٣٤٣ .

ألا يا مَنْ أَحَبَّ بِكُلِّ نَفْسِي      وَمَنْ هُوَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ حَسْبِي  
ومن يظلمُ فأغفره جميعاً      ومن هو لا يهَمُّ بِغَفْرِ ذَنْبِي

ويقول جميل<sup>(١)</sup>:

ألا تتقين الله فيمن قتلته      فأسمى إليكم خاشعاً بتضرع  
ويقول كثير<sup>(٢)</sup>:

ولا تباؤا أن يحو الله عنكما      ذنوباً إذا صلتكما حيث صلت  
ويقول مجنون ليلي<sup>(٣)</sup>:

عفا الله عن ليلى الغداة فلانها      إذا وكيت حكماً على تجور

ونكثرت مثل هذه الألفاظ عند الغزلين جميعاً

وعلى هذا النمط تطورت جوانب كثيرة من صور المديح والمهجاء والغزل القديمة تحت تأثير الروحية الإسلامية الجديدة . وسرى حين نعرض للحياة السياسية أن شعراء الأحزاب المختلفة كانوا يهتمون اهتماماً شديداً في مدائحهم وأهاجيمهم بالعناصر الدينية ، وهذا كله طبيعي فقد تغيرت نفسية القوم تحت تأثير الإسلام وتغيير مثلهم الأعلى في الفضائل والأخلاق ، وكان التساك والوعاظ ما يزالون يؤثران فيهم وفي نفسياتهم . ولذلك كنا لا نبالغ إذا زعمنا أن كثيراً من صفحات الشعر الأموي طُبع بطابع ديني ، واستمع إلى قول الطيرماتح<sup>(٤)</sup>:

كلُّ جِيٍّ مُسْتَكْمَلٌ عِدَّةُ الْعُمَّةِ      رِ وَمُودٍ إِذَا انْقَضَى عَدَدُهُ  
عَجَبًا مَا عَجِبْتُ لِلْجَامِعِ الْمَا      لَ يَبْأَمِي بِهِ وَسَرْتَقِيلُهُ  
وَيُضْبِعُ الَّذِي بِصِيرِهِ اللَّذِي      هُ إِلَيْهِ فَلَيْسَ يَعْتَقِدُهُ  
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْخَوَّلَ ذَا الثَّرِ      وَهُ خُلَانُهُ وَلَا وَآدُهُ  
يَوْمَ يُؤْتَى بِهِ وَخَصْمَاهُ وَسَطُّ الدُّ      جِنِّ وَالْإِنْسِ رِجْلُهُ وَبَدُّهُ

(٣) الأغاذه (طبع دارالكتب المصرية) ٧٥/٢ .

(٤) ديوان الطيرماتح ص ١١٢ .

(١) انظر ديوان جميل (نشر مكتبة مصر) ص ١١٧ .

(٢) ديوان كثير ، القصيدة رقم ٤ .

خاشع الصوت ليس ينفعه ثم  
قل لباكي الأموات لا يبئك لنا  
إنما الناس مثل نابتة الزر  
م. أمانيه ولا تدده  
س ولا يستنيع<sup>(١)</sup> به فنتده  
ع متى يأن<sup>(٢)</sup> يأت محتصده

وهذه الأبيات أشبه ما تكون بموعظة من مواعظ الحسن البصرى ، فهى تستمد من القرآن الكريم ، وما يتردد فيه من أن الناس لهم أجل محتوم ( لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) وإنهم ( لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ) ( يوم لا ينفع مال ولا بنون ) ( يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ) يوم يأتى الظالمون الذين خرجوا عن جادة الدين مصفدين ، لا تفهمهم أمانيتهم ، ولا ما كانوا يجادلون به عن أنفسهم ، ولا ما اختزنوه من أموالهم ، كأنما غرهم بالله الغرور . وهذه كلها صور مبثوثة فى القرآن الكريم وكان الواجب يُبثثون فيها ويُعيلون ، والطراح يتبعهم ، فينسجها شعراً زاجراً الأغنياء الذين يكتزون الذهب والفضة قائلين لهم : إنهم لن يفلحوا أبداً ، فإنهم يضيعون ما أعطاهم الله من فضله ، فلا ينفقونه فى وجهه الدى من الصلقات ، يحسبون ذلك خيراً لهم ( بل هو شرٌّ لهم سيُطوفون ما بخلوا به يوم القيامة ) . وإنه لىنهى الأبيات بفكرة الموت التى تتردد فى الذكر الحكيم كثيراً من مثل قوله تعالى ( كل نفس ذائقة الموت ) ( وإنك ميتٌ وإنهم ميتون ) . وفى كل مكان من شعر الشعراء نجد فكرة الموت وأن أحداً لا يخلد ، فالحياة الباقية هى الحياة الآخرة ، أما هذه الحياة الدنيا فلا ينبغي لأحد أن يتمسك بها لأنها فانية ، واستمع إلى هذا الشعر لقطرى بن القسجاء<sup>(٣)</sup> .

أقول لها وقد طارت شحاعاً  
فإنك لو سألت بقاء يوم  
فصبراً فى مجال الموت صبراً  
ولا ثوب البقاء بثوب عز  
من الأبطال ويحك لن تسراعى  
على الأجل الذى لك لن تطاعى  
فما نيل الخلود بمستطاع  
فيطوى عن أخى الخنع البراع<sup>(٤)</sup>

(٣) ديوان الحامية لأبي تمام (طبع صبيح) ١/٣٣ .

(٤) الخنع : الأكل ، البراع : الجبان .

(١) يستنع : يتأدى ، والفند : الحق .

(٢) يأن : يبلغ .

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حِيٍّ فداعيه لأهل الأرض داعي

وواضح أن هذا الشعر الحماسي مطبوعٌ بطابع ديني لا نعرفه في الحماسة الجاهلية ، ففيه إيمان عميق بأن الدنيا زائلة ، وأن لا شيء باق على وجهها ، وأنه قد كُتِبَ لكل شخص أجل معلوم ، لا ينقص ولا يزيد .

وطبيعي أن هؤلاء الشعراء الأمويين الذين حفظوا القرآن الكريم وكانوا يتلونه كل يوم في صلاتهم ، ومن حولهم الوُعَاظُ والقُصَّاصُ يعظونهم ، ويوجهونهم إلى ربهم ، ويلقون الفزع في قلوبهم من عذابه وعقابه ، لا بد أن يتأثروا بذلك في نفسياتهم وفي شعرهم على نحو ما نرى الآن عند الطرماح وقطري ، وكما يترآى عند وضَّاح اليمنى في قوله<sup>(١)</sup> :

صَلِّ لَدَى العَرْشِ واتخذ قَدَمًا تُنْجِيكَ يَوْمَ العِثَارِ والزَّالِلِ

وكان من هؤلاء الشعراء مَنْ يتصلون مباشرةً بالدين ، إذ كان منهم الفقهاء والوعاظ ، مثل عُرْوَةَ بن لُدَيْنَةَ فقيه المدينة الذي يقول في بعض شعره<sup>(٢)</sup> :

نُرَاعُ إِذَا البِخَانِزُ قابِلَتْنَا وَبِحَزْنِنَا بَكَاءُ البَاكِيَاتِ  
كَرْوَعَةٍ نَلَّةٍ لِمُنَارٍ سَبَعٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتْ رَانِعَاتِ

وواضح أن عروة يؤثب هؤلاء الذين يرَاعون عند الموت ، ثم يلهون ويلعبون ، كأنهم لا يعقلون ولا يعنون .

وهناك فكرة تكررت كثيراً في بيئات الزهاد والنسّاك، وعبروا عنها في صور مختلفة ، وهي تقوم على عدم التفكير في رزق غد ، لأن ذلك يكون معناه عدم التوكل على الله ، وفي الحديث الشريف « لو توكلتم على الله حتى توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماماً وتروح بطاناً » وقد تتابع النسّاك بأبون التفكير في الغد والرزق الآجل ، حتى ليقول سفيان بن عيينة : « فكرك في رزق غد يكسب عليك خطيئة<sup>(٣)</sup> » . ويروى عن مسروق بن الأجدع أحد زهاد الكوفة ووعاظها

(١) أغاني (طبع دار الكتب ٢٩٩/٦ . (٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨/٣ .

(٢) البيان ٢٠١/٣ والحيوان ٥٠٧/٦ .

أن زوجه قالت له يوماً : « ما أصبح لعمالك اليوم رزقٌ ، فتبسم وقال : « والله ليأتينهم الله برزق<sup>(١)</sup> » ، وكان أُوَيْسُ الْقَرَنِيُّ يقول : « إن معرفة المؤمن بحقوق الله لم تُبَيَّنْ له فضة ولا ذهباً<sup>(٢)</sup> » . فكانوا يستنكفون أن يجمعوا مالا<sup>(٣)</sup> أو يفكروا في أجل رزقهم ، وصور ذلك كله شعراً بديعاً عروة بن أذينة ، إذ يقول<sup>(٤)</sup> :

لقد علمت وما الإشراف من خلقتي      أن الذي هو رزق سوف يأتيني  
أسعى له فيعنيني تطلبه      ولو قصدت أثنى لا بعنيني  
كم قد أفلت وكم أتلفت من نشب      ومن معاريف رزق غير مسنون  
فاأشرت على يسر وما ضرعت      نفسي لخلعة عشر جاء ببسولني<sup>(٤)</sup>  
خبيمي كريم ونفسي لا تحدثني      أن الإله بلا رزق يخليني

فهو يعبر في وضوح عن فكرة التوكل على الله التي شاعت في بيئة الزهاد وما يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها ، وترك كل تصرف لقضاء الله ، وهو لا يهتم بعسر ولا يسر ، ولا يفكر في هم الرزق أو في هم القصد ، بل يدع تدبير ذلك لصاحب التدبير . وقد تناقش ، في هذا العصر ، مالك بن دينار فقيه البصرة ومحمد بن وسيع الأزدي أحد نساكها في السعادة ، وهل تكون في زرع قطعة من الأرض والعيش من غلتها أو تكون في غير ذلك ؟ وذهب ابن وسيع إلى أن السعيد هو الذي يُفْطِر في الصباح ولا يدرى ما يكون عشاؤه ، وأيضا ذلك الذي يجد عشاءه ولا يدرى ما يكون أكله في الصباح<sup>(٥)</sup> .

وكان الشعر في عصر بني أمية يستجيب لهذا كله وما شاع من وعظ الوعاظ وأقوال النساك ، وأنت لا تكاد تجد شاعراً إلا وقد أخذ في شعره من هذه الحياة بحظ يختلف قوة وضعفاً ، وحسب نفسيته وصلتها بالإسلام . ولعل من الطريف أن نعرف أن بعض الرُّجَّاز رأى أن يستهل بعض ما ينشئ من أراجيز بالحمد والثناء

(٤) أشرت : بطون . نرمت : دلت .

يلوني : يختبرني .

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام لمرشدنا

(طبع دار الكتاب المصري) ص ١٣٥ .

(١) ابن سعد ٥٤/٦ .

(٢) ابن سعد ١١٤/٦ .

(٣) أمال المرتضى ٤٠٩/١ وأغانى ١٠٩/٢١ .

والإشراف في البيت الأول : التطلع إلى ما فاتته من

أمور الدنيا ومكاسبها .

على الله بدلاً من الوقوف القديم بالأطلال والبكاء على الديار ، فأبو النجم المجلى  
يبتدئ أشهر أراجيزه بقوله : ( الحمد لله الوهب المَجْزِل ) بينما يبتدئ المَجْجَاجُ أم  
أراجيزه بقوله : ( قد جبر الدينَ الإلهُ فجبر ) ، وفي ديوانه أرجوزة يفتتحها  
بقوله (١) :

الحمد لله الذي استقلتِ بإذنه السماءُ واطمأنتِ

ويستمر ، فيتحدث عن خلق السموات والأرض ، وما يكون من البعث  
والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ . وكثيراً ما يعتربه هذا التحول في شعره  
وأراجيزه ، وهو تحول لا ترتاب في أنه كان أثر هذا الوعظ الديني ، الذي كان  
يستمع إليه الشعراء في العراق .

ومن طريف ما يلاحظ في هذا الجانب أنه ظهرت في الشعر أدعية وابتهالات  
على نحو ما نجد عند الزهاد والنسك ، وهي أدعية وابتهالات فيها فزعٌ من  
عذاب الله وعقابه ، وسكونٌ إلى رحمته ومغفرته ، من مثل قول ذي الرمة (٢) :

ياربِّ قد أشرفتُ نفسي وقد علمتُ      علماً يقيناً لقد أحصيتَ آثارِي  
يا مخرجَ الروح من جسمي إذا احتضرتُ      وفارجَ الكربِ زحزحتي عن النارِ

ويمتلىء ديوان ذي الرمة بعناصر إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وتقصيرها  
في السفر ، وما يكون من التيسم وتلاوة القرآن في السحر وأثناء الليل ، من مثل  
قوله (٣) :

إذا انجلي البرقُ عنه قام مبتهلاً      لله يستلوه بالنجم والطورِ

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من هذا كله ما يدل أوضح الدلالة على أن الشعر في  
عصر بني أمية تطور بتطور الحياة الدينية ، فقد كانت هذه الحياة في مستقر نفوس  
الشعراء وأوعية أوهامهم وأحلامهم ، فانطلق كثيرون منهم يذعنون ذلك في شعرهم ،  
حتى لتتحول قطع من نظمهم إلى عظات ، وابتهالات دينية .

ص ٦٦٧ .  
(٣) نفس المصدر ص ٢٨١ .

(١) ديوان المَجْجَاجِ (طبع ليسك) ص ٥ .  
(٢) ديوان ذي الرمة (طبعة كبريلج)

## الحياة العقلية

كان الإسلام سبباً في أن خرج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومعروف أن الأمم في الدور الأول لا تحقق لنفسها نهضة فكرية ، فحياتها العقلية لا تزال تتحدّها أسوار السذاجة والطفولة . وقد نقل الإسلام العرب نقلة كبيرة ، فقد استولى فيما استولى عليه عند الأمم المفتوحة على جميع تراثها العقلي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، فما هي إلا عَشِيَّةٌ أو ضُحَاها ، حتى أخذت سيول الثقافات الأجنبية التي كانت مبعوثه في العراق والشام ومصر تنحدر إلى مجرى النهر العربي وتحدث تطوراً هائلاً في حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت في هذا العصر حركات تعليمية كثيرة ، على رأسها الحركة الدينية التي عُنيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، كما عُنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامي الذي لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية ، بل وسَّعوه حتى شمل كل فروع الحياة المدنية والسياسية . وكانت الأصول التي تُستَمَدُّ منها قواعد هذا الفقه هي القرآن والحديث وإجماع المسلمين ثم القياس . ومعنى ذلك أن الاستنتاج والرأي الشخصي احتسرا في الفقه الإسلامي منذ أول الأمر ، يشهد لذلك ما رُوِيَ عن الحسن البصري من أن شخصاً سأله عن بعض فتاويه : أبرأيه أم سمعها ، فقال : « لا والله ما كل ما نُفُتِي به سمعناه <sup>(١)</sup> . »

وقد أخذت تُؤسَّسُ في كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية ، فكان في مكة عيكرمة ، وعطاء وابن أبي سليكة . وفي المدينة سالم ، ونافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة بن الزبير ، والزهري . وفي اليمن يرب ابن مُنَبِّه طاووس . وفي مصر الصَّابِجِي ، وأبو تميم ، ويزيد بن عبد الله البَرِّي . وفي الشام

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٠ .

شَهْرُ بن حَوْشَب ، ورجاء بن حَبِيبَةَ الكِنْدِي ، وهانئ بن كلثوم ، ومكحول والأوزاعي . وفي خراسان عطاء بن مسلم والضحاك بن مزاحم . وفي الكوفة النخعي والشعبي ، وشريح بن الحارث القاضي ، وسعيد بن جببير . وفي البصرة الحسن وابن سيرين ، وقتادة ، وإياس بن معاوية ، ومالك بن دينار ، وأيوب السخيتاني . وهؤلاء الفقهاء من عرب وموال أخذوا يُشترعون للناس أمور دينهم وديناهم . وكان للأخذ بأصل القياس في الفتوى أثر واسع في اختلافهم في مسائل كثيرة . واشتهرت بيثة الحجاز بغلبة الحديث عليها ، كما اشتهرت بيثة العراق بغلبة القياس ، ولذلك نبغ منهم من سموا أهل الرأي <sup>(١)</sup> . واختلافات كثيرة قامت بين البيتين في الأحكام والآراء ، إلا أن ذلك لم يُحدث حرجاً ، فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلاف أمتي رحمة » وعن يحيى ابن سعيد : « أهل العلم أهل توسعة ، وما يترجح المُفْتُونَ يختلفون ، فيُحْتَلَل هذا ويُحْرَم هذا ، فلا يعيب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا <sup>(٢)</sup> » .

وكان هذا الاختلاف مَحْكَمًا للعقول ومَشْحَدَةً للأفكار ، فكان هؤلاء الفقهاء وتلاميذهم يبحثون في وجوه وأسبابه ، حتى بلغ من أيوب السخيتاني أن قال : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف <sup>(٣)</sup> » : وكان من آثاره أن بعض الفقهاء كان يتحرج في الفتوى ، فقد روى عن النخعي أنه كان لا يقول عن شيء إنه حرام مطلقاً أو حلال مطلقاً ، ولكن يقول : إن هذا يتكرهه الصحابة وذلك يستحسنونه <sup>(٤)</sup> . ولكن أمثال النخعي كانوا قليلين ، وكانت الكثرة تذهب إلى الحكم البين والفتوى الواضحة . وسرعان ما رأينا الفقهاء يتحاورون فيما بينهم ، فكان الشعبي يجلس في مجالسه وأصحابه يناظرونه في الفقه <sup>(٥)</sup> . ولم تقف هذه المناظرات والمجادلات عند بيثة الفقهاء ، بل انتقلت إلى مجالس الخلفاء ، فقد روى أن سليمان بن عبد الملك جمع بين قتادة والزُّهري ، فغلبه

(٤) سنن الدارمي (طبعة دمشق) ١/٦٤١

وانظر ابن سعد ٦/٢٤٤ .

(٥) بيان ٢/٣٢٢ .

(١) المعارف لابن قتيبة (طبعة وستفيلد)

ص ٢٤٨ .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢٨٢ .

(٣) بيان ٢/٩٨ .



قتادة<sup>(١)</sup>. وكانت هذه المجادلات تأخذ أحياناً شكل أسئلة ، روى ابن سعد أن  
 إلياس بن معاوية حين قدم وأسطحاً جعلوا يقولون: قَدِمَ البَصْرِيُّ ، فأتاه  
 ابن شُبْرمة بمسائل قد أعدّها له ، فجلس بين يديه ، فقال : أتأذن لي أن أسألك ،  
 قال : ما ارتبْتُ بك حقاً ، استأذنتني ، إن كانت لا تُعنتُ القائل ولا تؤذي  
 الجليسَ فسَلْ ، فسأله عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا يوماً إلا في ثلاث  
 مسائل أو أربع ، ردّه فيها إلياس إلى قوله : ثم قال : يا ابن شبرمة هل قرأت  
 القرآن ؟ قال : نعم من أوله إلى آخره ، قال : فهل قرأت : ( اليوم أكملت لكم  
 دينكم وأتممت عليكم نعمتي ) ؟ قال : نعم وما قبلها وما بعدها قال : فهل وجدته  
 بقي لأل شبرمة شيء ينظرون فيه ؟ فقال : لا ، فقال له إلياس : إن للنسك فروعاً ،  
 فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد ، وقال إني لأعلمك تعلقت من النسك بشيء  
 أحسن من شيء في يدك : النظر في الرأي<sup>(٢)</sup> . وواضح أن إلياساً جعل النظر في  
 المسائل الفقهية وفروع الدين فوق النسك والعبادة .

وما من ريب في أن هذا النظر الفقهي وما طُورِي فيه من حوار وجدل كان له  
 أثره الواسع في العقل العربي العام حينئذ ، فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون  
 إلى هذه المجادلات والمناظرات . ومن طريف ما روى الرواة في هذا الصدد أن  
 الفرزدق كان يلزم حاكمه الحسن البصري ، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين<sup>(٣)</sup>  
 وحدّث صاحب الأغاني أن رجلاً سأل الحسن البصري يوماً وعنده الفرزدق  
 عن البمين اللغو في الكلام من مثل لا والله ، فقال الفرزدق له : أو ما سمعت  
 ما قلتُ في ذلك ؟ فقال الحسن . ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ فقال : قلت :

ولستُ بماخوذٍ بلغوٍ تقوله إذا لم تتعمد عاقداتِ العزائمِ

ولم ينسب أن جاء شخص آخر ، فسأل الحسن عن سبيّة الحرب المتزوجة  
 أتحل لمن سبها ؟ ، فقال الفرزدق أيضاً : أو ما سمعت ما قلتُ في ذلك ؟  
 وأنشد :

(٢) ابن عدي ١٦٩/٢ .

(١) بيان ٢٤٣/١ .  
 (٢) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .

وذا تِ حَكِيلٍ أَنْكَحْتَنَا وَمَا حُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَسْتَنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ<sup>(١)</sup>،  
وأظن في ذلك ما يدل أبلغ الدلالة على صلة الشاعر الأموي بكل ما كان  
يجرى في بيئات الفقهاء . والذي يهمنا حقاً أنه كان يطّلع على وجوه الخلاف  
وكانت تدعم عقله وتغذي فكره .

وأخذت تتكوّن في هذا العصر وفي العراق خاصة بذور علم الحَيْسَل الذي  
شاع فيما بعد عند فقهاء الأحناف ؟ وهو علم يقوم على اتساع المخرج الذي يمكن  
أن يُخلّص من يقع في إشكال ديني ، وكان أهم جانب طُبّق فيه جانب الأيمان ،  
وقد أشار إليه جرير في بعض نقائضه ، فقال<sup>(٢)</sup> :

وَلَا خَيْبَرَ فِي مَالٍ عَلَيْهِ أَلِيَّةٌ وَلَا فِي يَمِينٍ غَيْرِ ذَاتِ مَخَارِمٍ

والأليّة : اليمين ، والمخارم : الطرق في الجبال ، ويريد بها جرير هنا الطرق  
التي يَمْضِي فيها التحليل والاستثناء . ويقول ذو الرمة في وصف سُرّاه بالليل<sup>(٣)</sup> :

طَوَى طِيئَةً فَوْقَ الْكَرَى جَفَنَ عَيْنِهِ عَلَى رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَانِ الْمُحَازِرِ<sup>(٤)</sup>  
قَلِيلاً كَتَحْلِيلِ الْأُولَى ثُمَّ قَلَّصَتْ بِهِ شِيْمَةً رَوْعَاءُ تَقْلِيصَ طَائِرٍ<sup>(٥)</sup>

فهو يشبه إخفائه وانتباهه السريع في السفر بتحليل الأليّة جمع ألوة وهي  
اليمين . فالشعر لم يكن غائباً عن مجالس الفقهاء ، بل كان حاضراً ، وكان  
يقظاً لكل ما يصدر منهم ، وإذن فما كان في هذه المجالس من حجاج وجدل  
ومناظرات ، كل ذلك أخذ طريقه إلى عقول الشعراء . ويكفي أن نقرأ ما يروى في  
البيان والتبيين عن إياس بن معاوية ومدى ذكائه ومقلوته في الجدل والاحتجاج<sup>(٦)</sup>  
لنعرف إلى أي حد كان يؤثر هؤلاء الفقهاء فيمن حولهم من شعراء وغير شعراء .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٤/١٩ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان)  
ص ٧٥٤ .

(٣) الديوان ص ٢٩٤ .

(٤) يقول ذو الرمة إنه أغضض عينه على نوم  
قليل . وقوله من جنان المحاذر أي ما أجهت صدره

من الخوف .

(٥) يقول ذو الرمة إن شيمته رائحة ، وقلصت

به تقليص طائر أي ارتفعت ارتفاع الطائر في

سرعة ، يريد أنها قوية .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٩٨ وما بعدها .

وأعلنت تظهر بجانب ذلك أبحاث في العقيدة ، وظهرت معها مقدمات علم الكلام . وكان من أهم المسائل التي عُرِضت للبحث مسألة الإيمان وهل من الضروري أن يُرْفَقَ بالعمل أو ليس ذلك من الضروري ؟ فالمسلم يعدُّ مؤمناً وإن جازَ عن طريق القصد ، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مسلم ومسلم ، فالجميع من أهل القبلة ، وإن عصوا ، أو لم يؤدوا الفروض الدينية ! .

وذهبت تدعو هذه الدعوة فيئةً سميت بالمرجئية ، وكان من أهم ما دعت إليه تركُّ الحكم على مصير الناس إلى ربهم ، فعلى وعثمان ومعاوية مؤمنون ، ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك كل مسلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله ، فيكفي أن يكون مسلماً ، أما عمله فذلك لربه ، حتى ولو لم يصم ولم يصل فهو مسلم ولا يصح أن يُطْرَدَ من حظيرة الإسلام .

وبذلك كان أول مبادئ المرجئة إرجاء الحكم على المسلم وترك أمره لربه حتى لو أهمل الفروض الدينية ، بل حتى لو اقترف المعاصي والآثام . وكثرتهم تؤمن بالجبر وتمطيل حرية الإنسان أمام القدر . وكان منهم من يرى أن تُردَّ الخلافة إلى الأمة فلا تختص بها قريش سواء بيئها الأموي الحاكم أو البيت العلوي .

ومن هنا كان مذهب المرجئة مثاراً لمناظرات ومجادلات كثيرة في العراق ، وخاصة في الكوفة دار الشيعة ومستقرهم منذ على ، فكانوا ما يزالون يتحاورون معهم ويتناقشون ، يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلاً كان يأتي النخعي فيتعلم منه ، فيسمع قوماً يذكرّون أمر على وعثمان ، فقال : أنا أتعلم من هذا الرجل ، وأرى الناس مختلفين في أمر على وعثمان ، فسأل إبراهيم النخعي عن ذلك فقال ما أنا بسنيّ ولا مرجئي<sup>(١)</sup> . والسنيّ نسبة إلى عبد الله بن سبأ أحد غلاة الشيعة . وفي البيان والتبيين لبعض الشعراء<sup>(٢)</sup> .

إذا المرّجئيُّ مرّك أن تراهُ يموت بدائه من قبل موتهُ  
فجددٌ عنده ذكري على وصل على النبي وأهل بيته

ويظهر أن الجدل في الإرجاء اتسع ، فنحن نجد منتقل إلى مجالس الخلفاء فقد روي أن عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة رحل إليه من الكوفة عوف بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، ومعه أبو الصباح موسى بن أبي كثير وعمر بن حمزة ، فكلموه في الإرجاء وناظروه ؛ فزعموا أنه واقفهم ولم يخالفهم في شيء منه (١) .

ونجد في هذا العصر شاعراً ثبت في شعره آراء المرجئة الجبرية ، ويوضح أصول العقيدة التي اعتنقوها ، وهو ثابت قطننة الذي نشأ في العراق ، ثم تقلب في حروب خراسان قائداً وأعمالاً من عمال الثغور ، واستمع إليه يقول (٢) :

نُرْجَى الأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مُشَبَّهَةً      وَنَصَلِقُ القَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدَا  
المسلمون على الإسلام كلهم      والمشركون أشتموا دينهم قديماً (٣)  
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً      م الناس شركاً إذا ما حلتوا الصمداً  
ما قضى الله من أمر فليس له      رد وما يقض من شيء يكن رشداً  
ن الحوارج مخط في مقالته      ولو تعبد فبا قال واجتهداً  
أما على عثمان فإنهما      عبدان لم يشركا بالله مذ عبداً

وهذه وثيقة طريفة أودع فيها ثابت رأى المرجئة ، فهم لا يحكمون على الأمور المشبهة ، وهم في الوقت نفسه لا يكفرون أحداً من المسلمين على نحو ما يصنع الحوارج إذ كفروا عامة المسلمين ، وزعموا أن دارهم دار حرب ، فيجب أن يقاتلوا أو يتبعوهم على مذهبهم . ثم هم يرجئون الحكم على عثمان وصاحبه على ، فهم مرجئة ، يرجئون الحكومة على الأعمال

وأشار ثابت في البيت الرابع من أبياته إلى مسألة أخرى لعبت دوراً طويلاً في تاريخ علم العقائد الإسلامي أو علم الكلام ، وهي مسألة الجبر والاختيار في إرادة الإنسان وأعماله . وقد التحم في هذه المسألة علم العقائد المسيحي (٤)

(١) ابن سعد ٢١٨/٦ .  
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٠/٦٣ .  
(٣) أشتموا : فرقوا . قننوا : فرقوا بخلفية الأمواء .  
(٤) انظر في ذلك الجساسة الإسلامية لفون كزيمر ص ٦٦ وكذلك انظر تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور ص ٤٩ .

(١) ابن سعد ٢١٨/٦ .  
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٥٠/٦٣ .  
(٣) أشتموا : فرقوا . قننوا : فرقوا بخلفية الأمواء .

بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من آي ونصوص ، قد يُفهم منها الجبر أو يفهم منها الاختيار . وواضح من بيت ثابت أنه من الجبرية وكل من المرجحة من لا يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة أمام القدر . وبملك فريقين : فريقاً جبرياً وفريقاً قدرياً . ومعروف أن القدرية هم الذين بحرية الإرادة ، حتى يحمل الإنسان وزراً ما يرتكبه من أعمال . ويظهر أنهم أحسوا في الجبر لا دعوةً للاتكال والتهاون والركون إلى القدر فحسب ، بل أحسوا فيه دعوة سياسية ماكرة لبني أمية لأنه يفضى بالناس إلى أن يعتقدوا أن حكم بني أمية مهما ظلموا قدرٌ مقدور ، سبق لهم في أم الكتاب ، فلا داعي لتقديم ولا للخروج عليهم .

ويمثل النزعة الجبرية في وضوح من خلفاء بني أمية عبد الملك بن مروان فإنه استقدم عمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه في حمص ، ليصالحه ثم غدر به وقتله ، ونادى في أصحابه : « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذي لا يمكن تحجُّبه » (١) .

وإذا كانت الكوفة قد عُرُفت بمناقشاتهما ومناظراتها لهذا العصر في الإرجاء فإن البصرة عُرُفت بمحاوَزاتها ومجادلاتها في القدر . وزعيم القائلين فيها بالقدر غير منازع الحسن البصري ، ويُروى أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهنسي كانا يأتيانه فيقولان : « إن هؤلاء الملوك (بني أمية) على قدر الله فيقول كذب أعداء الله » (٢) . وفي دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة طريفة موجهة من الحسن البصري إلى عبد الملك يرد فيها على ما سأله عنه من قوله بالقدر ، وقد تحمس فيها الحسن تحمساً شديداً للمذهب القدر ، وأتى بكل ما يستنسه من آي القرآن ونصوص الحديث . ويظهر أنه كان دائم الجدال في هذه المسألة بثبورها في مجالسه ، وبثبورها معه من يستمعون إليه ، فقد روى عن أيوب السخيتاني أنه كان يقول : « نازلت الحسن في القدر غير مرة » (٣) .

وقد ظهر في مجالسه كثير من شُعب القول بالقدر كشعبة العدل وأن الله

(١) الإمامة والسياسة (نشر المكتبة التجارية)

(٢) المعارف ص ٢٢٥ .

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١٢٢ .

لا يظلم أحداً ، ففي الذكر الحكيم ( إن الله لا يظلم مثقال ذرة ) . وهي فكرة تتصل مباشرة بجرية الإرادة وأن كل إنسان يُجْزَى حسب عمله ، وكان الحسن يؤمن بها<sup>(١)</sup> ، وبأصلها من فكرة الإرادة وحرية العمل . ولعل من الطريف أن نجد الحجاج حين يحضّر يُنشد هذا الشعر<sup>(٢)</sup> :

إنَّ ذنبي وزنُّ السموات والأر ض وظنِّي بخالقي أن يُحِبَّني  
فلنَّ منْ بالرضا فهو ظني وثنَّ مرَّ بالكتاب عدلاني  
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظلم ربُّ يرُجى لحسن المآبِ  
وهنا شعر يتصل مباشرة بفكرة العدل على الله وأنه لا يظلم أحداً نقيراً . وكما ظهرت هذه المسألة في مجالس الحسن ظهرت مسألة أخرى ، دلت على فكر دقيق ، وهي مسألة مرتكب الكبيرة الذي تكفَّره الخوارج ، فقد ذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق ، وذهب تلميذه واصل إلى أنه في منزلة بين المتزتين ، أي منزلة بين الإيمان والكفر<sup>(٣)</sup> .

ويقول الرواة إن الحسن البصري كان يجمع بين واصل وتلميذ له آخر هو عمرو ابن عبَّيد ليتناظرا في هذه المسألة . وروى المرتضى في أماليه إحدى مناظراتهم<sup>(٤)</sup> وهي تصور في وضوح دقة الفكر التي وصل إليها الناس في العصر الأموي .

ولم يكن الشعراء بمعزل عن هذا كله ، بل شاركوا فيه . فذو الرِّمَّة مثلا كان على مذهب القدر وما يتصل به من فكرة العدل ، يشهد لذلك ما يروى من أنه اختصم فيه مع رؤيَّة الذي كان يرى رأى الجبرية ، فقال رؤيَّة : « والله ما فحَّص طائر أفحوصاً<sup>(٥)</sup> ولا تفرمَّص سبع قرموصاً<sup>(٦)</sup> إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيبائل<sup>(٧)</sup> ضرائك<sup>(٨)</sup> ، فقال رؤيَّة : أفبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على ربِّ الذئب<sup>(٩)</sup> . »

(١) أمال المرتضى ١٠٢/١ .  
(٢) ذيل الأمالي والتوادر طبع ( دار الكتب المصرية ) ص ١٧٢ .  
(٣) المثل والنحل للشهرستاني ( طبع لندن ) ص ٣٣ .  
(٤) أمال المرتضى ١٦٥/١ وما بعدها .  
(٥) أفحوص الطائر : مجسه الذي يقمصه .  
(٦) القرموص : بيت السبع ، أو المكان يأوي إليه .  
(٧) العيبائل : جمع عيبل وهو ذو العيال .  
(٨) الضرائك : جمع ضريك وهو الفقير .  
(٩) أمال المرتضى ١٩/١ .

وواضح أن ذا الرمة : يأخذ بمذهب القدرية بينما يأخذ رؤبة بمذهب الجبرية .  
وعن إسحق بن سويد أنه قال : « أنشدني ذو الرمة قوله :  
وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألياب ما تفعل الحمر

فقلت له : هلا قلت فعولين ، فأجاب لو قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كان خيراً لك » . يريد أن يعرفه أنه راغب عن فكرته في الجبر<sup>(١)</sup> .  
ف ذو الرمة شاعر قدرى وكان يقابله في الكفة الثانية أو في الصف الثاني رؤبة وجميع شعراء بني أمية الذين كانوا يمدحونهم وينالون جوائزهم ، فقد كانوا يرون سادتهم على مذهب الجبر ، فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه في تقرير خلافة بني أمية إما عن عقيدة ثابتة وإما من أجل إرضائهم . وفي كل مكان من شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء إلى الجبر في تقرير خلافة الأمويين وأن الله كتب ذلك ، ولا مفر منه ولا تبديل لكلماته ، يقول جرير<sup>(٢)</sup> :

نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربّه موسى على قدر  
والأمثلة في ديوانه وديوان صاحبه الفرزدق أكثر من أن ندر عليها بيت أو

أبيات ، واستمع إلى أعشى بني تغلب يقول<sup>(٣)</sup> :

وإن أمير المؤمنين وجرحه لكالدمر لا عار بما فعل الدهر

وهو يشير بذلك في صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلماً ، لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله .

وعلى هذا النحو كان الشعراء في عصر بني أمية يُصَبِّغ شعريهم بكل ما يدور في بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام ، بل رأينا منهم من كان يشترك في المناقشات الدائرة في هذه البيئات كما مرّ بين ذي الرمة ورؤبة ، فالجو كله كان جواً بحث ، وكان كل شاعر يعرض عقله ورأيه فيه . ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك مسألة من المسائل في هذا العصر إلا وتناقش فيها الناس في سلمهم وحريهم ، وفي

(٣) (أغانى طبع دارالكتب) ٢٨٢/١١ .

(١) أغانى طبع الساسى ١١٧/١٦ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

مساجدهم وطرقاتهم ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون . وكذلك الحوارج يمدعون إلى المناقشة والمناظرة على نحو ما دعا الحرورية مطرف<sup>(١)</sup> بن عبد الله بن الشخير . وكانوا يتجادلون ويتناظرون أيضاً فيما بينهم ، مما دعا إلى كثرة الانقسام في صفوفهم ، حتى قال زيد بن جندب خطيب الأزارقة<sup>(٢)</sup> :

ما كان أغنى رجلاً ضلَّ معيهمُ عن الجدال وأغناهم عن الخطبِ  
كنا أناساً على دين ففرقنا طولُ الجدالِ وخطأُ الجِدِّ باللعبِ

فلم تكنْ في هذا العصر نحلة ولا فكرة إلا وكانت موضعاً لمناظرات ومجادلات شتى .

وقد انسابت هذه المجادلات والمناظرات في شعر الشعراء ، فكثُر شعراء الفرق من شيعة وخوارج وأمويين ، وكثُر شعراء الجبرية والمرجئة والقدرية ، واحتدم الحجاج والحوارُ بين هؤلاء الشعراء جميعاً ، حتى لنجد شاعراً يؤلف ديواناً في الاستدلال للهاشميين وبيت على خاصة ، وهو الكُمَيْتُ بن زيد ، فقد ألف ديوانه (الهاشميات) انتصاراً لزيد بن علي بن الحسين إمام الطائفة المعروفة بالزيدية ، وكان زيد تلميذاً<sup>(٣)</sup> لواصل بن عطاء ، ومعنى ذلك أنه كان من المعتزلة ، وكذلك جميع الزيدية . وإذن فالكُميت أيضاً يُعَدُّ من المعتزلة .

والكُميت من هذه الناحية شخصية طريفة لأنه من جهة يُعَدُّ من المعتزلة ومن جهة يعد من الشيعة ، وديوانه لذلك يصور الناحيتين ، ويكشف عن مدى ما أصاب التفكير الفنى في هذا العصر من تطور ، إذ نجد هذا التفكير يتحول إلى جدال وطرق استدلال لم تكن نألفها في القديم ، فقد أصبح الشاعر يعنتق نظرية سياسية خاصة يؤمن بها ويجعلها محور شعره ، كما أصبح مثقفاً بطرق الجدال والحوار المعاصرة وهو يُطبِّقها في شعره تطبيقاً ، ويُخضع نفسه وفنه لأساليبها إخضاعاً

(٣) انظر الشهرستاني ص ١١٥ - ١١٦ .

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٠٤ .

(٢) بيان ٤٢/١ .



وإذا كان الكميّ في « هاشمياته » يتصل مباشرة بالمناظرات المعاصرة له في الشيعة وغيرهم ، فقد وُجِدَ من ورائه من لم يحاولوا تأليف ديوان خاص في نِحْلَةِ من النحل ، ومع ذلك تأثروا بهذه المناظرات في طرق تفكيرهم . ويكفي أن نرجع إلى نقائض جرير والفرزدق في قَيْسٍ وتَمِيمٍ لنعرف أن هذه النقائض لم تكن في حقيقة الأمر سوى مناظرات عتقدها الشاعران التميميان في عصبيات وأيام قديمة ، وقد أخذ كل منهما يحاول أن يتفوق على خصمه تماماً كما يصنع المناظران في نحلة من النحل أو عقيدة من العقائد .

فالنقائض التي اشتهرت في تاريخ الشعر الأموي ليست إلاّ مناظرات بالمعنى اللطيق لهذه الكلمة ، وسنعرض في الفصل التالي لصورتها ونشأتها . ونحن ننبّه منذ الآن إلى أنها فنّ أموي غنّده وطوّرتَه هذه البيئة الجدلّية بيئة العراق وما انبثّ فيها من طرق حوار واستدلال في كل شيء ، وهو حوار واستدلال لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير وتناول كل منهما قَيْسًا منه ألفًا على ضوئه هذه النقائض . وصرعان ما أقبل الأخطل بشاركهما في هذا الحوار أو قل هذه المناظرات وبعث فيها جانبًا جديدًا من المفاضلة بين قيس وتغلب . وكل ذلك يُرادُ به إلى التسلية وقطع أوقات الفراغ لقبائل العرب التي استقرت في العراق ، ولم يكن يراد به جدًّا ولا ما يشبه الجدل مما سنفصل فيه القول فيما بعد .

والحق أن عقلية الشاعر الأموي اختلفت تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر القديم ، فقد ثَقِفَ أشياء لم يكن يشقّقها الشاعر الجاهلي ، (يخضع في تفكيره لأشياء لم يكن يخضع لها الشاعر الجاهلي ، فأنتج (النقائض) و (هاشميات الكميّ) من جهة وأنتج عمقًا وطرافة في التفكير الفني نلاحظهما في معاني كثير من الأبيات من جهة أخرى .

ولعل أهم ما يلاحظ على تفكيره وعقليته وما طرأ عليهما من تطور أننا نحس عنده أنه أخذ يتناول حرفته تناولًا جديدًا ، عماده البحث والدرس اللذان أَلْفَسهما في بيئات الفقهاء وأصحاب التفكير في العقيدة الدينية من إرجاء وقدّر وجتّه وعدلّ ومتزلة تتوسط منزلتين ، كما توسطت منزلة صاحب الكبيرة بين الكفر والإيمان عند واصل .

وارجع إلى ديوان الفرزدق فإنك تجد فيه قصيدة لامية يفتخر فيها بأنه وريث شعراء الجاهلية من مثل امرئ القيس وعنتمة والمهكهل وطرفة والأعشى والمرقش ويشتر بن أبي خازم وعبيد وزهير، ويصف كل منهم وصفاً يدل على معرفته به ودراسته لشعره ، ويذكر ليبدأً فيقول<sup>(١)</sup> :

والجفري وكان بشرٌ قبله لي من قصائده الكتاب المجلدُ  
فهو يصرح بأن لديه نسخة مكتوبة من ديوان لبيد . ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن كتابة الشعر كانت متداولة في هذا العصر، ونحن لانستطيع أن نفهم ما يروى عن الفرزدق من أنه كان يأمر راويه حين يستمع إلى شعر فيستحسنه أن يضيفه إلى شعره<sup>(٢)</sup> إلا إذا كانت هناك نسخة مكتوبة من ديوانه ، حتى يضيف إليها الراوي الشعر الجديد .

قد يقال إن الشعراء كانوا أميين ولكن نصوصاً كثيرة تثبت أنهم كانوا كاتبين فجزير كان كاتباً<sup>(٣)</sup> وكذلك عمر بن أبي ربيعة<sup>(٤)</sup> والأحوص<sup>(٥)</sup> وعدي<sup>(٦)</sup> بن الرقاع ، ويروى الجاحظ أن ذا الرمة كان يقول لعيسى بن عمر : « أكتب شعري ، فالكتاب أحبُّ إليَّ من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يُبدل كلاماً بكلام<sup>(٧)</sup> »

فشاعر العصر الأموي كان شاعراً كاتباً وكان يكتب شعره وشعر غيره كما يدرسه ويبحثه وينقل عنه حين يريد النقل ويحوره حين يريد التحوير . ولعل مما يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد الصلة شديدة بين معاني الشاعر الأموي والشاعر الجاهلي . وتعرض كتب النقد الأدبي عند العرب كثيراً لأبيات في الجاهلية أعاد الأمويون صياغتها فاستكملوا الصورة وأتموها ، أو بينوا الفكرة ووضحوها ، فن ذلك أن النابغة شبه ثور الوحش في التماعه بالسيف المجرد من الغمد إذ يقول<sup>(٨)</sup> :

(٦) الشعر والشعراء (طبع ليدن) ص ٣٩٢ .

(٧) الحيوان ٤١/١ .

(٨) الملتقات الشعر (طبع مطبعة الاستقامة)

ص ١٦٢ .

(١) الديوان ص ٧٢١ .

(٢) أغاني ٢٢/١٩ .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٢/٨ .

(٤) أغاني ٢٣٥/١ .

(٥) أغاني ٢٤٦/٤ وما بعدها .

من وحشٍ وجرةٍ موشى أكارعه طاولى المصير كسيف الصيفة لـ الفرد<sup>(١)</sup>  
فجاء من بعده الطيرمّاح ورأى أن يُبرز الصورة لإبرازاً جديداً، فشبّه الثور  
وهو يبدو تارة ويختفي أخرى بسيف في يد شخص بمكان عال ، وهو يسله تارة  
ويغمده تارة ، فقال<sup>(٢)</sup> :

يَبْدُو وتُضمّره البلاد كأنه سَيْفٌ على شرفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ  
ومن ذلك أن زهيراً تعرّض للموت والحياة ، فقال إن المنايا تتخبط على غير  
هُدًى فن تصبه يمت ، ومن تخطئه يعمرّ ويمتد به الأجل ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> :

رَأَيْتِ المنايا خَطَّ عَشْوَاءَ من تُصِيبُ ثَمَّتْهُ ومن تُخْطِي يُعَمَّرُ فِيهِمْ  
فأتى من بعده أبو النّجم العجلى ، ورأى أن يعبر عن هذه الفكرة تعبيراً  
جديداً أو قل رأى أن يبسطها بسطاً ، وأن يكشفها كشفاً ، فقال<sup>(٤)</sup> :

إنّ الفتى يصبحُ للأسقامِ كالغرض المنصوبِ للسّهامِ  
أخطاه رامٍ وأصاب رامٍ

فالشاعر الأموى تعلّق بمعرفة المعانى الجاهلية ، وأخضعها للدرس المنظّم على  
نحو ما كان المحدثون والفقهاء وأصحاب الكلام فى العقيدة الدينية يدرسون  
ويبحثون ، وقد أسعفته عقلية الجديدة ، التى بناها فى هذا العصر وما اندمج فيها  
من طرق جدال وحوار ، على كل ما أراد من تحوير وتوليد فى المعانى .

وربما كان أهم شيء رسب فى الشعر الأموى عن هذه العقلية الجديدة أننا  
نجد الشعراء يتخصصون فى موضوعات بعينها ، لا يتعلّونها إلى غيرها ، فعمربن  
ابن أبى زبيعة يذهب شعره فى الغزل ، وذو الرمة يذهب شعره ، أو يكاد ، فى  
وصف الصحراء ، ويرتقى الفرزدق وجرير بفضّ الهجاء ويحدثان فيه النقائض المعروفة .  
ولا شك فى أن هذا أثر من آثار العقلية العربية فى العصر الأموى وما أصابها

(١) وجرة: موضع كبير الوحش . وأكارعه :

قوائمه ، وشبها: بياضها مع انتشار نقط سوداء

فيها . والمصير : الممى ، كفى به عن البطن .

الفرد : المنفرد .

(٢) الديوان ص ٩١ .

(٣) المملقات الشعر ص ٩٤ .

(٤) الحيوان ٥٠٩/٦ .

من تطور ، فقد أخذ الناس يعيشون في فِحْل ونظريات معينة ، كـنظرية الخوارج ونظرية الشيعة ونظرية الجبر أو القدر ، يودعون فيها حياتهم كلها ولا يتعدونها إلى غيرها ، فتأثرهم الشعراء وحولوا موضوعات الشعر إلى ما يشبه النحلة من التحل ، وعاشوا في الموضوع ، الذي اختاروه أو كادوا ، حياتهم كلها .

وليس هذا كل ما أحرزه الشعر في العصر الأموي عن طريق العقلية الجديدة وما شاع من بحث ودرس للمسائل وما كان من الصلة بين الشعراء وبين المحدثين والفقهاء والمتناظرين في الإرجاء والخبر والقدر . فهناك جانب تعليمي في هذا الشعر لم نتحدث عنه حتى الآن ، وذلك أن الناس أخذوا يتخصصون في اللغة العربية نفسها وما يتصل بها من الشعر والأيام ، ثم من نحوها ولغتها ، فوجدت طبقة من الأدباء المعلمين ، ولم يابث أن انتظم فيهم بعض الشعراء مثل الطرمّاح وكان مؤدّباً للصبيان في الكوفة والرّي<sup>(١)</sup> ومثل الكُسميّت ، وكان أيضاً من المؤدّبين المعلمين<sup>(٢)</sup> .

والطريف أن وظيفة هؤلاء المعلمين وما يراد منهم من تثقيف الناشئة باللغة اضطرتهم إلى أن يؤلفوا كثيراً من شعرهم لهذه الغاية نفسها . ومن يرجع إلى ديوان الطرمّاح يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن شعره يمكن أن يُقسّم قسمين : قسماً واضحاً فيه مديحٌ وهجاء ، وقسماً غير واضح فيه حديثٌ عن الصحراء وكل ما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شيء إلى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها .

وهذه ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة في الشعر العربي قبل العصر الأموي عصر الدرس والتعليم ، فقد أخذ الشعر في بعض جوانبه أو قصائده يُعَبَّرُ لا عن حاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية . على أن طبقة المقصّدين من أمثال الطرمّاح والكميت لم تبلغ في هذا الباب من التعاليم اللغوية ما بلغته طبقة الرُّجّاز من أمثال رؤبة ، فمن يتعقب أخبارهم في كتب الأدب يلاحظ أن من أهم غاياتهم في شعرهم خدمة اللغة والمؤدّبين أو اللغويين القائمين عليها بما يمدونهم من الشواذ والشوارد بحيث أصبحت بعض أراجيزهم كأنها متون لغوية للحفظ والتسميع .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن مدى ما أصاب التفكير الفنى عند الشاعر

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٦٨ .

(١) البيان ٢/٣٢٣ .

الأمري من رقي وتطور ، فقد أخذ يلتحم هذا التضمير بكل ما كان في العصر من ثقافة فكرية أو عقلية . فالبناء الفنى للشعر لم تنفصل وحداته عن البناء العقلي العام بل قل إن هذا البناء أخذ يتشكل في أوضاع جديدة تحت تأثير الرقي الفكرى الذى أصاب العقيلة العربية .

## ٣

## الحياة السياسية

لم تكن الحياة السياسية في عصر بنى أمية حياة هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يُعَدُّون في رأى كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ، والبلد الوحيد الذى كان هادئاً إلى حد ما هو الشام ، فقد وجدأهله من بنى أمية ورتة شرعيين لآل جفنة ، واستطاعوا عن طريقهم أن يحققوا ما لم يكونوا يلمنون به في القديم ، إذ أشرفوا وسادوا لا على العراق ، مركز المناذرة خصومهم في الجاهلية ، فحسب ، بل على العالم الإسلامى كله .

ولذا تركنا الشام إلى الحجاز والعراق وجدنا فيهما فنوتاً من السخط على بنى أمية وحكومتهم ، وسرعان ما تكونت تحت تأثير هذا السخط أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانتفاض عليهم ، وهى أحزاب الزُبَيْريين والحوارج والشيعة . وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أحتق بها من المسلمين . أما حزب الزبيريين وهم أتباع عبد الله بن الزُبَيْر فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ، وأن يتولأها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية . بينما كان حزب الحوارج في العراق يرى أن تُردَّ الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعاً ، ليولأوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها . وكان بجوارهم في العراق أيضاً حزب الشيعة وكان يرى أن تُردَّ الخلافة إلى بنى هاشم ، فهم بيت الرسول ، وهم أصحابها الحقيقيين .

وحزبُ الزبيريين في الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عُمرًا ، فقد ظهر مع

دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية ، حتى إذا توفى يزيد أجبته الحجاز كلها ، كما أجبته مصر والعراق وبعض بلدان الشام . ولكن لا نكاد نمضي بعد ذلك حتى نجد سرّوان بن الحكم يظهر في الشام ومعه ككّاب والقبائل اليمنية ؛ فيقضي هناك على قبائل قيس في موقعة مرّج راهط المشهورة ، التي تُعدُّ صِفِينًا ثانية ، ويصبح الشام خالصًا له ، ويستولى على مصر . ثم يتولى الخلافة من بعده ابنه عبد الملك ، فيقتل مصعب بن الزبير ، وإلى أخيه عبد الله على العراق ، ويرسل الحجاج إلى ابن الزبير في مكة فيحاصره ثم يقتله . وبقتل عبد الله بن الزبير ينتهي هذا الحزب الذي استمر نحو ثمانى سنوات ؛ وهي مدة قليلة لا تكفى لتكوين نظرية سياسية ، أو عبارة أدق لم تتكوّن في أثنائها نظرية سياسية واضحة المعالم . ولذلك كان هذا الحزب أضعف الأحزاب في هذا العصر من حيث تمثيل فكرته عند الشعراء ، وأكثر ما تكوّن حوله من شعر نجله في حروب القيسية واليمينية في الشام . وفي الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذري حفظٌ لا بأس به من هذا الشعر ، وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة على نحو ما كان الشعر في العصر الجاهلي .

وأهم شاعر اتصل بهذا الحزب واشتهر بزبيريته هو ابن قيس الرقيبات ، فقد اتصل بمصعب ؛ وتخصص به حتى كاد يكون شاعره ، وله فيه مدائح كثيرة ، وقد ذهب يتغنى بزوجته سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وما امتازتا به من جمال باهر ، وفي الوقت نفسه كان يتغزل غزلاً مُفحشاً بأمّ البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، يُريد أن يسقطها من عليائها على سفح غزله الفاضح ، وفي شعره ثورة واضحة على عبد الملك وأصحابه من أهل الشام من مثل (١) :

كيف نومي على الفراش ولا تشمّل الشام غارة شعواء  
تذهيلُ الشيخ عن بنييه وتبلى عن برآها (٢) العقيلة العلواء

ولكننا قلنا نجد بعد ذلك في ديوانه شيئاً واضحاً عن حقيقة هذا الحزب وأسس

(٢) البرى : الخلاخيل ، والعقيلة والمدراخنا : السيدة الكريمة .

(١) الديوان ص ٩٥ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٧٨/٥ .

دعوته ، وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة حين نزعم أن هذا الحزب لم تتكوّن له نظرية سياسية قوية الدعام .

وإذا كانت نظرية الزبيريين لم تأخذ فرصة واسعة كى تدعم جوانبها السياسية فإن حزبي الخوارج والشيعه أتيح لكل منهما أن يدعم نظريته في الخلافة وأن يسندهما بالأدلة البينة لسبب بسيط ، وهو أنهما لم يكونا حزبين عارضين في تاريخ هذا العصر كحزب الزبيريين ، بل كانا حزبين ثابتين مستقرين .

ومن يتعقب الحوادث يستطيع أن يلاحظ ظهور حزب الخوارج منذ مقتل عثمان ، فالذين ثاروا عليه من أهل العراق وشاركوا في قتله يمكن أن نعدّم مقدمه هذا الحزب وبدوره الأولى ، وهي بدور اكننت بعد مقتل عثمان والبيعة لعلي بن أبي طالب ، حتى إذا رضى بالتحكيم هبوا في وجهه ، كما هبوا سابقاً في وجه عثمان ، وكفروه كما كفروا سلفه ، محتجين بمثل قوله تعالى : ( فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله ) وقوله جلّ وعز : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) وقالوا لا حكم إلا لله ، وكأنهم أرادوا أن يردوا الدين والدولة إلى الله ، واعتزلوا علياً إلى حروراء بقر الكوفة وكأنهم أرادوا أن يهاجروا عن الجماعة الضالة على نحو ما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة<sup>(١)</sup> .

وسموا الخوارج لأنهم خرجوا على إمامهم الذي بايعوه ، وهو عليّ ، وقيل بل هم الذين سموا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى : ( ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ) . وسما أنفسهم الشراة أيضاً من قوله عز وجل : ( ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ) ويسمون الحرورية نسبة إلى حروراء التي اعتزلوا فيها علياً وجيشه أولاً .

وأساس مبادئهم جميعاً أن لا تقصّر الخلافة على قريش ، فالخلافة ليست حقاً لقريش بل هي حق لله ، وينبغي أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهداً وورعاً ولولم يكن قرشياً بل لو كان عبداً حبشياً . وقد خرجوا على المسلمين واعتبروا دارهم دار حرب فيجب أن يجاهلهم ، واستمروا في هذا الجهاد طوال عصر

بنى أمة . وكانوا بالمحصاة دائماً لمن يولونهم عليهم من أنفسهم ، بحيث إذا عدلوا عن الحادة راجعهم ، فإن رجحوا تركهم ولا عزلهم ، شأنهم سابقاً مع عثمان وعلى . وما يلاحظ عليهم أنهم كانوا سرعان ما يختلفون ويفترقون ، ولما اتفقوا على إمام ، ولذلك تعددت فِرَقهم ، وأهمها أربعة : الأزارقة ، والنَّجْدَات ، والصفريَّة ، والإباضيَّة .

والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق ثم قطري بن الفُجاءة . ومن أهم مراكزهم البطائح بالقرب من البصرة . وقد استولوا على فارس وكرمان ودوخوا عبيد الله بن زياد وإلى معاوية وابنه يزيد ، واستمروا حتى أرسل إليهم مصعب بن الزبير المهلب ، فما زال يحاربهم حتى ظفر بهم في عهد الحجاج . أما النَّجْدَات فهم أتباع نجدة بن عامر الحنقي ، وكان مسرح نشاطهم اليمامة وحضرموت والبحرين ، ورواهم الحجاج بعمر بن عبيد الله بن معمر فهزمهم وقضى عليهم قضاءً مبرماً . وأما الصفريَّة فهم أتباع زياد بن الأصغر ، وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة ، واشتبكوا مع الحجاج في حروب كثيرة ، ومن قوادم شبيب الشيباني الذي حارب الحجاج طويلاً ، وشوذب الذي ثار في عهد عمر ابن عبد العزيز ، والضحاك بن قيس الذي ثار في الأيام الأخيرة لبني أمة . وأما الإباضية فهم أتباع عبد الله بن إياض التميمي ، وكان مسرح نشاطهم حضرموت واليمن ، ومن أهم قوادم أبو حمزة الذي استولى على المدينة ومكة وخطب في الأخيرة خطبته المشهورة<sup>(١)</sup> ، ولم تلبث جنود مروان بن محمد أن قتله .

وإذا كنا لم نجد للزبيريين شعراء يمثلون نظريتهم فإن شعراء الخوارج كثيرون كثرة مفرطة ، وتمتلاء كتب الأدب بأشعارهم ومقطوعاتهم ، وهي تسيل حماسة وبطولة ومن أهم ما يميّزهم حقاً أنهم كانوا حزباً فدايياً ، فكل منهم يقبل على الموت وكأنه طلبته أو أمنيته ، وقد بلغ من شدة إيمانهم بمنهجهم ونظريتهم أن دوخت فئات قليلة منهم جمعواً غفيرة للأمويين وولاتهم في العراق . وما يروى

في طرابلس والجزائر وعمان وزنجبار .

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٢٢ والإباضية لا يزالون موجودين إلى اليوم ، وهم مشترون



من ذلك أن أبا بلال نخرج في أربعين بالأهواز لعهد عبيد الله بن زياد ، فرماه بجيش مؤلف من أئى رجل ، فثبت الأربعةون وفرّ الألفان ، وفي ذلك بقول أحد شعرائهم<sup>(١)</sup> :

ألفا مؤمنٌ سنكمُ زعممُ      ويقتلهم بأسك<sup>(٢)</sup> أربعونا  
كذبمُ ليسَ ذاكُ كما زعممُ      ولكنَّ الخوارج مؤمنونا  
همُ الفئةُ القليلةُ قد علمتمُ      على الفئةِ الكثيرةِ يُنصرونا

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : ( يا أيها النبي حرّض المومنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ) ، وقوله عزّ وجل : ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ) .

ويعتاز شعر هذا الحزب القدائى بأنه ينفذ إلى القلوب نفوذاً ، فهو شعر يصلر عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة ، إذ آمن كل خارجى أنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج حقّت عليه اللعنة بل حقت عليه النار ، ومن هنا يقول الطرماح<sup>(٣)</sup> :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاعَ له      إن لم أفرزْ فَوْزَةً تُنْجِي من النارِ  
والنارُ لم يَنْجُ من روعاتها أحدٌ      إلا المنيبُ بقلبِ المخلصِ الشَّارِي

فهو يرى الظلام مطبقاً عليه من كل جانب إلا أن يفوز بهذا النور الذى يراه عند الشّرة أو الخوارج ، والذى يرجو أن يظفر به حتى ينجو من روعات النار ، وكأنه يعتقد أن النار أعدت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة فى رأيه ! وقد ذهب يُشيد بالخوارج إشادة بالغة فى مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

للهِ درُ الشُّرأةِ إنهمُ      إذا الكرى مال بالطلاء<sup>(٥)</sup> أرقوا  
يُرجعون الحنين آونةً      وإن علا ساعةً بهم شهقوا  
خوفاً تبيت القلوبُ واجفةً      تكاد عنها الصلور تنفلقُ

(٤) الديوان ص ١٥٧ .  
(٥) الطلاء : جمع طلية وهى أصل العتق .

(١) طبرى ( طبع أوربا ) ١٨٧/٢ .  
(٢) أسك : موضع همدان .  
(٣) الديوان ص ١٤٩ .

كيف أَرْجَى الحياةَ بعلمٍ وقد مضى مؤنسىً فانطلقوا  
قومٌ شِحاحٌ على اعتقادهم بالفوز مما يُخاف قد وثقوا

وهذه صورة رائعة للخوارج ، إذ نرى الطرماح بصورهم مسهدين يتلون آيات الله ، ويشهقون في تلاوتها كلما مروا على آية كريمة بها ذكرٌ لعذاب ، فالقلوب تيبت واجفة من خوف ربها حتى لتكاد الصدور تشقق عنها ، وهم يموتون مستشهدين في هذه العقيدة التي عُرفوا بها ، وإنهم ليسترخصون أرواحهم في سبيلها واثقين من فوزهم برضوان ربهم وحنانه ، وإن الطرماح ليتمنى أن تكون خاتمته كخاتمهم ، واستمع إليه يقول (١) :

إذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن  
ولكن أحن يوى سعيداً بعصبة  
عصائب من شتى يؤلف بينهم  
فوارس من شبان ألف بينهم  
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى  
فأقتل قعصاً ثم يرُمى بأعظمي  
ويصبح لحمي بين طيرٍ مقبله

فهو يدعو ربه أن يكتب له الشهادة في معترك الحرب وأن لا يموت حتف أنفه ، فيحمل في نعش على أكف الرجال . إنه يريد أن يموت كإخوانه من شبان ، وهم الذين تتألف منهم أكثر طائفة الصُفريّة ، فهو صُفريّ ، وهو بشنى على أصحابه ويصفهم بالتقوى ، وأن هدى الله ألف بينهم . ويقول إنهم يستعدون الموت في سبيل عقيدتهم ، وإن كلامهم ليتمنى أمنية الطرماح أن يُقتل قعصاً ، أى يقتل في مكانه بالسيوف ، وأن يرُمى بأعظمه كضغث الخلا أو قبضة الكلا ، فتذروه الرياح ، أو تنحط إليه طير السماء ، حتى تم له التضحية في سبيل عقيدته .

وهكذا شعر الخوارج في هذا العصر شعر يعبر عن فدائية خالصة ، فهو كله

بطولة ، وحماسة . واستبسال في سبيل العقيدة ، وإقبال على حياض الموت الزؤام دون خوف أو وجل ، بل في رضا وطمأنينة واستبشار بفران الله ! . وما أظننا نبعد في وصفنا لهم بأنهم كانوا فدائيين ؛ فقد باعوا أنفسهم حقا في تحقيق فكرتهم ، وطلب كل منهم أن لا يموت في فراشه بل يموت قهصبا بالرماح ، وتخطفه الطير والسباع كما يقول الطرماح .

وشعر الخوارج كله يذهب هذا المذهب من الحماسة ، وهي حماسة دينية ؛ فقد آمنوا بعقيدتهم واعتقدوا خطأ أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعلوا الصراط المستقيم الذي تريده العناية الإلهية ! وهم يريدون أن يلوا المسلمين إليهم ، ولذلك يجارئونهم مستبسلين ، وكل منهم يريد أن يموت شهيدا في ساحة هذا الجهاد الديني الذي وهبوا أنفسهم له .

وكان يقابل حزب الخوارج في العراق حزب الشيعة ، وهو لا يقل أهمية عنه ، بل لعله أبعد منه خطرا في تاريخ الأمة الإسلامية . ويمكن أن نجد بنور هذا الحزب منذ أفضت الخلافة إلى أبي بكر وعمر ؛ فإن الحوادث التي وقعت بعد ذلك وانتهت بقتل عثمان تدل على أن بني هاشم كانوا يطمحون إلى الخلافة ، وأيضا فإن الناس حين سخطوا على عثمان أخذ كثير منهم يبحثون سرا عن خليفة جديد ، وكان علي أحد من اتجهت إليه الأنظار ، بل لقد أخذت تتكون له بطانة ، وهي التي سميت فيما بعد بالشيعة .

ومعنى ذلك أن الشيعة أخذوا في الظهور بشكل واضح قبل أن يقتتل عثمان ، فلما قُتِلَ أسرعوا إلى علي وبايعوه بالخلافة . ومن حيثئذ تكون هذا الحزب تكثرنا سياسيا ، وكان من أهم مبادئه أن يختار على للخلافة بصفته من بني هاشم الذين ينبغي أن تكون الخلافة خالصة لهم من دون الناس ، فهم آل الرسول ، وهم لذلك أولى الناس وأحقهم بخلافته .

ولما انتقل على إلى العراق واتخذ الكوفة حاضرة له كان من الطبيعي بعد ذلك أن تصبح حاضرة هذا الحزب ، وقد أخذ يشايه هناك كثير من أهل العراق بحكم أنه إمامهم ، ثم بحكم أنه نقل دولته إليهم ، فقد جعل الدولة العربية كلها دولتهم ،

ولذلك كان اسم على بعد قطه وتحول الخلافة إلى الشام يرمز إلى دولتهم المفقودة<sup>(١)</sup>. وقد وجد المولى في العراق من النبط والفرس وغيرهما في ظل علي ما لم يحققه لهم الأمويون ، إذ كان يذهب إلى المساواة بينهم وبين العرب في الحقوق . فكان هذا كله سبباً في أن تصبح العراق وأن تصبح الكوفة بنوع خاص مركز التشيع لعلي وآله .

ونستطيع بذلك أن نفهم كثرة الثورات في العراق في أثناء هذا العصر ، فأهله لم يكونوا من هوى بني أمية بل كانوا مغاضبين لهم ، وكانوا يشعرون مع أول ناثر ، وقد ثاروا مراراً على الحجاج ، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث عليه مشهورة ، وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ثار يزيد بن المهلب . وهي ثورات تدل على أن أهل العراق لم يكونوا راضين عن بني أمية ، وكانوا ينتهزون أي فرصة للخروج عليهم .

ولم تقم للشيعة في العراق ثورة منظمة في أثناء هذا العصر إلا ما كان من ثورة المختار الثقفي لعهد مصعب بن الزبير ، وسرعان ما قضى عليه وانتهت هذه الثورة . واتجه الشيعة منذ مقتل المختار إلى الدعوة السرية . والمتعقب لحركاتهم في عصر بني أمية يفاجأ مفاجأة بحركة أبي مسلم في خراسان ودعوته هناك ونجاح هذه الدعوة ، مما يدل دلالة صريحة على أن خراسان كانت قد أصبحت مركزاً مهماً من مراكز الدعوة الشيعية ، ولكن كيف انتقل التشيع هناك ؟ يقول قلهوزن إن زياداً والحجاج هما اللذان نقلاه هناك فإنهما دأبا على إرسال الجيوش العراقية إلى خراسان ، وبعثا معها بالعناصر المشاغبة في الكوفة والبصرة ، فأعداً بذلك للدخول التشيع هناك وانتشاره<sup>(٢)</sup>.

وأساس عقائد الشيعة الإمامة وأنها من حقوق البيت النبوي ، وقد ذهبوا إلى أن إمامة علي نص عليها الرسول عليه السلام ، فقد أوصى له ، ومن هنا تأتي عقيدة الوصية التي يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بأن أئمتهم يمتازون بصفات روحية كثيرة ، فهم معصومون ، وعندهم من العلم كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم ودنياهم . وفي خطاب موجه من هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر الثقفي وإلى

(٢) كتاب قلهوزن ص ٤٩٩ .

(١) انظر كتاب قلهوزن السابق ص ٦٦ .

على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة في حبهم أهل هذا البيت ووضعهم لإياهم في غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ، ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلّوهم عليهم ما هو كائن<sup>(١)</sup> . »

ومن عقائد الشيعة التي لعبت دوراً مهماً في هذا العصر عقيدة المهديّ ، وهو الإمام الذي ينقذ العالم مما فيه من شرور وآثام . وكان زعماءهم يُشيعون دائماً أن هذا المهديّ أو المخلص سيأتي ، ويُخْرِجُ الناس مما هم فيه من ظلام وعذاب . وساعد على شيوع ذلك ما اتصفت به العقيدة الشيعية من سرية ، وهي سرية جرت في أعقابها عقيدة التقيّة ، أو المداورة ، وأن من حق الشيعة أن يخفي تشيعه .

وأخذت تدخل في التشيع آراء وأفكار غالية . وعبد الله بن سبأ أهم شخص أدخل ذلك ، وكان يهودياً من اليمن أسلم ، واشترك في الثورة على عثمان وكان يتنقل في الأمصار الإسلامية ويؤلب الناس عليه ، وكان يزعم أن في عليّ جزءاً إلهياً ، وكأنه يتأثر ما عند النصاري من فكرة اتحاد اللاهوت بالناسوت . وهو أول من قال برجعة عليّ ، وأنه لم يموت ، وكأنه يتأثر في ذلك بما عند اليهود من أن النبي إيليا قد رُفِعَ إلى السماء ، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة العدل والحق . وكان يزعم أن علياً يحيى في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه<sup>(٢)</sup> .

ولعل في آراء ابن سبأ ما يشير إلى أن عناصر أجنبية أخذت تدخل في التشيع ، حتى ليزعم بعض الباحثين أن غلاة الشيعة بدأوا في التشيع مع مر الزمن كثيراً من دياناتهم الأولى ، فدخلت فيه عناصر من اليهودية والنصرانية كما عند ابن سبأ ، ودخلت فيه عناصر من الزرادشتية والمناوية الفارسيّتين ومن البوذية الهندية<sup>(٣)</sup> .

ونحن لا يهمنا هنا البحث في عقيدة الشيعة من حيث هي ، وإنما يهمنا صلتها بالشعر في عصر بني أمية . ومن المعروف أن الشيعة كالحوارج تتعدد فيرقهم ، وهناك فرقتان اشتهرتا في هذا العصر واتضحتا في شعر الشعراء ، إحداهما غالية وهي

(١) الترجمة العربية) ص ١٢١ والعقيدة والشريعة

في الإسلام بلولده تسهر ص ١٧٤ وما بعدها .

(١) طبري ١٦٨٢/٢ .

(٢) الشهرستاني ص ١٣٢ .

(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات

فرقة الكيسانية ، والثانية معتدلة ، وهي فرقة الزيدية .

أما فرقة الكيسانية فزعيمها المختار التقي الذي ثار في العراق ، وعلا شأنه ، حتى قضى عليه مصعب بن الزبير . ولم يكن يدعو لأحد من أبناء فاطمة إنما كان يدعو لمحمد بن الحنفية من علي ، وكان يزعم أنه هو الذي أوصى له أبوه من بعده . ويظهر أنه رأى أن أبناء فاطمة لا يرتضون العلو فيهم ، فقد أنكر الحسن رجعة أبيه<sup>(١)</sup> ، وأنكر بعض أبناء الحسين فكرة الوصية<sup>(٢)</sup> ، فعدل إلى ابن الحنفية وتبع ابن سبأ في كثير مما زعمه . وكان يميل إلى الشعوذة ، فادعى أنه يوحى إليه ، واتخذ كرسيًا قديمًا غشاه بالديباج ، فكان يضعه في مقعدة جيوشه ، ويقول لأنصاره : قاتلوا عليه فهو منكم بمنزلة تابوت في بني إسرائيل ، وكان يرسل حمامات بيضاء على جيوشه في أثناء القتال ، ويزعم أنها ملائكة تنزل عليهم من السماء ، وفي ذلك يقول سُرَاقَةُ البَارِقِ<sup>(٣)</sup> :

ألا أبلغ أبا إسحق أتى رأيت البلقَ دهنًا مُصمَمَاتِ  
كفرتُ بوحيكم وجعلت نذرًا على قتالكم حتى الماتِ

ويقول أعشى همدان<sup>(٤)</sup> :

شهدتُ عليكم أنكم سبئيةُ وإني بكم يا شُرطةَ الشركِ عارفُ  
وأقسم ما كُرسِيكُم بسكينةِ وإن كانَ قد لُقتُ عليه اللقائفُ

وشاعر هذه الفرقة المشهور كُشَيْرٌ ، ويقول أبو الفرج فيه : « كان غالبًا في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ، ويقول بالرجعة والتناسخ » . وفي ديوانه مدائح كثيرة في ابن الحنفية ، وفيه يقول<sup>(٥)</sup> :

وصىُّ النبيِّ المصطفى وابنِ عمِّهِ وفكَّاكُ أغلالِ وقاضي مغارِمِ

ويقول<sup>(٦)</sup> :

هو المهديُّ خبِرَ نكاهِ كعبِ أخو الأحبَّارِ في الحقبِ الأولِ

(٤) طبري ٢/٧٠٤ .

(٥) الديوان ١/٢٧٨ .

(٦) الديوان ١/٢٧٥ .

(١) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن سعد ١٥٨/٥ وكذلك ٢٣٩/٥ .

(٣) طبري ٢/٦٦٥ .

وكان يعتقد في الرَّجعة أشدَّ اعتقاد ، فلما نوفيَّ ابن الحنفية لم يؤمن بوفاته ،  
 وذهب يُنادى في الناس <sup>(١)</sup> :

ألا إن الأئمة من قريش  
 عليُّ والثلاثة من بنيه  
 فسبُّ سبِّ إيمان وير <sup>(٢)</sup>  
 وسبُّ لا تراه العين حتى  
 تغيب لا يرى عنهم زماناً  
 ولاية الحق أربعة سواء  
 هم الأسباط ليس بهم خفاء  
 وسبُّ غيبته كربلاء <sup>(٣)</sup>  
 يقود الخيل يتقدمها اللواء  
 برضوى عنده غسل وماء

فهو يؤمن بغيبة ابن الحنفية في جبل رضوى ، وأنه لم يمض ، بل هو يمضي  
 الفترة المعروفة عند غالبية الشيعة بالوقوف ، ثم يرجع ومعه الخيل يقلمها اللواء .  
 وهكذا نجد في ديوان كُتِّبَ هذه الصفحة الحديدية التي تعبَّر عن عقيدة الكيسانية ،  
 وكل ما يتصل بها من غلو وإغراق في الغلو .

وإذا كانت فرقة الكيسانية غالبية على هذا النحو فإن فرقة الزيدية كانت  
 معتدلة ، وإمامها زيد بن علي بن الحسين ، الذي خرج على هشام بن عبد الملك  
 بالكوفة فقتل وصلب . ويسوق زيد وشيعته الإمامة في أولاد علي من فاطمة فقط ،  
 وهم لا يُسبِّفون على الإمام صفات روحية تفصله عن البشر ، فكل ما يصفونه به العلم  
 والزهدي والسخاء والشجاعة . وقد أجازوا إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فكان  
 زيد لا يترأ من أبي بكر وعمر ، بل كان يرى أن ولايتهما صارت رَشْدًا وهُدًى لبيعة  
 علي لهما ورضاه بهما <sup>(٤)</sup> . وقد تتلمذ زيد لواصل فاقْتَبَس منه الاعتزال ، كما مرَّ في  
 غير هذا الموضع ، وبذلك غلب الاعتزال على أصحابه

وشاعر الزيدية المشهور الكُتِّبَ بن زيد الأسدي ، وفي شعره ثورة شديدة  
 على الأمويين ، يتأثر فيها إمامه زيداً الذي ثار فعلاً عليهم وقتلوه ، واستمع إليه  
 يقول <sup>(٥)</sup> :

خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة .  
 (٤) الشهرستاني ص ١١٥ .  
 (٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .

(١) الديوان ١٨٦/٢ والأغانى (طبع دار  
 الكتب) ١٤/٩ .  
 (٢) يزيد الحسن بن علي .  
 (٣) يزيد الحسين الذي قتل في كربلاء على بعد

قُسِّلَ لِنَبِيِّ أُمِيَّةٍ حَيْثُ حَكُّوا وَإِنْ خِفْتِ الْمَهْدَ وَالْقَطِيعَا (١)  
أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتَهُ وَأَشْبَحَ مِنْ بَجُورِكُمْ أَجِيمَا  
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيٌّ يَكُونُ حَيًّا (٢) لِأُمَّتِهِ رَبِيْعَا

وستحدث عنه حديثاً مفصلاً في موضع آخر ، فقد ألف في مذهبه الزيدى ديواناً خاصاً يُعْرَفُ بِاسْمِ (الهاشميات) وهو أقدم وثيقة بين أيدينا عن هذا المذهب فيه كل ما آمن به زيد ودعا إليه ، وقد طبع بطابع الحجاج والجدال في الدفاع عن حقوق آل البيت ، واصطبغ بصبغة عقلية جامت صاحبه من اعتزله واتصاه بمناقشات القدر والجبر وأن منزلة صاحب الكبيرة بين منزلتين وما إلى ذلك .

لم نتكلم حتى الآن عن حزب بنى أمية ، وهو حزب الدولة والحكومة ، وكان يتلمج فيه أهل الشام وكثير من أهل البلدان الأخرى ، فهو حزب السواد الأعظم وكان لهذا الحزب الذائنون عنه والمدافعون الذين يدفَعون خصومه من الزبيريين والخوارج والشيعة ، بل الذين يغالون في هذا الدفاع وذلك الذود . فقد انقسم الناس أو قل انقسمت الأمة قسمين ، إذا أغضينا النظر عن الزبيريين فقد كان حزبهم عارضاً وكذلك عن الخوارج ، فقد خرجوا على جمهور الأمة . أما عامة الناس فكانوا على قسمين : قسم مع بنى هاشم وهو الشيعة ، وقسم مع الأمويين وكانوا يُضَفِّون عليهم من صفات الإمامة ما يُضَفِّيه الشيعة على أئمتهم ، وإلى ذلك يشير ابن الحنفية إذ يقول : « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء يعني بنى أمية (٣) » .

فهذا الحزب الأموي كان يرفع من شأن خلفاء بنى أمية ، وينزلهم منزلة عليا ، فهم خلفاء الله ورسوله في أرضه ، وطاعتهم واجبة ، ونصرتهم محتمة . ونجد هذه النزعة واضحة في خطب ولاة بنى أمية وقوادهم ، ومن أطرف ما يصورها خطبة زياد حين ولاة معاوية على البصرة ، وهي الخطبة الموسومة بالبشراء ، فقد جاء فيها : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً وعنكم ذادةً ، نسوسكم بساطان الله

(٢) ابن سعد ٦٨/٥ .

(١) المهدي : النيف . والقطيع : السوط .  
(٢) الحيا : التفت .



الذي أعطانا ، ونلود عنكم بفيئته الله الذي خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا ورفقنا بما نصحتكم لنا . . . وادعوا الله بالصالح لأمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون<sup>(١)</sup> .

وواضح أن زياداً يقول في صراحة إن معاوية ولا متخلفاء الله في الأرض؛ فهم يسوسون الناس بسلطانه ، ويلودون عنهم بفيئته ، أو هم بعبارة أخرى أصحاب الحق الإلهي في هذه السياسة وتلك الحكومة التي يحكمون بها الناس . ويرى الرواة أن مسلم بن عقبة ، قائد أهل الشام في حربهم لأهل المدينة حين ثاروا على يزيد بن معاوية ، خطب في جيشه وهو على أبواب المدينة فقال : « يا أهل الشام أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يلغوا به عن دينهم ، وأن يعجزوا به نصر إمامهم<sup>(٢)</sup> . وقد حارب أشياخ عبيد الله بن زياد الحسين ومن معه على أساس أنهم مرقوا من الدين ، وخرجوا على طاعة الإمام<sup>(٣)</sup> .

وتدل النصوص التاريخية في هذا العصر على أن بني أمية إنما قتلوا الحسين وزيد بن علي صاحب مذهب الزيدية لأنهما خالفا الإمام وطالبا بالخلافة . أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة<sup>(٤)</sup> ، وكذلك كان ولائهم يحرمونهم إن لم يخرجوا أو يدعوا إلى الثورة .

على كل حال كانت صورة الخليفة الأموي في رأى حزبه صورة مقدسة ، لما جلالها وخطرها ، فهو الإمام الذي تجب طاعته لأن طاعته من طاعة الله ، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما رواه الطبري من أنه لما توفي يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه قام حسبان بن مالك بالأردن فقال : « يا أهل الأردن ، ما شهدتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحرّة ؟ قالوا نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتلى أهل الحرّة في النار ، قال :

(١) البيان والتبيين ٦٤/٢ .

(٢) طبري ٤١٤/٢ وانظر كذلك طبري

. ٤٢٥/٢ ، ٤١٥/٢

(٣) طبري ٣٤٢/٢ .

(٤) انظر Lammens, Etudes sur le régime

Règne du Calife Omayyade Mo'awia

Ier, p. 154.

فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاككم بالحرّة؟ قالوا : نشهد أن يزيد على الحق وأن قتلتنا في الجنة<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان ولاية بنى أمية وقادتهم وأنصارهم يدعون لهم دعوة تشبه دعوة الشيعة لأنتمهم . وقد تبهم الشعراء يدعون في شعرهم نفس الدعوة ، ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك بلدة ولا قبيلة إلا فيها شعراء لهم نزعة أموية . ففي مكة نجد أبا العباس الأعمى ، وفي المدينة نجد الأحوص ، وفي الكوفة نجد عبد الله بن الزبير الأستدي ، وفي البصرة نجد جريراً والفرزدق ، وفي الجزيرة نجد الأخطل والقسطامي وأعشى تغليب ، وفي الشام نجد عددي بن الرقاع العاملي .

ومن الخطأ أن نحاول عدّ شعراء بنى أمية ، فهم أكثر من أن يُلّمَ بهم إحصاء ، فقد بلغوا عشرات إن لم يكونوا مئات ، وتكتظ كتب الأدب العربي بهم وبأشعارهم ، وليس هذا ما يهمننا إنما تهمننا الصورة التي صاغوا فيها مدائحهم للأمويين . ومن يرجع إلى ما قيل فيهم من أشعار يرى رأي العين أن هذه الصورة لثوّنت بعناصر دينية على نحو ما رأينا عند الخوارج والشيعة ، فقد كان شعراؤهم يقررون دائماً حقهم وأفضليتهم في إرث النبوة ، وأنهم أولى قريش بهذا الإرث ، وأخذوا يُبدئون ويعيدون في أن الله اختارهم لخلقهم ، واستمع إلى الأحوص يقول في الوليد بن عبد الملك<sup>(٢)</sup> :

تخيّرهُ ربُّ العباد لخلقِهِ وليدًا وكان الله بالناس أعلمًا  
فهو ثبت له أن الله عز وجل اصطفاه لخلقهِ ، وأنه وكل إليه شؤونهم يُدبّرُها  
كما يشاء ، وانظر في هذه الأبيات يمدح بها عددي بن الرقاع الوليد بن عبد الملك ،  
فيقول<sup>(٣)</sup> :

صلى الذي الصلوات الطيباتُ له	والمؤمنون إذا ما جمّعوا الأجمعتا
على الذي سبق الأوامر ضاحية	بالأجر والحمد حتى صاحبياه معًا
هو الذي جمّع الرحمن أمته	على يديته وكانوا قبله شيعنا
إن الوليد أمير المؤمنين له	ملكٌ عليه أعان الله فارتفعنا

(١) طبري ٤٦٩/٢ .

(٢) أغاني ٢٩٨/١ .

(٣) أغاني ٢٩٩/١ .

فأنت تراه يسمو بالوليد إلى شأو بعيد من التقديس على نحو ما يسمو الشيعة بأئمتهم ، وتأمل في البيت الأول والثاني وما يصبوغ عدى من الدعاء ، فهو يدعو الله أن يصلّي على إمامه الوليد ، ويدعو المسلمين كذلك أن يصلوا عليه في صلواتهم وجُمُعَتِهِمْ ، فقد جمع الله الأمة على يديه ، وأعانها ليرتفع بها إلى كل ما يريد لها من خير .

وعلى هذه الشاكلة كان شعراء بني أمية يتخلون في مباحثهم ، وسرى في موضع آخر كيف كان جرير خاصة من بين شعراء العراق ، يتخلو في مديحه لعبد الملك وأولاده ، وكيف كان يَظنّي عليهم كل ما يُضفيه الشيعة على أئمتهم من صفات روحية . ولم يقف الشعراء في هذه الصورة من المديح عند الخلفاء فحسب ، بل ذهبوا يَظنّفونها على ولاتهم وقوادهم ، واستمع إلى حازقة بن بدر القُدّاني يقول في زياد بن أبيه (١) :

فأنتَ إمامٌ معدّلةٌ وقصدٌ	وحزْمٌ حين تحضركَ الأمورُ
أحكوكَ خليفةُ الله ابنَ حربٍ	وأنتَ وزيره نعمَ الوزيرُ
بأمر الله منصورٌ معانٌ	إذا جارَ الرعيّةَ لا تجورُ
وكنْتَ حياً وجثّةً على زمانٍ	خيبتَ ظاهرٌ فيه شرورُ
فلما قام سيفُ الله فيهمُ	زيادٌ قامَ أبلجُ مستنيرُ

فأنت تراه يدعو معاوية خليفة الله ، ثم يُسبّغ على زياد من الصفات الدينية ما يسبغه الشيعة على أصحابهم ، فهو إمام عادل ينصره الله ويُعينه ، حتى يَشفِي العراق مما فيها من شرور ، وإنه ليلقبه أخيراً بأنه سيف الله الذي أرسله إلى العراق رَحْمَةً بعباده . وفي صورة مماثلة لهذه الصورة كان الشعراء يمدحون الحجاج ، فالعُدَيْل بن الفَرَسَخ العِجْلِيّ يقول فيه (٢) :

بنى قُبّةَ الإسلامِ حتى كأنّما	هدى الناسَ من بعد الضلالِ رسولُ
خليلُ أميرِ المؤمنينِ وسيفه	نكل إمامٍ مُصْطَلَقِيّ وخبيلُ

(١) طبرى ٧٨/٢ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٥ والأغانى (طبع الساسى) ١٤/٢٠ .

فهو ينعت أمير المؤمنين بأنه إمام ، وينعت الحجاج بأنه خليله وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيهدى الناس من بعد الضلال ، ويبني قبة الإسلام سامقة تطاول عنان السماء . واستمع إلى أعشى همدان يقول في الحجاج بعد فضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي استعصت عليه طويلاً<sup>(١)</sup> :

أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ      وَيَطْوِيءَ نَارَ الْفَاسِقِينَ فَتُخَمِّلُنَا  
وَيُنْزِلُ ذُلًّا بِالْمِرَاقِ وَأَهْلُهُ      لِمَا تَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكِنَا  
وَمَا أَحْلَثُوا مِنْ بَدْعٍ وَعَظِيمَةٍ      مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْعَدْ إِلَى اللهِ مَصْعِدًا  
قَتْلَامٌ قَتَلَى ضَلَالٍ وَفِتْنَةٍ      وَحَيْثُمُ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطْرَدًا  
وَمَا زِلِحَ الْحِجَاجُ إِلَّا رَأَيْتَهُ      مُعَانًا مُلْقَى لِلْفَتْوحِ مُعَسَّوْدًا

وطلع الآيات يستعيره الأعشى من قوله تعالى : (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) وقد وصف جيش ابن الأشعث بأنه جيش فاسقين وأهل بغي وبدع وضلال وفتنة في الدين ، وللملك كانت عاقبتهم الوبال والخسران المبين ، وإذ لم يمدح الحجاج بأنه معان من الله يؤيده دائماً بنصره .

وفي صورة تشبه هذه الصورة كان الشعراء يمدحون قواد بني أمية ، سواء منهم من عمل في حروب الخوارج الداخلية ، ومن عمل في الحروب الخارجية ، في خراسان وغير خراسان ، واستمع إلى كعب الأشقر يقول في المهلب في أثناء انتصاراته على الأزارقة في كيرمان<sup>(٢)</sup> .

لَوْلَا الْمُهَلَّبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا      أَنْهَارَ كِرْمَانَ بَعْدَ اللهِ مَا صَدَرُوا  
إِنَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبِيبِ اللهِ إِذْ جَعَلُوا      بِالْمُحْكَمَاتِ وَلَمْ نَكْفُرْ كَمَا كَفَرُوا  
جَارُوا عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا      دِينًا يَخَالِفُ مَا جَاءَتْ بِهِ النَّذْرُ

فكعب يرى الخوارج بما يرمون به المسلمين من العدول عن محجة الدين ، بل إنه ليكفرهم ، فقد جعلوا بمحكّم القرآن الكريم ، وهو يشير بملك إلى قوله عز وجل : ( هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب )

(١) طبري ٢/ ١١١٣ .

(٢) طبري ٢/ ١٠١٧ .

فالحوارج كفروا - في رأى كعب - بهذه الآيات المحكمات التي تدعو إلى طاعة الله والرسول وأولى الأمر من المسلمين .

وأظن أنه قد اتضح الآن أن الشعر في عصر بني أمية تطور تحت تأثير السياسة ، فإن الشعراء توزعوا على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة . وكان حزب الأمويين أكثر نَشْرًا ، وكان يليه حزباً الشيعة والحوارج . أما حزب الزبيريين فكان أقل الأحزاب شعراً وشعراء . وكان هذا الشعر السياسي يُصَبِّحُ بصيغة دينية ، لأنه في الواقع كان يتصل مباشرة بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم ، فطبيعى أن يصبَّ فيه الدين وأن تسيل منه أشعة إلى قصائده ونماذجه .

### الحياة الاجتماعية

لعل أول ما نلاحظه في هذا الصدد أن الحجاز والشام تميَّزتا في هذا العصر بضروب من اللهو لم تُعْنَ بها البيئات الأخرى عنابتهما ، وكان على رأس هذه الضروب فنُّ الغناء كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضوع .

فقد تكونت ، في الحجاز تحت تأثير الترف وفراغ كثير من الشباب للهو، نظرية غناء شارك فيها العرب والمولى ، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام ، إذ كان هناك اتصال دائم بين مغنى الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء .

ويخيل لمن يتصفح كتاب الأغاني أنه لم يعد للناس في مكة والمدينة في أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العبيد والفقهاء كانوا يثابرونه . ويروى أن مالكا صاحب المذهب المعروف حاول في أول أمره أن يكون مغنياً<sup>(١)</sup> ، واشتهر عطاء وابن جرير من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع المغنين<sup>(٢)</sup> .

(٢) أغاني ٢٥٧/١ وانظر ٣١٦/١ .

(١) أغاني ٤/٢٢٢ .

ولم يلبث خلفاء بني أمية - إذ استثنينا معاوية - أن طلبوا هؤلاء المغنين ، وبالغ في ذلك يزيد بن عبد الملك ، فكان يُرْسِلُ في طلب المغنين والمغنيات من الحجاز ، واشترى مغنيتين مشهورتين: إحداهما بأربعة آلاف دينار وهي حَبَابَةُ (١) ، والثانية بعشرين ألفاً وهي سَلَامَةُ الْقَسْرِ (٢) . ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان بلاطه يكتظ بالمغنين من مثل مَعْبُد ، ويحيى قَيْل ، والهَيْدَلِي ، والأبْجَر ، وأبى كامل الغزِيل .

وإذا رجعنا نبحث في شعر الحجاز والشام لهذا العصر وجدناه في أكثره يؤثف هؤلاء المغنين ، فهو شعر غنائى بالمعنى الكامل ، إذ هو يعبر عن أحوال وجدانية ، فعمظه يدور حول قصة الحب ، ثم هو يؤثف ليُغَنِّي فعلا ، وهذا هو معنى اكتماله من الناحية الغنائية .

وتستطيع أن ترجع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقييات والعربى في مكة ، والأحوص في المدينة ، والوليد بن يزيد في دمشق ، لترى أن شعرهم جميعاً يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة ، فهو شعر قيل تحت تأثير تَرْف لم يكن للعرب في الجاهلية عهدٌ به ، فقد بنى العرب ، كما قلنا في غير هذا الموضع ، القصور ، واكتظت قصورهم بالجواري الأجنبية من كل لون ، وأثرف ذوقهم وأثرف شعورهم ، وعاش الموالي في خدمتهم ، وقاموا لهم على فن الغناء الذى كانوا يحبونه ، فأحكموه إحكاماً دقيقاً .

ومن هنا كان كل من يقرأ شعر هؤلاء الشعراء يحس بفوارق شديدة بينهم وبين آبائهم في الجاهلية ، فهم من إحساس جديد ، إحساس مترف عاش أصحابه عيشة متحضرة ، لا تتصل بشظف العيش ولا بخشونة الحياة ، وأقرأ شعرهم الذى يرويه صاحب الأغاني ، فستجده شعراً خفيفاً يطير عن الأفواه طيراناً ليحلّق بالقلوب والآذان . وهو شعر كان يذهب كله في تصوير قصة الحب الحديثة في الحجاز والشام ، حب هذا الشباب المترف الذى أصبح قوام حياته التهالك على المرأة

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤٣/٨ .

(١) أغاني (طبع الساسى) ١٣/١٤٩ .

وإظهار كل تَفَانٍ فيها وكل رِقَّةٍ شعور .

ونستطيع أن نجمل خصائصه في أنه شعرُ شبابٍ مُدُنٍ يسوقونه للمرأة ، وعلى الأخص المرأة التي يجلدونها في دور الغناء . وكان كل منهم يحاول أن يسبق صاحبه في تصوير شعوره ودقة التعبير عنه . وَفُتِنَتِ المغنياتُ بهذا الشعر الذي يُشيد بهن ويحكي حسنهن ومفاتنهن . والأحوصُ خير مثال يصور لنا ذلك ، فقد كان يعشق أكثر المغنيات في دار جميلة ، وهي أكبرُ دارٍ للغناء في المدينة ، بل في الحجاز كله في أثناء هذا العصر . وقلما تظهر مغنية في هذه الدار لا يكون له معها شعر ، وعشق ، وحب ، وهو القائل<sup>(١)</sup> :

إذا أنت لم تعشقتُ ولم تدرِ ما الهوى فكُن حَجْرًا من يابس الصَّخْرِ جَلَدًا  
فالحياة في رأى الأحوص ليست إلا العشق والهوى . وقد تحول إلى كل مغنية في بلده يحاول أن يشرب معها كأسَ الحب صافية ، وتغنى في شعره غناءً حاراً بهذه الكأس وما أصاب منها . وارجع إلى أخباره في الأغاني فستجده يعشق حباةً وسلاماً اللتين اشتراهما فيما بعد يزيد بن عبد الملك ، كما يعشق مغنية أخرى تسمى عَقِيلَةَ ، ورابعة تسمى الذَّلْفَاءَ ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هَتَّى	فَلَيْدَ عَنِّي مَن يَلُومُ
أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعًا	حِينَ تَمَشِي وَتَقُومُ
حَبَّبَ الذَّلْفَاءَ عِنْدِي	مَنْطِقُ مِنْهَا رَحِيمُ
أَصِيلُ الْحَبْلِ لَتَرْضَى	وَهِيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ
حَبَّهَا فِي الْقَلْبِ دَاءٌ	مَسْتَكْنٌ لَا يَرِيمُ

فهو يحبها في جميع أحوالها حين تمشي وتقوم ، وحين تغنى وتكف عن الغناء ، وحين تصله وتكف عن الوصل . فحبها مرض لا يستطيع الإفلات منه ، فهو مستقر في قلبه وفؤاده ، والذلفاء تارة تقبل عليه فتقبل عليه الدنيا ، وتدبر تارة ، فلا تزيد إلا هياماً بها وولاًها .

وليس من ريب في أن هذا الشعر يعبر عن ذوق جديد ، فالقدماء لم يكونوا

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٠٠/٨ .

(١) أغاني (طبع الماسي) ١٥١/١٣ .

يتهاكون على المرآة هذا التهاك الذى يتهاكك الأحوص ، لسبب بسيط ، وهو أنهم لم يكونوا مترفين ترف الأحوص وزملائه . وكانوا قلما أفردوا لها مقطوعات ، إنما كانوا يذكرونها غالباً فى مُفْتَتِح قصائدهم ، ثم يركزونها إلى الموضوع الأساسى الذى يزيدونه من مديح أو فخر أو تحو ذلك . أما الأحوص وأقرانه ، فقد أفردوا لها هذه المقطوعات وأنشأوها من أجلها لإنشاء ، وبذلك تحوّل الشعر العربى فى الحجاز والشام هذا العصر من قصائد إلى مقطوعات ، تُقال فى المرآة لتعبر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة . فلم يعد الشبان ينشلون هذا الشعر الجزل الفخم الذى كان يُنشد حسان بن ثابت وغيره فى سوق عكاظ ، بل أصبحوا ينشلون هذا الشعر السهل المتهافت الذى يُقال ليُغنى فى دور اللهو والغناء ، يُغنى فيه طوئسٌ وسائبٌ وخائرٌ ومحببٌ وابن مسجحٌ وابن سريجٌ والغريص ، كما يغنى فيه جميلةٌ وحبابةٌ وسلامةٌ وعقيلةٌ والذلفاء . وكل هؤلاء أجناب على العرب والعربية . فلا بد للشاعر أن ينزل بأساليب شعره إلى اللغة اليومية ، حتى يرضى ذوقهم . ونفس الصورة التى كان يذاع بها هذا الشعر ، وهى صورة الغناء ، جعلت أصحابه يميلون إلى الأساليب الشائعة حتى يرضوا ذوق المستمعين .

لم يعد الشعر العربى فى الحجاز والشام يؤلّف فى أثناء هذا العصر بالصورة القديمة ، إنما أصبح يؤلّف بصورة جديدة ، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة ، وهو من حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحداثه ووقائمه المعاصرة ، وهو من حيث كميته أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا فى القليل النادر . وليس هذا كل ما يميزه ، فقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يتناولون بعض أبياته بالإصلاح والتهديب فيضعون كلمة مكان أخرى ، أو شرطاً مكان آخر ، وقد يزيدون بعض الأبيات . ويتضح هذا من المقابلة بين ديوان ابن أبى ربيعة وكتاب الأغاني فى المقطوعات التى غُنيت من شعره ، إذ نجد اختلافاً كثيراً .

فهذا اللون الجليد من الشعر لم يكن فناً مستقلاً بنفسه ، بل كان فناً معتمداً على فن آخر هو الغناء وقد أخذ الغناء يؤثر فيه بصور مختلفة ، تارة عن طريق



تهذيب المغنين فيه ، وتارة عن طريق فترضهم ألحانهم على الشعراء ، وكانوا يدخلون ألحاناً أجنبية كثيرة<sup>(١)</sup> ، وكانوا يطلبون إلى الشعراء ، من حين لآخر ، قطعاً من أوزان خاصة ، حتى يُغَنِّوْا فيها<sup>(٢)</sup> .

فشاعر المدينة ومكة ودمشق في هذا العصر لم يكن حرّاً ، بل كان مقيداً بنظرية الغناء الجديدة التي وضعت حينئذ ورغبة أصحابها في بعض الألحان والأنغام التي قد تحتاج في الشعر إلى جهّز ومدّ في بعض الحروف وهمّس وتقصير في الحروف الأخرى ، وهو ما تعود العروضيون أن يسموه بالزحافات . ولا نشك في أن كثيراً من زحافات الشعر في هذا العصر أُريد بها تلبية حاجة مُغَنِّ من المغنين أو مغنية من المغنيات .

وكذلك الشأن في الأوزان نفسها فقد مال شعراء الحجاز والشام في هذا العصر إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والهرّج والمُستقارب والرّمّل والسريع والخفيف . وقد ينظّمون في الأوزان الطويلة ولكنهم يعمدون إلى تجزئتها . وشيء من ذلك كان موجوداً في العصر الجاهلي ، ولكن نلاحظ في هذا العصر الكثرة ، وأن الشعراء كما هجروا الأساليب الجزلة حاولوا أن يهجروا الأوزان المعقدة . كل ذلك ليصيوا هوى المغنين والمغنيات ، حتى يتيحوا لهم الفرصة كي يصبّوا في الشعر كل ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان الشعر في الحجاز والشام هذا العصر يدور غالباً حول قصة الحب ، فهو شعر يكاد يذهب كله في الغزل . وكان هذا الغزل يؤلّف في لغة يومية مشتقة من لغة الناس الجارية ، ليس فيها بُعد ولا إغراب ، ولا لفظ ناب ، فقد كُتِبَ تحت ذوق متحضر جديد ، وتنادت به أصوات أجنبية من المغنين والمغنيات ، وعاش كثير من أصحابه أو كل أصحابه في مرافقتهم وملازمة دورهم وآلاتهم الوترية وطبوعهم الموسيقية ، فكان لذلك كله آثار مختلفة في هذا الغزل ، تناولت أساليبه ، وألفاظه ، وأوزانه .

(١) انظر الأغاني ١/ ٢٥٠ ، ٣٧٨ وكذلك

(٢) أغاني ٢/ ٢٣٧ وما بعدها .

وهذه الطبقة المرفقة التي أنتجت حياتها الاجتماعية هذا الغزل الجليد كان يقابلها في الكفة الثانية من العرب طبقة عامة اتخذ أدبها وشعرها صوراً مخالفة . فنحن إذا ما تركنا الحجاز والشام ومدنهما الكبيرة إلى نجد وجدنا العرب هناك يعيشون ، كما كان آباؤهم في الجاهلية ، معيشةً فيها شتَظفٌ وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجليد بروحية أحدثت سموّاً في النفوس ، وسموّاً في الشعر نفسه . وشاع في هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميّز فيها تميزاً واضحاً عن غزل مكة والمدينة ، فقد كان الناس فيهما - كما قلنا - مترفين وعرفوا فنوناً من الحضارة المادية التي دخلت عندهم من فارس والروم ، فكان في شعرهم لذلك شيء من الحرية والإباحية . أما في البادية فكان الغزل عفيفاً ، لأن العرب هناك لم يعرفوا الترف ولا أفسدتهم الحضارة ، وقد رقت الإسلام نفوسهم وصفأها ، فكان طبيعياً أن لا يكون غزلهم إباحياً صريحاً ، بل يكون غزلاً متسامياً ، فيه تُبَلُّ ، وفيه حرمان ، وفيه طهارة ، وارتفاع عن الحس والمادة .

ونقص لنا الرواة دائماً أن العاشق من هؤلاء النجديين سواء كان من بني عذرة أو من بني عامر أو من غيرها من القبائل كان يُصنَعُ من لقاء صاحبه ، بل كانت تحرم عليه تحريمًا حين يشدو باسمها ويتغنى بجمها . وكأن ذلك في رأيهم هو سبب هذه العقدة التي يحسها من يقرأ غزلهم ، فهو غزل مضطرب في قلوبهم أبدًا ، ظالمٌ أبدًا ، متلهف على لقاء المحبوبة تلهفًا لا يزال بنفوسهم حتى يجتوا جنونًا أو يهلكوا هلاكًا دون أن يبتهجوا بوصول أو يسعلوا بقرب ، وهم يتنون لهذا الحرمان ويكون ويتضجون .

وفي رأينا أن هذه العقدة التي فسر بها الرواة هنا الحب العذري الطاهر المحروم إنما هي عقدة اصططنعوها اصطناعاً ، فإن الإسلام لا يحرم زواج الحب لمحبوته ، وما كان العرب ليقموا سنةً لا يعرفها الإسلام ولا جاء بها .

وتصور هذا الحب العذري أتمّ تصوير الأشعارُ المنشورة في ترجمة مجنون ليلي العامري بكتاب الأغاني ، فإنها تقص هذا الحب اليائس الذي لا يستطيع الحب فيه أن يلقي صاحبه وينعم طرفةً بحبيبها الرائع على نحو ما نرى في مثل قوله :  
وأحيسُ عنك النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ      بذكراكِ والمَسْمَشَى إليكِ قريبُ

وقوله :

أقول لأصحابي هي الشمسُ ضوءها قريبٌ ولكن في تناولها بُعدُ

وقوله :

وأصبتُ من ليلي الغدَاةَ كناظِرٍ مع الصُّبْحِ في أعقابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ

وقوله :

بسموني المحنونَ حينَ بَرَوْتَنِي نَعَمَ بِي من ليلي الغدَاةَ جنونُ

وراء هذه الابيات اسعار كثيرة تصف كيف ملك جمال ليلي منه حسنة وعقله وقلبه منذ أن كانا صبيين برعيان الأغنام ، يقول :

تعلقتُ ليلي وهي ذات تمامٍ رم يَبْدُ للأتراب من ثديها حجْمُ  
صغيرين نرعى البهْمَ يا ليت أننا إلى اليوم لم نكَبِّرْ ولم تكبر البهْمُ

وما يزال يصور لوعته من حبها وينكيها بكاء كله تفجع وحسرة ويأس قاتل من لقائها ، على نحو ما نرى في مثل قوله :

نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا لِي اللَّيْلُ شَاقَتَنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ  
أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ  
لَقَدْ ثَبَتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

وقوله :

تَمْرُ اللَّيَالِي وَالشُّهُورُ وَتَنْقَضِي وَجُكُّ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا  
أَعْدُ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا لَا أَعْدُ اللَّيَالِيَا  
وَأَنْتِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ أَشْقَيْتِ عَيْشِي وَإِنْ شِئْتَ - بَعْدَ اللَّهِ - أَنْعَمْتَ بِالْيَا  
أَمْضِرُوبَةً لَيْلَتِي عَلَى أَنْ أَزُورَهَا وَمَتَّخِذَةً ذَنْبًا لَهَا أَنْ تَرَانِيَا  
هِيَ السَّحْرُ إِلَّا أَنْ لِسَّحْرِ رُفِيَّةٍ وَإِنِّي لَا أَلْتَقِي لَهَا الدَّهْرَ رَاقِيَا

وقوله :

وداع دَعَا إذ نَحْنُ بِالخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيِّجْ أَشْجَانَ الْفَوَادِ وَمَا يَدْرِي  
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى خَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بَلْبِلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي  
ويختلط عقله ويهيم في البرية مع الوحش يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب ،  
ويلقاه الناس صدفة ، فلا يتحدثهم إلا عن ليلى وعن جنونه في خبها :

وإني لمجنونٌ بلبلى موكلٌ ولستُ عزوفًا عن هواها ولا جلدًا  
إذا ذكرتُ ليلَى بكيتُ صبايةً لتذكارها حتى يبسلُ البُكا الحدأُ  
ويرى صورتها في كل ما حوله من أماكن وربوع وظباء ووحش ومن بدور  
وشمس ، ويتغنى بكل ما يهب على ديارها من رياح صبا وغير صبا ، وبكل  
ما يراه من سحب وسيول وبروق وأزهار وحُمول ، وما كان يشجبه شيء كنجوح  
الحمام ، فقد كان يذرى دموعه إذراء شديدًا . وما يزال في ذلك حتى يهلك  
عشقًا وجبًا .

ولا تظن أن مجنون ليلى شخصية حقيقية ، فقد كان الرواة القدماء أنفسهم  
ينكرونه ، كما حدثنا صاحب الأغاني في ترجمته ، بل كان العرب أنفسهم ينكرونه  
ويقولون إن المجانين كثير ، وكأنا اتخذته النجديون رمزاً يضيفون إليه هذا الغزل  
العذرى العفيف الذى كان يجرى على ألسنتهم . ومعنى ذلك أن هذا الغزل الذى  
نقرؤه في الأغاني والذى يضاف إلى مجنون ليلى وأضرابه مثل قيس بن ذريح وعروة  
ابن حزام ليس من عمل شاعر بعينه ، وإنما هو من عمل هذه الجماعة النجدية في  
عصر بني أمية يشترك فيه كثيرون مجهولون لم يكن يعينهم في قليل ولا كثير أن  
تصرف أسمائهم ويشتهروا في الناس .

أما لعل في هذا ما يلفتنا إلى أن هذا الغزل العذرى العفيف الذى شاع حينذاك  
إنما كان ضرباً من الأدب الشعبي المبكر في اللغة العربية فأصحابه مجهولون . وقد  
صحبته أقاصيص كثيرة ، فلم يكن شعراً خالصاً ، بل كان شعراً ونثراً ، وكان  
النثر والشعر أو كان القصص والشعر يدوران على ألسنة النجديين هذا الدوران الذى  
نعرفه للأدب الشعبي ، إذ يجرى على كل لسان . وحقاً كان بين هؤلاء العذريين  
من أثبتهم التاريخ مثل جميل صاحب بئنة وكثير صاحب عزرة ، ولكن ما نهب  
إليهما وإلى أضرابهما شعراً أو قصصاً لا يقاس من حيث الروعة إلى ما نُسب إلى

الأشخاص الأسطوريين من مثل مجنون ليل وقيس بن ذريح صاحب لُبْنَى وعروة بن حزام صاحب عَفْرَاء .

وهذا الغزك العلوى أو العفيف الذى شاع فى نجد وىوادرى الحجاز كان يرافقه شعر آخر يقال فى تخاصم القوم على المياه والمراعى ، وقد يتحول إلى هجاء على نحو ما كان شأنهم فى الجاهلية ، ولكن على العموم كان نشاط الشعر ضيقاً فى هذا المجال . وإذا تركنا نجداً إلى العراق ومدينتيه الكبيرتين البصرة والكوفة اللتين اخطلها عمر هناك وجدنا العرب الذين نزلوا بهما يشتغلون طوال هذا العصر بالحروب والفتوح ، حروب الخوارج وفتوح خراسان والهند . فلم يكونوا آمنين مستقرين بل كانوا دائماً على أهبة القتال والاشتراك فى البعث التى يرسلها زياد والحجاج وخالد القسرى لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك فى خراسان وما وراء النهر .

ومن أهم ما يلاحظ فى تكوين الكوفة والبصرة أنه لم يتم للعرب فيها اندماج تام ينسوّن فيه حياتهم القديمة ، فقد نزلوا فيها قبائل ، كل قبيلة لها منازلها ، فكانت تيم مثلاً تنزل فى جانب ، وهكذا أسد وبكر والأزد وهلم جراً . فن هذه الناحية لم يتم تكوين الكوفة والبصرة مدينتين كاملتين ، لكل منهما فرديتها وتمازج أهلها بل استمر سكانها يشعرون أنهم قبائل ، وإن عاشوا فى المدن ، وخطمهم الأعاجم .

ومن هنا غلب على الحياة فى البلديتين طابع الحياة الجاهلية . وإذا كانت المدينة فى الحجاز مثلاً اشتهرت بدار جميلة حيث المغنون والمغنيات فإن البصرة اشتهرت بالميربند ، كما اشتهرت الكوفة بالكُناسة ، وهما سوقان عامتان على نحو ما كانت سوق عكاظ فى الجاهلية .

وذاع صيت الميربند خاصة فى هذا العصر حيث كانت تتحلّق القبائل حول شعرائها ، فلجرب حلقته ، ولفرزدق حلقته<sup>(١)</sup> ، ويوم الناس هاتين الحلقتين وغيرهما من الحلقات<sup>(٢)</sup> التى كانت تنعقد هناك كل يوم ، ليستمعوا إلى ما ينشد الشعراء ، وخاصة فى العصبية القبلية .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٢/٥ ،  
١٥٢/١٠ و(طبعة السامى) ١١٢/١٦-١١٤

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ ،  
٧٧/٨

وكانت هذه العصبيات هي كل حياة القوم الاجتماعية وما يتصل بها من هو  
وعبت ، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يثيرونها ويتحدثون فيها ، ويتعقبون بأحاديثهم  
ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الإسلام ، وكأنما ذهبت أدراج الرياح  
وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في العرب وما دعا إليه من نبذ التفاخر والتكاثر من  
مثل قوله في خطبة حجة الوداع :

« أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ،  
كلكم لآدم وادم من تراب » .

وليس من شك في أن هذا مثل أعلى أرادته الإسلام للعرب ، حتى تجتمع  
كلمتهم ولكنهم لم يكادوا يطمثون بعد فتوح أبي بكر وعمر وعثمان ، حتى عادوا  
إلى دعوى الجاهلية ، وإلى منازعاتهم العصبية . وعمل على تأجيج نار هذه  
العصبية ما كان من تحارب القبائل في صيفين وقيل صيفين في موقعه الجمل ،  
فاشتعل ما كان خبياً في قلوبهم ، وعادوا إلى التنازع بالألقاب والفخر بالآباء .  
وفي الظاهر كان على معاوية يقتتلان ، وفي الباطن كانت القبائل تتكئل حسب  
خصوماتها الجاهلية ، فعاوية معه قضاة وككلب اليمينتان ومعه تغليب ، وعلى  
معه قيس ، ومعاوية معه قريش ، وعلى معه الأنصار .

ويفرغ أهل الكوفة والبصرة من حرب صيفين أو حرب على ومعاوية ، ليشتعلوا  
نار هذه العصبيات ، وليتخلوها لهوهم ولعبيتهم . وسرعان ما أخذت شكل فخر  
وهجاء في نطاق لعل العصر الجاهلي لم يظفر به ، فقد كان شعراء القبائل في الجاهلية  
يتفاخرون ويتهاجرون ومنازلهم بعيدة ، أما اليوم فهم مصطفون بعضهم أمام بعض ،  
وكل قبيلة تستحث شعراءها ، ليرموا خصومها بهذه السهام اللاذعة . وبذلك أخذ  
الهجاء في العصر الأموي شكلاً أعنف من شكله في العصر الجاهلي ، فقد  
اصطفت القبائل وجماهيرها في حلقات بالمربد والكنايسة ، والناس يقبلون  
على هذه الحلقات للفُرجة وكل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحد ما في  
جعبته من سهام ، حتى تريش بها القبائل التي عادتتها قديماً ، ولا تزال  
تعاديتها حديثاً .

وكان هذا الهجاء هو الشغل الشاغل للطبقة الفارغة من العرب في العراق حين يهدأون فلا ينتقصون على الدولة ولا يخرجون في حرب ولا بعوث ، فترى الناس يتجمعون في الكناسة والمربد ليتلو لهم شعراؤهم هذه الصحف المثيرة ، صحف مفاخرهم ومبازلِ خصومهم ، وهم من حولهم يصفرون ويصفقون .

وقد طالت المسافة بيننا وبين من عاشوا في العراق في أثناء هذا العصر الأموي ، وأصبحنا لا نعرف الآن معرفة دقيقة ما كان لهذه الحصومات وما صاحبها من فخر وهجاء من تأثير في نفوس القوم ، ولكن من يتابع تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام يراهم يخشون بأس الشعراء خشية شديدة . ويوضح ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ حسان بن ثابت يهجو قريشاً فقد قال له : « لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبلِ »<sup>(١)</sup> وقصة الحطيبية مع الزبيرقان بن بدر مشهورة ، فقد هجاه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فحبسه ، ثم عفا عنه بعد شعر كثير ، يستعطفه فيه على أطفاله<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن هذا الهجاء طبع رُكِبَ في العرب ، فإن الإنسان لا يسمع بشريف من أشرافهم في الجاهلية والإسلام إلا وقد سلط الشعراء عليه نبال هجائهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق منه ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيباً وجده ، فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ، ويحمله عنه ، ولذلك هجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرارة بن عدس ، وهجى عبد الله بن جدعان وهجى حجاج بن زُرارة »<sup>(٣)</sup> .

فالجاحظ يقرر أن الهجاء كان شيئاً عاماً عند العرب وأن بيتاً شريفاً لم يتخل منه فهو قصاصُ الشرف في نفوس الأعداء للقبيلة ، وهو سبيل الظلم لها إن انتصرت عليهم في حرب أو سبقتهم في فضل . وقد ذهب يقرر في وضوح أن القبيلة الشريفة يكون فيها خيرٌ كثيرٌ وشرٌ كثيرٌ ، وبذلك تكون معرضاً للهجاء .

(٢) الحيوان ١/٩٣ .

(١) أغاني ٤/١٤٣ .

(٢) أغاني ٢/١٧٩ وما بعدها .

أما القبيلة الوضيعة فلا تذكر بخير ولا شر ، وتدخل في غمار الناس ، فحل أهلها محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدكم الأكفاء . واسترسل يعدد القبائل الشريفة في العرب فقال : « القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرٌّ وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيّلان ، ومثل فزارة ومرة وثعلبة ، ومثل عبّس وعبد الله بن غطفان ، ثم غنى وباهلة . . . والشرف والخطر في عبّس وذُبْيَان ، والمبتسكى والملقى والمحرور والمظلوم مثل باهلة وغنى مما لقيتا من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهما آلة للمدارج الأقدام ينكبّ فيها كل ساع ، ويعثرُ بها كل ماش . . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم وثور وعكّل وتيمم ومزينة ، ففي عكّل وتيمم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور . وقد سلمت نور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، ثم حلّت البلية وركّدت الشر والتحقف المهجاء على عكّل وتيمم . وقد شعثوا بين مزينة شيئاً . وقد نالوا من ضبّة مع ما في ضبة من الخصال الشريفة . . . وكذلك بكتعبر قد ابتليت وظلمت وبُخِست مع ما فيها من الفرسان والشعراء ، ومن الزهاد ومن الفقهاء ، ومن القضاة والولاة ، ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين . وقد سلمت كعب بن عمرو ، فإنه لم ينلها من المهجاء إلا الخشخشة والنتف . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الفيزار من وقع المهجاء<sup>(١)</sup> .

وبالحاظ يستعرض في هذه الفقرة البديعة ما كان بين العرب في العصرين الجاهلي والأموي من هجاء استطارت نيرانه . وقد استمرت هذه النيران في العراق بالمرّبّة والكناسة ، فكل شاعر لقبيلة من هذه القبائل التي عدها الجاحظ يستحدث حجراً كبيراً يقذف به خصومها ، وينهض له خصم من القبيلة ، فيردّ حجره إلى رأسه ورأس قبيلته .

وهكذا احتدمت هناك العصبية ، وهي عصبية كانت تقوم بين الأصول والجرانيم الكبيرة من العرب ، كما تقوم بين الفروع والشعب الصغيرة ، فمضّر تُضعف من اليمن ، وتستم هاتان العصبيتان الكبيرتان بين المضرية واليمنية ، ثم



تنقسم مضر أقساماً أهمها تميم وقيس وربيعة وفرعيها : بكر وتغليب . وكل قسم من هذه الأقسام ينقسم إلى شعب وخصون ، وقد تطاحت الشعب والخصون القيسية بأقوى وأعنف مما تطاحت الشعب والخصون في الأقسام الأخرى .

وعلى هذا النحو كان لكل قبيلة ، بل لكل بطن من قبيلة في البصرة والكوفة شعراء ينافحون عنه في هذه الحرب اللسانية الداخلية التي أُشْرِعت فيها أسنة الشعر ، وترامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام . وفي الأغاني صور من ذلك كثيرة ، فمساوير العبيسي يتهاجى مع المرار الفقعسي الأسدي<sup>(١)</sup> ، وابن ميّادة الذبياني يتهاجى مع الحكم الخضري الحاربي<sup>(٢)</sup> ، ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس مع كعب الأشقرى<sup>(٣)</sup> ، ومع المغيرة بن حبيّئة التميمي<sup>(٤)</sup> .

وفقد في أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجرير أيضاً والأخطل من جهة ثانية إلى أهاج كانت تُلَقَى في مسرح الميربند ، وكانت تأخذ شكل لُعبَة طريقة يتجمع الناس لمشاهدتها والفرجة عليها . وسميت هذه الأهاجى بالنقائض ، وستعرض لها في الفصل التالي ونكشف عما فيها من جديد ، فقد استطاعوا أن يحولوا فن الهجاء الجاهلي إلى فن النقائض الأموي ، واتخذوه ليلسوا به هذه الجماعة الفارغة في العراق .

وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة من العرب والطبقة الأرستقراطية السابقة طبقة "ثالثة" من الأجانب ، وهم الموالى . وكانوا كثيرين في المدن الإسلامية كثرة ظاهرة ، إذ كانوا يبلغون في الكوفة والبصرة نحو نصف السكان .

وكثير من هؤلاء الموالى كان من أسرى العرب في الحروب وبغنائمها ، وقد عاشوا معهم ، خدمتهم ، فالعرب إذا كانوا سادتهم ، وكانوا يشعرون دائماً بهذه السيادة عليهم ، فهم أتباعهم وقد قاموا لهم على الزراعة والصناعة والحرف وسميهم المختلفة .

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٧/١٤  
٣٩٣/١٥  
(٤) أغاني ٩٩/١٣ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٨/١٠  
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٣/٢  
وما بعدها .

وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نزع الفوارق بين الطبقات في الأمة ، فقال جلّ شأنه : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : « ليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى » . على الرغم من ذلك نرى العرب في العصر الأموي ينظرون إلى هؤلاء الموالى نظرة السادة إلى العبيد . ففي حوادث ثورة المختار الثقفي حين ثار في الكوفة ودعاً لابن الحنفية وثار معه الموالى ثم هزمهم مصعب بن نهض مع من أهل البصرة سخطاً على المختار لأنه سوى بين هؤلاء الموالى وبين عرب الكوفة في الحقوق ، في هذه الحوادث نجد الطبري يروي عن الشعبي أنه قال : « دخلت البصرة ، فوجدت إلى حنيفة فيها الأحنف ابن قيس ، فقال لي بعض القوم : من أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قال : أنتم موال لنا ، قلت : وكيف ؟ قال : قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم ، من أصحاب المختار (١) » .

فالعرب في عصر بني أمية رفضوا نظرية الإسلام التي تدعو إلى التسوية بين الشعوب والقبائل ، ونظر نفر منهم إلى الموالى نظرة السيد إلى عبده ، وقد أقامهم على خلعهم في السلم . أما في الحرب فيلاحظ قلّه وزن أنهم كانوا يأخذونهم معهم إذا حاربوا ، ولكنهم كانوا لا يركبون الخيل مثلهم ، وإنما يجارون بين أيديهم رجالة ، ويقول إن ذلك يذكر بالفرسان وخلقهم في العصور الوسطى (٢) ، ولكن لعل ذلك حدث لأنهم لم يكونوا فعلاً أهل فرسية وخيل .

وفي العقد الفريد فصل يصور فيه ابن عبد ربه معاملة العرب للموالى . كان كثير مما رواه مبالغاً فيه ونراه يقول : « قدّم نافع بن جبّير بن مطعم رجلاً من الموالى يصلّي به ، فقالوا له في ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، ويقال إن نافع بن جبّير هذا كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال واقواماه ، وإذا قالوا عربي ، قال وابلدناه ، وإذا قالوا موالي ،

وانظر الطبري ٧٢١/٢ .

(١) طبري ٦٨٤/٢ .

(٢) كتاب قلهوون السابق ص ٢٤٦

قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكتونهم بالكُنَى ولا يبدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصفِّ معهم ، ولا يتقدمونهم في الموكب ، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسِنَّه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الحَبَّاز ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حضر أحد العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخاطبها إلى مولاها فإن رضى زَوْج ، وإلا رَدَّ ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فُسِّخَ الزواج . . . . ورُوِيَ أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كلَّمه حُمُرَان مولى عثمان بن عفان عند عبد الله ابن عامر صاحب العراق في تشييعه على عثمان وطعننه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران : لا كُتِّرَ الله فينا مثلك ، فقال له عامر : بل كُتِرَ الله فينا مثلك ، فتقبل له : أيدعو عليك ، وتدعو له ؟ قال : نعم يكسحون طرقتنا ، ويخزرون خفافنا ، ويجحون ثيابنا<sup>(١)</sup> .

ولا نشك في أن في هذه الأخبار والروايات كثيراً من المبالغة، ولكن من الحق أن الموالى كانوا طبقة ثالثة في المجتمع العربي في أثناء هذا العصر ، ومن المؤكد أنهم أدوا دوراً عظيماً حينئذ في خدمة الدين والثقافة الإسلامية ، فكان أكثرُ حَسَلَةِ العلم والدين منهم ، وكذلك كان منهم شعراء اشتهروا في هذا العصر مثل زياد الأعجم مولى عبد القيس وأبي العباس الأعمى الشاعر المكي مولى بني الدُّثَيْل ، ويزيد بن ضَبَّة مولى ثَقِيف ، وقد خَسَرَجَت أسرةُ يَسَّارِ النَّسَائِي في المدينة غير شاعر .

وإذا أخذنا نبحث شعر هؤلاء الموالى وجدنا أكثره يذهب في المديح . وهذا طبيعي فنزلتهم متأخرة في الحياة ، وهم في حاجة إلى المال ، فلزموا الخلقاء والأمراء والأجواد المشهورين يمدحونهم ، لينالوا عطاهم .

وقد لُوِّنَ شعرُ نفر منهم بنزعة شعبية ، جاءت من موقف العرب لزامهم ومحاولتهم إذلالهم فكان ذلك سبباً لثورة نفسية كتبتوها ، أو كتبتها معظمهم ، وأفصح عنها بعضهم من حين إلى حين . فالمصدر لا بد له أن ينتقش . وأهمُّ

شاعر اشتهر بهذه النزعة في العصر الأموي إسماعيل بن يسار النسائي ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة في الأغاني ، وروى طرفاً من شعره الشعبي ، فن ذلك قوله<sup>(١)</sup> :

رُبَّ خَالٍ مَتَوَجِّجٍ لِي وَعَمِّ  
لَمَّا سُمِّيَ الْقَوَارِسُ بِالْقُرِّ  
فَاتَرَكَى الْفَخْرِيَا أُمَامَ عَلَيْنَا  
وَأَسْأَلِي إِنْ جَلَّهْتَ عَنَا وَعَنْكُمْ  
إِذْ نُرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّو  
نَ سَفَاهَاً بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

وهذه نزعة شعبية واضحة ، فإسماعيل لا يحاول أن يفخر بالفرس فقط ، بل يحاول أن يضعهم فوق العرب ، إذ يرجع إلى التاريخ القديم في الجاهلية ، وما كان العرب فيه من فوضى ، وما كان لقومه من ملوك متوَجِّجين . ونراه يشير إلى ما كان عليه العرب من غِلَظ وجفوة ، إذ كانوا يَسْتَلِدُونَ بناتهم .

ويظهر أن إسماعيل لم يكن يُخْتَقَى هذه الشعبية ، فقد رَوَى صاحب الأغاني أنه دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرُّصَافَةِ جالسٌ على بِرْكَةِ مَاءٍ فِي قَصْرِهِ ، فَاسْتَنْشَدَهُ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُنْشِدُهُ مَدِيحاً لَهُ ، فَأَنشَدَهُ قَصِيدَةً لَهُ يَفْخَرُ فِيهَا بِالْعَجَمِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا عَوَدِي بِذِي خَوْرٍ  
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ  
أَحْمِي بِهِ مَجْدَ أَقْوَامِ ذَوِي حَسَبِ  
جَحَاجِعِ سَادَةِ بُلُجِ مَرَازِبَةِ  
مِنْ مِثْلِ كَسْرِي وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا  
أَسَدُ الْكُتَابِ يَوْمَ الرُّوْعِ إِنْ زَحَفُوا  
عِنْدَ الْحِفَافِ وَلَا حَوَاضِي مَهْلُومِ  
وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومِ  
مِنْ كُلِّ قَرَمٍ بِتَاجِ الْمَلِكِ مَعْنُومِ  
جُرْدِ عِتَاقِ مَسَامِيحِ مَطَاعِمِ  
وَالهَرْمُزَانَ لِفَخْرٍ أَوْ لَتَعْظِيمِ  
وَهُمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التَّرِكِ وَالرُّومِ

فغضب هشام وقال : « أعلى تفخر وإيأى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ » ثم أمر أن يرموه في الماء ، فرموه وغطَّوه ، حتى كادت نفسه

تخرج ، ثم أمر بإخراجه ، ونفاه من وقته إلى الحجاز<sup>(١)</sup> . وطبيعي أن يُضْرَبَ  
وُحْرَمَ وَيُطْرَدَ في هذا العصر الذي كانت الدولة تتعصب فيه لكل ما هو  
عربي ، كما كانت تحارب كل نزعة ترمي إلى الغَضِّ من شأن العرب وحطُّهم  
ورَفْعِ غيرهم عليهم ، وإنما اتسعت الشعوبية أو هذه القومية العنصرية في العصر  
العباسي حين ضَعُفَ شأنُ العرب وقَوِيَ شأنُ الفرس ، وارتفع نجمهم .

ولعل في كل ما تقدم ما يدل في وضوح على أن الشعر في هذا العصر الأموي  
تطوَّرَ مع تطور حياة العرب الاجتماعية وما كان فيها من طبقات ، بعضها فوق  
بعض . فالملأى وموقف العرب منهم وشعوبيتهم ، والعرب وعصبياتهم وما انطوى  
فيها من فخر وهجاء ، وقريش وترفها وغناؤها وغزلها ، كل ذلك مُصَوَّرٌ في الشعر  
الأموي أروع تصوير .

## ٥

### الحياة الاقتصادية

من أهم العوامل في تكوين نفسية الفرد حياته الاقتصادية ، فالذين ينعمون  
بالراحة ، ويتوفر لهم نعيم الدنيا شأنهم في شعرهم غير شأن الذين حُرِمُوا هذه  
الراحة وذلك النعيم بسبب اختلاف المؤثرات المادية الواقعة على نفسياتهم .

فهؤلاء المترفون من قريش الذين تحدثنا عنهم في الحياة الاجتماعية كان  
شعرهم صدق حياتهم المترفة وثمرة مباشرة لما نعموا به . وكان يقابلهم في الصحراء  
رجال لم ينعموا بدنياهم نعيمهم ، فاصطبغ غزلهم بصبغة حزينة ، وكأنهم يستمدون  
من مَعِينٍ للحمران ، ولا شك في أنه دخلت في شعرهم تأثيرات روحية من الإسلام ،  
ولكن لا شك أيضاً في أنه كان للتأثيرات الاقتصادية نتائج مهمة في نفوسهم ، فما  
حياة الفرد التي نشاهدها في أغلب صورها إلاملاءة بينه وبين الطاقة الاقتصادية  
التي يستطيعها ، والتي يعيش ويتحرَّك داخلها ، فهي التي ترسم له خطوط هذه  
الحياة ومباهجها أو متاعها .

ونحن إذا تأملنا في ظواهر الحياة لهذا العصر الأموي وجدنا الجانب الاقتصادي

(١) أغاني ٤٢٢/٤ وما بعدها .

بتغلغل في ضمير كل ظاهرة منها حتى الاتجاهات الروحية في الأفراد يمكن أن تَعَلَّل من بعض جوانبها بعامل اقتصادية ، وإذا كان المال والترف هما اللذان أثمرتا في نهاية هذا العصر الوليد بن يزيد شاعرَ الحمريات ، فما لا شك فيه أن البؤس والفقر يدفعان في كثير من الأحوال إلى الكسْب ، وقد ينتهيان بالإنسان إلى الزهد في متاع الدنيا والتعلق بالنسك والعبادة .

ونَدَّعُ الجانب الروحي إلى الجانب السياسي فهل من شك في أن كثيراً ممن تبعوا الأمويين ، ونظموا شعرهم فيهم ، إنما تبعوهم حباً في أموالهم وطلباً لدينامهم ؟ . ونفس الذين خصصوهم من زُبَيْرِين وخوارج وشيعة إنما كانوا يخاصمونهم - في أغلب الظن - حباً لما في أيديهم من مال ودُنْيَا يريدون أن يتحولوا إليهم . ففي الظاهر أحزابٌ سياسية ، وفي الباطن دوافعٌ ومحركات اقتصادية .

فالعامل الاقتصادي كان له أثره العميق في حياة الناس والشعراء في أثناء هذا العصر كما هو دائماً في كل عصر ، ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أثره في جميع جوانب الشعر الأموي ، حتى في الشعر الحماسي الذي كان يُنظَّم في الفتح والجهاد في سبيل الله ، فإنه لم يَخْلُ هو الآخر من أثر مادي اقتصادي ، فهذا نَهَارُ بن تَوْسِعَةَ يقول في رثاء المهلب قائد الجيوش في خُرَّاسان<sup>(١)</sup> :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المَقْرَبُ لِليغنى وماتَ النَّدى والجودُ بعدَ المهلبِ

وليس معنى ذلك أن العرب لم يفتحوا الفتوح إلا من أجل المال وجمع الثروات ، فقد كان الدين لا يزال غَضًّا في نفوسهم ، ولا تزال النزعة الروحية أقوى فيهم من النزعة المادية ، ولكن المادة على كل حال كان لها تأثير قليل أو كبير فيهم .

ونحن لا نستطيع أن نَفْصِلَ في هذا العصر أية جانب من جوانب الحياة عن المادة ، فهي تتعمق في كل شيء . وما لا ريب فيه أنها أصبحت أقوى أثراً وأبعد عملاً في حياة العرب في أثناء هذا العصر مما كانت عليه في حياتهم الجاهلية ، فقد خرجوا إلى المدن واتسعت بهم ضرورات الحياة . وفرق بين رجل البادية ورجل المدينة في المطالب اليومية لحياته وبعيئته .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد من تَغْيِيرٍ أن شعر الحماسة القديم لم يعد اللونَ الغالبَ في الشعر العربي ، فقد تطورت الحياة واختلفت ، اختلف مصبها واختلف منبعها ، وأصبح المديحُ أهمَّ لونٍ بارز في لوحة الشعر لسبب بسيط هو اتساع ضرورات الحياة العربية الجديدة .

وكانت دمشق وأموالها مفرجَ الشعراء من أقصى البوادي إلى أقصى الخواصر ، فهم يَشْدُون إليها الرُّحال من الحجاز والعراق ، يستميجون خلفاءها بهذه الطرائف من مدائحهم ، ويعودون من عندهم بـجُجِرَ الحقائق قد ملأوها بالعطايا الجزيلة . ومن خير ما يصور ذلك قولُ جرير يمدح عبد الملك بن مروان على لسان زوجته أم حنزة<sup>(١)</sup> :

تَعَزَّتْ أُمُّ حَنْزَرَةَ ثُمَّ قَالَتْ      رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي لِقَاحِ<sup>(٢)</sup>  
تَعَلَّلُ وَهِيَ سَاعِبَةٌ بَنِيهَا      بَأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِيمِ الْقَرَاحِ<sup>(٣)</sup>  
ثِقَى بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ      وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ  
أَغْنَى بِسَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي      بِسَيِّبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو أَرْيَاحِ<sup>(٤)</sup>  
سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيثِي      وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جِنَاحِي

فهو يعلن على لسان زوجته حاجته الملحة إلى المال . ويرَوِي الرواة أن عبد الملك قال له هل تُروِيها مائة لَقْنَحَةٍ ؟ وأمر له بها وبثانية من الرِّعَاءِ<sup>(٥)</sup> . ومثل هذا العطاء هو الذي كان يَسِيلُ له لُعَابُ الشعراء ، فكانوا يقفون في صفوف بني أمية . ومن كان منهم معارضاً كان يجره مال بني أمية جراً ، فابنُ قيس الرقيسات وكُثَيْبِرُ وَالطَّرِمَّاحُ لم يكونوا يجدون بأساً في مدح بني أمية ، ما دام مدحهم يملأ حجورهم بالمال .

وعلى هذه الشاكلة ولنفس السبب تعلق الشعراء بمدح ولاية بني أمية ، فكان جرير شاعرَ الحجاج قبل أن يكون شاعرَ عبد الملك . وكان زياد بن أبيه ، وابنه عبید الله ، وبشر بن مروان ، وخالد القسري ، يصلون الشعراء ويُسَبِّحون عليهم

(١) الديوان ص ٩٧ .  
(٢) القراح : جمع لقحة ، وهي الناقة الحلوب .  
(٣) تعلل : تشغل وتلهي ، الشيم : البارء ،  
(٤) السبب : الصاق .  
(٥) أغاني ٦٨/٨

عطاياهم ، وفيهم وفي أمثالهم يقول ذو الرمة<sup>(١)</sup> :

وما كان مالى من تراثٍ ورثتهُ ولا ديةٍ كانت ولا كسبٍ مائتم  
ولكن عطاءُ الله من كلِّ رحلةٍ إلى كلِّ محبوبٍ السُّرادِ في خِضرمِ<sup>(٢)</sup>

فدو الرمة وغير ذى الرمة من الشعراء كانوا يُشرون من عطاء الولاة . وقد امتلأت دواوين هذا العصر بمدائحهم ، واشتهر بعضهم بلزومه لوالٍ خاص . وبنفس الصورة كانوا يلزمون القواد ، وقد أشادوا بإشادة رائعة بالمهلب قائد الجيوش الأموية ضد الترك في خراسان ، كما أشادوا بأبنائه وخاصة يزيد . وكان المهالبة في دولة بنى أمية ، كما كان البرامكة في دولة بنى العباس ، مضرب المثل في الجود والكرم ، وفيهم يقول بكثير بن الأحنس<sup>(٣)</sup> :

نزلتُ على آل المهلب شاتياً فقيراً بعيدَ الدار في سنةٍ محلٍ  
فا زال بي إلفاهم وافتقادهم وإكرامهم حتى حسبتهم أهلي

وقال في كلمة له أخرى<sup>(٤)</sup> :

وقد كنت شيخاً ذا تجارب جمةٍ فأصبحت فيهم كالصبي المدللِ

وفي كل مكان من مدائح هؤلاء الشعراء للقواد والولاة والخلفاء نجد إشادة بالكرم . والتغنى بالكرم قديم منذ الجاهلية ، ولكنه أخذ يتسع في هذا العصر بحكم ضرورات الحياة العربية ، وما كانت تستلزمه من مال .

وإذا كانت الجاهلية قد اشتهرت بحاتم الطائي الذى ضربت الأمثال بكرمه وجوده فإن عصر بنى أمية أخذ يكثر فيه هؤلاء الأجواد الكرماء ، وقد رقتهم الفتوح والغزوات بما يشاعون من الأموال ، فأخذوها على الشعراء ، يطلبون حُسن الذكر والأحدوث . وفي (المجبر) لابن حبيب ثبت طريف بأجواد العرب في الإسلام<sup>(٥)</sup> . وأول ما يلاحظ على هذا الثبت كثرة الأجواد في الإسلام بالقياس إلى

(٤) بيان ٢٣٤/٣ .

(٥) المجبر لابن حبيب (طبع حيدرآباد)

ص ١٤٦ .

(١) الديوان ص ٦٣٣ .

(٢) الخِضرم : الكثير الخير .

(٣) بيان ٢٣٣/٣ .



الجاهلية ، وهذا طبيعي لكثرة الأموال التي صبّت في حجور القوم من جهة ،  
 واتساع ضرورات الحياة على الناس من جهة ثانية . ومن هؤلاء الأجداد عبد الله بن  
 جعفر بن أبي طالب أشهر أجداد الحجاز في عصره ، وقد استنفد مديحه كثيراً  
 من شعر ابن قيس الرقسات ، وفيه يقول (١) :

أَتِيْنَاكَ نُشْنِي بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ      عَلَيْكَ كَمَا يُشْنِي عَلَى الرَّوْضِ جَارُهَا  
 وَعِنْدِي مَا خَوَّلَ اللَّهُ هَجْمَةً      عَطَاؤُكَ مِنْهَا شَوَّلُهَا وَعِشَارُهَا (٢)  
 إِذَا مَتَّ لَمْ يُوَصَّلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقْمُ      طَرِيقٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْتَ مَنَارُهَا

ومن هؤلاء الأجداد أيضاً عتّاب بن ورقاء الرياحي ، وأسماء بن خارجة ،  
 وطلحة الطلحات ، وعكرمة الفياض ، وفيه يقول الأخطل (٣) :

وَإِذَا عَدَدْتِ بِهِ رِجَالًا لَمْ تَجِدِ      فَيَبُضُّ الْفُرَاتِ كِرَاشِحِ الْأَوْشَالِ

ومنهم عمر بن عبید الله بن معمر التميمي ، ومحمد بن عمير بن عطارد  
 التميمي ، وزكريا بن طلحة الفياض ، وقد تخصص بملحه الأقيشر (٤)

الأسلى .  
 وأسماء هؤلاء الأجداد المدحّين تدور دوراتاً واسعة في شعر هذا العصر  
 الأموي ، فقد كانوا ينثرون أموالهم يميناً وشمالاً ، فسرعان ما يقصدهم الشعراء  
 ويتخصص فريق منهم بجداد معينين على نحو ما تخصص الأقيشر بزكريا  
 ابن طلحة .

وإذا كان شعراء هذا العصر قد ملحو الأجداد بلحودهم فإنهم ذموا البخلاء  
 لبخلهم . وهذا كله معناه ارتفاع شأن المال في نفوسهم . ولعل من الطريف أننا  
 نجدهم في هذا العصر يتدّمون بالفقر ، فالغنى مجد الأجداد ، ومن لا يحوزه  
 عدّ ذليلاً ، ومن هنا يقول جرير في قوم يذمهم (٥) :

(١) أغاني ٨٠/٥ .  
 (٢) المهجمة من الإبل : أوطأ أريمون وتزيد ،  
 والشول : التي أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر ،  
 والمشار : التي مضى لحملها عشرة أشهر .  
 (٣) أغاني ٢٢٠/٨ .  
 (٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٤٥٥/١١ .  
 (٥) الديوان ص ٢٦٤ .

بِحَالْفُهْمِ فَفَقِرَ قَسِيمٌ وَذِلَّةٌ وَيَسَّرَ الْخَلِيفَانِ الْمَذَلَّةَ وَالْفَقْرُ  
فَالْفَقْرُ أَصْبَحَ عَيْبًا شَدِيدًا مِنْ عَيْبِ الْمُجْتَمَعِ ، وَأَصْبَحَ الشُّعْرَاءُ يَتَهَاجُونَ بِهِ ،  
وَكَأَنَّهُمْ يَرُونَ فِيهِ مَجْمَعَ الْعَيْبِ ، فَمَنْ قَلَّ مَالُهُ حَيْثُ دَلَّ قَلَّ حَمَلُهُ ، وَصَغُرَتْ  
دُنْيَاهُ ، وَصَغُرَ شَرَفُهُ .

وَأَخَذَتْ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ الْعَرَبِ آفَةٌ جَدِيدَةٌ لَمْ يُعْرِفُوا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،  
فَإِنْ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ فِي الْمَدِينِ جَعَلَتْ قَوْمًا يَتَحَرَّصُونَ عَلَى مَالِهِمْ ، فَتَحْرُصُ  
لَهُمُ الشُّعْرَاءُ بِهَجْوِهِمْ ، فَلَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ عَادَتِهِمْ ، بَلْ رَأَيْنَاهُمْ يَأْخُذُونَ مَوْقِفًا مُقَابِلًا ،  
فِيْمَلْحُونَ الْبُخْلَ وَيَذْمُونَ الْكَرَمَ . وَمَنْ اشْتَهَرَ فِي هَذَا الْإِتِّجَاهِ حُمَيْدُ الْأَرْقَطِ ،  
وَلَهُ أَهْجَاءٌ مَقْدَعَةٌ فِي الْأَضْيَافِ (١) . وَأَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ وَتُرُوَيْ عَنْهُ أَقَاصِيصٌ كَثِيرَةٌ  
تُصَوِّرُ بُخْلَهُ ، وَكَيْفَ كَانَ يُعْلِنُهُ ، وَيَدْعُو لَهُ ، وَيَبْشُرُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ  
قَوْلُهُ فِيهِ (٢) :

يَلُومُونِي فِي الْبُخْلِ جَهْلًا وَضَلَّةً وَاللُّبُّخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوْأَلِ بَخِيلٍ

وَإِذَا كَانَ الْمَالُ قَدْ كَوَّنَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ مِنَ الْبُخْلَاءِ الْأَشْحَاءِ فَإِنَّهُ كَوَّنَ جَمَاعَةً  
أُخْرَى مِنَ الصَّعَالِكِ الَّذِينَ يَتَخَذُونَ إِظْهَارَ الْفَقْرِ وَالتَّصَعُّكِ وَسِيْلَتَهُمْ إِلَى طَلَبِ الْمَالِ  
مِنَ الْأَجْوَادِ . وَمِنْ أَشْهُرِ مَنْ احْتَرَفُوا هَذِهِ الْوَسِيْلَةَ الْحَكَمُ بْنُ عَبَّادِ الْكُوفِيِّ (٣) ،  
وَمِنْ طَرِيفٍ مَا يُرَوَى لَهُ قَوْلُهُ (٤) :

يَا أَبَا طَلْحَةَ الْجَوَادِ أَغْشَيْتَنِي بِسَجْمَالٍ مِنْ سَيْبِيكَ الْمَقْسُومِ  
أَحْيَى نَفْسِي فَدَتُّكَ نَفْسِي فَإِذَا مَفْلِسٌ قَدْ عَلِمْتَ ذَاكَ عَدِيمٌ

وَهُوَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي شَعْرِهِ يَتَّصَعُّكُ ، وَيُصِفُ مَا فِي دَارِهِ مِنْ حَشْرَاتٍ  
وَجُرُذَانٍ ، وَكَيْفَ بَسَّتِي الْعَنْكَبُوتَ فِيهَا بَيْتُهُ لِيُظْهِرَ بؤْسَهُ وَفَقْرَهُ ، وَيُضْحِكُ

(١) الكتب) ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٤) الحيوان ٢٩٧/٥ .

(٥) الإكاف: البرذعة. وهو بالهكون لغة في هو.

(١) ابن عبد ربه ٢٢٣/٣ .

(٢) ابن عبد ربه ٣٢٨/٣ .

(٣) انظر ترجمته في الأغاني (طبع دار

ممدوحه ، وكأنه كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهرُوا في القرن الرابع للهجرة<sup>(١)</sup>.

وهكذا لوَّنت المادةُ الشعرَ في عصرِ بنى أمية ألوانًا مختلفة ، وأكثرُ هذه الألوان جاء من تطور حياة القوم الجديدة في المدينة واختلافها عن حياة آبائهم في الجاهلية ، وما اتصل بهذه الحياة الجديدة من ضرورات العيش . وفي كتب الأدب قطعٌ تشتمل على حوار طريف بين الشعراء وزوجاتهم عن المال الذي يملكونه ، واستمع إلى أعشى همدان يقول<sup>(٢)</sup> :

قالت ثعباتى عرسي وتسالى أين الدراهم عتسا والدنانيرُ  
فقلت أنفقتها والله بخلفوسا والدهرُ ذو مرة عسرٌ وميسورُ  
إن يرزق الله أعدائى فقد رزقت من قبلهم في مراعيها الخنازيرُ  
قالت فيرزقك رزق غير متسع وما لديك من الخيرات قطميرُ  
وقد رصيت بأن تحبنا على رمتى يوماً فيوماً كما تحبنا العصافيرُ

وكان العرب في الجاهلية يستطيعون أن يجيوا حياة العصافير هذه التي تشير إليها زوجُ أعشى همدان يغدون خيماً ويروحون بطاناً ، يطلبون رزقهم أحياناً ، ويقع لهم رزقهم من غير طلب أحياناً ، أما اليوم في عصر بنى أمية فلا يستطيع شخص أن يحصل على قوته بدون طلبه واحتيااله في الطلب ، فلما أن يغدو خميصاً جائعاً ويروح خميصاً جائعاً ، وإما أن يغدو شبيحاً بطيناً ويروح شبعاً بطيناً ، فليس هناك توسط ، وليس هناك رزق يأتي من حيث لا يحتسب الشخص ، والحياة لا ترحم ، أو قل إن حياة المدن لا ترحم ، فلما أن تجد المال فتعيش ناعماً هادئ البال ، وإما أن لا تجده فتعيش شقياً محروماً .

ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية ، واحتلَّ جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسياً في حياة الناس ، فطبعي أن يكون أساسياً في فنهم وشعرهم . أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ؟ فلم لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفنى ؟ إنه يستقر في قاع الحياة وقاع الشعر ، لأن الشعر إنما هو تعبير عن الحياة .

(٢) حيوان ٦٢/٧ .

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٤٨ وما بعدها .

ولم يُعَبِّرَ الشعرُ الأموي عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب، وإنما عبّر أيضاً عن النظم الاقتصادية الموضوعية، وكان قد دخلها اضطراب كثير في هذا العصر، فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب<sup>(١)</sup> ومن جهة فُرض على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية، وكان الولاة يَتَقَسَّمُونَ في ذلك، فتارة تُفَرِّصُ باسم أجور عمال الحراج، وتارة تفرض باسم نفقات العقود وسك النقود وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال هذه الضرائب الاستثنائية كان ينفذ الولاة إلى جمع الأموال والثروات ويكنى لتصور ما كانوا يجدهونه لأنفسهم أن تعرف أن الحجاج حين صرف المهلب عن الأهواز إلى خراسان كان عليه لبيت المال ألف ألف درهم<sup>(٣)</sup>. ولما عُزِل يزيد بن المهلب عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف ألف درهم<sup>(٤)</sup>، وفي بعض الروايات أن شخصاً يسمى مُقاتل بن مِسْمَعٍ وَلى سِجِسْتَانَ، فأناه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناس له أديتهم، فشى عليها وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وقد بلغ راتب خالد القسري نحو عشرين ألف ألف درهم؛ بينما كان ما يأخذه لنفسه يزيد على مائة ألف ألف. ولما ولي يوسف بن عمر الثقفي بعده حبسه هو وثلاثمائة وخمسين من عماله وموظفيه، واستخرج منهم سبعين ألف ألف<sup>(٥)</sup>.

ويظهر أن هذه الحال بدأها العمال وولاة الحراج في عصر مُبَكَّرٍ فنحن نجد شاعراً في عهد عمر بن الخطاب يسمى يزيد بن الصَّحِقِ، يُرْسِلُ إليه بشكوى من الولاة، وخاصة القائميين على الحراج، وفيها يقول<sup>(٦)</sup>:

نُؤِوبُ إِذَا آبَا وَنَغَزَوْا إِذَا غَزَوْا فَأَنْتَى لَهُمْ وَفَرٌّ وَلَسْنَا أَوْلَى وَفَرٌّ  
إِذَا التَّاجِرُ الدَّارِيُّ جَاءَ بِفَارَةٍ مِنْ الْمَسْكِ رَاحَتْ فِي مَفَارِقِهِمْ تَجْرِي<sup>(٧)</sup>  
فهو يلاحظ عليهم ثراءً حادثاً، بل يلاحظ عليهم ترفاً، لا يجدهم لغيرهم

(١) في فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦١

وما بعدها فصل طريف عن إقطاعات البصرة وما أعطى منها لزعماء العرب وولاة العراق.

(٢) انظر الطبري ١٣٦٦/٢ وما بعدها.

(٣) طبري ١٠٣٤/٢

(٤) طبري ١٢١٣/٢

(٥) يعقوب ٣٥٥/٢ وكذلك ٣٨٨/٢.

(٦) فتوح البلدان ص ٣٨٤.

(٧) القارة: نافذة المسك.

من عامة الناس . وإذا تقدمنا إلى العصر الأموي اتسعت هذه الظاهرة ظاهرة ثراء الولاية وعمال الخراج مما يجمعون من الأموال . وفي ديوان جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء هذا العصر شكوى كثيرة من جباة الخراج وما يتبعون من عسف وظلم في استخراج المال من الناس . ونجد شاعراً يسمى أنس بن أبي أناس يقول لحارثة ابن بدر الغدافي صاحب زياد بن أبيه حين ولي على سرق ، وهي إحدى كور الأهواز (١) :

أحارِ بن بَدْرِ قد وليت إمارَةً      فكن جرّداً فيها تخونُ وتسرُقُ  
وباهٍ تميمًا بالغينى إن للغينى      لسانًا به المرء الهَيُوبَةُ ينطقُ  
ولا تحقرنْ يا حارثيًا أصبتهُ      فحظك من مُلكِ العراقين سرُقُ

وكأنما أصبحت الولاية على الكور والمدن في رأى الناس الثراء وجمع الأموال حتى يصبح المرء غنياً ، فلغنى كما يقول الشاعر لساناً يغطى على عيوب الإنسان ! ويروى أن حارثة سمع هذا الشعر فقال : لا يعتمى عليه الرشد ، وكأنه رأى في قوله هُدًى أرادته له . . . وهناك وثيقة طريفة عن عمال العراق وأسحاب الخراج في عصر ابن الزبير ، وما نقصوا الناس من ثمرات ، فقد كتب ابن همام السلولى أحد الشعراء شكوى طويلة فيهم إلى ابن الزبير ، وهي تتجربى على هذا النمط (٢) :

يا ابنَ الزبير أمير المؤمنين ألم      ببلغك ما فعل العمّالُ بالعمَلِ  
باعوا التجارَ طعامَ الأرض واقتسموا      صلّب الخراج شحاحاً قسمة النّفْلِ  
وفيك طالبٌ حقّ ذو مرانبةٍ      جلدُ القوي ليس بالوانى ولا الوكلِ  
اشددْ يدك بزيدٍ إن ظفرت به      واشف الأرامل من دُحرُوجة الجُمَلِ (٣)  
إنا مئينا بصبّ من بنى خلّف (٤)      يرى الخيانة شربَ الماء بالعمَلِ  
خذلّ العصيفير (٥) فانتف ريش ناهضه      حتى ينموَ بشرٍ بعد مقتبَلِ

ول الكوفة لابن الزبير ثم مزله . وزيد : مولى لكتاب بن ورقاء وكان خازن دحرورية الجمل .  
(٤) هو دحرورية الجمل السابق .  
(٥) الصيفير : عبد الله بن أبي حصيفير والى المدائن .

(١) الشعر والشعراء ص ٤٦٢ وانظر الحيوان

١١٦/٣

(٢) الجزء الخامس من أنساب الأشراف (طبعة بيت المقدس) ص ١٩١ وما بعدها .  
(٣) دحرورية الجمل : عامر بن مسعود الذى

لا غَمَزَ فيها ولكن جَمَّةَ السُّبُلِ  
 بَسْرَةَ الأَرْضِ بين السَّهْلِ والجَبَلِ  
 ومن عَدَرَتْ فلا تَعْدِرُ بِنِي قَفَلِ (١٤)  
 إلى الخبيصِ عن الصَّحْنَاءِ (١٥) والبَصْلِ  
 كمن غَزَادَ سَتَبِيَّ (١٦) غير مُجْتَعِلِ  
 مستَهْزِئًا بِغِنَاءِ القَيْنَةِ الفُضْلِ (١٧)  
 فزال مَهْرَانٌ مَذْمُومًا ولم يَسْزَلِ  
 قَبْلَ السَّبِيحِ فقد أَجْرَى على مَهَلِ  
 لكل أَرْزَقَ من هَمْدَانِ مَكْتَحِلِ  
 أَنبِثْتُ عَامِلَهُمْ (١٨) قَدْرَاحَ ذَا ثِقَلِ  
 من المَنَاعِ قِيَامُ اللَّيْلِ بِالطَّوْلِ  
 بَعْضُ المَنَالَةِ إن تَرَفَّقَ بِهَا تَسَلِ  
 بِكُفْرٍ عَلَيْهِ غَدَاةَ الرُّوعِ وَالوَهْلِ  
 إن نَالَ شَيْئًا بِذَلِكَ الخَائِفِ الوَجَلِ  
 إِذَا تَجَاوَزْتَ عن أَعْمَالِهِ الأوَّلِ  
 وَاحْمِلْ خِيَابَةَ مَسْعُودِ (١٨) على جَمَلِ

وما أمانةُ عَتَّابِ (١١) بِسَالَةِ  
 وَقَيْسِ (١٢) كَنْدَةَ قَدَّ طَالَتْ إِمَارَتَهُ  
 وَخَذَ حُجْبِيرًا (١٣) فَأَتْبَعَهُ مَحَاسِبَةً  
 مَا رَأَى مِنْهُمْ إِلَّا ارْتِفَاعَهُمْ  
 وَمَا غَلَامٌ عَلَى أَرْضٍ مَسَالَةَ  
 يُجِيبِي إِلَيْهِ خِرَاجُ الأَرْضِ مُتَكِنًا  
 وَالوَالِيَّ (١٤) الَّذِي مَهْرَانٌ (١٥) أَمْرَهُ  
 وَكَوْنِكَ ابْنَ أَبِي عَشْرِ (١٦) وَصَاحِبَةَ (١٧)  
 لَا تَجْعَلَنَّ [مال] بَيْتَ المَالِ مَا كَلَّةُ  
 وَمَنْقَدُ بنِ طَرِيفٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ  
 وَمَا أُخْبِنِسِ (١٨) جُعْفِيٌّ بِمَانِعِهِ  
 وَأَخْرَانِ مِنَ العَمَّالِ عِنْدَهُمَا  
 مُحَمَّدٌ (١٩) بِنِ عُمَيْرٍ وَالَّذِي كَذَبَتْ (٢٠)  
 وَمَا فَرَاتٌ (٢١) وَإِنْ قِيلَ امْرُؤُورِعُ  
 وَالخَارِثِيُّ (٢٢) سِيرَضِي أَنْ تَقْسَاسِمَهُ  
 وَادْعُ الأَفَارِعَ فَاقْرَعَهُمْ بِدَاهِيَةٍ

- الوالي في عداد المال .  
 (١٠) كان ابن أبي عيش هذا واليا على الدينور .  
 (١١) هو عبدالرحمن بن سعيد بن قيس المهداني .  
 (١٢) يريد نعم بن دجاجة ، وكان على  
 أسفل القمات .  
 (١٣) هو زحر بن قيس ، وقيل هو محمد بن  
 أبي سبرة وكان على جوشى .  
 (١٤) يريد محمد بن عمير بن عطارد أحد  
 أجواد العراق المشهورين .  
 (١٥) هو يزيد بن روم .  
 (١٦) يريد فرات بن زحر ، قتله المختار  
 يوم السبيح .  
 (١٧) يريد السري بن يقاص وكان على نهاوند .  
 (١٨) مسعود هذا من بني أسد .

- (١) هو عتاب بن ورقاء الرياحي الجواد  
 المشهور .  
 (٢) يريد قيس بن يزيد بن عمرو بن  
 شراحيل الكندي .  
 (٣) يريد حجير بن حجار بن الحر ، كان  
 على الزوابي .  
 (٤) بنوقفل : من تيم بن ثعلبة وكانوا على  
 صفقات بكر .  
 (٥) الصحناء : طعام يتخذ من صفار السمك .  
 (٦) دستبي : كورة كبيرة في فارس بين  
 الري وهمدان .  
 (٧) القينة الفضل : التي تلبس ثوباً واحداً  
 كأنها مبتذلة .  
 (٨) يريد سعيد بن حرمة بن الكاهل الوالي .  
 (٩) مهران : مولد لزيد وهو الذي جعل

كانوا أتونا رجالا ، لا ركاب لهم  
 لن يُعْتَبِرُوكَ ولا يَعْلُ هَامَهُمْ  
 فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل  
 ضَرَبَ السَّيَاطُ وَشَدَّ بَعْدُ فِي الْحُجُلِ<sup>(١)</sup>  
 أبداً وذخائر من مالٍ ومن حُللٍ  
 إن السياط إذا عَصَّتْ غَوَّارِبَهُمْ  
 ويخيل إلى الإنسان أن ابن هَمَّامٍ لم يترك والياً من الولاة الزبيريين المهمين في  
 العراق إلا حشده في هذا الثبت ، فهؤلاء العمال جميعاً لا يُوقِفُونَ الأمانة حتفها إلا  
 غضباً واحتيالاً على اقتطاع أموال الناس .

وكما شككنا ابن همام من عمال الخراج شكنا من عمال الصدقات ، فقد شكنا  
 من بني قسطل الذين كانوا على صدقات بكر بن وائل . وفي كتب الأدب نصوص  
 كثيرة يشكو فيها بدو نجد من المشرفين على صدقاتهم . وهناك وثيقة مهمة  
 قدمها الراعي الشاعر المعروف إلى عبد الملك بن مروان ، وضمنتها شكوى مرة ،  
 وقد كتبها بلسان قومه من بني نُمَيْرٍ ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

أبْلِيسُ أميرَ المؤمنين رسالةً  
 أنظيفةً الرحمنِ إنا معشرُ  
 تشكو إليك مَضَلَّةً وَعَوِيلاً  
 حنفاءُ نَسْجُدُ بِكُورَةٍ وَأَصِيلاً  
 حَقَّ الزَّكَاةَ مَسْرَلاً تَنْزِيلاً  
 وأتوا دواهي لو دلمت وغولاً  
 بالأصْبَحِيَّةِ قائِماً مَقُولاً<sup>(٣)</sup>  
 لَحَمًا ولا لَفُؤَادِهِ مَعْقُولاً  
 منه السياطُ بِرَاعَةٍ إِبْجِيلاً<sup>(٤)</sup>  
 لا يستطيع عن الديار حَوِيلاً<sup>(٥)</sup>  
 خَرَقُ تَجْرُ بِهِ الرِّيحُ ذَبُولاً<sup>(٦)</sup>  
 يدعو بقارعة الطريق هَدِيلاً  
 أَمْسَى سَوَامَهُمْ عَزِينَ قُلُولاً<sup>(٧)</sup>  
 إن السعاة عَصَوْكَ يومَ أمرتهم  
 أَخَلَّوْا العَرِيفَ فَفَطَعُوا حَيْزُومَهُ  
 حتى إذا لم يتركوا لعظامه  
 جَاءُوا بِصِكِّهِمْ وَأَحْدَبَ أَسَارَتَ  
 أَخَلَّوْا حَمُولَتَهُ وَأَصْبَحَ قَاعِدًا  
 يدعو أميرَ المؤمنين ودونه  
 كَهْدَاهُ أَهْدَى كَمَرِ الرَّمَاةِ جَنَاحَهُ  
 أنظيفةً الرحمنِ إن عَشِيرَتِي

(١) الحجل : جمع حجل وهو القيد .  
 (٢) انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد  
 القرشي (طبع المطبعة الرمانية) ص ٣٥٥  
 وقد أصلحنا النص في غير موضع .  
 (٣) المرئف : شيخ القبيلة . الحيزوم :  
 الوسط ، الأصحية : السياط .  
 (٤) الصك : الصحيفة الخاصة بالصدقات ،  
 مر مراراً .

(٥) الحويلا : تحويلا .  
 (٦) الحرق : الفلاة .  
 (٧) السوام : الإبل ترمى . عزين : متفرقة

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَا يَمْتَنِعُوا  
 قَوْمٌ أَسَابُوا ظَالِمِينَ قَتِيلًا  
 يَحْدُونَ حُدُبًا مَائِلًا أَشْرَافُهَا  
 فِي كُلِّ مَقْرَبَةٍ يَدْعَنَ رَعِيلًا<sup>(١)</sup>  
 شَهْرِي ربيع ما تذوق لبونهم  
 إِلَّا حُمُوصًا وَخَمَةً وَذَيْبًا<sup>(٢)</sup>  
 وَأَتَاهُمْ بِحِجِي فَشَدَّ عَلَيْهِمْ  
 عَقْدًا يَرَاهُ الْمُسْلِمُونَ ثَقِيلًا<sup>(٣)</sup>  
 كَتَبًا تَرَكْنَ خَنِيئَهُمْ ذَا عَيْلَةٍ  
 بَعْدَ الْغِنَى وَفَقِيرَهُمْ مَهْزُولًا<sup>(٤)</sup>  
 إِنْ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا  
 لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فَتِيلًا<sup>(٥)</sup>  
 أَنْتَ الْخَلِيفَةُ عَدْلُهُ وَنَوَالُهُ  
 وَإِذَا أَرَدْتَ لِقَالِمَ تَنْكِيلًا  
 فَادْفَعْ مِظَالِمَ عَيْلَتِ أُنْبَاءِنَا  
 عَنَا وَأَنْقِذْ شِلُونَنَا الْمَاكُولًا<sup>(٦)</sup>  
 فَزَى عَطِيَّةً ذَاكَ إِنْ أَعْطَيْتَهُ  
 مِنْ رَبِنَا فَضْلًا وَصَنِكَ جَزِيلًا

فالراعي يستغيث ويستنجد بعبد الملك من عمال الصدقات وما يصبون على قومه من أسواط العذاب ، فهذا العريف نكّلوا به شر تنكيل ، فقطعوا حيزومه ؛ وأخذوا ناقته التي تحمله ، وبقى لا يملك شروى نقيير ، وهو ملقّى هناك كهدهد كسّر جناحه ، يصيح ويصرخ ، ولا يجد من يرق له غير هؤلاء الظالمين من عمال الصدقات . ويقول الراعي إننا حنفاء نسجد بكرة وأصيلا ، وندفع حتى الزكاة لأنه منزل في القرآن الكريم تنزيلا ، إلا أن قحطنا عظيما أصابنا ، ومع ذلك فيحجى وأصحابه يتشدّدون فيفرضون علينا صدقات ثقيلة لا نستطيع أداءها . والقطعة في مجموعها صرّاخ وشكوى وعويل .

وإذا كان هذا يحدث في نجد وبين البدو من العرب فما كان يحدث في ريف العراق من العسف والظلم في جمع الخراج كان أشدّ وأحدّ ، ويكنى أن الموالي اضطروا إزاء ذلك أن يهاجروا من الريف إلى المدن ، مما جعل الخراج يستقطّ في عهد الحجاج من ١٢٠ ألف إلى ٢٥ ألف ألف<sup>(٨)</sup> .

- (١) الماعون : الزكاة .  
 (٢) الحدب : الإبل ، الأشراف : الأسمنة .  
 المقربة : الطريق في الجبل . الرعيل : القطيع .  
 يريد أنها من ضعفها تنقطع وهي سائرة .  
 (٣) العيون : الناقة ذات العين . الذبيل :  
 الباجس .  
 (٤) المقد : ما كتبه عليهم من الصدقات .

- (٥) العيلة : الفقر .  
 (٦) الفتيل ما يكون في شق النواة ، يريد أنهم لم يفعلوا شيئا .  
 (٧) عيلت : من الصهيل ، وهو صوت الغداه .  
 القلو : الضو .  
 (٨) تاريخ اليعقوبى ٢/٢٤٩ .



ويظهر أن هذه الهجرة زادت ، ففزع عمال الخراج إلى الحجاج ، حتى يرجع الموالى إلى ريفهم ، فرسم بأن من كان له أصل في قرية يجب أن يخرج إليها ، يقول الطبرى : « فخرج الناس وعسكروا ، وجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! وجعلوا لا يلبثون إلى أين يذهبون<sup>(١)</sup> » وتذهب الروايات إلى أن الحجاج أمر بوشم أيديهم حتى لا يعودوا إلى المدن أبداً<sup>(٢)</sup> .

ولا شك في أن هذه المعاملة القاسية كانت سبباً في كثرة الثورات في العراق ، فكلمنا ثار نائر هناك مثل عبد الرحمن بن الأشعث أو يزيد بن المهلب وجدنا العراقيين يتجمعون حوله ، وخاصة هؤلاء الموالى المظلومين فيما يؤدون من خراج وضرائب استثنائية . فلما ولي عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول للهجرة وقف هذا كله سواء في العراق أو في خراسان أو في غيرها من البلدان الإسلامية . وكان مما كتبه إلى عامله في خراسان هذه الجملة الماثورة : « إن الله بغث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعث جابياً<sup>(٣)</sup> » . وكتب إلى عامله في الكوفة أن يلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن لا يأخذ إلا الخراج ، فقوام الدين العدل والإحسان<sup>(٤)</sup> .

ومع ذلك فيظهر أن عمال عمر بن عبد العزيز أنفسهم لم يستطيعوا أن يسيروا على منهاجه الذى رسمه ، وكان ما وضعه العمال السابقون من شدة وظلم كان لا يزال عالقاً في نفوسهم ، أو على الأقل في نفوس بعضهم ، فنحن نجد طائفة من الشعراء ترفع صُحُفاً إلى عمر بن عبد العزيز تشكو فيها من عماله ، فهذا كعب الأشقرى يقول له<sup>(٥)</sup> :

إن كنت تحفظ ما يملكك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب  
 لن يستجيبوا للذى تدعو له حتى تجلده بالسيوف رقاب

ويروى الرواة أن شاعراً تعرض له وهو على المنبر ، فقال<sup>(٦)</sup> :

- |                     |                            |
|---------------------|----------------------------|
| (١) طبرى ١١٢٢/٢ .   | (٤) طبرى ١٣٦٦/٢ .          |
| (٢) الحيوان ١٦٥/٧ . | (٥) البيان والبيان ٣٥٨/٣ . |
| (٣) طبرى ١٣٥٤/٢ .   | (٦) البيان ٣٥٩/٣ .         |

إن الذين بعثت في أقطارها نبدوا كتابك وأستحيل المحرم  
 طلس الثياب على منابر أرضنا كل يجور وكلهم يتظلم<sup>(١)</sup>  
 وأردت أن يكلي الأمانة منهم عدل وهبهات الأمين المسلم

فكعب وصاحبه جميعاً يائسان من أن وصايا عمر الجديدة سينفذها هؤلاء العمال  
 الذين وصلتهم فعلاً وصاياهم ، فاستغشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ،  
 أو قل إن بعضاً منهم صنع ذلك ، وأصر على أن يستمر في الطريق القديم ، كما  
 يحدثنا الشاعر الثاني الذي اعترض عمر على المنبر ، وقال إن عماله نبدوا كتابه .  
 وتعاهدوا على الجور ، وإن اليأس القاتل ليبلغ منه ، فيقول لعمر إنه لا يوجد عادل  
 في رعيتك يستطيع أن يحتمل هذه الأمانة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن الشعر في عصر بني أمية  
 مثل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها وما أصابها من تطور ، فهو من جهة  
 صور نظم الدولة الاقتصادية وما اعتور تطبيقها من خلك واضطراب ، وهو من  
 جهة ثانية صور ضرورة المال في حياة العرب الجديدة ، وهي ضرورة - كما مر  
 بنا - اتسع تأثيرها في محيط الشعر وخطوطه واتجاهاته .

(١) طلس الثياب : يره أن ثيابهم غير نظيفة .

## الفصل الثالث

### التجديد في المديح والهجاء

١

#### مديح الأخطل والفرزدق وجرير

إنما اخترنا هؤلاء الشعراء الثلاثة لتصوير ما أصاب المديح عندهم من تطور وتجديد ، وسنختارهم فيما بعد لتصوير ما أصاب الهجاء هو الآخر من تطور وتجديد ، لأن نقاد العصر العباسي وأدبائه اتفقوا على أنهم أشعر أهل العصر الأموي ، فهم الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم فحول الشعر العربي حينئذ وأقطابه الكبرى<sup>(١)</sup> . وما يزال النقاد والأدباء المحدثون يعتنقون هذا الرأي ويؤمنون به ، ولذلك رأينا أن نفسر ما أصاب الفرعين الكبيرين في شجرة الشعر العربي ، فرعى المديح والهجاء ، من تحوير وتغيير في شعرهم خاصة ، لأنهم خبيرٌ من يمثل العصر ، ولأنهم دفعوا فنَّ الشعر حقاً إلى التعبير عن طاقات جديدة ، وقد ذهب شعرهم - أو كاد - في تدبيح قصيدتي المديح والهجاء .

أما الأخطل فن تغليب ، وهي قبيلة كبيرة ، كانت تنزل في الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها جنوباً حتى الحيرة ، وغرباً حتى حدود الشام ، وشمالاً شرقاً حتى أذربيجان<sup>(٢)</sup> . وقد تسربت إليها المسيحية في العصر الجاهلي . وظلت على مسيحيتها في العصر الأموي إلا طائفة قليلة دخلت في الإسلام . وزارها في الفترة الأولى من الفتوح الإسلامية تقف في صفوف الفرس والروم فيتصدى لها

Le Chantre des Omiades (Paris.) p. 3.

وانظر أيضاً الأغاني (طبع الساسي) ٩٣/١٠ ،

١٢٢/٢٠ ، ١٤٧/١٣ ، ٥٨/١١

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/٨ - ٥ ،

٢٨٢/٨ و ٩٠/١٠ .

(٢) انظر في منازل تغلب Lammen.

خالد بن الوليد ، ويُسَكَّلُ بها ويُسَرَّقُها شرًّا مُسَرَّقٌ<sup>(١)</sup> ، فَتَضَطَّرُ إلى الاعتراف بسلطان الخلافة الإسلامية ، ويذهب وقد منها إلى عمر بن الخطاب ، فيعاملهم معاملة حسنة ، ويقبل ألا يدفعوا جزية الأجانب من غير العرب ، إنما يدفعون صدقة المسلمين من العرب على أن لا يَنْصُرُوا أعداء الإسلام<sup>(٢)</sup> .

وتتقدم فتجد تغلب في صيفين ، وقد شهرت سيفها مع معاوية وقبائل الشام اليمينية في وجه علي وأصحابه . وظلت بعد ذلك موالية لبني أمية ، فنحن نجدها في صفوف يزيد بن معاوية في موقعة الحررة التي اصطلح نازها الخارجون عليه من أهل المدينة ، كما نجدها في صفوف مبروان بن الحَكَم في موقعة مَرَج رَاهِط التي اندحرت فيها القبائل القيسية .

وفي هذه القبيلة نبت الأخطل ، واسمه غياث بن غوث ، وهو من بني جُثَم بن بكر أحد فروع القبيلة المهمة . ولنا نعرف من ولد بالضبط ، ويظهر أنه ولد حول سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت ولادته في الحيرة كما يذكر صاحب الأغاني<sup>(٣)</sup> والنصوص المتصلة بنشأة الأخطل قليلة ، وهناك رواية تذهب إلى أن زوج أبيه كانت تُصَبِّقُ عليه ، فكانا يتشاجران<sup>(٤)</sup> ، ويقال إنها هي التي لقبته دَوْبَلًا ، والوبل الحمار الصغير . أما الأخطل وهو اللقب الذي عُرف به ، ومعناه السفيه ، فيقال إن الذي لقبه به كعب بن جعيل أحد شعراء عشيرته ، لِمَا رأى فيه من شر ، إذ كان كثير الوقوع في أعراض الناس<sup>(٥)</sup> .

ويتضح هذا الخلق فيما يُروى عن اتصاله بيزيد بن معاوية وهجائه الأنصار لإرضاء له ، فقد كان الأنصار مغاضبين لبني أمية منذ الحوادث التي قُتل فيها عثمان ، إذ قُتل بين ظهريهم ولم يدافعوا عنه ، ثم بايعوا علياً وذهبوا معه إلى صيفين لحرب معاوية وأنصاره<sup>(٦)</sup> ، ولما دار الزمن دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعدُّهم قَتَلَةَ عثمان وأعداءه<sup>(٧)</sup> .

في الماش .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠١/٨ .

(٥) أغاني ٢٨٠/٨ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ٣١٠/٤ .

والمقبول ٢٠٦/٢ وما بعدها .

(٧) الطبري ٩٢/٢ .

(١) طبري ٢٠٦٢/١ وما بعدها ، ٢٠٧٢/١ .

وفتح البلدان للبلاذري ص ١١٠ .

(٢) طبري ٢٤٨٢/١ ، والبلاذري ص ٧٥ .

والكامل لابن الأثير (طبع أوربا) ٤١٠/٢ .

(٣) أغاني (طبع الساسي) ١٦٢/٧ وانظر

الأغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٢/٨ والتعليق

وعلى هذا النحو لم يكن الأنصار من هوى معاوية وبيت بني أمية ، وقد  
أغمدوا سيوفهم بعد موقعة صفين ، ولكنهم لم يُغمدوا ألسنتهم ، فإن شعراءهم  
أخلوا يهجون شعراء بني أمية ، وطار الشر في المدينة بين عبد الرحمن بن حسان  
ابن ثابت وعبد الرحمن بن الحكمم أخى مروان بن الحكمم فتهاجيا هجاءً مراراً<sup>(١)</sup> .  
وكان ابنُ حَسَّان يتعرض لنساء بني أمية ، فيتغزل بهن لغرض الإزراء عليهن .  
ومن تغزل بها منهن رَمْلَة بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ، ودعا الشعراء  
إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار فكلهم أبى أن يهجو من آووا رسول الله  
وتصروه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جُعَيْل التَّغْلَبِي ، وكان مسلماً ،  
فقال له : « أرادى أنت إلى الإشرار بعد الإيمان ، لا أهجو قوماً نصروا رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدلك على غلام منّا نصراني ، كأن لسانه  
لسانُ ثورٍ ، يعنى الأخطل » فدعاه يزيد ، وليأه الأخطل<sup>(٢)</sup> ، فنظم في هجاء  
الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوت في العالم الإسلامي ،  
يقول فيها :

ذهبت قريشٌ بالمكانم والعُلا  
واللؤمُ تحتَ عمامِ الأنصارِ  
قدروا المعاليَ لستُم من أهلها  
وخلوا مساحبيكمُ بنى النجَّارِ

ومن حينئذ أصبح الأخطل شاعر بني أمية يعيش في بلاطهم وفي ظلالهم .  
وقد اتخله يزيد نديماً له ، فكان يرافقه ويلزمه حتى في الحج إلى البيت الحرام<sup>(٣)</sup> .  
وفي ديوانه قصائد مختلفة في مديحه ومديح أخيه عبد الله وابنه خالد ، واستمع إليه  
يقول في يزيد<sup>(٤)</sup> :

أماً يزيدُ فإني لستُ ناسيةُ  
جزاك ربك عن مُستقرِّدٍ وَّحد  
جزاءَ يوسفَ إحساناً ومغفيرةُ  
حتى يُغيبني في الرَّمسِ مَلْحودُ  
فناه عن أهله - مُرُومٌ وتَشريدُ  
أو مثل ما جزئى هرونٌ وداودُ

ص ٣١٤ .

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٠١/٨ .

(٤) الديوان ص ١٤٧ .

(١) أغاني (طبع السامى) ١٤٧/١٣

وما بعدها .

(٢) أغاني ١٤٧/١٣ وما بعدها ، ١١٨/١٤

وما بعدها ، والديوان (طبعة سنة ١٨٩١ م)

أو مثل ما نَالَ نوحٌ في سَفِينَتِهِ إِذْ اسْتَجَابَ لِنوحٍ وَهُوَ مَنْجُودٌ<sup>(١)</sup> أَعْطَاهُ مِنْ لَدُنِّ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهُ فِي جَنَّةٍ نِعْمَةً فِيهَا وَتَخْلِيدٌ

وواضح في أسماء الرسل الذين ذكرهم الأخطل أنه كان مثقفاً ثقافة دينية ، وهذا طبيعي لأنه مسيحي ، وقد كان على مذهب اليعاقبة ، وفي ديوانه وأخباره ما يدل على أنه كان ابناً باراً للكنيسة<sup>(٢)</sup> .

وليس هذا ما يلفتنا وحده في مدائح الأخطل في أثناء خلافة معاوية وابنه يزيد ، فنحن نلاحظ أيضاً أنه كان يضمن مدائحه انتصار معاوية في صفين ، كما يضمنها الفكرة التي كان يروج لها معاوية والأمويون من حوله ، وهي فكرة أن الله اصطفاهم للأمة ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

تَمَّتْ جُدُودُهُمْ وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ  
وَيَوْمَ صَفِّينَ وَالْأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ  
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ لَا يُوَارِثُهُمْ  
وَجَدُّ قَوْمٍ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكَدٌ  
أَمْدَهُمْ إِذْ دَعَا مَنْ رِبِّهِمْ مَدَدٌ  
بَيْتٌ إِذْ أَعْدَتِ الْأَحْسَابُ وَالْعَمَدُ

واستمرّ يوقع على قيثارته هذه النغمات التي كان يستحبها البيت الأموي ، وهو توقيع ثبته في نفسه وأكدّه أن قومه كان هوام مع بني أمية ، فأنجر معهم ، وانساق في تبارهم .

ولما تطورت الظروف بعد وفاة يزيد ، ودعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، انضمت تغلب إلى صفوف مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، حتى إذا اجتمعت الأمة على الأخير برزَّخ نجْمُ الأخطل في بلاطه على الرغم من نصرانيته فكان يحجىء وعليه جبّة خزّ وحيرزُ خزّ ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحبته خسرماً ، حتى يخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن<sup>(٤)</sup> .

(١) منجود : مفرد .  
(٢) انظر الفصل الخامس بدين الأخطل في كتاب لانس الأتف الذكر من ١٤ وما بعدها وانظر ترجمة الأخطل الملحقه بديوانه من ٣٣٦ وما بعدها . وانظر الأغاني (طبع دار الكتب)  
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .  
(٤) ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان من ٣٠٩) وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان من ٧٨٠٧١) .  
(٥) الديوان من ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن الإمام . انظر الديوان من ٢٣٦ .

(١) منجود : مفرد .  
(٢) انظر الفصل الخامس بدين الأخطل في كتاب لانس الأتف الذكر من ١٤ وما بعدها وانظر ترجمة الأخطل الملحقه بديوانه من ٣٣٦ وما بعدها . وانظر الأغاني (طبع دار الكتب)  
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .  
(٤) ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان من ٣٠٩) وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان من ٧٨٠٧١) .  
(٥) الديوان من ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن الإمام . انظر الديوان من ٢٣٦ .

ولكى نفهم موقف عبد الملك من الأخطل وتقريبه له حتى ليتخذها شاعره الرسمي لا بد أن نلاحظ العنصر السياسي في المسألة ، فالأخطل لم يحفظ بكل هذا التقدير لتجويده الفنى في شعره ومدىحه فحسب ، بل لعله إنما احتظى به لما كان لقومه على عبد الملك وخلافته من أياذ بيضاء . وكان عبد الملك يرمز برضاه على الأخطل إلى رضاه على تغلب المسيحية وعلى مسيحي الشام عامة (١) .

ومعنى ذلك أن الأخطل كان له مركز سياسى فى قصر عبد الملك بجانب مركزه الأدبى فى الشعر والمدىح ، وإذا قلنا إنه كان سفير تغلب عند عبد الملك لم نبعده وعلى ضوء هذه السفارة نستطيع أن نفهم كثيراً من الحوادث التى تتصل به من جهة ، وبعبد الملك من جهة ثانية ، فقد كان يكرمه ويُنزله منزلة رفيعة ، حتى بلغ الأمر بالرواة أن زعموا أنه كان يشقُّ إليه الصفوف ، والصليبُ مُدلى من عنقه ، ولبيته تنظر خمرًا . وهناك حادثان رواهما أبو الفرج الأصفهاني تدلان فى وضوح على مكانته فى البلاط الأُموي وأنه كان حقاً سفيراً لقومه فيه . والحادثان جميعاً تتصلان بالحروب التى اندلعت نيرانها بعد موقعة مَرَجِ رَاهِطِ بين القيسيين بقيادة الجَحَافِ بن حكيم وزُفَر بن الحارث وبين تغلب قوم الأخطل . أما الأولى فتتصل بالجحاف إذ نزل مع بعض وجوه قيس على عبد الملك بعد قصائه على ابن الزبير ، وكان القتل استحرَّ فى تغلب والقبائل القيسية ، وأراد عبد الملك أن يصلح بين الفشتين ، وإذا بالأخطل يدخل ، فينشد :

ألا سائل الجحاف هل هو نائرٌ  
بقتلتى أُصيبت من سليم وعامر

فى قصيدة طويلة . وكأنه يريد أن يستغلَّ عبد الملك ليثور ضد قيس ، ويثار منها لحروبها ضد تغلب حليفته . فوثب الجحاف مُغضباً ، وحشد جموع قيس ، وأغار بها على تغلب وهى آمنة ، فأوقع بها وقعة البشُرِ المعروفة التى قتل فيها نساءها ، وبقرَ بطون حواملها (٢) ، وفيها يقول الأخطل (٣) :

لقد أوقع الجحاف بالبشُرِ وقعةً  
إلى الله منها المشركى والمُعولُ

(١) مطول) لتغليب حنّ، ٣١٤/٢ .

(٢) أغاني (طبع السامى) ٥٥/١١ .

(٣) الديوان ص ١٠ .

(١) من المسيحيين الذين كانوا مقرين إلى هذا ملك يوحنا دمشق وكان يقبض يديه على زمام الشئون المالية . انظر تاريخ العرب

وهذه هي الحادثة الأولى التي تتصل بسفارة الأخطل لقومه لدى عبد الملك ، أما الحادثة الثانية فحادثة زُقَر بن الحارث زعيم قَيْس في الجزيرة ، فإن عبد الملك جذبته إليه ، وأجلسه معه على سريرهِ تكريماً له ، فغضبت تغلب ، وثارَت نائراً سفيرها ، فدخل على عبد الملك منفيظاً مُحَنَقاً ، وقال له : أَتُجْلِسُ هذا معك على السرير وهو القاتل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المَرَعَى على دِمَنِ الشَّرَى وتَبْنَى حَرَازَاتُ النُّفوسِ كما هَيَا  
فقبض عبد الملك رجله ، ودفَع بها في صَدْرِ زُقَر ، فانقلب عن السرير ،  
ووقف يناشد عبد الملك العهد الذي أعطاه (١) .

والأخطل إذا كان فشل في سفارته الأولى ، فقد نجح في سفارته الثانية ، وقد عَبَّرَتْ قصائده في عبد الملك عن هذه السفارة في أتمِّ معانيها وأجلاها ، إذ لم يَعدْ شاعراً يمدح البيت الأموي كما كان الشأن في عصر معاوية وبزيد ، بل أصبح سفيراً لقومه بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معان .

ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك ، وتقصد قصيدة المديح ، شَرِكَةً بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب ، فهو يمدحه ويتعرض لانتصاراته وهو يمدح قومه أو بعبارة أخرى يفخر بهم ، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك . وزراه يخلص من ذلك إلى حروبهم مع قَيْس ، فيهجوها هجاءً مُرّاً . وبذلك تنوعت قصيدة المديح عند الأخطل في عصر سفارته لعبد الملك ، ففيها مديح وفخر وهجاء ، وعادة يقدم لذلك بالفزل ووصف رحلته بالصحراء ، وقد يتعرض للخمر ، فيصفها ويصف تأثيرها وبجالسها .

وخبر قصيدة توضح ذلك قصيدة (خَفَّ القَطِينِ) فقد طارت شهرتها وطبقت الآفاق في عصر الأخطل وبعده عصر الأخطل . وزراه يبديها بوصف رحلة صاحبه في الصحراء على نحو ما صنع زهير في مملقته ، ويحاول التميز منه والتجديد ، فيستطرد إلى وصف الخمر ، واستمع إليه يقول (٢) :

خَفَّ القَطِينِ فراحوا منك أوبكروا وأزعجتهم نوى (٣) في صرفها غير

دار الكتب) ٦٤/١١ .

(٢) نوى هنا : نية .

(١) أغانى ( طبع دار الكتب) ٢٩٦/٨ .

(٢) الديوان ص ٩٨ وانظر الأغانى ( طبع



كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتَبِيدَ بِهِمْ      مِنْ قَرَقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمْنُ أُوجَدَرُ<sup>(١)</sup>  
جَادَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقَارِ مَتْرَعَةٌ      كَلْفَاءُ يُسْنَحَتْ عَنْ خُرْطُومِهَا الْمَدْرُ<sup>(٢)</sup>

فهو يستطرد على هذا النحو إلى وصف الخمر ، حتى إذا أرضى حاسته الفنية من ذلك رجع إلى وصف رحلة صاحبه مع أهلها .

والخمر في مدائح الأخطل لون يتميز به من جرير والفرزدق ، فقد كان الإسلام يمنهما أن يخوضا في هذا الموضوع ، أما الأخطل فإن مسيحيته لم تقف حائلا بينه وبين ذلك ، وقد عُرِفَ بحبه للخمر ومعاقرته لها ، وبفيض كتاب الأغاني بروايات وأخبار تصور هذه الناحية عنده<sup>(٣)</sup> ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد الخمر تحتل جانبا واضحا فيه ، ومن طريف قوله فيها<sup>(٤)</sup> :

وَأَسَى مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ صِرْفٍ      تُنَمِّي الشَّارِبِينَ مَا الْعَمُقُولَا  
إِذَا شَرِبَ الْفَقِي مِنْهَا ثَلَاثًا      بغيرِ الْمَاءِ حَاوَلَ أَنْ يَطْوُلَا

ويقول في وصف الشرب يوم يتناولون الخمر<sup>(٥)</sup> :

رَاكُحُوا وَهَمْ يَحْسِبُونَ الْأَرْضَ فِي فُلْكَ      إِنْ صرُّعُوا وَقَتِ الرَّاحَاتُ وَالرُّكْبُ

والذي يتعقب الأخطل في هذا الموضوع لا يشك في أنه كان يحاول الإطراف في الفكرة والصورة ، حتى تروقا سامعيه .

على كل حال تمتاز قصيدة (خف القطلين) بأننا نجد في أولها خمرًا ، وكان الأخطل يريد بذلك أن يُجَدِّدَ وأن يَبْدُ معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجرير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها في مدائح الخلفاء . وبجانب هذه الخمر نجد وصف رحلة صاحبه وأهلها في الصحراء ، وهو يفصل ذلك ، وما يزال في هذا التفصيل حتى ينتقل إلى مديح عبد الملك فيقول :

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٩/٨ ،  
١٢٣/٩ ، ٣١٧/٨ ، ٢٩٩/٨ ، ٢٩٤/٨  
(٤) الديوان ص ٣٧١ وأغاني ٢٩٦/٨ .  
(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٨/٩ .

(١) القرقف : الخمر ، ويجذر : يلد بالشام .  
(٢) ذات القار : غابية الخمر المطلية  
بالقار ، والكلفاء : التي في لونها كلف وهو  
السواد في صفة ، والمدر : الطين ، وينحت  
عن خرطومها : يفيض عن لها .

أظفَرَهُ اللهُ فَلَيْسَ هُنِيءٌ لَهُ الظَّفَرُ  
 خَلِيفَةُ اللهُ يُسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ  
 فِي حَافَتِهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ العُشْرُ (١)  
 فَوْقِ الجَلْجَجِيِّ مِنْ آذِيَةِ غُدْرُ (٢)  
 مِنْهَا أَكْفَيْفٌ فِيهَا دُونُهُ زَوْرُ (٣)  
 وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَنَّهُرُ  
 لَوْعَةٌ كَانَتْ فِيهَا لَهُ جِزْرُ (٤)  
 مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنَّ وَلَا بَشْرُ  
 مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرِّايَاتُ وَالقَتَرُ (٥)  
 وَبِالشُّوْبَةِ لَمْ يُسْبِضْ بِهَا وَتَرُ (٦)  
 وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرُ  
 كَانَتْ لَهُ نَقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدْخَرُ  
 مَا إِنْ بَوَّأَزَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ (٧)  
 أَهْلُ الرِّبَاءِ وَأَهْلُ الفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا (٨)  
 إِذَا أَلَمَتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا  
 كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرُ (٩)  
 لَا جَدُّ إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدَ مُحْتَقِرُ  
 وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا (١٠)

إلى إمام تُغَادِينَا فَوَاضِلُهُ  
 الخَافِضِ العَصْرِ وَالْمِيمُونَ طَائِرُهُ  
 وَمَا الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ  
 وَزَعَزَعَتْهُ رِيَاحُ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ  
 مُسْحَنَفَرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ بِسْتَرُهُ  
 يَوْمًا بِأَجُودٍ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ  
 مُفْتَرَشٌ كَافِرَاتِ الشَّيْثِ كَلْكَلُهُ  
 مُقَدِّمًا مَائِي أَلْفٍ لَمَنْزِلَةٍ  
 يَغْشَى القَنَاطِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِيهَا  
 حَتَّى يَكُونَ لَهُمُ بِالطَّفِ مَلْحَمَةٌ  
 وَتَسْبِينٌ لِأَقْنَومٍ ضَلَّالَتُهُمْ  
 ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِأَنْقَالِ العِرَاقِ وَقَدِ  
 فِي نَبْعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا  
 تَعَلَّوْا الهِضَابَ وَحَلَّوْا فِي أَرْوَمَتِهَا  
 حُشْدٌ عَلَى الحَقِّ عَيَافُو الجَنَاتِ أَنْفُ  
 وَإِنْ تَدَجَّتْ عَلَى الآفَاقِ مُظْلِمَةٌ  
 أَعْطَاهُمُ اللهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ  
 شُمْسُ العَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَمَّادَ كَلَهُمْ

وواضح أن الأخطل يستهل مديحه عبد الملك بخلافته على المسلمين ، وإمامته لهم ، وهو في ذلك لا يفترق في شيء عن شعراء المسلمين حين يمدحون الخليفة .

(٦) الطف : موضع بالقرب من الكوفة وكل ذلك الثوية . لم يبيض بها وتر : لم يرم بها نيل .  
 (٧) النبع : أجود الشجر ، يصبون بها : يلتزمونها .  
 (٨) الرباء : الفضل والمئة .  
 (٩) تدجت : أظلمت ، معتصر : ملجأ .  
 (١٠) شمس : جمع شمس وهو الرجل العسر في عداوته .

(١) الفوارب : الأمواج ، والعشر : شجر .  
 (٢) زعزعته : حركته ، الجأجيء : جمع جوجوه وهو الصدر . والأذى : الموج ، وغدر : جمع غدير .  
 (٣) مسحنفر : سريع . أكافيف الجبل : حروفه الناتئة في أعراسه ، زور : ميل .  
 (٤) الكلكل : الصدر . الجزر : قطع اللحم تأكلها السباع .  
 (٥) مسوم : معلم . القتر : الفاء

وقد انتقل بمدح خُلُقته ، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة في مديحه للنعمان إذ يقول في دليته (١) :

وما الفُراتُ إذا هبَّ الرياحُ لهُ  
تَحْرِي أُوأذِيهِ الْعَيْبَرَيْنِ بِالزَّبَدِ (٢)  
بِمُدَّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لَجِبِ  
فِيهِرُكَّامٌ مِّنَ الْبِنْبُوتِ وَالْحَضَدِ (٣)  
يَظَلُّ مَن خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مَحْتَصِمًا  
بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْإَيْنِ وَالنَّجْدِ (٤)  
يَوْمًا بِأَجُودَةٍ مِنْهُ سَيِّبَ نَافِلَةً  
لَّا يَحُولُ عِطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ

غير أن من يقرن هذه الصورة الجاهلية إلى صورة الأخطل الجديدة يلاحظ ما قلناه في غير هذا الموضع من أن الشاعر كان ينظر في الشعر الجاهلي ويستعير منه كثيراً من الصور ، ولم يكن يقف في ذلك عند حد التجليد ، بل كان يحاول التحوير في الصور والتجليد فيها فنوناً من التحوير والتجديد . فهذا الأخطل يأخذ من النابغة صورته التي صور بها جُودَ النعمان ، إذ شبهه بالفُرات حين يعلو فيضانه ويشد ، فيجرف ما يلقاه في طريقه من نبات وأشجار ، ولا يكتفي بذلك ، بل يحاول أن يُحدِث في الصورة طرافة جديدة ، وهي طرافة يستمدّها أولاً من التفصيل في صورة فيضان الفرات ، وتعقبه وهو يسقط من جبال الرُوم في انحدار شديد تتدافع معه السيول والأمواج تدافعاً ، ويستمدّها ثانياً من المقارنة نفسها ، فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالجوّد ، أما الأخطل فيمدّد المقارنة إلى الجهازة والروعمة ، فعبد الملك لا يشبه الفرات فقط في جوده ، بل يشبهه أيضاً في جسامته وروعته وفخامته . وهذا هو معنى أن الشاعر الأموي كان يطلب التجديد في شعره .

واستمرّ في قراءة الأخطل فستجده بمدح عبد الملك قائداً لجيوشه التي ساقها لحرب مصعب بن الزبير في العراق ، وما كان من بنيائه في طريقه للقناطر وهدمها ، ويصوّر كيف قضى على خصمه هناك . ثم ينتقل فيمدح عبد الملك في أسرته ،

(٤) الخيزرانة : سكان السفينة ، الأين : الإيهام ، النجد : الفرق التي يصيبه بسبب الإيهام .

(١) المملقات النشر من ١٦٩ .

(٢) تحرى : تحلب ، الأواذي : الأمواج ، العبرين : الشاطئين .

(٣) البنبوت والحصد : ضربان من النبات .

فيسبغ عليها كل ما يعتزُّ به العربي في أرومته وبيته من أخلاق وصفات ، وهي أخلاق وصفات أعدت ، في رأيه ، بنى أمة ليسودوا الناس ، فهو يصفهم بالحلم والأنفة ومحبة الحق والصبر حين يُراد الصبر والبَطْش بالبَطْش ، والحنو حين يُراد البَطْش ، هذا إلى الرأي السديد الذي ينير المشاكل المظلمة ، والحظّ الذي حياهم الله به ، حظ الخلافة وملك الدولة العربية .

ولم نأت بكل الأبيات التي مدح بها الأخطل في هذه القصيدة عبد الملك ، إنما أتينا بطائفة منها لتبين أن الأخطل في مدحه لعبد الملك كان يحاول جاهداً أن يجدد المديح في الشعر العربي تجديدًا يتلاءم مع عصره ، وقد لمسنا هذا التجديد في الصورة التي اقتبسها من النابغة . وليست المسألة في رأينا مسألة صورة مفردة ، فإن من يتأمل هذا المديح يلاحظ أنه اختلف في صورته العامة عن مديح الشعراء في الجاهلية ، لسبب طبيعي ، هو أننا أصبحنا بإزاء موقف في الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديمًا ، فقد أصبح للعرب دولة أو عبارة أدق خلافة ، وأصبح لهم جيش منظم . ومن هنا اختلف موقف الشاعر الأموي عن زميله الشاعر الجاهلي ، حتى لو كان مسيحيًا كالأخطل ، فإننا نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثم يمدح عبد الملك نفسه في خلقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية .

وكثير من هذه الجوانب أوجدته الحياة العربية الجديدة ، فكان طبيعيًا أن يتغير الشعراء الممتازون في قصيدة المديح على أصواتها أو في ظلالها . وهو ليس تغييرًا كليًا ، ولكنه على كل حال محاولة لتجديد وتنويع في المديح واستغلال لكل ما يمكن ، حتى يأتي الشاعر بشيء طريف يستهوي الخليفة والناس من حوله . ومن غير شك نجح الأخطل في قصيدته هذه حتى ليُروى أنه حين أنشدها عبد الملك قال له : « وَيَحْكُ يَا أخطل أتريد أن أكذب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ، فقال الأخطل : أكفى بقول أمير المؤمنين ، فأمر عبد الملك له بجفنة كانت بين يديه ، فمليتها دراهم ، وألقى عليه خيلعًا ، وخرج به مَوْتًا لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب (١) » .

ويعتد عصر عبد الملك خَيْرَ عصور الأخطل وأبهجها في نفسه ، فقد خصه بعطفه ، واتخذه سميراً وصديقاً ، فقررت عين الأخطل وقرت نفسه ، وصور ذلك في مدائح بديعة على نحو ما صوره في (تحف القطّين) . وقد أخذ يردد ما كان يردده شعراء المسلمين من اختيار بنى أمية للأمة وأنهم أصلحها ، فقد اصطفاهم الله لهذه المهمة ، واستمع إليه يقول<sup>(١)</sup> :

وقد جعل الله الخلافة فيكم بأبيض لا عاري الخيوان ولا جدب  
ولكن رآه الله موضع حقها على رغم أعداء وصدّاء كذب  
ويقول في قصيدة ثانية<sup>(٢)</sup> :

أحيّا الإله لنا الإمام فإنه خَيْرُ البرية ، للذنوب غفور  
نور أضياء لنا البلاد وقد دجّت ظلّم تكاد بها الهداة تجور

أليس هذا كله جديداً في قصيدة المديح العربية ؟ والحق أن هذه القصيدة اختلفت في هذا العصر بالقياس إلى صورتها القديمة لاختلاف الحياة العربية ، أو قل لتطورها وما حدث فيها من انقلاب سواء من حيث نظام الدولة أو من حيث تصور الناس للخلافة وما ينبغي أن يكون عليه الخليفة . وكان الشاعر الأموي ما يزال يطلب التجديد والتغيير في الإطار القديم لهذه القصيدة ، ولا شك في أن الأخطل ، مع أنه من أكثر الشعراء محافظة في هذا العصر ، استطاع أن يغير في هذا الإطار ، ولا نقول إنه هدمه ، ولكن نقول إنه حاول أن يعيد فيه ، حتى يتلاءم مع العصر ، فعمد إلى التوليد في الصور القديمة كما في صورة الفرات . كما عمد إلى التنويع في معاني المديح نفسه على نحو ما رأينا في مديح عبد الملك .

ونحن لا نترك عصر عبد الملك إلى عصر ابنه الوليد حتى نذكر بأن بهجة الأخطل بحكم بنى أمية تكاد تخفى في نفسه ، فقد كان الوليد يتعصب ضد المسيحيين ، وقد حوّل كنيسة يوحنا في دمشق إلى الجامع الأموي المشهور ، وعذب أحد زعماء تغلب حين عرض عليه الإسلام فرفضه<sup>(٣)</sup> . وطبيعي أن يباعد

(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٨٢/١١

(١) الديوان ص ٢١

(٢) الديوان ص ٧٤

ذلك بين الأخطل وبين القصر الأموي بدمشق ، وأن يتقدمه فيه شعراء آخرون مثل عدي بن الرقاع العاملي الذي أصبح شاعر الوليد الرسمي<sup>(١)</sup> ، وانزوى الأخطل وانزوت معه سفارته لتغلب .

ومن يرجع إلى مدائحه في الوليد يجدها ضعيفة فاترة ، ليس فيها روح ولا ما يشبه الروح إنما فيها ألوان خفيفة من الحزن لإبعاد الوليد له عن القصر ولعاملته القاسية للمسيحين<sup>(٢)</sup> . على أن الأيام لم تتطبل بالأخطل ، إذ توفي أثناء السنوات الأولى من خلافة الوليد . يدل على ذلك من بعض الوجوه قلة الشعر الذي مدحه به ، فإن ديوانه لا يتحوى من شعره فيه سوى أربع قصائد ، ولو أن حياته طالت في عهده لأكثر من مدحه .

وإذا تركنا الأخطل إلى صاحبيه الفرزدق وجربير وجدناهما يتنبئان في شجرة كبيرة ، هي شجرة تميم ، وكانت تشغل هذه الشجرة الجزء الأكبر من شرق الجزيرة ، إذ كانت أغصانها وفروعها تمتد من البحرين واليسامة وفيافي الدهناء جنوباً إلى شواطئ الفرات شمالاً ، وتتوغل على طول هذا الخط في نجد . وجعلها ذلك تجاور قبائل كثيرة ، فقد كانت تجاور في الجنوب عبد القيس وبني حنيفة ، وكانت تجاور في الشمال أسدًا وبكرًا وتغلب ، بينما كانت تجاور في الغرب قبائل كلها قيسية ، وأهمها غطفان وباهلة .

وتسيم إلى أن تكون مجموعة قبائل أقرب منها إلى أن تكون قبيلة واحدة ، فقد كانت تتفرع فروعاً كثيرة ، وكل فرع يُعدُّ قبيلة قائمة بنفسها ، وأحياناً يتضخم الفرع فيصبح مجموعة من القبائل . ومن أهم فروعها بنو الهجيم وبنو مازن وبنو منقر وبنو عطاردة وبنو أنف الناقة وبنو دأريم ، ومن يربوع غدانة ورياح وتغلب وكليب قبيلة جربير ، ومن دأريم بنو ققيم وبنو نهشل وبنو مجاشع قوم الفرزدق .

(٢) انظر الديوان ص ٢٣٢ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٠٧/٩ .

وقد دخلت تميم في الإسلام بعد فتح مكة ، ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدّ أكثرها وتابعوا مُتَنَبِّئَةَ هِي سَجَّاح ، فذهب إليهم خالد بن الوليد بجموعه ، واستطاع أن يردّهم إلى الإسلام . ولما توجه خالد وتوجه المسلمون إلى الفتوح شاركت تميم في حروب الفرس والروم ، واستمرت على ذلك طوال عصر بني أمية ، وفي ذلك يقول الفرزدق<sup>(١)</sup> :

فتحنا بإذن الله كلّ مدينةٍ من الهندِ أو بابٍ من الرومِ مُغْلَقِ

وكانت تميم في الجاهلية وثنية إلا نفرًا قليلا منها اتخذوا النصرانية دينهم . وفي فَرَعٍ من أهم فروعها هو فرع دارم وُلِدَ الفرزدق لأسرة أرستقراطية من بني مجاشع ، إذ كان جدّه صَعَصَعَةَ أحد سادة العرب وأشرفها في الجاهلية ، وذاع صيته لمكرمة كان يقوم بها ، وهي افتداء البنات من آبائهن بالمال حتى لا يَبْدُوهن ، ولذلك لُقِّبَ بمحبي المومودات<sup>(٢)</sup> ، وفيه يقول الفرزدق<sup>(٣)</sup> :

أبي أحمدُ الغَيْثِيْنِ صَعَصَعَةُ الَّذِي مَتَى تُخْلِيفُ الْجُوزَاءُ وَالنَّجْمُ يُسْطَرِ  
أَجَارَ بِنَاتِ الْوَائِدِينَ وَمَنْ يُجِيرُ عَلَى الْفَقْرِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْفَرِ

وكان أبوه غالب على مثال جدّه ، فهو أحد سادة بني تميم وأصحاب الشرف في الإسلام ، وكان كريمًا مفرطًا ، ويؤثر عنه حادثان يدلان على أنه كان بحرًا فيأصّب من بحار العرب . أما الحادث الأول فلخصه أن ثلاثة نفر من قبيلة كَلْبٍ تراهنوا على أن يختاروا من تميم وبكّر أشخاصًا ليسألوهم ، فأيتهم أعطى ولم يسألهم عن نسبهم مَنْ هُمْ كان أفضلهم ، واختار كل منهم شخصًا ، ووقع اختيارهم على عُمَيْرِ بن السليك الشيباني وطلبته بن قيس بن عاصم المينقرى وغالب بن صَعَصَعَةَ السُّجَّاشِعِي ، وذهبوا أولا إلى عُمَيْر ، فسألوه مائة ناقة ، فسألهم مَنْ أَنْتُمْ ، فانصرفوا عنه إلى طلبته ، فصنع صَبِيْعَةَ ، فولّوا وجوههم نحو غالب فأعطاهم ما سألوا ، ولم يسألهم مَنْ هُمْ . فساروا ليلة ، ثم ردّوا ما أخذوه ، وأخذ صاحبُ غالب الرهن<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك يقول الفرزدق<sup>(٥)</sup> :

(١) ديوان الفرزدق ص ٥٧٧ .  
(٢) أغاني (طبع الساسي) ٢/١٩ وما بعدها .  
(٣) (٤) أغاني ٥/١٩ والديوان ص ٧٥٩ .  
(٥) الديوان ص ٤٧٧ .

وإذ ناديت ككُتب على الناس أيهم  
على فقيرهم من نزار ذوى العلاء  
فلم يجعل عن أصحابهم غير غالب  
أحق بتاج الماجد المتكرم  
وأهل الجرائيم التي لم تهتم  
جرتي يعمانتي كل أبيض خضرم

وأما الحادث الثاني فلخصه أن بنى برّ بوع وبني دارم أصابهم سنة ،  
فانتجعوا بلاد ككُتب ، ولا حلكوا هناك بادر غالب ، فقهر للناس ناقة ،  
وأطعمهم إياها ، فصنع صنيعه سحيم بن وكيل اليربوعي ، فنحرت ناقة للناس .  
ف قيل لغالب : إنه ينافسك ، فقال : كلاً ! ولكنه امرؤ كريم ، وسأنظر ذلك ،  
ونحرت اثنتين من نوقه ، فصنع سحيم صنعه ، فنحرت عشرًا فنحرت سحيم  
عشرًا ، حيثلذ نحر إبله كلها ، ويقال كانت مائة ، ويقال كانت أربعمائة (١) ،  
وكان ذلك في مكان يسمى صوعر ، كرره الفرزدق في شعره ، وافتخر به  
كثيراً (٢) .

وكانت أم الفرزدق من ضبّة من أسرة شريفة من أسرها ، وتسمى لينة ،  
وهي أخت العلاء بن قرظّة ، وكان شاعراً ، ويروى أن الفرزدق كان يقول :  
أتاني الشعر من قبل خالي (٣) . وكثير من فخر الفرزدق مقسم بين آياه وأخواله ،  
وكذلك كثير من هجاء جرير له ، ومعنى ذلك أنه يتلفح بأردية الشرف من قبل  
آياه وأخواله جميعاً .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأة الفرزدق إلا ما يؤثّر عنه من أنه قال :  
كنت أجيد الهجاء في أيام عثمان (٤) . ولعل في ذلك ما يؤكد أنه ولد في خلافة عمر بن  
الخطاب . ويقال إن أباه غالباً قدّمه إلى علي بن أبي طالب حين نزل البصرة ، وقال  
له إن ابني هذا من شعراء مضمّن فأجابه : علّمه القرآن (٥) واستمرت هذه الوصية  
في نفس الفرزدق حتى كثر شره ، فاعتزل الناس ، فيما يقال ، وقبّد نفسه لحفظ  
أى الذكر الحكيم .

على كل حال نشأ الفرزدق وشبّ في هذه الأسرة الأرستقراطية التي تعتزّ بنفسها

(١) أفانئ ٥/١٩ والتقايف (طبع ليدن)

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٩٦ .

(٣) أفانئ ٦/١٩ ، ٤٨/١٩ .

(٤) أفانئ ٦/١٩ .

(٥) التقايف ص ٤١٢ - ٤١٨ .



وبكرمها وجودها ، فطبعته بطوابعها ، وأنجبهته على غيرارها . ولعلَّ مما يظور ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه باع بعض إبل له في عهد زياد بن أبيه ، فلما أمسك بالمال في حجيزه عبّره بعض الناس أنه يبيع إبله ويكتنيز أثمانها ، وكان أبوه يحقرها ، فشرَّ ثمن الإبل ، وألقى كل ما معه على الناس حتى ثابه وعمامته<sup>(١)</sup> ، ليتسبب في بيته ويتشبه بأبائه ا

وهذا كرم فيه تهوُّر وعدم مبالاة ، واحتذاء على أخلاق الجاهلية . ويتصل بذلك أنه كان يُجِير الناس ، ويجبر خاصة على قَبْر أبيه ، على نحو ما كانوا يصنعون في الجاهلية<sup>(٢)</sup> . ولما توفي صديقه يشر بن مروان ، وكان والياً على العراق لأخيه عبد الملك ، عقرَ فرسيه على قبره<sup>(٣)</sup> ، وتلك سنة جاهلية أيضاً .

ولعل في هذا كله ما يدل على أن الفرزدق كان شديد الصلة بالأخلاق الجاهلية . ويدخل في هذا الجانب عنده ما اشتهر به من فسق<sup>(٤)</sup> . وليس معنى ذلك أنه كان ينسلخ عن الإسلام جملة ، فقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أنه كان يتأثر بالإسلام ، وكان هذا التأثير يظهر في صور مختلفة .

على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تأثره بالإسلام ، فقد كانت نفسه تتأثر في عمق بالعادات والطباع الجاهلية . ومن هنا يأتي تهوُّره في كرمه واعتداده بأبائه وما كان لهم من أمجاد . وارجع إلى ديوانه فستجد أكثره يدخل في باب الفخر بالأباء والأجداد والأصحاب والأنساب في عشيرته بل في تسمي كلها ، حتى ليصبح بوقها المدوى في هذا العصر .

وديوان الفرزدق في حقيقته ، يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه وتمجيداً غالباً لهم ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت في مدحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته في نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يتغرف من بحر تمدُّه أبحُر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تمنعد شعراً على هذا اللسان الرطب برائع القول وجزله .

وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم كثرة المعارك اللسانية التي خاض

(١) . الديوان ص ٢٦٨ .  
(٢) أغاني ١٩/١٩ وما بعدها .

(١) طبري ٢/٩٥ .  
(٢) . الديوان ص ٧٥٧ .

الفرزدق غمارها ، فكل قبيلة تعدت طَوْرَها وخاصمت تميماً خاصمها في ديوانه . ومن هنالم يكن اللونُ الصارخ في ديوانه المديح كما كان شأن الأخطل .  
وأيضاً فهناك ظاهرة مهمة في شعره ، وهي أن الشخص الواحد نجد له عنده مديحاً كما نجد له هجاء . وتفسير ذلك أنه كان يهاجى القبائل اليمنية والقيسية ومن يعبر عنهما من الشعراء ، فكان إذا تولّى على العراق يمتنّي مثل يزيد بن المهلب وخالد القسري مدحه ، فإن لم يكن والياً ، أو عزّل ، هجّاه . وكذلك كان شأنه مع الولاة من قيس مثل الحجاج وعمر بن هبيرة الفزاري .

فمديح الفرزدق لولاة العراق من اليمن وقيس لم يكن صادراً عن نفسه ، بل كان منافقاً فيه وهذه ظاهرة نفسية مهمة في ديوانه لم تكن موجودة في الجاهلية ، لأن القبيلة لم تكن تُضطرُّ إلى الخضوع لسلطان وال من خصومها أو منافسيها ولم يكن يضطر شعراؤها إلى هذا اللون من ألوان النفاق السياسي لأرباب السلطان .

وليس هذا فحسب هو الشيء الجديد ، الذي يلفتنا في مديح الفرزدق لولاة العراق ، فنحن إذا أخذنا نتأمل في مديحه وجدناه يختلف عن المديح القديم ، لسبب طبيعي ، هو أن الفرزدق مُسلم ، بمدح ولاة خليفة الله في أرضه ، وهم كما يقومون على ولاية الناس يقضون بالعدل وينشرون الأمن ، يقومون أيضاً بمحاربة الثائرين . وكل ذلك مائل في ديوان الفرزدق ، فالحياة العربية اختلفت ، واختلف معها شعر المديح الذي يصورها . وفرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلي سيد القبيلة ، وأن يمدح الشاعر الأموي والى العراق المسلم الذي يتصف بصفات دينية هي صفات الإسلام ، واستمع إلى الفرزدق يمدح الحجاج<sup>(١)</sup> :

ولم أرَ كالحجاج عَوْنًا على التَّقَى  
بسيف به لله تَضْرِبُ مَنْ عَصَى  
شيت من الداء العِراق فلم تدع  
وكنّا بأرض يا بن يوسف لم يكن  
وما تُبتَغَى الحاجاتُ عندك بالرُّشا  
وما الناسُ إلا في سبيلين ، منها

ولا طالباً يوماً طريفة تابل<sup>(٢)</sup>  
على قَصْر<sup>(٣)</sup> الأعناق فوق الكواهل  
به ريبة بعد اصطفاق الزلازل  
يُبالي بها ما يرتشى كل عامل  
ولا تُقتضى إلا بما في الرسائل  
سبيل لحق أو سبيل لباطل

(٢) القصر : أصل المتق .

(١) الديوان ص ٦٩٥ .  
(٢) تابل : من التبل وهو النار .

ومن المؤكد أن هذه معان لم تكن تخطر ببال المقصدين للمديح في الجاهلية ، فلم يكونوا يمدحون بالتقوى ، ولا كانوا يصفون بمدحهم بأنهم سيوف الله ، ولا كانوا يذكرون الرشوة ، ولا الحق والباطل . وقد استرسل الفرزدق في هذه القصيدة يصف كيف قضى الحجاج على ثورة اندلعت في العراق . وكل ذلك جديد في قصيدة المديح العربية .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم كيف أن هذه القصيدة تطوّرت عند الشعراء المسلمين أكثر مما تطوّرت عند المسيحيين من أمثال الأخطل ، لسبب طبيعي ، هو اعتداد الشاعر المسلم بالمثالية الجديدة التي جاء بها دينه ، فوضعها نصب عينيه في مديحه ، وأخذ يثبت للملوحه الصفات التي يريد بها الإسلام . ومن هنا كانت قصيدة المديح عند الأخطل ، على الرغم من أنه نوع فيها وحاول أن يجعلها ، أكثر محافظة واتصالاً بالقديم من قصيدة الفرزدق وغيره من الشعراء المسلمين في هذا العصر .

ومهما يكن فإن قصيدة المديح لم تعد تجرى على النمط القديم أو الأسلوب القديم ، لأن الحياة اختلفت وانتقل العرب إلى أقاليم جديدة . وأسّسوا دولة دينية ، تمتعوا بمثالية جديدة ، وأيضاً فإن انطباعات الحياة الخارجية اختلفت ، فلم يكن في العصر الجاهلي ثائرون على القبيلة يحاربونها من ذات نفسها . أما في هذا العصر فنحن بصدد حياة جديدة ، فيها أخلاقية تستمد من الإيمان بالله ورُسُلِهِ والعمل الصالح ، وفيها دولة يريد القائمون عليها أن يعمّ العدل وأن يستتنبأ الأمن وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة ، ومع ذلك فهناك ثائرون وخوارج كثيرون . وليس هذا فحسب ، فإن وإلى العراق عليه ، بجانب حرّبه للخوارج والثائرين ، أن يبعث بجيوشه إلى خراسان ، فالفتح الإسلامي لا يزال قائماً . وكل ذلك نجد ماثلاً في قصيدة الفرزدق حين يمدح الحجاج أو يمدح غيره من ولاة العراق .

وإذا تركنا هؤلاء الولاة إلى الخلفاء نريد أن نعرف كيف كان يمدحهم الفرزدق ، كان أول ما نلاحظه عليه أن ديوانه ليس فيه مديح لمعاوية ولا لابنه يزيد . وأغلب الظن أن الفرزدق لم يمدحهما ، لأنه كان يحمل نفساً متمردة ، كانت تخضع

للسلطان القريب كسلطان الحجاج فتَضَطَّرَ إلى مديحه ، أما السلطان البعيد فلم تكن تخضع له ولا كان يهتها في شيء ، بل إننا نجد في ديوانه قطعة يتهدد فيها معاوية ويتوعده حين حبس جائزة أعطاها لعمه الحنات ، إذ توفى قبل مبارحته الشام ، فرأى معاوية أن يسردها<sup>(١)</sup> . وفي أخباره أن زياد بن أبيه اضطر إلى مطاردته حين سمع بنثره الأموال التي باع بها إبله في المربد وأيضاً فإنه رآه يهجو بني فقيم هجاء قبيحاً ، فطلبه ، وعلم الفرزدق ، ففر منه إلى سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة ، وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

أَلَا مَنْ مَبْلِغٌ عَنِّي زِيَادًا      مُغْلَغَلَةٌ يَخْبُ بِهَا الْبَرِيدُ  
بَأَنِّي قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ      وَلَا يُسْتَطَاعُ مَا يَحْصِي سَعِيدُ  
فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثِ هِزْبَرٍ      تَعَادَى عَنْ فَرَيْسَةَ الْأَسْوَدُ

واستمر الفرزدق في الحجاز منذ تعقبه زياد سنة خمسين للهجرة<sup>(٣)</sup> حتى توفي سنة أربع وخمسين .

ولما تطورت الأمور بعد موت معاوية وابنه يزيد وأصبح العراق كله لابن الزبير وقف الفرزدق بعيداً عنه وعن شيعته . وحدث أن زوجه النوار بلحأت إلى ابن الزبير في مكة تريد أن يسرها منه<sup>(٤)</sup> ، فبعثها نفسه هناك حيث حاول أن يقف بينها وبين غايتها ، واتخذ حمزة زلفى إلى أبيه عبد الله ، بينما اتخذت النوار خولة بنت منظور زوجه زلفى إليه ، واستجاب عبد الله لوجهه ، فانقلب الفرزدق بفخر عليه ، ويعرض به من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

أَمَا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ      وَشَفَعَتْ بِنْتُ مَنْظُورِ بْنِ زَبَانَ  
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرِّراً      مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَاناً

وقوله<sup>(٦)</sup> :

أَعْبَدَ اللَّهُ مَهَلًا عَنْ أَدَاتِي      فَإِنِّي لَا الضَّعِيفُ وَلَا السَّؤْمُ

(١) الديوان ص ٥٦ .  
(٢) أغاني ٣١/١٩ .  
(٣) طبرى ١٠٧/٢ .  
(٤) الكلب (١) ٣٢٦/٩ وما بعدها وأغاني (طبع الساسي) ٧/١٩ ما بعدها .  
(٥) أغاني ٣٢٧/٩ .  
(٦) أغاني ٣٢٨/٩ .

(١) الديوان ص ٥٦ .  
(٢) أغاني ٣١/١٩ .  
(٣) طبرى ١٠٧/٢ .  
(٤) انظر قصتها في الأغاني (طبع دار

ولسكنى صفاء لم تُؤبَسْ تَزِلُّ الطَّيْرُ عنها والعُصُومُ (١)

واشتعلت الحرب - فيما يظهر - بينه وبين ابن الزبير وولاته في العراق وأنصاره من قيس هنالا . يدل على ذلك أكبر الدلالة أنه بدأ حيثنذ يدخل في معارك الهجاء مع معاصره جرير الذي كان يقف في صف ابن الزبير وولاته وقيس الضالمة معه . وله قصيدة فيه وفي القُبَاع ( الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ) والى البصرة لابن الزبير حيثنذ ، يقول فيها للقُبَاع (٢) :

وقبلك ما أعْيَبْتُ كاسِرَ عَيْنِهِ زِياداً فلم تَقْدِرْ على حائله  
فأقسمتُ لا آتِيه سَبْعِينَ حِجَّةً ولو كُسِرَتْ عُنُقُ القُبَاعِ وكاهله  
وبين أن هذا تمرُّد واضح على العهد الجليد عهد الزبيريين . ولعل ذلك هو الذي أتاح لانعقاد الصلة والصدقة بينه وبين بشر بن مروان حين أصبح والياً على العراق من قبل أخيه عبد الملك . وسرعان ما توفى بشر وأقبل الحجاج القيسيني فاضطر إلى مديحه ليتقي يده وشره ، وفي أثناء ذلك كان يمدح عبد الملك ، ولكنه لم يتحوَّل إليه نهائياً بعامل ما فطرت عليه نفسه من تمرُّد .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أنه حاول أن يقف في صف عبد العزيز ابن مروان حين أراد عبد الملك أن يخلعه من ولاية العهد ويولى ابنه الوليد مكانه ، ففي ديوانه قصيدة يمدحه بها ، أو بعبارة أدق يرثيه بها حين علم بوفاته (٣) ، وكان حيثنذ في الشام . ولا نستطيع أن نفهم وجوده في الشام ، وهو لا يقف على عبد الملك ، إلا على أنه كان يريد مصر وزيارة عبد العزيز ، فعجل الموت إليه ، وحال دون رغبة الفرزدق ، ولا ريب في أن رغبته هذه عرفت لعبد الملك وابنه الوليد ، فاستمر بعيداً عن القصر .

ولما حاول الوليد أن يخلع سليمان أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبد العزيز ودعا إلى ذلك الحجاج وأنصاره في العراق ظل الفرزدق بعيداً بسبب هذه النفسية المتسردة فيه ، بل لعله دعا إلى سليمان بعد وفاة الحجاج ، فقد توفي قبل الوليد . وولى الأمر سليمان ففر به منه ، وحيثنذ يصبح الفرزدق شاعراً أمورياً بالمعنى

(١) تكسر . العصوم : الطيائر .

(٢) الديوان ص ٧٣٩ ، وانظر البيان

١٩٦/١

(٣) الديوان ص ٢٢٥ .

الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نراه بِحَطْبٍ في حَبَلِ الْأُمويين ويصبح داعية من دُعَاتِهِمْ وقد سجَّلَ في شعره هذا التحول الذي صار إليه في عهد سليمان ، إذ يقول له من شعر (١) :

تَرَكْتُ بَنِي حَرْبٍ وَكَانُوا أَيْمَةً      وَمَرَوَانَ لَا آتِيهِ وَالْمُتَّخِيْرًا  
أَبَاكَ وَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ أَرَادَنِي      لِيَفْعَلَ خَيْرًا أَوْ لِيُؤْمِنَ أَوْ جَرًّا (٢)  
فَا كُنْتُ عَنْ نَفْسِي لِأَرْحَلَ طَائِعًا      إِلَى الشَّامِ حَتَّى كُنْتُ أَنْتَ الْمُؤَمَّرَا

فهو يعلن إلى سليمان أنه لم يَفِدْ على خليفة أموي قبله ، وأنه أصبح شاعره الذي يَلْهَجُ بِذِكْرِهِ وَالثناءِ عَلَيْهِ ، بل الذي يدعو له ويتغنى باسمه ومآثره ، وقد ذهب يُشِيدُ بِهِ وَبِآبَائِهِ عَلَى نَحْوِ مَا نَجِدُ فِي قَوْلِهِ (٣) :

وَمِنْ عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ سَادِسُ سِتَّةِ      خِلَافَةٍ كَانُوا مِنْهُمْ الْعَمُّ وَالْأَبُ  
نَهْدَاءَ وَمَهْدِيَيْنِ عِمَانُ مِنْهُمْ      وَمَرَوَانُ وَابْنُ الْأَبْطَحِينَ الْمَطِيْبُ

وتقدم في غير هذا الموضع أن كلمة المهدي لعبت عند الشيعة دوراً واسعاً ، وَالآنَ يَقْتَرِضُهَا الْفَرَزْدَقُ وَأَمْثَالُهُ مِنْ شِعْرَاءِ بَنِي أُمِيَّةٍ لِيَخْلَعُوهَا عَلَى الْخُلَفَاءِ الْأُمويين ، وقد افترضوا معها كثيراً من الصفات التي كان يقررها الشيعة في أئمتهم . واستمع إلى الْفَرَزْدَقِ يَقُولُ فِي سُلَيْمَانَ (٤) :

أَنْتَ الَّذِي نَعَتَ الْكِتَابُ لَنَا      فِي نَاطِقِ التَّسْوِرَةِ وَالزُّبَيْرِ  
كَمْ كَانَ مِنْ قَسَسٍ يُخَبِّرُنَا      بِخِلَافَةِ الْمَهْدِيِّ أَوْ حَبِيرِ  
جَعَلَ الْإِلَهِ لَنَا خِلَافَتَهُ      بَرَاءَ الْقُرُوحِ وَعِصْمَةَ الْجَبْرِ  
كَمْ حَلَّ عِنَا عَدْلُ سُنَّتِهِ      مِنْ مَغْرَمِ ثِقَلٍ وَمِنْ إِمْرٍ

وهذه نفس نغمة الشيعة في وصف أئمتهم وما يُسَبِّغُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ صِفَاتٍ وَعَلَامَاتٍ قُدْسِيَّةٍ ، وَإِنَّهُ لِيَشِيدُ بِاصْطِفَاءِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ لَوْلَايَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَتَرَعَّضُ لِحُكْمِهِ وَمَا اِمْتَاَزَ بِهِ مِنْ عَدْلٍ وَإِحْيَاءِ لِلْسُنَّةِ النَّبَوِيَّةِ .

(١) الديوان ص ٨٨ .

(٢) الديوان ص ٣٢٧ .

(٣) الديوان ص ٢٤٠ .

(٤) الأوجر : الخائف .

واستمر الفرزدق بعد سليمان يتفرع إلى خلفاء بني أمية في دمشق ، ولكن كانت تعاوده نزعة التمرد من حين إلى حين ، فنحن نجده في عهد يزيد بن عبد الملك يُشَبِّطُ الناس عن الخروج لقتال يزيد بن المهلب حين ثار على بني أمية (١) ومع ذلك نراه يمدح يزيد بن عبد الملك ، ويغلو في مديحه على نحو ما نرى في قوله (٢) :

ولو كان بَعْدَ المصطفى من عباده      نبيُّ لهم منهم لأمزِ العزائم  
لكنتَ الذي يختاره اللهُ بَعْدَهُ      لِحَمَلِ الأماناتِ الثَّقَالِ العظامِ  
ورثمُ خليلِ اللهِ كلَّ خِزَاةِ      وكلَّ كتابِ بالنبوَّةِ قائمِ  
وحبَّلتُ حبْلُ اللهِ مَنْ بَعَثْتُمْ بِهِ      إذا نَالَهُ بِأَخْذِ بِهِ حَبْلِ سَلَمِ

وأظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لبس فيه أن قصيدة المديح تطورت عند الفرزدق ودخلها جديد كثير بحكم أن الخلفاء كانوا يقومون على دعوة الإسلام ، وكان يُطَلَّبُ فيهم أن يكونوا القُدْوَةَ المُثَلِّ لل مسلم ، فانبرى الفرزدق يمدحهم من هذا الجانب كما انبرى يتحدث عن حكمهم الصالح ، وفي أثناء ذلك نراه يعرض للثائرين عليهم ، فيهجوهم .

وظل الفرزدق يردّد هذه النعمات في مديح يزيد ومديح هشام بن عبد الملك ، غير أن الأمور فسدت بينه وبين الأخير ، إذ ولّى على العراق خالداً القسري ، وكان مشهوراً بعصبية الشديدة للشمسية على المضمرية ، واضطهد تيمماً وولاتها في خراسان ، وقتل نفرأ منها ، فعرض له الفرزدق بالهجاء ، وهجا معه سيده هشاماً وقال فيه بيته المشهور (٣) :

يقلِّبُ عَيْنًا لم تكن لخليفةٍ      مشوّهةً حوَّلاءَ بادٍ عيوبها

وحبسه خالد ، فتحول إلى مديحه ومديح سيده حتى يخلصاه من سجنه . وفي ديوانه مدائح كثيرة في هشام ، ولكنها فاترة ، وليس فيها عاطفة . وما لبث أن وافاه القدر في سنة أربع عشرة ومائة (٤) ، فاستراح من هذا التمرد الهائل الذي

(١) الديوان ص ٥١ .

(٢) أغاني ٤٥/١٩ .

(١) الديوان ص ٥١٦ .

(٢) الديوان ص ٨٢٩ .

اشتملت عليه نفسه ؛ والذي لم يكن يستطيع أن يخلص منه ، أو ينفك عنه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولم يكن الفرزدق الشاعرَ التميميَّ الفذَّ وحده في هذا العصر ، فقد كان يزاحمه زينافسه في إمارة الشعر بتميم والعراق عامة ابنُ عمه جرير الذي وُلِدَ بالهامة ثم ارتحل إلى البصرة<sup>(١)</sup> . وكان جرير من كُتَيْبِ أحد غصونِ بَرَبُوع ، وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسة إلى حد ما ، فلم تكن له نُضْرَةٌ غُصْنِ دارِمٍ ومُجَاشِعِ قوم الفرزدق ولا اخضرار أوراقه ، فجاشع كانت في اللروة العليا من تميم ، أما كليب فكانت في السَفْحِ والطبقة الدنيا ، ويعبّر المؤرخون لجرير عن ذلك ، فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحمير<sup>(٢)</sup> فهم ليسوا أهل إبلٍ وخيل . وكان جرير يعترف بذلك ، بل كان يفخر به ، فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت في تربة ليس من شأنها أن تُنْبِتَ الزهر . روى الرواة أن شخصاً سأله من أشعر الناس ؟ فقال له : قُمُّ حَتَّى أَعْرَفَكَ الجواب ، فأخذ بيده ، وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عَسَنَراً له فآسقلها ، وجعل يَحْصُصُ ضَرَعَهَا ، فصاح به : اخرج يا أبتِ ، فخرج شيخ دَمِيمٍ رَثٌ الهيئة ، وقد سال لَبْنَ العَسَنَري على لحيته ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم ، قال أوتعرفه ؟ قال لا ، قال هذا أبي ! أفتلدى ليمَ كان يشرب من ضَرَعِ العنزِ ؟ قال الرجل : لا ، فقال جرير : عفاة أن يُسْمَعَ صَوْتُ الحَلَبِ ، فيُطْلَبُ منه لبن<sup>(٣)</sup> .

لم يكن عطية أبو جرير مثل غالب أبي الفرزدق في سؤدده وشرفه ، إذ كان من طبقة أخرى . ومعنى ذلك أن جريراً لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتز به أمام سيادة الفرزدق وشرفه ، ولكن ذلك إن كان قد فاته في النسب فإنه لم يفته في الشعر والفن ، إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة فيهما لا تقل عن مرتبة الفرزدق صاحب الحسب والنسب الرفيع .

وعلى كل حال ، فإن هذه النشأة المتواضعة لجرير ، جعلت نفسه تخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة ، فلم يكن يعتز بأبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق

(٢) أفك (طبع دار الكتب) ٤٩/٨ .

(١) الشعر والشراء ص ٢٨٦ .

(٢) انظر التفاضل ص ٢٨٠ ، ٦٠٤ .



بآبائه وقبيلته . ولعل ذلك ما هيأه لأن يعيش حياته مجاهداً عن قيس ضد الأخطل وضد الفرزدق وتميم ، وقد ترجع أسباب ذلك إلى أموال كانت نصب في حجره من قيس لآل زُبَيْرِيَّة قيس وزبير بنه فحسب . يدل على ذلك أننا نجد الفرزدق يُعَيِّرُهُ بما يُصِيب من قيس في نقائضه معه<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن السبب أو الأسباب فإننا لا نستطيع أن نفهم وقوفه في صف قيس إلا على أنه لم يكن يحس إحساس الفرزدق بقومه ، ولذلك رضى أن يقف في صفوف خصومهم ، ولعل من الغريب أن نجده يمدح الأعاجم ، فيقول<sup>(٢)</sup> :

وَيَجْمَعُنَا وَالغُرَّ أَوْلَادَ سَارَةَ أَبُ لَا نَبَالِي بَعْدَهُ مِنْ تَعَدَّرَا

ومديح الأعاجم في هذا العصر كان يعدُّ كبيرة من الكبائر ، ولكنها نفسية جرير التي لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرهما الناس والشعراء في عصره . ومن هنا لم يجد بأساً أن يعيش حياته يتغنّى باسم قيس وما أثرها في الجاهلية والإسلام .

وليس هذا كل ما يلاحظ على اختلاف نفسية الشاعرين ، فنحن نلاحظ أيضاً أن صلة الفرزدق بآبائه واعتداده بأرستقراطيته وأجاده ، كل ذلك جعله لا يتأثر بالإسلام تأثراً عميقاً على نحو ما تأثر جرير به ، فبينما يُعرف هو بِفِسْقِهِ يُعرف جرير بعفافه<sup>(٣)</sup> . ويروي الرواة أنه رأى جريراً مُحْرِمًا ، فقال والله لأفسدنَّ عليه حجَّه ، ثم جاءه مستقبلاً له ، وقال :

وَإِنَّكَ لَأَقِي بِالْمَشَاعِرِ مِنْ مِئِي فَخَارًا فَخَبَّرْتَنِي بِمَنْ أَنْتَ فَاخْرُ

فقال جرير : لَسَبَيْكَ اللَّهُمَّ أَيْبِكَ وَلَمْ يُجِيبْهُ<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك دلالة واضحة على اختلاف النفسيتين وأن الإسلام كان يعمق نفسية جرير بأكثر مما يعمق نفسية الفرزدق .

كانت نفسية جرير هيئنةً لئسنةً ، فيها تواضع وفيها استكانة ، فلم يكن فيها هذا العنف الذي اشتملت عليه نفسية الفرزدق ولا هذا التمرد الذي صورناه ،

(٢) أغاني ٥/٨ .

(٤) البيان ١٨١/٢ .

(١) النقائض ص ٣٧٧ .

(٢) أغاني ٦٥/٨ وما بعدها .

بسبب تعمق الإسلام فيه من جهة ، وبسبب التواضع في نشأته وأسرته من جهة ثانية . وإذا كان قد مدح الأعاجم وعاش بمدح قيساً ، فأولى به أن يمدح أولى الأمر من بني أمية .

وأول خليفة أموي وقدّ عليه يزيدُ بن معلوية ، فقد روى عنه أنه قال : « وفدت إلى يزيد وأنا شاب ، فاستؤذن لي في جملة الشعراء . . . فدخلت ، وأنشدته ، وأخذت الجائزة معهم ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة (١) » . وليس في ديوان جرير شعرٌ في مدح يزيد ، فلما أن يكون ما نظم فيه ضاع ، أو تكون هذه الرواية غير صحيحة .

ولما تبعت العراقُ ابنَ الزبير رأيناه يتحطّبُ في حبّيل ولاته وعلى رأسهم القُبَيْع ، كما أخذ يحطّب في حبل قيسٍ مما جعله يصطدم بآبن عمه الفرزدق كما أشرنا إلى ذلك مراراً . وانتطح الوعلان التميميان واستمرّاً على ذلك إلى آخر أيامهما . وقد ظلّ في نقائضه مع الفرزدق يذكر قومه للزُبَيْر بن العوّام ، فإن قاتله كان من مجاشع (٢) . وربما كان من الأدلة على زبيريته في هذه الفترة أن نجد بِشْر بن مروان حين يُوكّي على العراق بعد القضاء على ابن الزبير يعبده عنه ، ويدعو الشعراء إلى هجائه ، وكأنه يراه شاعر خصومه (٣) .

وسرعان ما دخل جرير فيما دخل فيه أهل العراق ، فمدح بشراً (٤) ، ولما ولي العراق الحجاج الثقفي القيسى قرّبه منه حتى أصبح شاعراً الرسمى غير مدافع ولا منازع ، وليس من ريب في أن وقوفه مع قيس كان سبباً مهماً في رضا الحجاج عليه وجنّده به إليه .

ومن يقرأ شعره في الحجاج يكبر من شخصيته ، والحق أن الحجاج شوّهه الرواة في العصر العباسي إرضاء للعلويين والعباسيين جميعاً ، وطبعاً كانت فيه قسوة ولكنها كانت قسوة ضرورية ، وإن من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يتّبع سياسة حازمة رشيدة ، واستمع إليه يقول في ملحه (٥) :

(٤) أنساب الأشراف للبلاذري ١٦٨/٥ .

(٥) الديوان ص ٩٠ .

(١) أغاني ٣٦/٨ .

(٢) انظر الديوان (طبعة المصاوي) ص ٤٧، ٣٣٨ .

(٣) أغاني ١٨/٨ وكذلك ٣١٥/٨ .

مَنْ سَدَّ مَطْلِعَ التَّفَاقِ عَلَيْكُمْ  
 إِنَّ ابْنَ يَوْسَفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا  
 ماضٍ عَلَى الْفَعْمَرَاتِ بِمَضَى هَمِّهِ  
 مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُبُلَ الْهُدَى  
 وَلَقَدْ كَسَّرَتْ سِنَانٌ كُلَّ مَنَاقِرٍ  
 أم مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحُجَّاجِ  
 ماضٍ الْبَصِيرَةَ وَاضِحُ الْمِنْهَاجِ  
 وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَاقِ دَاجِي  
 وَاللُّصَّ نَكَلْتَهُ عَنِ الْإِدْلَاجِ  
 وَلَقَدْ مَسَّعَتْ حَقَائِبَ الْحُجَّاجِ

فهو يصفه بالشجاعة ونفاذ البصيرة ووضوح المنهج واختراق عزيمة للشدائد ، وانطلاقه في الأمور . ويعطف على سياسته فيبينُ رُشدها وما أفاءت على الناس ، فقد منع الرشوة وأمن الطرق من اللصوص ، وأصبح الحجاج لا يخافون على حقائبهم نهباً ولا سلباً . وبذلك قضى الحجاج على كل فساد في العراق سواء كان مادياً أو معنوياً ، فإن يده امتدت أيضاً إلى الفساد النفسي وإلى هذه الآفة التي تسمى التفاق ، فعالجتها في أصحابها وقضت على أفاعيها ومومها . وعلى هذه الشاكلة يصور جرير في مدائحه للحجاج سياسة قويمة ، تقوم على اتباع سبيل الهدى ، واستمع إليه يقول (١) :

وَيَسْتَتَانُ فِي الْحُجَّاجِ لَا تَرَكَ ظَالِمٌ  
 قَدِمْتَ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمِنْهُمْ  
 فَكُنْتَ لِمَنْ لَا يُبْرِي الدِّينَ قَلْبَهُ  
 سَوِيًّا وَلَا عِنْدَ الْمُرَاشَاةِ نَائِلٌ  
 مَخَالَفُ دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَمَخَازِلُ  
 شَفَاءٌ وَخَفَّ الْمُدْهِنُ الْمُتَشَاوِلُ

وكان هذا الشعر يصل إلى أذن عبد الملك ، فكان يغبط الحجاج على شاعره ويتمنى أن لو صار إليه ، وعرف الحجاج ذلك ، فأرسل إليه به مع ابنه محمد ، ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التي يقول فيها بيته المشهور :

الَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا  
 وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ  
 وأعجب به عبد الملك ، وأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرعاء (٢) ، وذكر ذلك جرير في شعره (٣) ، ومن حينئذ أصبح شاعر بني أمية : عبد الملك وأبنائه ، يتشبع لهم ، ويدعو دعوتهم ، وينفخ مع أنصارهم في بوقهم بكل ما أوتى من حَوْلِ فَنَسَى وَقْوَةَ .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(١) الديوان ص ٤٤١ .  
 (٢) أغاني ١٦/٨ وما بعدها .

وأموية جرير من هذه الناحية أقوى من أموية الفرزدق ، فقد كان الفرزدق ، متصديراً ، ولم يتصل ببني أمية ولم يصبح شاعراً حقاً لهم إلا منذ سليمان . أما جرير فلم يكن متصديراً ، بل كان فيه ضراعة ، أعدته لِلْحَقِّاقِ بعبد الملك منذ أول الأمر . ولم تكذب نَمْسَهُ يَدُ عبد الملك حتى تحوّل داعية له ولأبنائه في العراق ، بل في العالم الإسلامي كله ، فقد كان شعره يتدبّع في كل مكان ، وأخذ يُسَبِّحُ عليهم جميعاً كل ما أسبغه الشيعة على أئمتهم ، واستمع إليه يقول في عبد الملك<sup>(١)</sup> :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرّوهُ	ما قام للنّاسِ أحكامٌ ولا جُمعُ
أنت الأمينُ أمينُ الله لا سرفُ	فيا وليتَ ولا هيّابةٌ ورعُ <sup>(٢)</sup>
أنت المباركُ يَهْدِي اللهُ شيعتهُ	إذا تفرقتِ الأهواءُ والشَّيعُ
فكلُّ أدري على يَمْنِ امرأتِ به	فينا مطاعٌ ومهما قلتِ يَسْتَمعُ
يا آل مروانَ إنَّ اللهَ فضلكمُ	فضلاً عظيماً على من دينه البِدعُ

فبعد الملك عمود الدين ، ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام ولا انعقدت صلواته ، فهو أمين الله في أرضه وعلى عباده ، وهذا القرآن يقرّوه ، وهذه أوامره تستمد كلها منه ، وهي كلها أوامرُ يَمْنُ بأئبها الناس عن طاعة ورضاً . ويقول جرير إن هذا فضلٌ عظيمٌ اختصَّ به الله سبحانه آل مروان ، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشيعة وغيرهما ممن يبتدعون البِدع في الدين ، فهم أهل الكتاب والسنة ، وخصوصهم أهل البدعة والإلحاد . وهذه كلها عناصر دينية يمدح بها جرير عبد الملك ، وكان شيعياً يمدح إماماً شيعياً . واستمع إليه يقول في عبد الملك من قصيدة أخرى<sup>(٣)</sup> :

اللهُ طَوْقُكَ الخِلاقةُ والهُدَى اللهُ ليس لما قضى تبدِيلُ

وفي هذا البيت إشارة إلى فكرة المهدي من جهة وإشارة إلى مذهب الجبرية من جهة ثانية ، فكلُّ شيء بقضاء وقدر ، ولا سبيل إلى التبديل والتغيير في أي شيء . وكان بنو أمية ، كما أسلفنا ، يذيعون هذا المبدأ ، حتى ينصرف الناس عن

(٣) الديوان ص ٤٧٤ .

(١) الديوان ص ٣٥٥ .

(٢) الورع هنا : الجبان .

التفكير في خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صرفها عنهم ، فالفه جعلٌ وعزٌّ شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله ، ولا رادٌ لمشيئته ، ونجد هذه الفكرة منتشرة في شعر جرير ووليده لم ، وكأنه يريد أن يقررها تقريراً . واستمع إليه يقول هذه الفكرة في الوليد<sup>(١)</sup> :

إنَّ الوليدَ هوَ الإمامُ المصطفى      بالنَّصرِ هُزُّ لواءهُ والمُخَنَّمِ  
ذو العرشِ قدَّرَ أن تكونَ خليفتهُ      مُلْكَتَ فاعلٌ على المنابرِ واسلَمِ

فهو يقول في الوليد ما قاله في أبيه من أن خلافته قدَّرَ مقذورٌ ، قدَّره العليُّ العظيم صاحب العرش والأمر الذي تصدر عنه أعمالنا في الكون صدور الضوء عن الشمس ، فلا يمكن ردّها ، لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم .

وعلى هذه الشاكلة كان جرير يدعو في مدائمه للأميرين إلى هذا الجنب في القضاء ، فخلافتهم قدَّرَ مقذور منذ الأزل<sup>(٢)</sup> . وكذلك أوامره وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، حتى ما قد يكون من سفك دماء ، فأعمال الإنسان تحكّم بقوة إلهية خارجة عن سلطانه ، وهي قوة أعطى الله صوّبجانها لبني أمية ، فهم خلفاء الله ورسوله في الأرض وعلى العباد يُسَقِّلون مشيئته وإراداته ، وليس للعباد إلا أن يرضوا عنهم ، ويتصدّعوا بمشيئتهم ، لأنها تستمد من مشيئة الله ! ويكرّر جرير دائماً هذه النعمة في شعره كما يكرّر معها نعمة تفضيل الله لبني أمية على الناس إذ اختارهم للخلافة ، وأيضاً يكرّر صفات الكرم والعدالة والاقتداء بالكتاب والسنة ، فهم المادون المهديين الذين يتبعونهم وأنصارهم سبيل الرشاد . واستمع إليه يقول في سليمان<sup>(٣)</sup> :

سليمانُ المباركُ قد علّمْتُم      هوَ المهديُّ قد وَضَحَ السَّبِيلُ  
أجرتَ من المظالمِ كلَّ نفسٍ      وأدبَتَ الذي عهدَ الرَّسُولُ  
صفتَ لك بيعةً بشبّاتِ عهدٍ      فوزنَ العدلِ أصبحَ لا يَسْمِيلُ

فهو يصفه بالعدل وردّ المظالم عن الناس كما يصفه بأنه مهدي مبارك ، من اتبعه سلك سبيل المهدي ، ومن تركه سلك طريق الضلال . وحاول سليمان أن يصرف

(٢) الديوان ص ٤٢٢ .

(١) الديوان ص ٤٩٢ .

(٢) انظر الديوان ص ٢٧٥ .

ولاية العهد إلى ابنه أيوب ، فتمسَّع جرير يقول فيه (١) :

إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي تُرَجِّحِي نَوَافِلَهُ      بَعْدَ الْإِمَامِ وَلِيَّ الْعَهْدِ أَيُّوبُ  
اللَّهُ أَعْطَاكُمْ مِنْ عَلَيْهِ بِكُمْ      حُكْمًا وَمَا بَعْدَ حُكْمِ اللَّهِ تَعْقِيبُ  
أَنْتَ الْخَلِيفَةُ لِلرَّحْمَنِ يَعْزِفُهُ      أَهْلُ الزُّبُورِ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبُ

وكان جرير يستجيب دائماً لمثل هذه الرغبة حين يريد خليفة أن يصرف ولاية العهد دون أخيه لابنه ، صنَّع ذلك مع عبد الملك حين أراد أن يحول ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، وصنَّع ذلك مع الوليد حين أراد أن يترك سليمان إلى ابنه عبد العزيز ، وهو الآن يصنعه مع سليمان حين أراد أن يصرف ولاية العهد عن أخيه يزيد إلى ابنه أيوب ، وقد رأى أخيراً أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز .

وهذا لا يهمنا بصدد ما نتحدث عنه من أن جريراً عُنِيَ في مدائحهِ للأمويين بأن يدعو لهم على نحو ما يدعو شعراء الشيعة لأئمتهم . وشعره من هذه الناحية طريف طرافة ممتازة ، إذ يطلعنا على بعض الطرق التي كان يتخذها الأمويون ضد خصومهم ، فهم يسلكون إلى الدعوة لمذهباً عقلياً عُرِفَ في عصرهم ، هو مذهب النَجْبَرِيَّة ، وينادون هم وشعراؤهم ، وعلى رأسهم جرير ، في الناس به . وليس هذا فحسب ، بل يصفون أنفسهم ، بل قُلَّ يصفهم شعراؤهم بكل الصفات القدسيَّة التي يُسَبِّغُهَا الشيعة على أئمتهم . ولا فارق مطلقاً بين هذا الشعر الذي رويناَه لجرير وشعر الكميَّة مثلاً في الهاشمين . واستمع إلى جرير يقول في يزيد بن عبد الملك (٢) :

زَانَ الْمَنَابِرَ وَأَخْتَالَتْ بِمُحْتَجَبٍ      مُشَبَّتٍ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورِ

ولا يملُ جرير تكرار هذه النخمة في مدائحهِ لبني أمية لأنها في الواقع النظرية التي كانوا يحكمون على أساسها ، وقد أمعن في وصفهم بصفات جليلة كالعدل والهدى والأمانة والإمامة والسَّير على منهاج الكتاب والسنة . ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل ، ومن هنا انتشرت في شعره المقارنة بين

(٢) الديوان ص ٢٥٦ .

(١) الديوان ص ٣٤ .

الثائرين على الأمويين وقوم نوح وهود وثمود من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين ثارَ وقتله الأمويون<sup>(١)</sup> :

آلُ المهلبِ فرطوا في دينهمُ      وطمغوا كما فحكت ثمودُ فباروا

فهو يعدُّهم خارجين على الدين مارقين منه لثورتهم على حَفَظَتِهِ وحرَّسَتِهِ ، كما يعدُّهم طاغين باغين كما بَغَتِ ثمود وطمغت ، فأذاقها الله عاقبة طغيانها جزاءً وفاقاً . وقرأ في ديوان جرير ما استطعت فإنك ستجد دائماً هذه الصورة في مديح بني أمية تُكثِّرُ ألوانها وأصباغها سواء في عبد الملك وأبنائه أو في عمر بن عبد العزيز ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

أنتَ المباركُ والمهديّ سيرتهُ      تعصى الهوى وتقومُ الليلُ بالسورِ

وآخرُ خليفة انصل به جرير هو هشام بن عبد الملك ، وعنده نجد نفس الصورة ، ونفس الصفات السامية ، من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

إلى المهديّ نَفَزُحُ إن فَرَزْنَا      ونَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ القَمَامَا  
وحبَّلُ اللهُ تَعَصِيكُمْ قَوَاهُ      فلانْخَشِي لِعُرْوَتِهِ انْفِصَامَا  
رَضِينَا بالخليفة حين كُنَّا      لهُ تَبَعًا وكان لنا إِمَامَا  
تباشرتِ البلادُ لكم بحُكْمِ      أقامَ لنا الفسْرَافِضَ واستنقَامَا

فهشام هو المهدي الذي يفزع إليه الناس ، وقد أقامه الله عليهم ووكل له شئونهم ، وهي وكالة قديمة بين الله جل وعز وآبائه ، فحبَّل الله تعصمهم قواه ، فلا يُخَشِي انتفاضه ولا انتكائه . وهذا الإمام الحديد هشام يطبق في حكمه حدود الشريعة الإسلامية ، وينشر العدل في ربوع بلاده .

وفي كل مكان من شعر جرير نجد هذا الصوت في مديح خلفاء بني أمية ، بل في مديح أبنائهم أيضاً على نحو ما رأينا في مديحه لأيوب بن سليمان . وفي ديوانه قصيدة في مديح معاوية بن هشام ، وهو يلهج فيها بنفس الأفكار والآراء ، وقد

(٢) الديوان ص ٥٥٥ .

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ .

تعرض فيها لثائر ثار على هشام ، قتله يوسف بن عمر الثَّقَفِيُّ وبدد جموعه وهو  
وال على اليمن . وذهب جرير بصور ذلك وكيف أن من بعض الخليفة يتبع  
سبيل الضلال ، ويذيقه الله ومن معه نكال عمله بجنود لا يراهم الناس ، يقاتلون  
مع جند الخليفة ، وهم ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ونراه يقول في القصيدة (١) :

إِنَّا حَمِيدُنَا الَّذِي يَشْتَقِي خَلِيفَتَهُ  
مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ صَدَّادٍ

وهكذا خصوم بني أمية دائماً أهل يدع وضلال في الدين ، أما بنو أمية  
وأتباعهم فهم أهل الهدى والسيرة القويمة ، لم رضوان ربهم في الدنيا والآخرة .  
وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن أن جريراً كان متشعباً لبني أمية على نحو ما  
كان ينشعب كثير لابن الحنفية والكُحَيْتِ لزيد بن علي بن الحسين ، فهو شاعر  
الدولة ، والدولة عنده نحلة لا تنقل عن نحلة الشيعة وما يشبهها . ومن هنا ذهب بمجد  
بني أمية تمجيد صاحب النحلة الذي يدافع عن عقيدة لاعن فكرة طارئة ، وهي عقيدة  
كما رأينا تقوم على أن الله فضلهم وخصهم بالكرامة ، إذ اصطفاهم خلفاء على الأمة  
الإسلامية وثبتهم بكتابه وقضائه ، وقد التزموا فرائضه وسنة رسوله ، فهم الأئمة  
المهادون المهديون الذين يجب على المسلمين طاعتهم ، ومن عصاهم أو خرج عليهم  
يُعدُّ متبذراً في الدين يصد عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان .

وفي رأينا أن هذه الصورة التي يثبت خطوطها وألوانها جرير في ديوانه لخلفاء  
بني أمية ينبغي أن ينظر فيها المؤرخون حين يؤرخون لهم ، وخاصة أن تاريخهم  
كُتِبَ في العصر العباسي ، ودخل فيه تعصب شديد عليهم .

وشعر جرير من هذه الناحية يعد وثيقة تاريخية طريفة لمعرفة حقيقة هؤلاء  
الخلفاء ومدى ما يُلصقه به خصومهم من نقد وتجريح . وينبغي أيضاً أن يحذر  
المؤرخ هذه الوثيقة الأموية لأن الشعر بُنِيَ على المبالغة ، ولكن على كل حال  
وجود هذه الوثيقة أو الوثائق بين يديه تجعله يسير في بحثه على هدى . فن كلام  
الأنصار والخصوم يستطيع أن يكشف الحقيقة .

ونرى من ذلك كله أن جريراً كان شاعراً أمورياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،



فهو صفيتهم التي يذيعون فيها دعوتهم ، من إيمان بالقضاء النافذ ، ومن اصطفاة الله لهم ، ومن علم سيرهم على المحجة والطريق الواضحة . وهو أيضاً لسان حالم في كل ما ينتون من أمر وبصمومون من عزم . وظل هذا دأبه حتى توفي ، وكانت وفاته بعد الفرزدق بستة أشهر .

وكان إلى ذلك يمدح ولاية العراق العامين والخاصين من مثل أصحاب الشرطة والقائمين على الخراج . وفي ديوانه مدائح كثيرة لعبد العزيز بن مروان وربما كان قد زاره في مصر ، وفيه أيضاً مديح كثير للمهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، وله يقول<sup>(١)</sup> :

لَقَدْ بَعَثَ الْمُهَاجِرَ أَهْلُ عَدَلٍ      بِعَهْدٍ تَنْظُمَيْنِ بِهِ الْقَلُوبُ

فهو يضمن مديح الولاة مديح سادتهم من بني أمية الذين استخلفوهم على الأمة . وقد نوع كثيراً في مدائحهم ، تارة يمدحهم بسيرتهم العادلة أو بكرمهم الفياض ، وتارة يمدحهم بشجاعتهم وحسن قيادتهم للجيش وتأمينهم للطرق من اللصوص .

وشعر جرير من هذه الناحية خصب ، فهو يقتدر على مديح الولاة ومن يتصل بهم من القواد ، كما يقتدر على مديح الخلفاء والأمراء . ولا نرتاب في أن كثيراً من المعاني التي مدح بها عبد الملك وأبناءه وعمر بن عبد العزيز والحجاج وأقرانه أصبحت كأنها نجوم قطبية ثابتة في تاريخ قصيدة المديح العربية ، إذ استغلها من بعده شعراء العصر العباسي من مثل بشَّار وأبي نُوَّاس والبُحْتُري وأبي تمام .

ولعل في هذا كله ما يلفتنا إلى أن الحديد في قصيدة المديح الإسلامية لم ينتظر إلى العصر العباسي حتى يوجد ، بل أخذ يوجد منذ هذا العصر الأموي عند جرير وأمثاله ، ممن ضمنوا قصيدة المديح معاني إسلامية جديدة لم يكن يفكر فيها شاعر العصر الجاهلي ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان وثنيّاً ، ولم يكن هناك دولة ، ولا خلافة ولا إمامة ، ولا كتاب ، ولا سنة ، ولا نخلة شيعية ، أو أموية .

## تحول الهجاء عند الأخطل والفرزدق وجريير إلى نقائص

تحدثنا في الفصل السابق عن اندلاع نار المعصيات بين القبائل في عصر بني أمية ، وأشرنا إلى أن الهجاء سَعَرَ الشعراء والقبائل ، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموي أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليه الشعراء وخاصة في العراق ، حيث تكتلت القبائل في البصرة والكوفة ، وتقابلت القبائل البِسمَنِيَّة مع القبائل المضَرِيَّة . ونظرت كل قبيلة في نفسها وفيما كان بينها وبين غيرها قديماً من أيام وحروب ، واستحال ذلك كله شعراً ، - أو بعبارة أخرى استحال هجاء ، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهداً أن يرى القبيلة القديمة ، التي تصادف أن نافست قبيلته في الجاهلية ، بسهم من سهام الهجاء ، أو قل بحجر من حجارة القذف . ويستشيط شاعر القبيلة المعادية غضباً ، فراه يبحث هو الآخر عن سهم مُصمِر أو حجر مُدمر ، ليرد كسيده صاحبه في نحرة أو في رأسه .

والهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية ، وقد أوجدته المنافسات القبليَّة على مياه الغُدْران والمرعى ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وغصونها ، فكانوا يقتلون ، وكانوا يتهاجون هجاء مرّاً . ولما جاء الإسلام ، وحاربت المدينة تحت لواء الرسول مكة ، تقاذف حسَّان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رَوَاحَة مع عبد الله بن الزُّبَيْرِ وأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وضرار بن الخطاب قصائد هجاء ، نظموها في ظلال الأيام والحروب التي نشبت بين البلديتين مثل يوم بدر ويوم أحد وغزوة الخندق . وفي هذا كله ، سواء في العصر الجاهلي أو في أيام الرسول ، كان الهجاء فنّاً غير معقّد ، إذ كان يقف الشاعر عند أفكار عامة من الجبن والقعود عن الثأر والبخل ونحو ذلك ، وقد أضاف شعراء الرسول وخاصة عبد الله بن رَوَاحَة الحديث عن الإيمان والكفر ، وكذلك صنع أحياناً حسان بن ثابت . ونحن نلاحظ في كل هذه الصور من الهجاء التي سبقت عصر بني أمية أنها

كانت في أكثرها صوراً بسيطة ، فالشعراء لا يتقبلون دائماً بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التي صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم .

ثم هم لا يقبلون على ذلك إقبال المحترف الذي يتهب حياته لمهنة يمارسها ، إنما هم يقبلون على ذلك من حين إلى حين ، وفي الفترة بعد الفترة ، يعبرون عن رغبات قبليّة ، أو رغبات لجماعة ، ولكنها رغبات مُقبّلة بحروب وأيام . وقد نجد هجاءً فردياً لا يتقيد بأيام ولا بحروب ، ولكن هذا لا يهمنا ، إنما يهمنا الهجاء المتبادل الذي كان يأخذ شكل حربٍ لسانية بين القبائل بجانب الحرب الحقيقية .

فهذا الهجاء المتبادل لم ينظم ولم تُعطِ الحياةُ الفرصةَ لتنظيمه ، إذ كانت القبائل متباعدة ، وخاصةً هذه التي تتقاتل ، وكان الشعراء لذلك لا تنتظم بينهم هذه الحرب اللسانية . ومن هنا كنا لا نعرّ بهذا اللون من الشعر إلا قليلاً ، وعقب الأيام والحروب فوراً كل يوم وكل حرب نجد قطعاً متبادلة بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تُزَمّ الألسنة كما تُزَمّ السيوف ، وكأن شيئاً لم يحدث ، فقد هدأت ريح الحرب ، وهدأت معها العواصف اللسانية .

ومعنى ذلك أن العرب قبل عصر بني أمية لم يعرفوا هجاءً منظماً ، يستمر يوماً استمراراً متصلاً ، على نحو ما يستمر في عصرنا لإخراج الصحف اليومية ، إنما عرفوا هجاءً متقطعاً ، يظهر من حين إلى حين ، تبعاً لنشوب حروب وأيام بينهم . فلما جاء العصر الأموي واستقرت القبائل في مدينتي البصرة والكوفة وعادت العصبيات جذّةً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد في المربد والكُناسة حول الشعراء ، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء ، وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً وتسليّة .

حينئذ يتحول فن الهجاء من فنٍ وقفي متقطع إلى فنٍ دائم مستمر ، فالقبائل مصفوفة في البلدين ، والشعراء متراصون في المربد والكُناسة ، والناس يتحلّقون حولهم لاستماع ما يأتون به ، بعضهم من قبائلهم ، وبعضهم من قبائل أخرى ، جاءوا للفُرجة والتسليّة وقطع الفراغ الهائل الذي لم يكن يعرفه العربي في الجاهلية

إلا قليلا ، إذ كان مشغولا بالبحث عما يُقيم به أوده . أما اليوم فقد كَفَّتْهُ  
الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مئونة ذلك ، فذهب يبحث عن شيء  
يلهو به ، ويقطع أوقات فراغه ، وقام له شعراء البلديين بما ابتغى ، إذ حوِّلا  
المربد والكُنَاسَة إلى ما يُشبهه مَسْرَحِين كَبِيرِينَ ، يظهر عليهما يومياً شعراء  
مختلفون يلعبون لعبة الهجاء اللطيفة التي كانت تروى العرب في جاهليتهم قديماً ،  
ولا تزال تروى عنهم حديثاً .

وفي العادة كان الجمهور يتحرك من شاعر إلى شاعر ، وخاصة حين يحاول  
شاعر أن يرد على مارسيه شاعر قبيلته ، فيشتد الحماس عند القبيلة وعند الجمهور  
المحتشد ، ويشتد الصفيير والتصفيق ، ويتجمع الناس من كل مكان ، لينظروا ما  
هو صانعٌ بخصمه .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة  
العرب إلى فن جديد ، وهو فن "لا نَشْكُ في أن له بنوراً قديمة ، ولكنه أصبح الآن  
شيئاً آخر . أما من حيث الغاية ، فقد أصبح يُراد به إلى النهو لا إلى الجِدِّ كما  
كان الشأن في القديم ، وأما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من  
الاختلاف إذ أصبح ينشد يومياً ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافاً .

وهذا أهم فرق بين الهجاء في القديم وفي الحديث أو في العصر الجاهلي والعصر  
الأموي ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً ، و ليقطع له أوقات  
فراغه ، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة ، ولم يكن يتحسّرُف الهجاء على هذا  
النحو الذي نجده في عصر بني أمية .

وتخيّرُ مثل بصور ذلك جريرٌ وصاحبه الأخطل والفرزدق ، فإن الهجاء  
تحول عندهم كما نقول الآن إلى حرفة وخاصة بين الأول والأخير ، فإنهما كانا  
يعيشان في البصرة ، وكانا يختلفان إلى المربد ، فينشدان الناس هناك أهاجيهما ،  
ويستثيران في أثناء ذلك حماس الجماهير ، وما يزال كل منهما يحاول أن يبلغ من  
استثارتهما كل مبلغ .

فالغرض الأساسي من الهجاء تحول إلى الرغبة في إعجاب الجماهير من الخصوم  
وغير الخصوم . وهذا معنى ما نقوله من أن الهجاء أصبح حرفة أو مهنة ، فالشاعر

يريد به أن يتفوق على خصمه عند الجماهير المحتشدة في المربد أو في الكناسة ، ولم يعد كل همه أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها ، إلا باعتبارها جزءاً في الجماهير المتجمعة من حوله .

وحيث أن الشاعر كان يتكلم باسم قبيلته ، وكان يدافع عنها ، وكانت تتحمس له ، وتحتشد حوله ، ولكنها لم تكن كل غايته من هجائه ، إنما كانت كل غايته أن ينال رضا الجمهور المجتمع في المسرح ، وأن يثبت تفوقه على خصمه ، وأنه أرسخ منه قدمًا في فن الهجاء والشعر عامة .

وأظننا نستطيع الآن أن نفهم كيف أن جريراً لم يقف في المربد دائماً للدفاع عن قومه من تميم ، إنما وقف في الغالب للدفاع عن قيس ضد الفرزدق شاعر تميم وضد الأخطل شاعر تغلب . فهذا الموقف لا يمكن حله إلا على أساس أن نظرية الهجاء القديمة أصابها تحول واسع ، فإذا بنا نجد شاعراً غير قيس يقف حياته للدفاع عن قيس ، ويؤلف مع صاحبيه ديوانين ضخمين بسميان ( نقائض جرير والأخطل ) و ( نقائض جرير والفرزدق ) .

وليس عندنا قبل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذي نجده عندهم ، لأن الهجاء لم يصبح فناً مستمراً يحترقه الشاعر احترافاً ، ويرصد نفسه رصداً للمسرح كبير يؤمّه يومياً ، ويؤمّه الناس ، ليستمعوا إلى ما أحدث من طرائف جديدة .

من أجل ذلك كنا نزعّم أن الهجاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو إلى لون جديد ، ولا بأس أن نسمى هذا اللون باسم النقائض ، وهو نفس الاسم الذي اختاره له القدماء . إلا أننا نرى أن نصلح به على ما كان من هجائهم خاصة .

أما الهجاء الذي سبقهم فلا نسميه نقائض ، إلا على ضرب من التجوّز ، أو على أنه كان بدأً ورأ لهذا اللون الجديد الذي نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير . وليس هذا كل ما يلاحظ في هجائهم بالقياس إلى الهجاء القديم ، فنحن نلاحظ رهباً أن الهجاء خرج من المعاني الأولية البسيطة إلى معانٍ معقّنة عقّدتها الظروف السيسية المعاصرة ، كما عقّدتها الظروف العقلية والدينية الجديدة ، بحيث أصبحت

النقائض وكأنها مناظرات أدبية طريفة .

ويمكن ملاحظة هذا التطور في نقائض جرير الأول مع غسان والبيحيث فهي في أكثرها أراجيز ومقطوعات ، ثم هي ضحلة المعاني ، فليس فيها عمق ، وليس فيها تعقيد ، وليس فيها الأيام الكثيرة التي نجدها فيما بعد عند جرير ، وليس فيها اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة ، ولا بالظروف الدينية والعقلية ، إنما فيها القُربُ والبساطة . وهي في ذلك تشبه الأهاجي القديمة . فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريراً يسوق نقائض من طراز جديد ، فيها دفاعٌ عن قيس ، وفيها اتصال عميق بماضى القبائل العربية وأمجادها ، وفيها اتصال عميق بالظروف السياسية المعاصرة ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقيلة وروحية .

ومن أجل ذلك كنا نزعم أن جريراً وصاحبيه حولوا صورة المهجاء القديمة إلى صورة جديدة ، هي صورة النقائض كما سماها لم القدماء . وسنحاول أن نكشف عن ذلك كشفاً واضحاً فيما يلي من حديثنا .

### ٣

## نقائض جرير والأخطل

الحوادث هي التي وضعت جريراً هذا الوضع من الأخطل فإنه أخذ صفَّ قيس ، كما أسلفنا ، في أثناء حكم الزبيريين للعراق ، فتمرَّض له الأخطل بهجوه ويهجو قيساً معه . ومعروف أن قيساً كانت تناصر ابن الزبير وتؤازره ضد الأمويين . ونجسمَ عن ذلك أن نشبت طائفة من الحروب بينها وبين أنصار بني أمية في الشام من تغلب ، وكتلب وأخواتها من القبائل اليمنية هناك . وما لبثت كفة اليمنيين وتغلب أن رجحت ، فإن قيساً اندحرت في موقعة مَرَج رَاهِط .

فالظروف السياسية في هذا العصر وضعت قيساً في صفوف المعارضة من بني أمية كما وضعت تغلب في صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيساً وتغلب كانا

على طرفي قبيص في السياسة ، ولم يكن هذا كل ما بينهما ، فإن قيساً كانت تنزل قبل الإسلام في نجد وبلاد الحجاز وتمتد شرقاً حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، وكانت تغلب تنزل في الموصل وتمتد بطونها وعشائرها من الحيرة وشواطئ الفرات إلى بادية الشام . فلما جاء الإسلام خرجت قبائل قيس للجهاد والفتح ، فقتل كثير منها في الشام وامتدت بعض غصونها وفروعها إلى منازل تغلب في الموصل وحوض الفرات .

فكان بين قيس وتغلب تراحم في المنازل وتضارب على العيش والمكان ، ومعنى ذلك أنهما كانتا على طرفي قبيص في مصالحهما الاقتصادية كما كانتا على طرفي قبيص في مصالحهما السياسية ، وهذا الجانب الاقتصادي هو الذي جعل تغلب تنتهز الفرصة في موقعة مرج راط ، وتنضم إلى القبائل اليمنية ضد قيس ، حتى تُشْرِجَهَا من بلادها إذا دارت عليها الدوائر .

ودارت الدوائر على قيس في هذه الموقعة ، وعانت من جرائها كارثة شديدة ، لم تتعبدوا من قبل ، وقد رجعت إلى نفسها ، فرأت أن تُنظِّم غارات ومواقع للانتقام من تغلب وموقفها في موقعة مرج راط ، فتجمعت جماهيرها في الموصل تحت قيادة زعيمها زُفَر بن الحارث الكلابي وإمرة مُحمَّر بن أُلجَب السلمي ، وأخذت تُغَيِّر على كَتَلَب من جهة وتغلب من جهة ثانية . وصلبت تغلب نيران هذه الغارات التي كان ينظمها مُحمَّر ، فتارة يهجم عليها في الحابور ، وتارة بجانب الرثار . وقد أفاض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري في الحديث عن هذه الغارات وأيامها ، من مثل يوم الحَشَشَاك ، ويوم البِشْر ، كما أفاض في الأشعار التي نُظِّمَتْ فيها .

وعلى نحو ما استلَّ رجال قيس وتغلب السيوف في هذه المعارك الحربية استلَّ شعراؤهما قصائد المهجاء في معارك لسانية ، فكان الأخطل وغيره من شعراء تغلب ينظمون أهاجي مقذعة في قيس ، وكان شعراء قيس يردون عليهم بأشعار يرمون بها في حورهم . وكان في العراق شاعرٌ ناصراً قيساً بحكم تُعَبَّة النفاثض الجديدة ، ولم يكن قيسياً ، وإنما كان تميمياً ، وهو جرير ، فكان طبيعياً أن يصطدم الأخطل شاعر تغلب به ، وإن كان الرواة يعللون ذلك بعلم شخصية ، فابن سلام يروى

أنه لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدِرْ إلى العراق حتى نسمع منهما ، وتأتيني بخبرهما ، فلقبيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه ، فقال : جرير يتخرف من بحر ، والفرزدق يتنحّت من صحر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إِنِّي قَضَيْتُ قِضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنَفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَافَى الْخَبْرُ  
أَنَّ الْفِرْزَدِقَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ وَعَضَّ حَيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان فبعث إليه محمد بن عُمَيْر بن عَطَّارِد (وكان صهراً للفرزدق) بديارم وحُمْلَان وكُمُوءة وخمر ، ويقال إن الذي بعث إليه بهذا شِبَّة بن عِقَال المِجَاشِي ، وقال للأخطل : فَضَّلْ شَاعِرَنَا عَلَيْهِ وَسُبَّهُ ، فقال الأخطل :

اِحْسَانًا إِلَيْكَ كَلْبٌ إِنْ مَجَّاشِمًا  
قَوْمٌ إِذَا خَطَرَتْ عَلَيْكَ قُرُوسُهُمْ  
وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهَشَلًا أَخْوَانَ  
جَعْلُوكَ بِنِ كِكْلَاكِلِ وَجِرَانَ<sup>(١)</sup>  
رَجَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ  
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ

فقال جرير :

يَاذَا الْعَبَّايَةَ إِنْ بِشْرًا قَدْ قَضَى  
أَنْ لَا تَجُوزَ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ<sup>(٢)</sup>

ويروى ابن سلام في موضع آخر ، أن الفرزدق والأخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يُغزى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعفني أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفى بجهده ، فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشوم ، الفرزدق يتنحّت من صحر وجرير يتخرف من بحر . فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب المهجاء بينهما ، فقال جرير :

ص ١٠٧ وانظر نقائض جرير والفرزدق  
ص ٨٧١ وما بعدها .

(١) القروم : الضمور . الكلاكل : الضمور .  
الصور : الحمران : صفحة المتق .  
(٢) طبقات للشراء لابن سلام (طبع أوربا)



ياذا العباية إن بشرأ قد قضى أن لاتجوزَ حكومةُ التشوان  
فدعوا الحكومةَ لستمُ من أهلها إن الحكومةَ في بني شيان

ثم استطارا في الهجاء (١).

والروايتان جميعاً تعودان بنشوب معارك الهجاء أو مناظرات الهجاء بين الأنخلط  
وجرير إلى هذا الحكم الذي حكم به الأنخلط على جرير منحازاً إلى الفرزدق بمحضرة  
بشر بن مروان أوفى أثناء زيارته له . غير أننا نزعم أن هذه التناقض إنما استطارت بين  
الشاعرين بحكم موقف جرير في صف قيس . وقد تكون حادثة بشر صليحة ،  
ولكن ينبغي أن لا نجعلها كل الأسباب في اندفاع الشاعرين إلى التهاجي ، فوادمها  
سب أعمق في موقف الشاعرين لهذا العصر من الحصومات القبلية ، إذ كان الأنخلط  
لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس في الميريد جريراً لسانها ، فكان من  
الضروري أن يصطلم اللسانان المبران عن الطرفين ، سواء هاج ذلك بشرق نفس  
الأنخلط أو لم يتهجه . وإن نفس وقوف بشر مع الفرزدق ضد جرير ، إنما يرجع  
إلى موقف جرير مع الزبيرين ومع القيسين خصوم بني أمية . ومهما يكن فقد  
اصطلم شاعر تغلب بشاعر قيس فتخللا في هذه المعارك التي أنتجت لنا هذه  
التناقض الطريفة بين الأنخلط التغلبي المسيحي وبين جرير القيسي الهوى المسلم .

وإذا أخذنا ننظر إلى هذه التناقض التي بقيت بين أيدينا من عمل الشاعرين  
والتي جمعها أبو تمام لاحظنا ترواً أنها فصائد ضخمة ، استفدت جهداً غير قليل  
من الشاعرين ، وهي من حيث الشكل تتألف من قصيدتين قصيدتين ، فالوحدة في  
ديوان التناقض سواء بين الأنخلط وجرير أو بين الفرزدق وجرير قصيدتان . وفي  
العادة ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم  
يأتي زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، وكأنه يريد أن  
يثبت تفوقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية بجانب تفوقه عليه من حيث  
الفخر والهجاء . ونراه في أثناء صنعه لتقيضته يتعرض لمعاني زميله فيردها أو يرد عليها  
معنى معنى ، يحاول أن ينقضها ، وأن يجعلها أنكاثاً من بعد قوة .

وليس هذا كل ما يلاحظ على فن النقيضة لهذا العصر ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الشاعر في النقيضة لا يعبر قبل كل شيء عن نفسه كما في بعض القصائد القديمة ( انظر المعلقات مثلاً ) وإنما يعبر عن قبيلة يتحدث باسمها ، يذكر مفاخرها وأمجادها ثم يعدد مساوي خصومها ومثالبهم .

وأيضاً فإننا نلاحظ أن القبيلة كانت تتخذ شاعراً يعبر عنها ، وليس من الضروري أن يكون منها كما هو شأن جرير بالقياس إلى قيس ، ولذلك كنا نزعم أن نقائض جرير والأخطل فن جديد لم يسبق إليه الشعراء في الجاهلية ، إذ كان كل شاعر يتحدث باسم قبيلته ، أما في هذا العصر فإن الشاعر قد يتحدث باسم قبيلة أخرى ، ولا مانع مطلقاً من أن يضطره ذلك إلى أن يقف ضد قومه وقبيلته نفسها كما حدث بين جرير والفرزدق مما سنعرض له فيما بعد . وبذلك يصبح الشاعر وكأنه صحيفة مؤجرة لهذه القبيلة

ويشعر كل من يستعرض الحركات الدينية والعقلية وما كان من مناظرات بين العلماء في هذا العصر أن النقائض ، سواء نقائض جرير والأخطل أو نقائض جرير والفرزدق ، إنما كانت قبل كل شيء صدقاً لهذه المناظرات التي مسّت كل جانب في الحياة الدينية والعقلية ، على نحو ما تحدثنا عن ذلك في غير هذا الموضع .

وكان جريراً حينئذٍ انساق في مناظراته مع الأخطل أو مع الفرزدق وإنما كان يقلد هؤلاء العلماء حين يأخذ واحد منهم في الدفاع عن فكرة معينة كفكرة الجبر أو القدر أو الإرجاء ، وكفكرة التشيع أو الأموية أو الزبيرية ، وكهذه المناقشات التي لا تنتهي في مسائل الفقه والتشريع ، مما كان يراه جرير كل يوم في المسجد الجامع بالبصرة ، وفي المرابد وفي الطرقات ، وفي مجالس الناس ، ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم كيف أن جريراً التميمي كان يأخذ صف قيس المخاصمة لقبيلته ، وكيف كان يعيش للنضال عنها ، فقد تحولت المسألة عنده إلى فكرة أو ما يشبه العقيدة ، أو قل إنه كان يسلي نفسه وبالجمهور من حوله بهذه المحاور .

فالجزء الذي ألفت فيه نقائض جرير والأخطل وكذلك نقائض جرير والفرزدق كان جزءاً جديداً فيه مناظرات العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، وفيه هذا الوضع غير المألوف ، وهو أن شاعراً عربياً يدافع عن قبيلة أخرى غير قبيلته ، ثم فيه هذا

المسرح الكبير مسرح الميربند الذي يتجمع فيه سكان البصرة للفرجة على لُعبة النقااض . وحقاً وُجِدَت أهاج بين الشعراء في العصر الجاهلي وفي أوائل الإسلام ولكنها لم تُؤلَّف في هذا الجوُّ العُقل الجليد ، ولم يكن الشاعر يأخذ فيها صنفاً آخر غير قبيلته . ومن هنا كُنَّا نَقْصِلُ هذه الأهاجي الجليلة باسمها الذي وضعه الرواة لها وهو اسم النقااض ، ونزعم أن هذه النقااض جليلة في تاريخ الشعر العربي فقد تحول المهجاء القديم إلى مناظرات من نوع يوشك أن يتعمَّد، وأن يختلف في كثير من جوانبه عن صورته القديمة، بل قل إنه تعمَّد، واختلف فعلاً، واتخذ صورة مغايرة . والواقع أنه تكوَّنت في العقل العربي في أثناء هذا العصر الأموي قشرة من الثقافة أتاحت له أن يتفوق ضرورياً من التفوق في كل فن عاجله من فنون الشعر ، فهذا المهجاء القديم استطاع هذا العصر أن يعدنا فيه بديوانين جليلين لاهجد العربية بهما . وأول ما نلاحظ في ديوان جرير والأخطل أن النقااض تطول طولاً شديداً ، فليست أهاجيهما مقطوعات ، وليست قصائد قصيرة كأكثر الأهاجي القديمة ، وإنما هي قصائد طويلة ، وكثيراً ما تُسْرِف في الطول .

وهو طول سعى به الشعاران إلى غاية يريدان فيها أن يلاثما بين هذا الفن وما أصاب العقل العربي من تطور ونهوض . فلم تعد المسألة مسألة هجاء عاجل ، بل أصبحت مسألة هجاء معتمَد ، يقوم على البحث والدرس في تاريخ القبائل . وارجع إلى أي تقيضتين لجرير والأخطل فسراهما محاولان بكل ما يستطيعان أن يتشققا بتاريخ قيس وتغلب ، وأن يعرفا إلى كل ما لهما من أمجاد في الجاهلية أو نقااض ومثالب . فهذا الأخطل يُلمُّ بتاريخ تغلب وقومه وحروبها القديمة مع القبائل الأخرى وخاصة ما اتصل بقيس ، حتى يتخيمز قناتها الغمز الذي يريد في الهجاء . وهذا جرير يلم بتاريخ قيس التي يدافع عنها وبجروبها في الجاهلية ، وخاصة ما اتصل بتغلب ، حتى يُسدِّد إلى الأخطل ما يريد من سهام الهجاء . وفي أثناء ذلك يُعَدُّد كل منهما تاريخ القبيلة التي يتحدث باسمها ، ومفاخرها عامة ، وما كان لها من انتصارات في الجاهلية على القبائل الأخرى . ويضيف الأخطل إلى ذلك درساً آخر لقبيلة جرير : كُليْب ، ومثالبها ، حتى يرى جريراً بكل ما يريد من حجارة القذف .

وكل هذه موضوعات واسعة للبحث والدرس ، فجرير والأخطل كل منهما كان يدرس تاريخ هذه القبائل التي يتحدثان عنها ويتناظران أو يتحاوران فيها ، ليحيطا علماً بكل ما يتصل بها ، وليستطيعا الهجومَ عليها إن كانا هاجمين ، والدفاع إن كانا مدافعين .

وهذه ظاهرة مهمة في النقائض ، فهي قصائد تحتاج ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية . هي هجاء من ناحية ، وهي تاريخ من ناحية ثانية ، والشاعر يتخف نفسه أعمقَ ما يكون التثقف بهذا التاريخ . ومن هنا كانت نقائض جرير والأخطل من أهم المراجع لمن يريدون درَسَ تَغْلِبِ وقَيْسِ ومن اتصل بهما من القبائل ، فهي وثائق تاريخية ، وقيمتها من هذه الناحية بعيدة الخطر .

ويتصل بهذه الظاهرة التاريخية في النقائض بين جرير والأخطل ظاهرة أخرى يمكن أن نسميها ظاهرة سياسية ، إذ نجد كل منهما حين يهجو خصمه يلاحظ السياسة القائمة في الدولة العربية ، وما يتصل بها من ظروف طارئة لم تكن معروفة في القديم ، لسبب بسيط ، وهو أن الدولة العربية لم تكن قامت ولا عرفت . ومعنى ذلك أن كلاهما كان يحاول أن يلام في نقيضته بين هذا التاريخ

الذي يرويه عن القبائل في الجاهلية وبين الظروف السياسية الحديثة ، فالأخطل حين يهجو قيساً يفكر في موقفها من الأمويين ويَجْرُهُ ذلك جراً إلى أن يجعل نقيضته في أكثر الأحيان شراكةً بين تغلب وعبد الملك من جهة ، وبين قيس خصوم تغلب وعبد الملك من جهة ثانية ، ومن هنا يدخل في النقيضة قسم خاص بمدح الخليفة .

وبهذه الطريقة أصبحت النقيضة لا تحوى فخراً وهجاءً فحسب كما كان الشأن في القديم ، بل أخذت في بعض قصائدها على الأقل تحوى مدحاً وسياسة عصرية . ويقدم الشاعر لذلك كله بيبكاء الأطلال ووصف رحلته في الصحراء ، وقد يضيف الأخطل نعتاً للخمر ، وبذلك تشتمل بعض نقائضه على جُلِّ فنون الشعر التي عرفت حينئذ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا عدَّ جرير والأخطل شاعرين كبيرين في هذا العصر ، فقد نهضا بهذا الفن الجديد ، وكان فنناً صعباً ، إذ كان معقداً هذا التعقيد . لم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة تُسبَّ بها قبيلة أخرى ، بل أصبح

فصائد طويلة تعتمد في طولها على درّس عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصومات ، كما تعتمد على حوس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية . وكل ذلك يتناول تناول المتناظرين في المسائل العلمية ، فكل يحاول أن يقدم حججه وأدلة من التاريخ مستلهمًا الحياة السياسية في عصره . وكان الأخطل المسيحي حين يمدح عبد الملك خليفة المسلمين يلاحظ هذه الخلاقة في الناس ويبحث في حديثه عنه - كما أسلفنا - اصطفاء الله له واختياره لإمامة الأمة . على أن الجانب المسيحي فيه جعل جريراً يهجو كثيراً بمسيحيته ، وما يؤديه قومه من صلقة، أو كما يسميها جرير ، جزية . وإنه ليندد دائماً بملتهم ، ويتهمهم على صلقاتهم وقيد يسهم ماريسر جيس ، كما يتهمهم على طعامهم ومايا كلون من خنازير ، وما يتناولون من خمر ، وهذا كله مبثوث في هجائه له من مثل قوله (١) :

أقبال الصليب وماريسر جيس تتقي  
شهباء ذات كئاب جهوراً

وقوله (٢) :

إن النبوة والخلاقة والهدى  
خالقتم سبل النبوة فاحضعوا  
رغم لتغلب في الحياة طويل  
بجزا الخليفة والدليل ذليل

وقوله (٣) :

رجس يكون إذا صلوا أذانتهم  
والمقرعون على الخنزير ميسرهم  
قمرخ النواقيس لا يدرون مال السور  
يشس الجزور ووشس القوم اذ يسروا  
جاء الرسول بدين الحق فاتكثروا  
وهل يضير رسول الله أن كفتروا

وعلى هذه الشاكلة كان يهجو دائماً بدينه وبما تؤدي تغلب من صدقة ، أو كما يقول جزية (٤) ، وقد أكثر من تعييره بأنه وقومه من رعاة الخنزير وأنهم لا يقامرون على الإبل كما تقامر العرب، وإنما يقامرون على الخنازير وفي أثناء ذلك يكتر من هجائهم بشرب الخمر .

(٤) لاشك أن تعبير تغلب بالجزية فيسابقة،  
قد مر في أول هذا الفصل أن عمر رضي أن  
تؤدي تغلب الصلقة التي يؤديها العرب من  
المسلمين ، لا الجزية التي كان يؤديها الأجانب .

(١) نقائض جرير والأخطل (طبع الآباء  
الموسميين) ص ١٢٥ .  
(٢) النقائض ص ١٨٤ وما بعدها .  
(٣) النقائض ص ١٧٢ وما بعدها .

وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر ، كما تتألف من عناصر جديدة تتصل بهذا الحس الحاضر بكل ما يتصل بالدولة الحديثة من ظروف سياسية أو دينية . وكان الشاعر ما يزال يتصدّر عن هذين الحسّين ، حتى يثبت تفوقه ، وأنه السابق المُجَلِّي في المناظرة .

ولم يحتكم الأخطل وجرير إلى ذلك فحسب ، بل احتكما أيضاً إلى الإقذاع في الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير ، حتى يسقط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطاً لا تقوم من بعده بما يليها من الخزيمى والعار . واعتدأ في هذا العمل بتقص الصفات التي يبجلها العرب من كرم ووفاء وغيرهما . ولكل منهما أبيات طارت شهرتها في العالم العربي ، فن ذلك قول الأخطل في إحدى نقائضه (١) :

قومٌ إذا استنجح الأضيافُ ككَلْبِهِمْ  
قالوا لأَمْهُمْ بُولَى على النَّارِ

وواضح أن الأخطل لم يكتف في هذا البيت بوصف كَلْبٍ باللؤم والدناءة وابتذال الناس ، بل جعل نارهم أيضاً حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء . وفي هذا سخرية بالغة ، وهي سخرية استحدثها جرير والأخطل ، والفرزدق من ورائهما ، في هذا الفن الإسلامي : فن النقائض .

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يلبس الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشدّه لَدْعَاً ونهكماً ، فتعمد دائماً أن يهجو نساء تغلب وأن يهتك أعراضهن وأن يرميهن بأنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين تغلب ومسيحياتها ، وكذلك إلى أخلاقها وخصلها من مثل بيته المشهور :

والغلبىُّ إذا تَنَحَّجَحَ لِلْقِرَى  
حكَّ استمه وتَمَثَّلَ الأمثالاً

وهي صورة قبيحة كصورة الأخطل السابقة ، ولكنها مضحكة ، وتحمل كل ما أراده من سخرية بصاحبه وبقبلته . وما من شك في أن مثل هذا البيت وبيت الأخطل السابق إنما كان يراد به إلى التهليل واستنارة الجماهير وكسب إعجابها وتصفيقها مع الشاعر وأنصاره من القبيلة التي يتحدث باسمها .

وأظن أنه قد اتضحت الآن المواد التي تألفت منها نقائض جرير والأخطل ، فهي تألفت من مفاخر قديمة وعلى رأسها الأيام ، كما تألفت من مثالب قديمة وعلى رأسها الأيام أيضاً . وهي بجانب ذلك تألفت من مواد حديثة تنصل بالظروف السياسية وبعناصر الإسلام . وهذا كله يُمزج بسخرية لاذعة بالقبيلة ، وهي سخرية تمس أخلاقها وخصالها . ومن هنا تنوعت التقيضة وتنوعت معانيها . وكان الشاعر يقبل على تقيضة خصمه وكأنه يقبل على مناظرة ، فهو ينظر في كل أدلتها ، ويسوق أمامها ما ينقضها نقضاً ، ويهدمها هدماً . ويشعر الإنسان شعوراً واضحاً حين يقرأ في نقائض الأخطل وجرير أن كلا منهما كان يقرأ قصيدة خصمه متأنياً متمهلاً ، متبيناً كل معنى على حدة ، ثم ينظم قصيدته ، وكان كل بيت فيها يرد على بيت مقابل في القصيدة الأولى . ولأنشك في أنهما ولّنا معاني كثيرة في أثناء قيامهما بهذا العمل الفني المعقد ، وهو توليد كان ثمرة للرق العقلي الذي أحرزته الفكر العربي في عصر بني أمية .

## ٤

## نقائض جرير والفرزدق

يمتاز هذا الديوان الثاني للنقائض من الديوان السابق ديوان جرير والأخطل من وجوه كثيرة ، فقد استغرق مدة أطول في تأليفه ، إذ انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما في عصر الوليد بن عبد الملك حول سنة ٩١ للهجرة . أما ديوان جرير والفرزدق فقد ظلّا يُؤكّفان فيه وفي نقائضه حتى توفياً لعهد هشام بن عبد الملك في سنة ١١٤ للهجرة . فبين الانتهاء من الديوانين نحو عشرين عاماً .

وعلى نحو ما انتهت نقائض جرير والفرزدق متأخرة على نقائض جرير والأخطل بدأت متقدمة ، فبينما بدأت الأخيرة منذ ولاية بشر بن مروان سنة ٧٣ للهجرة على العراق لأخيه عبد الملك نجد الأولى تبدأ ، كما أسلفنا ، منذ ولاية أبي خالد الحارث

ابن عبد الله بن أبي ربيعة ( القبايع ) على البصرة ( ٦٥ - ٦٧ هـ ) لابن الزبير ،  
فنحن نرى جريراً وصاحبه يذكران هذا الولى فى نقائضهما الأولى ، من مثل قول  
جرير<sup>(١)</sup> :

أبا خالدٍ لا تُشْمِنَنَّ أعاديًا      يتودُّونَ لو زلَّمتَ بمهلكةٍ نعلِي

وسبب هذا الاستعطاف أنه كان يتوعدده على الاستمرار فى الهجاء مع الفرزدق  
لما يثيران من عصبية القبائل ، فالرواة يروون أنهما لما توافقا بالمربد فى ولايته  
أرسل إليهما عبّاد بن الحُصَيْن ، فهدم دارهما ، وطلبهما<sup>(٢)</sup> . وذكرنا ذلك فى  
تقيضتين لهما ، يقول الفرزدق فى أولهما<sup>(٣)</sup> :

أحارثُ دارى مرّتين هدَمَمتها      وكنْتَ ابنَ أختٍ لا تُخافُ غوائله

ويقول جرير فى ثانيهما<sup>(٤)</sup> :

وما فى كتابِ الله هدَمٌ بيوتنا      كهديمٍ ماخورٍ خبيثٍ مَساخيلُه

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تسيق من حيث الزمن نقائض جرير والأخطل  
كما تتأخر عليها من حيث الزمن أيضاً ، فقد شغلتهما نحو خمسة وأربعين عاماً ،  
بينما شغلت الأخطل وجريراً نقائضهما نحو عشرين عاماً فحسب . ومن غير شك  
أتاح هذا الدهر الطويل لنقائض جرير والفرزدق أن تكون أكثر عدداً وأكمل فنّاً  
وأتمّ صنْعاً .

ومن يرجع إلى ما يرويه الرواة عن نشأة نقائض جرير والفرزدق يجدهم يتفقون  
على أن خصومة نشبت بين جرير وشاعر يسمى غَسَّاناً من سَكِيطِ أحدِ غصون  
بنى يَرْبُوع ، ودخل بينهما شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى البَعِيث ،  
فتفرّق عليه جرير ، ففرغ بنو مجاشع إلى شاعرهم الكبير الفرزدق ، وكان قد  
قيّد نفسه لحفظ القرآن ، واعتزم أن يهجر الشعر ، فأظهر شيئاً من الردد ، فجاءه  
نسوة بنى مجاشع واسترته للاشتراك فى الخصومة والرد على جرير ، ومازلنّ به حتى

(٣) النقائض ص ٦٠٧ .

(٤) النقائض ص ٦٨٣ .

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٢٧٨/٥

والنقائض ص ٦٨٣ .



فَكَ وَثَاقَهُ<sup>(١)</sup> وزحف إلى المعركة، واستمر عالقاً بها حتى آخر لحظة من حياته .  
وقد يكون هذا الأصل لنشوب المعركة بين الفرزدق وجرير صحيحاً ، غير  
أن المعركة لم تلبث أن تطورت تحت تأثير مسرح الميربند الكبير وما كان به من  
جماهير تريد قطع الوقت واللاهو والتسلية إلى معركة كبيرة لا في المفاضلة بين  
عشيري الشاعرين فحسب ، بل أيضاً في المفاضلة بين قيس وتميم ، فإن من  
يتعمق درّس النقاظ ودرس حوادث العصر وأشخاصه وظروفه يلاحظ أن هذا  
المزج بين عشيري الشاعرين وبين قيس وتميم بدأ منذ بدأت هذه المعركة ،  
أوفى وقت قريب من نشوتها جداً ، فقد تصادف أن عبد الله بن خازم السكّسي  
القيسي صاحب خراسان في عهد ابن الزبير أوقع بتميم سنة ٦٥ للهجرة<sup>(٢)</sup> ،  
فشبت الخصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ ، وظلت تُدْكِهَا الحوادث طوال  
عصر بني أمية . وكان هوى قيس مع ابن الزبير منذ نشبت موقعة مَرَج رَاهط في  
الشام لعهد مروان بن الحكم ، وكذلك كان هوى جرير وقبيلته يَرْبُوع ، فقد  
غلب على البصرة عقب موت يزيد بن معاوية وفي أثناء الفتنة التي قامت هناك سلمة<sup>(٣)</sup>  
ابن ذؤيب الرياحي البربوعي ، ومنه تسلمها إلى ابن الزبير . ونجد يَرْبُوعاً تحارب  
في صفوف مُضْعَب ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ للهجرة كما نجد شاعرها  
جريراً يَرْبُوعاً من يُمْتَلِكُون منها حيثنذ<sup>(٤)</sup> .

ومعنى ذلك أن الحوادث قرنت يَرْبُوعاً وشاعرها جريراً مع قيس منذ غلب  
ابن الزبير على العراق ، وأيضاً فإن الحوادث وضعت الفرزدق ضد ابن الزبير  
والقيسيين معه ، فإن قومه هم الذين قتلوا الزبير بعد موقعة الجمل ، وقد اصطلم  
بابن الزبير حين خاصمته زوجه النوار إليه في مكة ، كما اصطلمت تميم بقيس  
في خراسان . ونستطيع بذلك كله أن نفهم موقفه من قيس ، وأن نفهم في الوقت  
نفسه موقف جرير ، إذ أصبح شاعر عشيرته من جهة وشاعر قيس من جهة ثانية .  
وانضمت إلى ذلك الحاجة الجديلة إلى شاعرين يملآن مسرح الميربند بلعبة النقاظ ،

(٣) النقاظ ص ١١٨ .  
(٤) أنساب الأشراف ٣٤٥/٥ .

(١) النقاظ ص ١٢٦ وابن سلام ص ٨٩  
وما بعدها .  
(٢) طبري ٥٩٣/٢ وما بعدها .

فانبريا بقودان هذه المعارك . ولما تولى بشر بن مروان على العراق أبعد جريراً عنه باعتباره شاعر خصومه الزبيريين ومن والاهم ، وهاج الشعراء لهجائه<sup>(١)</sup> . وواضح أن السياسة هي التي جعلته يُبْعِدُهُ عنه ، وهي أيضاً التي جعلته يدعو الشعراء لهجائه ورمييه بمثل ما كان يرمى به هو الأمويين في أثناء ولاية الزبيريين . وفي الوقت نفسه نجد بشراً يُقَرَّبُ قَيْسًا وشاعرهما الرَّاعِي<sup>(٢)</sup> منه ، لأن أمه كانت قَيْسِيَّةً<sup>(٣)</sup> ، فهو يعتبره من أخواله<sup>(٤)</sup> ، وأيضاً فإنه قَرَّبَ تيمًا وشاعرهما الفرزدق منه ، واتخذته نديماً له<sup>(٥)</sup> .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم الخصومة التي نشبت بين جرير من جهة وبين الرَّاعِي والفرزدق من جهة ثانية ، فإننا نَفَاجِئًا في النقائض بموقف غريب ، يخالف منطق الظروف والحوادث ، إذ نرى جريراً يهجو الرَّاعِي التَّمِيَّيَّ القَيْسِيَّ ، ويقف الفرزدق في صف الرَّاعِي ويدافع عنه<sup>(٦)</sup> وهو موقف شاذ ، هياً له ظهورُ بِشْرٍ في العراق وتقريبه بين الرَّاعِي من جهة والفرزدق من جهة ثانية ، فتطوَّرَ الموقفُ ، بل انعكس ، ووجدنا جريراً يهجو تَمِيَّيًّا وشاعرهما ، والفرزدق ينصرها وينصر شاعرهما . وليس معنى ذلك أن جريراً انصرف عن قيس جميعاً فهو إنما هجا تَمِيَّيًّا وحدها . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا كان حادثاً عارضاً ، لأن بشراً لم يلبث أن تَوَفَّى ، وأيضاً فإن جريراً لم ينصرف عن قيس حتى في حياة بِشْرٍ ، فإنه دخل مدافعاً عنها مع الأخطل شاعر تَغْلِبِ ، وأخذنا ينظمان معاً نقائضهما التي سبق أن عرضناها . ولعل في هذا كله ما يدل على أن جريراً كان شاعر قَيْسٍ قبل وفود بِشْرٍ على العراق ، وإن تكن نقائضه الأولى مع الفرزدق تخلو من الإشارة إلى قَيْسٍ . على أن هذا وحده لا يكفي لتشخيص الموقف ، لأن النقائض التي بين أيدينا لهما ليست هي كل نقائضهما وإنما هي بقايا مما قالاه . وهناك نقيضة نظمها جرير في أول ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ للهجرة ونراه فيها يُعَيِّرُ الفرزدق بانتكاسه ، إذ يراه يمدح الحجاج القيسي وولائه ، وفي ذلك يقول له<sup>(٧)</sup> :

- |  |                                    |
|--|------------------------------------|
| (١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٨/٨ ،       | (٤) أغاني ٢٩٤/٨ .                  |
| ٣١٥/٨ .                                | (٥) أنساب الأشراف ١٦٨/٥ .          |
| (٢) أغاني ٢٩٤/٨ وأنساب الأشراف ١٧٨/٥ . | (٦) انظر النقائض ص ٤٢٧ وما بعدها . |
| (٣) كانت أم بشر قيسية من بني جعفر      | والأغاني ٢٩/٨ وما بعدها .          |
| ابن كلاب ، انظر أنساب الأشراف ١٦٤/٥ .  | (٧) النقائض ص ٦٩١ .                |

رَأَيْتُكَ إِذْ لَمْ يُغْنِكَ اللهُ بِالغِنَى لَتَجَاتَ إِلَى قَيْسٍ وَخَدُّكَ ضَارِعٌ

وبعدت هذه المعارك القيسية التيمية قليلاً في عهد الحجاج ، ثم عادت إلى العنف والشدة بعد وفاته ، وبعد حادث ثورة قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي وإلى خراسان على سليمان بن عبد الملك وقتل وكيع بن أبي سود التيمي له ؛ واستمرت حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة .

على أنه ينبغي أن نفهم أن هذه المعارك بين عشيرتي الشاعرين ، ثم بين قيسٍ وتميم لم تكن معارك صارمة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وإنما كانت معارك برآد بها اللهو والتسلية . وارجع إلى أخبار الشاعرين تجدتهما غير متحاquدين ولا متخاصمين بل متصادقين متوادين ، كما يتصادق ويتواد في عصرنا الصحفيون الذين يعملون لحساب أحزاب متعارضة . ويظهر ذلك في أنهما كانا كلما وقع أحدهما في شدة حاول صاحبه أن يخرجها منها جاهداً ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة توسط له الفرزدق عند المهلب ليركه<sup>(١)</sup> ، وإذا حُيس الفرزدق توسط له جرير عند صاحب الشرطة في العراق<sup>(٢)</sup> ، ثم عند هشام بن عبد الملك في الشام<sup>(٣)</sup> .

فالمسألة لم تكن صراعاً صارماً كما ظن الرواة . وفي كل مكان نجد نصوصاً تشهد بأنهما كانا متعاطفين متراحمين ، لا متقاطعين متباذلين ، وقد حزن جرير على صاحبه حزناً شديداً حين سبقه إلى الموت ، ورناءه بأبيات مختلفة ، منها قوله<sup>(٤)</sup> :

فَجَعَلْنَا بِحَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عِرْضِهِمَا وَالْمُرَاجِمِ<sup>(٥)</sup>  
بِكَيْسِنَاكَ حَدَّثَانِ الفِرَاقِ وَإِنَّمَا بِكَيْسِنَاكَ حَدَّثَانِ الفِرَاقِ وَإِنَّمَا  
فَلَا حَمَلَتْ بَعْدَ ابْنِ لَيْلَى مَهِيرَةٌ وَلَا شُدَّ أَنْسَاعُ المَطِيِّ الرَّوَاسِمِ<sup>(٦)</sup>

فالصلة بين الشاعرين لم تكن مُنْبِتَّةً ، بل كانت صلة مودة ، وكانا يقومان بهذه التناقض على أنها شيء يُقصدُ به إلى التسلية أكثر مما يُقصدُ به إلى السباب

(٥) المراجيم : المناضل .  
(٦) المهيرة : الحرة . أنساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرجال . والرواسيم : النوق من رمت الناقة إذا أثرت بحوافرها في الأرض .

(١) أغاني ٢٩/١٩ .  
(٢) أغاني ٤٢/١٩ .  
(٣) ابن عبد ربه ١٤٥/٣ .  
(٤) الديوان ص ٥٣٥ وانظر ابن سلام ص ١٠٠ .

والتخاصم . وكان مَنْ حَوْلُهما يعرفون ذلك ، ومن هنا تأتى استشارة ولاية العراق لهما بحضورتهم ، وكانهم يريدون أن يُسَلِّتُوا أنفسهم ، ويكشِفُوا بعضَ غُمَّتها . ومن طريف ما يُروى من ذلك أن الحِجَّاجَ قال لهما : « ائْتِيَا في لباسِ آبائكما في الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبسَ اللديباجَ والنخزَ وقعدَ في قُبَّة ، وشاور جرير دُهَاقَةَ بنى يربوع ، فقالوا : ما لباسِ آبائنا إلا الحديد ، فلبسَ جرير دِرْعًا ، وتقلَّدَ سَيْفًا ، وأخذ رُمحًا ، وركب فرسًا لعَبَّادِ بنِ الحُصَيْنِ ، يقال له المِنْحَاز ، في أربعين من يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته ، فقال جرير :

لَبِيتُ سِلَاحِي وَالْفِرْزَدِقُ لُعْبَةٌ      عَلَيْهِ وَشَاحَا كُرَّجٌ <sup>(١)</sup> وَجَلَّاجِلُهُ  
أَعِدُّوا مَعَ الْخَلِيِّ الْمَلَابِ <sup>(٢)</sup> فَإِنَّمَا      جَرِيرٌ لَكُمْ بَعْلٌ وَأَنْتُمْ حَلَالُهُ <sup>(٣)</sup>

ولا بد أن الحِجَّاجَ ضحك طويلاً حين رآهما على هذه الهيئة ، وضحك معه من شاهدَهما من أهل البصرة .

ونحن نزعم من هذا وأشباهه أن المسألة لم تكن جادة كما يتصور الرواة ، ولعل هذا ما جعل الشاعرين جميعاً يملآن نقائضهما بالفكاهة ، وخاصة جريراً ، ففي جوانب كثيرة من نقائضه يرمى الفرزدق بأن زوجه النوار تكرهه ، وأنه ليس فيه ما تعشقُه النساء <sup>(٤)</sup> . وقد تكون قصة جِعِثِينِ أخت الفرزدق وما يرميها جرير به من السوء أريد بها قبل كل شيء إلى الضحك والتسندير . وفي الوقت نفسه نجد الفرزدق يُعَيِّرُهُ بِجَارِيَةٍ لَهُ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَبِيعَهَا ، لِأَنَّهَا كَرِهَتْهُ وَكَرِهَتْ مَطْعَمَتَهُ وَمَسَلْبَتَهُ <sup>(٥)</sup> . ومن هذا الباب قصة نُبُوِّ السيفِ في يد الفرزدق ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك « حجَّ وحجَّ الشعراء معه ، فلما كان بالمدينة راجعاً تلقَّوه بنحو أربعمائة أسير من الروم ، فقعد سليمان ، وأقرب بهمُ منه مجلساً عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقُدِّمَ بطريقهم ، فقال : يا عبد الله اضربْ عُنُقَهُ ، فقام ، فأعطاه أحد سيفاً ، حتى دفع إليه حَرَمِيَّ سيفاً ،

(٣) ابن سلام ص ٩٦ وأغاني ٧٦/٨ .

(٤) النقائض ص ٨٠٣ وما بعدها .

(٥) أغاني ٥٣/٨ .

(١) الكرج : لبة حل هيئة المهر يلب

عليها الأطفال .

(٢) الملاب : الطر .

فضربه ، فأبانَ الرأسَ وأطنَّ الساعدَ ، فقال سليمان : أما والله ما من جودَةٍ  
السيف جادت الضربة ، ولكن لحسبه ، وجعل يدفع البقية إلى الوجوه وإلى الناس  
يقتلونهم ، حتى دفع إلى جرير رجلا منهم ، فلمست له بنو عبس سيفاً في  
قِرَابٍ أبيض ، فضربه ، فأبان رأسه ، ودُفِعَ إلى الفرزدق أسيرٌ ، فلم يجد سيفاً ،  
فلمسوا له سيفاً متيناً لا يتقطع ، فضرب به الأسير ضربات ، فلم يصنع شيئاً ،  
فضحك سليمان والقوم ، فألقى السيف ، وأنشأ يقول ، معتزلاً إلى سليمان ،  
وموتسباً بينبؤ سيف ورّقاء بن زهير العَبَسِي عن رأس خالد بن جعفر بن  
كلاب :

إن يكُ سيفُ خانٍ أو قنبرُ أتى      بتأخير نفسٍ حتفها غيرُ شَاهِدِ  
فسيُفُ بتي عبسٍ وقد ضربوا به      نبأً بيدَي ورّقاء عن رأس خالدِ  
كذلك سيوفُ الهند تنبؤ طلباتهما      وتقطعُ أحياناً منسأطَ القلائدِ (١)

وهذه الحادثة التي أضحكت سليمان وحاشيته في الحجاز استمرَّ جرير يُضحك  
بها الناس في المِربَد بالعراق ، فكلما أراد أن يسخر من الفرزدق ويلعب به بعض  
اللعب ويندُر عليه بعض التندير ذكرها في شعره ، من مثل قوله (٢) :

بسيُفِ أبي رَعْوَانِ سيُفُ مجاشعٍ      ضربتَ ولم تضربِ بسيفِ ابنِ ظالمِ  
ضربتَ به عند الإمام فأرعشتَ      يدكُ وقالوا مُحَدَثٌ غيرُ صَارِمِ

ولا ريب في أن هذه الحادثة وما قبلها عناصر مضحكة كان يُدْخِلُها جرير في  
نقائضه لغرض الترويح عن الناس في المِربَد وتسليةهم ، أو قل لغرض استجلاب  
تصفيقهم واستحسانهم ، إذ كانت له حَلَقَةٌ كما كانت للفرزدق حلقة أخرى ، وكان  
المستمعون ما يزالون ينتظرون بيتاً أو شطراً يُهَلِّئُون له ويصبحون ، وكانوا ما يزالون  
يستغزونها ، ليصوغا بيتاً أو شطراً يتعلقون به وينتدرون بفكرته ، ويُحَدِّثون كل  
ما يريدون من شَغَبٍ وهَيَاجٍ وتَهْرِيحٍ وتَصْفِيرٍ (٣) .

(٢) انظر في ذلك خبراً طريفاً في ترجمة  
أبي حنيفة في الأغاني ١٩/١٥٣ حيث يروى  
أبو الفرج أنه هجا شخصاً يسمى عيون بن سلامة =

(١) طبري ١٣٣٨/٢ وابن سلام ص ٩٤  
والغنائص ص ٣٨٣ وما بعدها .  
(٢) الغنائص ص ٤١٣ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نقرب من فهم حقيقة هذه التناقض بين جرير والفرزدق وأنها كانت عملاً يَراديه - قبل كل شيء - إلى تَسْلِيَةِ الجماعة العربية الجديدة في البصرة ، فقد تَكُونُ المجتمع العربي هناك في شكل مدينة لأول مرة في تاريخ القبائل التي نزلت البصرة . وهي قبائل أَكْثَرُهَا مُصْرِيَّةٌ ، إذ كان جمهورها من قَبِيْسٍ وَتَمِيْمٍ وَرَبِيعَةٍ . وكانت هذه القبائل تعيش في أثناء العصر الجاهلي في البادية جاهدة في تحصيل قوتها وأسباب عيشها ، فلما جاءت الفتوح ، واشتركت هذه القبائل فيها ، أنزلنا عمر في البصرة والكوفة ، اختطهما لها على حدود فارس .

وأخذت جموعها تعيش في هاتين المدينتين معيشة جديدة يخدمهم فيها القوس وغيرهم من الموالى ، وقد ملأت الفتوح حجورهم بالأموال ، ونُظِّمَ لهم عطاء في دواوين الدولة ، وأتاح ذلك كله لهم حياة هادئة رخيصة ، ليس فيها شَتَطُفُ العيش القديم ، وإنما فيها الراحةُ والفراغُ والعطلة ، وخاصة لمن لم يشتركوا في الثورات والانتفاض على بني أمية .

ومن هنا وَجِدَت في العراق وفي مدينتيها الكبيرتين البصرة والكوفة تلك الجماعة العاطلة التي يُبَشِّرُ وجودها دائماً بنشوء حياة عقلية نشيطة ، فالناس يُضْطَرُّون اضطراراً إلى تمضية أوقانهم في عمل من الأعمال . وهذا ما حدث فعلاً في البَصْرَةَ حيث التقت ثقافات مختلفة من إغريقية وفارسية وآرامية وعربية ، وكان من ثمار ذلك أن ظهرت حركات دينية وعقلية جديدة ، وأخذ العلماء يدرسون مسائل القَدَرِ والإيمان ، كما أخذوا يدرسون مسائل التشريع ، وينقلون ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة . وحتى اللغة بدأوا يُخَصِّصُونَهَا للدراسة منذ أبي الأسود

الأغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٢/١٥ حيث نرى الفرزدق وزيادة الأصم يتحاوران في المرید والناس من حولهما يضحكون ويهزلون . وفي أخبار الحكم بن عديل (أغانى ٤١٣/٢) أنه هجا محمد بن حسان بقصيدة قال فيها (أمانت الله حسان بن سعد) فذاعت ، حتى كان المكاري يسوق بخله أو حماره فيقول (عد : أمانت الله حسان بن سعد) . وهذه كلها صور دالة على ما كان يسود المرید من تهريج ، وتصفيق ، وصغير ، وصباح .

== بأبيات فيها تفت لأمه ، فكان الناس يصيحون به ويكررون شطراً يقول فيه أبو حنيفة (أعلمتها وعالم العلامة) . وفي كل مكان من الأغاني نجد فيه ذكر المرید نجد الناس يتحلقون حول الشعراء وما يزالون ينتظرون البيت أو الشطر الذي يتصاحبون به . وفي أخبار المجاج أغاني (طبع دار الكتب، ١٥٢/١) أنه وقف في المرید هجو ربيعة فلجأت إلى شاعرها أبي النجم فأتى الناس ، وأخذ ينشد نقيضة في المجاج ، حتى بلغ إلى قوله (شيطانه أنني وشيطانى ذكر) فعلق به الناس وتصاحبوا وهرب المجاج . وانظر

الدُّوَلِيّ ، فنشأت هذه الحركة اللغوية المباركة ، التي اضطلع بها في أواخر هذا العصر أبو عمرو بن العلاء وابنُ أبي إسحق .

ومعنى ذلك أن الحياة العقلية في العراق وفي البصرة لهذا العصر ثمرةٌ من ثمار العَطَلِ في هذه الجماعة العربية الجديدة ، وهو عَطَلٌ أخرج العرب من بداوتهم القديمة إلى حياة متحضرة فيها خصبٌ عقلي ونشاطٌ فكري . والمفروض أن أى جماعة يوجد فيها هذا العطل تحاول أن تقضى بعض أوقات فراغها في شيء تلهى به ، وتتسلى ، وتقطع مسافة الفراغ .

وإذا تذكرنا ما كان في مدينتي الحجاز من غناء ظننا أننا مُقِيلون في العراق على ما يشبه ذلك ، وأن البصرة ستُعنى بنف الغناء والموسيقى كما عُنيت مكة والمدينة ، غير أن البصرة لم تتَّجِه هذا الاتجاه ، وكان لا بد - على كل حال - لجماعتها أن تشغَل نفسها بفنٍّ من فنون اللهو وضرب من ضروب التسلية .

ولم تكن نقائص جرير والفرزدق إلا هذا الفنَّ الجديد الذي وَجَدَت فيه البصرة كلَّ ما تريد من لهو وتسلية وقَطْع وقت أو فراغ ، فهي اللُّعْبَةُ التي كان يُعجَب بها القوم ، والتي كانوا يخرجون للفرجة عليها في هذا المسرح الكبير ، مسرح المربد ، الذي كانت تختلف إليه القبائل والجماهير ، وتتعلق حلقات للاستماع إلى الشعراء ، وإلى ما يُحدث جرير والفرزدق خاصة<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان يتحلَّق الناس حول الشعارين الكبيرين هناك ، أما الفرزدق فيتعلق حوله قومه من تميم وبني دارم ومُجاشع وأخلاق من قبائل أخرى ، وأما جرير فكانت تتحلَّق حوله قبيلته من كُليْيب وبني يَرْبُوع كما تتحلَّق حوله جماعات كثيرة ، وكان بعضها من قبائل ، لم تكن في صفاء مع تميم منذ الجاهلية ، وهي قبائل قَيْس .

ويقف أحدهما فيلُقي من جعْبته كل ما أعدّه لخصمه من سهام الشعر ، وسرعان ما يحمل الرواة هذه السهام إلى صاحبه ، فينظر فيها ويَطِيل النظر ، ثم يحاول أن يَنْقُضَهَا وأن يردَّ عليها سهمًا سهمًا ، وبيتًا بيتًا ، ومعنى معنى . فالفرزدق مثلاً يَنْشُد قصيدة أو نقيضة في هجاء قَيْس وقوم جرير كُليْيب ويفتخر بتميم وأجادهما في الجاهلية ، وقد يضيف إلى ذلك انتصاراً للأخطل

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٩/٨ وما بعدها .

وتغلب . ويحمل الرواة التقيضة إلى جرير ، فيحاول أن يرد كل ما فيها من سهام إلى نحر الفرزدق وقومه دارم ، ويتعرض للأخطل بقذفه بدينه وكل ما يرد على خاطره . والناس من حول جرير وصاحبه بهرجون ويصفرون ويخرون للأذقان - كلما مر بهم قذف أو فكاهاة - ضاحكين ساخرين .

وعلى هذه الصورة كان يتكون في هذا العصر مسرح المربد ، يذهب إليه جمهور النظارة من أهل البصرة ومن يقعد عليهم من البادية أو من الحجاز للفرجة على هذا الفن الذي كان يجيده الشعراء ، والناس يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، ويستثيرون بتصفيقهم كل استطاعة عندهما للتجويد والتحبير .

ليست النقائص بين جرير والفرزدق إذن جيداً خالصاً ، فقد كان يراد بها إلى اللهو والتسلية ، وأن تملاً أوقات الناس في البصرة ، ومن ثم لم يشر سببها حفيظة بين القبائل . وكما نذهب نحن الآن إلى دور التمثيل والخيالة للهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى ناد رياضي للفرجة على لعبة كرة القدم مثلا كان نظارة البصرة يذهبون إلى المربد للفرجة على لعبة النقائص .

وظل الفرزدق وجرير يتقاذبان هذه النقائص أو هذه الكرات من الشعر حقباً متطاولة ، ويتجمع أهل البصرة حولهما ، ليرا وإحسانهما وتفوقتهما في هذه اللعبة . ومن حين إلى حين كان يحاول بعض الشعراء الأصاغر أن يأخذ الكرة من جرير أو صاحبه ، فما يلبث أن يسقط في الميدان<sup>(١)</sup> . ويستمر اللاعبان الكبيران في لعبهما أو نقائضهما ؟ وكل يحاول أن يبرز وأن يتفوق على منافسه ، تماشياً كما نصنع الآن في عصرنا الحديث في هذه اللعبة اللطيفة التي يسعى الناس لرؤيتها ، والتي تسمى المناظرات . والحق أن نقائص الشعراء لم تكن إلا مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهي مناظرات احتفظ لنا بها الشعر العربي ، وقد صنعت على ضوء هذه المناظرات العقلية والدينية التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع ، فكما كانت تكتظ البصرة بمناظرات أصحاب التحل والعقائد كانت تكتظ بمناظرات أدبية ، اشتهر منها خاصة مناظرات جرير والفرزدق .

الباهل وجندل بن الراعي الهجري وغيرهم . انظر الديوان ص ٣٤ ، ٤٥ .

(١) حاول ذلك مع جرير عشرات من الشعراء ، انظر الأغانى ٨/٨ - ١٣ وما بعدها . ونحن حاول ذلك أيضاً مع الفرزدق الطرمح والأصم



وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يحضران مجالس العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم . وعلى ضوء هذه المناقشات والمحاورات وفي ظلّها ألقينا نقائضها في المفاضلة بين عشيرتهما من جهة وبين تميم وقيس من جهة ثانية . وكما يحاول صاحب التحدّث من النّحل أن يستدلّ على نِحْلَتِهِ وأن يفنّد أدلّته خصمه كانا يستدلّان على نِحْلَتِهما العصبية في عشيرتهما ، وفي تميم وقيس ، وكانا يترفّدان أن شعرهما أو نقائضهما بكل ما يمكن من حُجَج وبراهين ، يؤيدان بها وجهة نظرهما ، وفي الوقت نفسه كانا يأتیان بكل ما يمكن من أدلّة وبراهين لتعظيم أجداد تميم وقيس ، كلّ حسب ما يزعم فيمن أخذ صفوفهم ، ووقف معهم <sup>(١)</sup> . ولا شك في أن ذلك كان يستهوي الجماهير ، فكانت تذهب إلى الميربّد ، ترى ما أحدث كلٌّ من الشاعرين . وعلى عادة الجماهير يكثر المهرج أو يكثر التصفيق والتصفيق ، ويتجمعون حول أحد الشاعرين تارة ، وينفضون عنه إلى خصمه يستمعون إليه تارة ثانية .

وعلى هذه الشاكلة كانت نقائض جرير والفرزدق تأخذ شكل مناظرات أدبية كبيرة . وهذه الكلمة كلمة مناظرات تجعلنا ننصّب النقائض في تاريخ الأدب العربي وضعاً جديداً ، فنحن نزعم أنها حديثة العهد بالإسلام وبالبصرة في هذا العصر الأموي خاصة . فقد وُجِدَتْ فيها لأول مرة ، ورشّح لها عاملان : عامل اجتماعي هو هذا العطلّ والفرأغ الذي حدث في تاريخ القبائل العربية ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبية وتورّط القبائل في أحزاب سياسية ، وعامل عقلي هو هذه المحاورات والمناقشات التي كانت تلور بكل مكان في البصرة ، في المساجد ، وفي المجالس ، وفي الطرقات والأسواق .

وهذا العامل الثاني هو الذي لَقِّن جريراً والفرزدق القدرة على الحوار والجِدال ، ومكّن في شعرهما لفكرة التعليل والتسبب ووضع المقدمات وتلوين الهجاء بالإن عقلية حديثة . ومن هنا تأتي فكرة أن النقائض الأموية جديدة ، فهي

(١) يعني بها فيروها ، ثم يشرحها هذا الشرح الكبير ، فقد وجد فيها غير مادة تحلم له ولأمثاله من الشعوب الأجداد العربية .

(١) لعل في هذا ما يلفتنا إلى أن نقائض جرير والفرزدق جمعت بين دفتيها مثالب تميم خاصة ، ثم مثالب قيس وغير قيس من العرب ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل أبا عبيدة الشعبي

تُقالُ في جو عقلى جديد ، وتُصاغ في جو اجتماعى جديد ، صياغة المناظرة لا صياغة الهجاء العادى القديم ، فالشاعر لا ينظم معانى بدويّة بسيطة ، بل ينظم معانى تتلائم مع التطور العقلى الحديث ، الذى أصابه الذهن العربى ، والذى طوره من بعض جوانبه . ومن هنا يأتى نكوص الشعراء الذين حاولوا أن يدخلوا مع الشعارين الكبارين في هذه المناظرات ، لأنهم ظلوا محتفظين ببدائيتهم وتقاليدهم الشعر القديمة ، ولم يستطيعوا أن يُجاروا روح العصر ، بل عجزوا عجزاً تاماً ، لأن عقولهم لم تكن مهياًة لهذه المجارة ، ولم تكن قد تُصِفَت في بيئات العلماء طرق الجدال والحوار على نحو ما تقف ذلك جرير والفرزدق .

ليست النقائض إذن أهاجى بالمعنى القديم الذى كان يفهمه العرب في الجاهلية للهجاء ، وإنما هي مناظرات أدبية أوجدتها ظروف عقلية وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية . ولعل من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها في مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير في مناظراته مع الفرزدق كان الجواب الطبيعى أنه يقف في صفوف قومه تميم ، فإن أبى تميمًا كان عليه أن لا يقف في صفوف خصومها . ولكن الذى حدث فعلاً أن جريراً لم يقف دائماً في صفوف تميم ولا في صفوف أنصارها ممن كانت تعادهم في الجاهلية والإسلام مثل كعب ، وإنما وقف في الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قيس وفروعها وخصومها . وطبعاً كان ينصر قومه كليباً أمام قوم الفرزدق مجاشع ، غير أنه كان يدافع أيضاً عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم ، بالضبط كما يقف المناظر في عصرنا الحديث ليدافع عن وجهة نظر مُعَيَّنَة في موضوع من الموضوعات ، وليس من الضروري أن يكون مؤمناً بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتى به من أعداء المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظار .

وعلى هذا النمط جعلت قيس جريراً لينود عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتت بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة حين يدخل شخص في مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لُعبَة عقلية لا أقل ولا أكثر ، يترادُ بها إلى تسلية السامعين والميران على الجدل

والحوار في المسائل أياً كان الوضع ، وأياً كانت الغاية .  
 السنن اذن في نقاض جرير والفرزدق بإزاء مناظرات أدبية حقيقية ؟ فهذا  
 جرير يقف في المرْبَد ليدافع عن قيس ، وما عهدنا في الجاهلية ولا في الإسلام  
 شخصاً يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويلحق بقبيلة أخرى ، يتعصب لها ،  
 ويتشيع لأهلها وأبنائها، على نحو ما بتشيع ويتعصب جرير لقيس أعداء تميم  
 في الجاهلية والإسلام .

ولو أن الإسلام استطاع أن يُنسى العرب عصبيتهم وأن يَمْحُوها محواً  
 لاستطعنا أن نفهم موقف جرير ، غير أننا نعرف أن الإسلام لم يستطع أن يَمْحُو  
 العصبية إلا إلى مدة معدودة ، فقد حملت نيرانها قليلاً ، ثم عادت إلى الاشتعال  
 منذ فتنة عثمان ، وظلَّت تتأجج طوال عصر بني أمية ، حتى في أقصى الشرق ، في  
 خراسان ، وفي أقصى الغرب ، في الأندلس . ومعنى ذلك أن العرب لم يستطيعوا  
 أن يتخلصوا من عصبيتهم يوماً ، فإذا جاء جرير التميمي يتعصب لخصوم قومه  
 من قيس لم نستطع أن نحلَّ هذه المشكلة إلا على أن المسألة كانت مسألة  
 مناظرات أدبية اجتماعية ، أو مسألة لعبية يتفرج عليها الجمهور في البصرة .  
 قد يقال إن المسألة مسألة تورط ، إذ اتصل جرير بولاية الزُبَيْريين في العراق ،  
 ووصله ذلك بأنصار ابن الزبير وعلى رأسهم قيس ، واستمر هذا الاتصال وخاصة  
 في عهد الحجاج . وأيضاً فإن قيساً كانت تكافئه على موقفه منها ، وكانت تصبُّ  
 في حجره بعض أموالها ، على ما أشرنا إليه فيما مرَّ من كلامنا .

ونحن لا ننكر السبب السياسي في نشأة النقائض بين الشعراء ولا السبب  
 المادي في استمرارها ، ولكننا مع ذلك نزعم أن المسألة تحولت في نفسية جرير إلى  
 صورة من صور المناظرة ، بل لقد تحولت هذا التحول في نفوس الناس عامة ،  
 حتى نفوس الخلفاء المرَّوانيين أنفسهم ، الذين كانوا يخاصمون قيساً ، أو على  
 الأقل كانت كثرتهم تخاصم قيساً ، كما كانت تخاصمها تميم ، فإن هؤلاء  
 الخلفاء كانوا يستمعون إلى جرير شاعر قيس ، ولم تكن تَضِيرهم فيه هذه القيسية .  
 فخلفاء بني أمية لم ينظروا إلى النقائض بين جرير والفرزدق أو بينه وبين الأخطل  
 نظرة جادة ، فقد فهموها على حقيقتها وأنها لُعبة القبائل الجديدة في العراق وفي

البصرة خاصة ، تُضمّني فيها أوقات فراغها ، وتلّهُو بعض اللّهو بها . ومن هنا لم يجدوا حرجاً في أن يضمّن جرير والفرزدق والأخطل مديحهم شيئاً من هذه المناظرات لغرض التسلية والترفيه ، وأن يتطلّعوا وهم في قصورهم على جوانب من هذه المناظرات ، التي سارت بها الركبان ، وعمّت في كل مكان ، وأصبحت حديث العرب ومجامعهم ، وطرفة مجالسهم ومخالفهم .

وعلى هذه الشاكلة لم تعد المسألة مسألة أهاجٍ فحسب ، بل أصبحت مسألة مناظرات ومحاورات ، ومناقشات ومجادلات ، وكانت تُصاحبها السياسة حيناً ، كما صاحبت نقائض جرير في أصل نشأتها ، وتنفصل عنها حيناً ، كما انفصلت عنها في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق ، ومع ذلك تستمر . فجرير يناظر عن قيس في أثناء حكم الزبيريين وأثناء ولاية الحجاج القيسي وعمر بن هبيرة الفزاري على العراق ، ويَناظر عنها أيضاً بعد إدبار الأمر عن الزبيريين ، وكذلك في أثناء ولاية غير القيسيين على العراق من مثل يزيد بن المهلب الأزدي وخالد القسري . وهذا كله معناه أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات اجتماعية بكل ما يمكن أن تتحمّل هذه الكلمة من معنى ، وكذلك كانت عند معاصريهما ومن كانوا يختلفون إليهما . وعلى نحو ما نصنع نحن الآن في مناظراتنا حين يتقف شخص يدافع عن وجهة نظري معينة ، ثم يردّ عليه صاحبه أو مناظره ، وفي أثناء ذلك يُنصت الجمهور ، ويستمع ، ثم يقوم من بينه من يتصّر هذا المناظر أو ذلك ، كذلك كان الشأن في مناظرات جرير والفرزدق أو في نقائضهما . وكان أكثر المتصّرين يتقفون في صف الفرزدق ، لأنه كان فعلاً متفوقاً في أسرته ومكانته الاجتماعية . ومن وقف في صفه سُرّاقة البارق ، وفيه وفي جرير يقول (١) :

إنَّ الفرزْدَقَ بَرَزْتَ أَعْرَاقَهُ عَقَوْنَا وَعَوْدِرَ فِي الْغُبَارِ جَرِيرُ

ومن وقف في صفه أيضاً الرَّاعِي الشاعر النُمَيْرِي القَيْسِي ، وهيات لذلك صلته ببشر بن مروان ، كما أسلفنا ، فقال (٢) :

أصاحبي ذكنا الرواحُ فسيراً غلبَ الفرزدقُ في الهجاءِ جريراً

وإثر جرير على الراعي ، وغازله أنه ينضم إلى الفرزدق ، مع أنه يتحيف في المربد مدافعاً عن قومه مادحاً لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه ، فقال فيه وفي الفرزدق بائيته المشهورة ، وكان يُسميها الدماغة والمنصورة<sup>(١)</sup> ، وفيها يقول للراعي بيته المأثور :

فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلمغت ولا كلاباً

والذين قضوا للفرزدق على جرير كبيرون ، منهم المرار بن منقذ ، وثور بن الأشهب بن ربيعة النهشلي ، والد لهنس وهبيزة بن الصلت التميميان ، والطهوي<sup>(٢)</sup> ثم الصلتان العبدي ، وقد فضل الفرزدق في المجد ، وفضل جريراً في الشعر<sup>(٣)</sup> ، ولعله الوحيد الذي رأى أن يرضى الطرفين .

وعلى هذا النحو كلما أمعنتاً في درس النقائض واتصلنا بجموها وظروفها وجدناها تتطابق تماماً مع صور المناظرات الأدبية التي نعرفها ، فإذا قلنا بعد ذلك كله إنها كانت مناظرات اجتماعية ولم تكن أهاجى بالمعنى القديم ، وأنها مناظرات لا عهد للعرب بها لم نكن مغالين ولا مبغدين في شيء .

وإذا رجعنا نحلل عناصر هذه المناظرات بين جرير والفرزدق وجدناها تسحل إلى نفس العناصر التي تحدثنا عنها سابقاً عند جرير والأخطل في نقائضهما . فكل نقيضة لأحد الشاعرين نراها تسحل إلى مفاخر الجماعة التي يتحدث باسمها ومثالب خصوصها ، فالفرزدق مثلاً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر تميم ، ثم يصب على قيس ، كما يصب على كلتنب قوم جرير ؛ هجاءه ، وكأنه أسواط عدّ أب . وقد يعرض في أثناء ذلك لمفاخر تغلب يريد أن يؤيد خصم جرير الثاني ومناظره : الأخطل فيما يذهب إليه . وفي الصف المقابل نجد جريراً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر قيس ، وقومه من يربوع خاصة ، كأنه يريد أن يخزجهم من تميم ، ثم يتحول إلى قوم الفرزدق ، وخاصة مجاشعاً ودارماً ، فيرميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، كما يرمي تغلب وصاحبها

(٢) الشعر والشعراء ص ١٣ وانظر ابن سلام

ص ٩٥ .

(١) النقائض ص ٤٣٠ .

(٢) انظر الأغاني ٢٣/٨ وما بعدها .

الأخطل بكل ما يستطيع من حجارة القَدْف .

وفي أثناء ذلك كله يسوق الطرفان المتناظران كل ما كان لتمييم وقييس وتغليب من أيام في الجاهلية والإسلام ، وبذلك تُصبح نقائضهما ، كما أصبحت نقائض جرير والأخطل ، وثائق مهمة في تاريخ القبائل العربية ، فليس هناك من حرب وقعت في الجاهلية بين هذه القبائل أو بين فروعها وعضونها ، وكذلك ليس هناك من حرب وقعت بينها في الإسلام إلا ويسلُكُها الشاعران في نقائضهما . ومن هنا كان شرح هذه النقائض لأبي عبيدة - جامعها وشارحها ليس أكثر من عرضٍ واسع لأيام العرب ووقائعهم في الجاهلية والإسلام وكل ما اتصل بهذه الأيام والوقائع من حوادث وأشعار .

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تعتمد على عنصر مهم ، وهو عنصر تاريخي يقوم على الثقافة بتاريخ القبائل القديم ، كما يقوم على الثقافة بتاريخها الحديث . وهذا العنصر في النقائض قد يكون غريباً على أذواقنا الآن ، ولكن من غير شك له طرافته ، لأنه يضع تحت أعين الباحثين مادة كبيرة لتاريخ القبائل العربية .

وإذا كانت أذواقنا تنفّر من هذا القسم الآن ، فما لا ريب فيه أن جمهور المتفرجين في المربد كان يُعجب به ويتجدد فيه متعة واسعة ، لأنه يعرض التاريخ القديم ، ويُجسّمه للناس شعراً ، فكل ما لتمييم وقييس وتغليب في الجاهلية من أيام ووقائع ومفاخر ومثالب يُسجّل ، تُسجّل هذه الآلة اللاقطة ، آلة المناظرات الأدبية الحديثة عند جرير والفرزدق .

ومادة هذا التاريخ القديم في النقيضة كان يقابلها مادة جديدة تتصل بالحياة الإسلامية الحديثة وما جند من ظروف سياسية . فهذان الشاعران الكبيران حين كانا يقفان للمناظرة في المربد كانا يفكران في أمر الجماعة الإسلامية وأمر بني أمية وصلية القبائل بهم . فكانت نقائضهما تتعرض للشئون السياسية التي عاصرتهما . فثلاً إذا ثارت قيس على الخلافة تعرض لها الفرزدق يُندد بها ويشفي ، ويحاول أن يضر بها وشاعرهما الضربة القاضية على نحو ما نجد في نقيضته الميمية :

تَحِينُ بَزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقِي  
حَنِينِ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبُورَاءِ

فقد ضَمَّنَ هذه النقيضة مديحاً لسليمان بن عبد الملك وهجاءً لقَيْسٍ وتأثيرها في خراسان قتيبة بن مُسلم الباهلي ، وكان الذي قتله وكيع بن أبي سُود اليربُوعي التيمي ، فاستغلَّ الفرزدق ذلك ، وكب هذه النقيضة ، يُسَجِّلُ على قَيْسٍ مساوئها ضد بني أمية ، وفي الوقت نفسه يسجل انتصار تميم لهم كلما ثار نائراً قيسياً .

ومعنى ذلك أن النقائص عند جرير والفرزدق كانت تستمدُّ من الحديث ، كما كانت تستمد من القديم ، وكانت تتأثر الظروف السياسية المختلفة في عصرهما . وليس هذا فحسب ، فإنها كانت تتأثر عناصر إسلامية خالصة ، ويتبين ذلك فيما يضمُّها الشاعران من مديح وهجاء ، فالفرزدق مثلاً في نقيضته المبيضة هذه يقول لسليمان بن عبد الملك :

جُعِلَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ عَدُوًّا وَرَحْمَةً  
وَبُرَّةً لِأَنْثَارِ الْجُرُوحِ الْكَوَالِمِ .

وفي كل مكان من هذه النقيضة نجد العنصر الإسلامي فهو في غزلها يخاف يوم التخاصم أى يوم القيامة ، وهو في هجائها يذكر طغيان الحجاج ويشبهه بفرعون حين يتعشى ، وطلب إلى هامان أن يتنبي له صريحاً ، لعله يطَّلِعُ إلى إله موسى ، كما يشبهه بابن نوح حين أعرض عن دعوة أبيه ، وقال : « سَأَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ . . . فكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » وفي الوقت نفسه نراه يدعو قيساً حين ثارت مع صاحبها في خراسان مُشْرِكةً بربها ، يقول في ذلك :

وَلَمَّا رَأَيْنَا الْمُشْرِكِينَ يَصُودُهُمْ  
قُتَيْبَةُ رَحْفًا فِي جُمُوعِ الزَّمَازِمِ .  
ضَرَبْنَا بِسَيْفٍ فِي يَمِينِكَ كَمَا نَدَعُ  
بِهِ دُونَ بَابِ الصَّبْرِ عَيْناً لظَلَمِ .  
بِهِ ضَرَبَ اللَّهُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا  
بِيَدْرِ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ وَالْمَعَاصِمِ .

فهو يجعل قيساً مشركاً بربها كافرةً بأنعمه ، ويجعل جموعها كجموع الزمازم ، وهم المحوِّض الذين يجاهدهم المسلمون ، وفي الوقت نفسه يجعل تَمِيماً وصاحبها وكيع بن أبي سُود يضربان في قتيبة وأنصاره بسيف الله ، الذي ضرب به الرسول والمسلمون يوم بدر .

و دائماً نجد هذه العناصر الدينية في نقائض الفرزدق، تارة يعدل إلى قَصَص من القرآن ، وتارة يعدل إلى بعض صوره أو بعض أساليبه ، كقوله في جرير (١) :

ضَرَبْتَ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَفَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

يريد أن بيّن جرير في الوهن والذل كبيت العنكبوت الذي ورد في الذكر الحكيم ، إذ يقول جل وعز « وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتَ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتَ » .

وفي مقابل ذلك كان جرير هو الآخر يستعين بالعناصر الإسلامية في مديحه وهجائه جميعاً ، وقد مرّ بنا في حديثنا عن حياته مدى ما كان يُصوّر به الخليفة الأُموي من خصال إسلامية ، كما مرّ بنا في حديثنا عن نقائضه مع الأخطل كيف كان يهجوّه بمسيحيته . وفي كثير من نقائضه مع الفرزدق يهجو الأخطل وتغلب معه ، ويَسْتَجِيبُ من وقوفه مع تغلب المسيحية ضد قيس المسلمة ، وفي ذلك يقول له (٢) :

فَخَرَّتْ بِقَيْسٍ وَافْتَخَرَتْ بِتَغْلِبٍ      فسوف تَرَى أَيُّ الْقَرِيبَيْنِ أَرْبَحُ  
فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيهِمْ      فخابوا وأمّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا

ويستمر في هجاء الأخطل بمسيحيته . أما الفرزدق فكانت فيه تُغفِرةٌ فسق واستهتار ، وكان جرير دائماً يستغلّها ، ويدخل منها في هجائه له ، من مثل قوله (٣) :

أَنْتِ حُلُودَ اللَّهِ مُدُّ أَنْتِ يَافِعُ      وَشَيْتَ فَمَا يَنْهَكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ (٤)  
تَتَّبِعُ فِي الْمَسَاخُورِ كُلِّ مُرِيْبَةٍ      وَاسْتَبَتْ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكِرَامِ

وفي كل مكان من نقائض جرير نجده يرمي الفرزدق من هذا الجانب ، ويرى قومه معه ، من مثل قوله فيه (٥) :

إِنَّ الْمَوَاجِينَ مِنْ بَنَاتِ مُجَاشِعٍ      مَاوَى لِلصُّوْصِ وَمَلْعَبِ الْعُهَارِ  
إِنَّ الْبَعِيثَ وَعَبِيدُ (٦) آلِ مُقَاعِسٍ      لَا يَبْقُرَانِ بِسُورَةِ الْأَخْبَارِ

(٤) الهازم : أصول الحيين .

(٥) النقائض ص ٣٤٠ .

(٦) يريد الفرزدق .

(١) النقائض ص ١٨٣ .

(٢) النقائض ص ٥٠٦ .

(٣) النقائض ص ٣٩٦ .



وثبتتُ تشربُ عند كلِّ مَقْصَصٍ (١) خَضِلِ الأناملِ واكفِ المعصَّارِ  
لا تَمُخَّرَنَّ فَإِنَّ دِينَ مَجَاشِيعِ دِينَ المَهِوسِ تَطُوفُ حَوَالِ دُوَارِ (٢)

قد زعم أن الفرزدق وصاحبه البعيث لا يحفظان القرآن، ويقول الشراح إنه يريد أنهما لا يؤفیان بالعهود لقوله تعالى : « أوْفُوا بالعقود » . غير أننا نرى أن جريراً يُطْلِقُ ولا يُعَيِّدُ، ويعم ولا يخصُّ ، فهو يريد أن الفرزدق وصاحبه لا يسيران على الصراط المستقيم ، وقد ذهب يُصَوِّرُ فسقَ الفرزدق وملازمته لبيوت الحمَّارين من أهل الذمة ، ولم يلبث أن ادَّعى على مجاشع كلها أن دينها دين المَهِوسِ .

وواضح أن الهجاء على هذا النحو كانت تدخل فيه الخصال الإسلامية الجديدة ، فالشعراء يعتدُّون في هجائهم بالمثل الأعلى الذي أراده الإسلام للمسلمين من طهارة وفضيلة وما يتصل بالفضيلة . ويضاف إلى ذلك النزعة الدينية الخاصة التي كان يُريدها الخلفاء في مدائحهم ، حين يُلِّمُّ بهم جرير والفرزدق ومن على شاكلتهما .

ومن هنا كنا نقول إن النقيضة عند الشاعرين كانت تحوى عناصر قديمة من الأيام والأعاجد الجاهلية وعناصر حديثة من الاتصال بالعصر والدين والسياسة . وكان على الشاعر الممتاز أن يوازن بين هذه العناصر كلها ، وأن يمثلها في نقيضته ، وأن يضيف كل ما يمكن من سخرية بقبيلة صاحبه حتى يسقط به سقطه لا يقوم من بعدها أبداً . وليس هذا فحسب ، فنحن نجد كلا من جرير والفرزدق يتعلَّقُ بأسلوب القرآن الكريم وقصصه ، ويستمدُّ منهما في نقيضته ، كما يتعلَّقان بالشعر القديم وما فيه من صُورٍ ، ولأنهما ليعتدُّان في مدحيهما وهجائهما بالخصال القديمة من كرمٍ ومروءة وشجاعة ووفاء ، بجانب الخصال الإسلامية الجديدة ، فالقديم والجديد كانا يمتزجان بصور مختلفة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن هذه المناظرات الأدبية التي نهض بها الفرزدق وجرير في النقائض كانت فَنًّا معقدًا لم يستطع الشعراء العاديون أن يُحَسِّنُوهُ لأن

(١) المَقْصَصُ : الذي الذي جزت ناصيته . (٢) دُوَارُ : صَم .

من يُحسِنه يحتاج عقلية ممتازة قد ثقفت الطرق الحديثة في الحوار والجدل ، ولها من القدرة على مترج القديم والجديد ما يؤهلها للقيام على هذا العمل الفنى .  
لم تعد قصيدة الهجاء إذن تَخْوِضُ في معانى محدودة ، بل أصبحت تتناول معانى واسعة ، أو قل معانى معقدة ، فيها جاهلى قديم ، وفيها إسلامى حديث ، وفيها هذا التلوين العقلى الذى لا بُدَّ للشاعر أن يكتسبه من بيته العلماء الذين يتحاورون فى النحْلِ ومسائل القَدَرِ والإيمان .

وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يتَّصِلان مباشرة ببيئات الفقهاء وما فيها من مناقشة وحوار ، وأن الفرزدق كان يُدْخِلُ فى شعره بعض المسائل الفقهية ، وأن جريراً كان يتَّصِلُ بأصحاب الحَيْكَلِ فى الفقه ومثَلْنَا من شعرهما على هذا الاتصال .

وليس هذا فحسب ، فقد اتصل الشعراء بمناقشات القَدَرِ ، فكانا يَنْزِعَان نَزْعَةً جَبْرِيَّةً ، وقد أشرنا إلى هذا فى غير موضع . فإذا قلنا إن عقليتهما فى هجائهما كانت عقلية جديدة مرَّتْ عَلَى الحِوَارِ والحيلة فى الحوار لم تكن مغالين ، بل كنا مُطابِقين للواقع .

وهذا مَعْنَى ما نزعهم من أن نقائض جرير والفرزدق تُمَثِّلُ عقلية جديدة ، وتُعَبِّرُ عن تطوُّر جديد فى الفكر العربى ، وما دَعَمَهُ من طرق استدلال وبرهنة فى المسائل والمشاكل . ومن هنا كانت هذه النقائض تستقل عن الهجاء القديم ، إذ أصبحت فَنًّا معقداً ، وهو تعقيد يقوم على المزج بين عناصر قديمة وأخرى جديدة ، كما يقوم على طُرُق الاستدلال الحديث ، التى كان يستمع إليها جرير والفرزدق فى بيئات الفقهاء والعلماء فى أثناء محاوراتهم ومناظراتهم .

والحق أن جريراً والفرزدق طَوَّرَا الهجاء القديم تطوُّراً هائلاً ، فقد أخرجاه من معانيه البدوية البسيطة إلى هذه المناظرات الواسعة فى حقيقة عشرينيهما وحقيقة قَيْسٍ وتَمِيمٍ . وفى أثناء ذلك كانا يتناظران فى قَيْسٍ وتَخْلِبٍ . وبذلك تتسع مناظراتهما فتشمل كل ما كان يَخْوِضُ فيه جرير مع الأخطل وكل ما كانا يعرضان له ، ثم تنفرد بما كان بين كليب ومجاشع ، وقيس وتَمِيمٍ . وأيضاً فإن مُقَامَ الفرزدق مع جرير فى البصرة جعل المناظرات بينهما تأخذ صورتها الكاملة ، فبينما كانت نقيضة

الأخطل يحملها الرواة في أغلب الأحيان إلى جرير ليردّ عليها ، وكان ذلك يأخذ مسافة من الزمن ، تطوّل وتقصّر ، كان الفرزدق يقف في ناحية من الميربند ، وحوله أنصاره ، فينشئ التقيضة أو يلقبها ، فيحملها الرواة إلى الحلقة الثانية المقابلة ، التي يقف فيها جرير مع أصحابه .

ومن هنا كانت نقائص جرير والفرزدق مناظرات بالمعنى الكامل . وكان يحدث أن يذهب أحدهما إلى حلقة الآخر فيلقى التقيضة التي أنشأها ، ولا ينتظر حتى ينقلها الرواة عنه . يدل على ذلك ما رواه صاحب الأغاني بصدد التقيضة التي نظمها جرير في هجاء الفرزدق والراعي النميري ، إذ قال « لما أصبح جرير ، وعرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالميربند ، وكان يُعرفُ مجلسه ومجلس الفرزدق ، دعا بدهن فادهن وكف<sup>(١)</sup> رأسه ، وكان حسن الشعر ، ثم قال : يا غلام أسرج لي ، فأسرج له حصاناً ، ثم قصد مجلس الفرزدق ومعه الراعي ، حتى إذا كان بموضع السلام قال : يا غلام قل للراعي : أبعتك نسوتك تكسيهن المال بالعراق ؟ أما والذي نفس جرير بيده لترجعن إليهن بيمير<sup>(٢)</sup> يسوهن ولايسرهن ، ثم اندفع فيها فأنشدها ، فنكس الفرزدق والراعي ، وأرم<sup>(٣)</sup> القوم ، حتى إذا فرغ منها سار إلى مجلسه<sup>(٤)</sup> . وفي هذا الخبر ما يدل على أن الشاعر كان يتزبى بأجمل ثيابه وأعطرها ، كى يذهب إلى الميربند للمشاركة في هذه المناظرات .

ويروى الرواة أخباراً أخرى تتصل بهذه التقيضة ، تدل على الطريقة التي كانت تنتقل بها هذه المناظرات ، فهم يقصون أن جريراً حين حاول صنع هذه التقيضة قال لراويته المسمى حسينا : زد في دهن سراجك الليلة ، وأعد دواً ألواحاً ودواة . فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب ، حتى انتهى من التقيضة<sup>(٥)</sup> .

وفي هذا ما يدل على دلالة واضحة على أن التقيضة لم تكن تُنقل عن طريق الرواية

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .  
 (٢) المير : الطعام .  
 (٣) أرم القوم : سكتوا .  
 (٤) أغاني ٨/٣٠ .  
 (٥) النقائص ص ٤٣٠ وأغاني ٨/٣٢ .

الشفوية ، بل كانت تُنقلُ عن طريق الكتابة . وفي ابن سلام أن جريراً لما فرغ من هذه النقيضة ، وأصبح بالميربند قال : يا بتي تميم قيِّدُوا قيِّدُوا ، أي اكتبوا<sup>(١)</sup> . وفي الشعر والشعراء أن «أبا عمرو بن العلاء كان في حلقة جرير ، وهو يُعلى نقيضته في الأخطل :

وَدَّعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ      إِنَّ الْوَدَاعَ لِيَمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ<sup>(٢)</sup>

فالرواةُ والناسُ كانوا يجلسون حول جرير في الميربند ، فيستمعون إلى ما يُنشد ، بل إلى ما يُعلى ، إذ كانوا لا يكتبون بالسماع ، بل كانوا يُضيفون إليه الكتابة .

ولا ريب في أن الفرزدق كان يتخذ نفس الطريقة ، فهو يتقف في الحلقة الأخرى يُعلى مناظرته على الرواة والناس ، وهم يكتبون . وفي الأغاني أنه توعد خالد بن كلثوم الكلبي - وكان قد دون من شعره وشعر جرير - أنه سيهجوهُ إن لم يكتب نقائضه<sup>(٣)</sup> . وهذه كلها أخبارٌ ونصوصٌ تشهد بأن النقيضة كانت تُكتب حين إنشاد الشاعر لها ، وأكبر الظن أنه كان يُنشدُها من صحيفة مكتوبة أو صُحف . وبعد فراغه من إملائها وكتابة الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه ، فيتناولها منهم ، ويتأمل فيها ، ثم يحاول الردَّ عليها .

وربما كان في هذا الصنيع ما يفسر لنا هذه الظاهرة المُطردة في النقائض ، فإن كل من يطلع عليها يلاحظ في وضوح ضَعْفَ الشاعر الثاني الذي يُطلبُ إليه الردُّ على زميله ، فإنه لم يكن يأخذ من الوقت ما يأخذه في صنع نقيضته إذا كان هو البادي أولاً ، فالرواة والناس من حوله يتعجلونه ويستحثونه أن يردُّ في أقرب فرصة ، فيمسك بالنقيضة ويقرؤها ، ثم يحاول أن يردَّ عليها دون ريب ، حتى يثبت مهارته وتفوقه .

وليس لدينا أخبار كثيرة تدل على ذلك ، ولكن صاحب الأغاني احتفظ بخبر بالغ الدلالة ، فقد روى أن سرّاقة البارقبيّ فضّل الفرزدق على جرير في قصيدة

(٢) أغاني ١١/١٩ وما بعدها . . .

(١) ابن سلام ص ١٠٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .

طويلة ، فأخذها بشر بن مروان وهو وال على العراق ، فأرسلها إلى جرير ليردّ عليها ، قال أبو عبيدة : حدّثني أبو يربن كُسيب عن أبيه ، قال : « كنت مع جرير ، فأنا رسولُ بشر بن مروان فُدفع إليه كتابه ، وقال له : إنه قد أمرني أن أوصّله إليك ، ولا أبرحَ ، حتى تُجيبَ عن الشعر ، في يومك إن لقيتك نهراً ، أو ليلتك إن لقيتك ليلاً . وأخرج إليه كتابَ بشر ، وقد نسخ له القصيدة ، وأمره بأن يُجيبَ عنها . ويَمضِي الخبرُ ، فيذكر أن جريراً تناول القصيدة من رسول بشر ، ومكث ليلته يحاول أن يرد عليها ، وما زال يُجهد نفسه ، ويجهد ، حتى نظم قصيدة في هجاء سُراقَة يقول فيها لبشر :

يا بشرُ حقّ لوجهك التَّبشِيرُ هَلَا قُضيتَ لنا وأنتَ أميرُ

ولما فرغ منها أخذها الرسولُ ، ومضى بها إلى بشر ، فقُرئتَ بالعراق ، وأشحِمَ سُراقَة ، فلم يَنطِقْ بعدها بشيء من مُناقضته<sup>(١)</sup> . ولا نشك في أن هذا نفسه ما كان يحدث بين جرير والفرزدق ، فأحدهما إذا صنَع نقيضةً ، وأنشدها الناس ، أو قل أملاها الناس في الميربند ، كتبتبها الرواة ، ثم ذهبوا بها إلى الشاعر الثاني ، فدفعوها إليه ، كي يردّ عليها ويتنقضها ، وأحياناً كان الشاعر يسمُّ على خصمه في مجلسه ، فلا يكلفه مشؤنة الانتظار ، بل يُعلمي نقيضته عليه وعلى من حوله ، ويَمضِي إلى مجلسه ، ينتظر الردَّ على نحو ما صنَع جرير في نقيضته ، التي أنشأها ضد الفرزدق والراعي .

ومعنى ذلك كله أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات مكتوبة ، ويؤكد ذلك الطريقة التي كانت تتبَع في صياغتها وفي طريقة نظمها ، إذ نرى الشاعر يردّ على معاني النقيضة الأولى معنًى معنًى ، ولا يتأتى ذلك من الوجهة العملية إلا إذا وُضعتْ النقيضة الأولى تحت بصره ، ونظر في أفكارها فكرةً فكرةً . ولعل هذا يجلُّ إشكال اتفاق الأسلوب أحياناً ، فبعض الأبيات يكاد يكرّر مع اختلاف بسيط ، ويظهر هذا خاصة في الأبيات الجيدة التي يقولها الشاعر الأول ، فمثلاً في نقيضة الفرزدق التي استعملها بقوله<sup>(٢)</sup> :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ  
بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى      حَكْمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ

نجد جريراً حين يحاول الردّ عليها يتأثر بهذين البيتين تأثراً يبلغ حدّ السِنطَرَةِ عليه ، فيضطرّ أن يردّ عليهما بصياغة ، تنفق مع صياغتهما ، فيقول (١) :

إِنَّ الَّذِي سَمَّكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا      عَزًّا عَلاكَ فَمَا لَهُ مِنْ مَنَقَلٍ

ويتكرّر هذا كثيراً في النقائض . وفي رأينا أنه يدلّ دلالة قاطعة على أن النقيضة الأولى كانت توضعُ أُلَمُ الشاعر في صُحُفٍ مكتوبة ، وكان يرد عليها ، ويضطرّ بزُجَّاءِ بعض الأبيات ، فلا يستطيعُ نَقْضُهَا إِلَّا بِاجْتِلَابِ نَفْسِ أَسْلُوبِهَا وَصِيَاغَتِهَا .

على كل حال تدلّ صورةُ النقائض بين جرير والفرزدق وأخبارها على أنها كانت تُكْتَسَبُ ، وأن الشاعر كان يَنْظُرُ فيها ، ثم يردّ على خصمه أو زميله . وهذا هو الذي أعطى جريراً والفرزدق الفرصة كي يُحَسِّنَا فَتَنَهُمَا ، وَيَنْهَضَا بِهِ لِأَنَّ الشَّعْرَ حِينَ يُكْتَسَبُ يَكُونُ شَيْئاً آخَرَ مِنْ حَيْثُ النُّجُودِ الْفَنَى يَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِنْشَادِ وَالرَّوَايَةِ الشَّفُوبَةِ فَحَسَبَ ، فَالشَّاعِرُ يَأْخُذُ فِي قِرَاءَةِ النَّقِيضَةِ مُتَأَنِّباً مُتَنَبِّئاً ثُمَّ يردّ على خصمه ، وقد أُلِمَّ بِجَمِيعِ الْمَعَانِي الَّتِي طَرَقَهَا . وهو يعود إلى استعراضها والردّ عليها معنى معنى وفكرة فكرة .

وعلى هذا النحو كانت النَّقِيضَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تُكْتَسَبُ كِتَابَةً ، وَكَانَ يُقْصَدُ بِهَا إِلَى الْمُنَازَرَةِ وَاسْتِخْرَاجِ إِعْجَابِ النَّاسِ فِي الْمِرْبَدِ ، وَكَانَ الشَّاعِرُ مَا يَزَالُ يَلَامُ فِيهَا بَيْنَ تَرَاثٍ قَدِيمٍ مِنْ أَيَّامِ الْقَبَائِلِ وَمُفَاخَرِهَا ، وَبَيْنَ تَرَاثٍ جَدِيدٍ يُدْخِلُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمَا اشْتَبَكَ مَعَهَا مِنَ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ تَارَةً ، وَمِنَ السِّيَاسَةِ الْحَدِيثَةِ وَظُرُوفِ الْقَبَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَارَةً أُخْرَى .

فالنقيضةُ عند جرير والفرزدق تطوّرت تطوّراً واسعاً من جميع النواحي ، فَهِيَ مُنَازَرَةٌ تَكْتَبُ مِنْ جِهَةٍ ، وَهِيَ عَمَلٌ أَدَبِيٌّ يَسْتَعْرِقُ جُهْداً مَعْقُوداً مِنْ

جهة أخرى . وقد أخذت على هذا الأساس تتسع فصولها وتتسع موضوعاتها وتضطرب في الشئون العقلية والدينية والسياسية التي صادفت الأمة العربية حيثئذ . وليس هذا كل ما يلاحظ عليها ، فهناك ناحية لم نتحدث عنها حتى الآن ، وذلك أن جريراً والفرزدق حين نهضاً بهذا العمل استعانا فيه بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها . أما من حيث التركيب ، فقد أدخل عليها معاني جديدة اجتلباها من الإسلام ومن المسائل العقلية التي اضطرع فيها العلماء والناس ، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذي كان يدور في نقائضهما كانا يعرضانه في صور مختلفة .

أما ما يزعجه النقاد من أن جريراً يُكسّرُ أربعة معانٍ في هجائه لا يكاد يعلموها ، وهي قَتْلُ مُجَاشِعٍ لِلزُّبَيْرِ حَوَارِيَّ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَبِيْنُ ابْنِ قَبِيْنٍ ، وَمَا يَرْمِيهِ فِي أُخْتِهِ جَعِيْنٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ نُبُوِّ السَّيْفِ فِي يَدِهِ حِينَ ضَرَبَ الرَّوْمِيَّ ، فَلَيْسَ بِصَحِيْحٍ . وقد ردّ عليهم ابن الأثير في المثل السائر ردّاً مُفْحِماً<sup>(١)</sup> ، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يُشَبَّطُ به أنه نَوْعٌ فِي مَعَانِي هِجَائِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ عِنْدَ هَذِهِ الْمَعَانِي الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَتَّعَدُّ وَنَهَا . ولم يكتفِ ابن الأثير بذلك ، بل ذهب يَسْتَعْرِضُ مَعْنَى وَاحِدًا مِنَ الْمَعَانِي الْأَرْبَعَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا ، وَهُوَ أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَبِيْنُ ابْنِ قَبِيْنٍ ، إِذْ كَانَ لِحَدِّهِ صَعْنَعَةٌ قِيُونٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَاسْتغَلَّ ذَلِكَ جَرِيرٌ فِي سَبِّهِ وَهِجَائِهِ بِهِ .

ويلاحظ ابن الأثير أن هذا المعنى الواحد يُتولَّدُ جَرِيرٌ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَارَةً يَقُولُ لَهُ إِنَّ أَبَاكَ شُغِلَ عَنِ الْمَكَارِمِ بِصِنَاعَةِ الْقِيُونِ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي مِثْلِ قَوْلِهِ :

أَلْهَمَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا لِي الْكَتَائِفِ وَارْتِفَاعِ الْمِرْجَلِ<sup>(٢)</sup>

وتارة ثانية يقول له إن الميرجتل والقيدر المحطمتين يبكيان أباه فهو لا يبكيه الناس ولا يبكيه المسجد ، وإنما تبكيه أدوات صناعته كما نرى في قوله :

(١) المثل السائر لابن الأثير (طبع بولاق) ص ٤٩٠ وما بعدها .  
من حديد أو نعوه تشعب بها الآنية والقذور ، والمرجل : القدر .

(٢) الكتائف : جمع كيفة ، وهي الضبة

يَبْكِي صَدَّاهُ إِذَا تَصَدَّعَ مِرْجَلُهُ\* أَوْ إِنْ تَشَلَّمَ بِرُمَّةٍ أَعْتَشَارُهُ<sup>(١)</sup>

وتارة ثالثة يقول له : إن أباك أورتك آلة القيون أو آلة الحدادة ، أما أبي فأورثني آلة الشجاعة أو رباط الخيل على شاكلة ما نرى في قوله :

إِذَا أَبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عَسَدُوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ<sup>(٢)</sup>  
فَأُورِثُكَ الْعَلَاةَ<sup>(٣)</sup> وَأُورِثُونَا رِبَاطَ الْخَيْلِ أَفْنِيسَةَ الْقِسَابِ

والحق أن من يستعرض النقائص يستطيع أن يجد في فكرة القين التي سبب بها جرير صاحبه أفكاراً كثيرة عُرِضَتْ معارضةً مختلفة ، فن ذلك قول جرير<sup>(٤)</sup> :

وَرَقَّعَ بِلَدِّكَ أَكْبَارَهُ وَأَصْلَحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ  
وَأَدْنِ الْعَلَاةَ وَأَدْنِ الْقَدُومَ وَوَسَّعَ لَكَبْرِكَ فِي الْمُقْعَدِ

فهو ينصحه أن يُصْلِحَ ما أفسد الدهر من تركته ، وَيُنَبِّهَهُ إلى ما ينبغي أن تكون عليه العَلَاةُ وَالْقَدُومُ منه ، أمَّا الكَبْرُ فيحسِّن أن يوسع له في مكانه .

وفي كل مكان من نقائص جرير نجد هذه الصناعة المدعاة على الفرزدق وآبائه تُعْرَضُ في صور متنوعة ، فتارة يذكر له أن أدواتها دُفِنَتْ مع أبيه في قبره ، من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

وَجِدَ الْكَتَيْفُ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ وَالْكَتَيْبَتَانِ جُمِعْنَ وَالْمِيشَارُ

وتارة يذكر أن صناعته تُلَطِّخُ جسده بروائحها الكريهة ، وتَخْلُجُ على أديمه لونَ السَّوَادِ ، ولذلك تكرهه حَمْدَرَاءُ ، وتَسْتَفْرِ منه ، كما نرى في قوله<sup>(٦)</sup> :

حَمْدَرَاءُ أَنْكَرَتْ الْقِيُونَ وَرِيحَهُمْ\*  
لَمَّا رَأَتْ صَدَّاءَ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ  
وَالْحَرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الْإِنْكَارُ  
فَاللُّونُ أَوْرَقُ<sup>(٧)</sup> وَالْبِئْتَانُ قِصَارُ

(٢) العلاة : أداة يجلب فيها .

(٤) النقائص ص ٨٠١ .

(٥) النقائص ص ٨٥٢ والديوان ص ٢٠٢ .

(٦) النقائص ص ٨٥٢ .

(٧) الأورق هنا : الأسود .

(١) البرمة الأعتار : القدر المظلم ، والصدى

هنا : بدن الميت .

(٢) المقرفات : الهجان ، وهن اللاق يولدن

من هربية وغير عربي أو المكس . والعراب :

الأصليات في العروبة .



ودائماً يلعب جريبر بهذه الفكرة في النقائض وما يتصل بها من بيان أثر الحدادة وأدواتها في أنامل الفرزدق وميزققيته ، وإنه ليذكر له دائماً الفأس والكبير والكثيفة والميشار والكتبتين ، ويعترف له بأنه يحسن صناعته وخاصة صناعة المساحي والأداهم أو القيرود ، يقول فيه (١) :

هو القينُ وابنُ القينِ لا قينَ مثلهُ لِفَطْحِ (٢) المساحيِ أولِ جَدَلِ الأَدَاهِمِ

ويقف جريبر كثيراً عند هذه الفكرة ، فإذا نبأ السيف في يده حين ضرب الروي تطرَّق له من ذلك يزعم أنه لا يُحسِن الضرب بالسيف ، إنما يُحسِن صناعة الفسوس على نحو ما نرى في قوله (٣) :

عَنيفٌ بهزِ السَّيْفِ قَيْنٌ مُجَاشِعٌ رَفِينٌ بِأَخْرَاطِ الفُسُوسِ الكَرَّازِمِ (٤)

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن كيف أن جريراً كان يُولَّدُ في المعاني والصور . وإن من الممكن على هذا القياس أن يجمع شخص من النقائض كل ما جاء داخل فكرة كبيرة من أفكار الهجاء ، فتكوِّن عنده دراسة طريقة لمقدرة جريبر وصاحبه العقلية على التوليد في المعاني وتوسيع طاقتها ، في الظاهر يدور الشاعر حول فكرة عامة واحدة ، وفي الحقيقة يفرص في هذه الفكرة ، ويستخرج كل ما يمكن من أصداقها ولآئنها .

وهذا ونحوه إنما جاء جريراً وصاحبه من الرق العقلي الذي أحرزاه على ضوء ما كانا نسمعان من المناظرين والمتكلمين في مسائل التشريع والإيمان والتقدّر ، وما رأياه عندهم من تشقيق الأفكار وتوليدها وسبب أغوارها ، فذهبا يُطبَّقان ذلك على فنِّ الهجاء ، فنقلاه هذه النقلة الكبيرة إلى مناظرات بديعة في قياس وتسيم وكلَّيب ودارم وتغليب وما إلى تغليب ، وأخضعنا هذه المناظرات لكل الثروة العقلية التي لقيناها من العلماء في أثناء بحثهم ومحاوراتهم ومداوراتهم ، كما أخضعناها لكل الظروف السياسية والاجتماعية التي ألمت بعصرهما .

(٤) أخرات : جمع خرت ، وهو الثقب في أعلا الفأس يوضع فيه الحشبة التي يمسك منها ، والكرازم : الفسوس ذات الرموس الضخمة .

(١) النقائض ص ٧٦٦ .

(٢) الفطح : من فطح العود براه وعرضه .

(٣) النقائض ص ٤١٩ .

وقد أخذ كل منهما يجوب المعاني القديمة ، والمعاني الجديدة التي أخذتها ، ويحاول أن يستنفد كل مادتها وأن يستخرج منها كل ما يمكن من سخرية بصاحبه وبقييلته . ومن هنا نتبين صعوبة هذا العمل الفني وأنه لم يكن عملاً سهلاً ، بل كان عملاً صعباً معقداً غاية التعقيد ، وفيه هذا المزج بين العناصر القديمة والحديثة التي أكثرنا القول فيها ، وفيه هذا التوليد الواسع للمعاني والصور والأفكار . ولعل في كل هذا الذي قدمناه ما يوضح المنزلة الرفيعة التي كان يستزها الفرزدق وجريير في أذهان الناس خاصتهم وعامتهم لهذا العصر ، فقد كان الخلفاء والولاة يُجلّونهما ، وكذلك كان الناس من حولهما ، لهذا التفوق الفني الذي رأوه فيهما ، إذ نهضاً بفنّ الهجاء هذا النهوض ، واستطاعا أن يحققا له استقلالاً واكتمالاً لم يحققه شاعر من قبلهما ولا من بعدهما ، فركباً قصائده هذا التركيب الذي وصفناه ، واستخرجاً فيه كثيراً من الأفكار والمعاني ، فتنوّعت صور الهجاء وطرائقه تنوعاً شديداً .

وكان كل من يحاول الوقوف معهما في هذا الميدان يسقط إلى الأبد ، ولم يثبت معهما فيه سوى الأخطل ، ولذلك كان يعدّه النقاد ثالث الثلاثة الممتازين في العراق بل في العالم العربي كله ، حيثئذ .

وقد تمّ هذا العمل وأحكيم عند جريير والفرزدق ، فإن الأخطل لم يعيش كثيراً ، وكان بعيداً عن العراق ، فكان لا يزور البصرة إلا لماماً . وهو عمل تسمّ واکتمل في هذا الملعب الكبير ، ملعب الميربند ، وتحت أبصار النظارة ، الذين كانوا يؤمّونه في هذا العصر .

## مقارنة

رأينا أن الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والفرزدق أكلُّ وأدقُّ من الإطار الذي وُضِعَتْ فيه نقائض جرير والأخطل بحكم طول المسافة التي شغلتها النقائض الأولى ، ثم بحكم أنها أخذت بين الشاعرين شكل مناظرات تامّة .  
ويظهر أن القدماء عرفوا ذلك ، وأحسُّوا به ، فعَسُّوا بنقائض جرير والفرزدق عنايةً تتفوق على العناية بأختها ، ويتضح ذلك في الديوانين المنشورين للنقائض ، فديوان جرير والفرزدق أكثر انضباطاً من ديوان جرير والأخطل ، وقد اهتم أبو عبيدة به فشرحه شرحاً واسعاً ، عرض فيه بالتفصيل لأيام العرب ووقائعها في الجاهلية والإسلام .

ومع أن أبا عبيدة اهتم بهذا الديوان ، فنظرة فيه تدلُّ على أن عنايته به كانت محدودة ، إذ لم يُعْنَبْ بجمع النقائض جمعاً تاريخياً دقيقاً نستطيع أن نتبين فيه زمن النقيضة ، بل نقيضة متقدِّمة تسبق نقيضة متأخرة ، وأيضاً فإنه ، على ما يظهر ، لم يجمع كل النقائض بين الشاعرين ، وإلا فكيف نفهم أن هذه الكمية القليلة من نقائض جرير والفرزدق هي كل ما قالاه في نحو خمسة وأربعين عاماً .

ومن يترجّع إلى ديوان الشاعرين ، ويُقابل القصائد بعضها ببعض يستطيع أن يلاحظ أن هناك قصائد قيلت في المهجاء ، واختصت بزميله الذي يناقضه ، ولم ترد في نقائض أبي عبيدة ، مع أن مجرد استعراضها يدل على أنها نقيضة ، وقد يمكن أن نجد ردّها أو جوابها في ديوان صاحبه ، وقد لا نجد ، ومع ذلك لا يكفي عدم وجود رد لها عنده للحكم بأنها لم تكن نقيضة ، فمن الممكن أن يكون انصرف عن نقضها ، ومن الممكن أن يكون قد نقضها ولم تصلنا نقيضته .

ونقائض جرير والفرزدق على عيوبها هذه أتمُّ وأكلُّ من نقائض جرير والأخطل ، والحقيقة أنها هي التي تعبّر عن هذه المناظرات تعبيراً أبين وأوضح .

بِحُكْمِ قُرْبِ الشَّاعِرِينَ بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ ، بَلْ بِحُكْمِ جَوَارِهِمَا وَالتَّقَاتِهِمَا بِأَنْصَارِهِمَا  
يَوْمِيًّا فِي الْمَرْبِئَةِ .

وليس هذا فحسب ، فقائض جرير والفرزدق تتميز أيضاً بميزة مهمة ، هي  
أنها دارت بين شاعرَيْنِ مسلمين ، اختلطا بالحياة الدينية والعقلية ، التي حاولنا أن  
نرمم خُطوطها في الصفحات السابقة . وليس معنى ذلك أن الأخطل لم يتأثر  
بالحضارة الحديثة ، فقد كانت تحت بصره ، فتأثر بها ، ولكن في صورة تخالف  
الصورة التي تأثر بها جرير والفرزدق ، فلم يكن مثلهما يستمع إلى وُعَاظِ البصرة  
وعلمائها ومن يتحاورون هناك في النحل والمذاهب والمشاكل التشريعية والمسائل  
العقلية .

وأيضاً فإن العقل العربي كان دائم التطور في هذا العصر ، وقد تُوَفِّي الأخطل  
قبلهما بنحو عشرين سنة ، فلتحقا بعده زمنًا ارتقى فيه عقل الأمة العربية ضرورًا  
من الرقي ، وكان للملك أثره في عملهما وفي المواد التي كانا يؤلفانه منها . وكما نسا  
عقل الأمة نسا عقلهما ، وأخذت طاقتهما الفكرية تتسع على مر الزمن وتنهض  
بأشياء لم تكن تنهض بها العقلية العربية في القديم . ولطه الأسباب كلها كانت  
فقائض جرير والفرزدق وخاصة الأخيرة منها ، أكثر تنظيمًا ومهارة .

وإذا أخذنا نَقَارِينَ بين جرير والأخطل في نقائضهما لنرى أيهما يتفوق على  
صاحبه وجدناهما يتهاجيان ، كما قلنا ، بعناصر قديمة من الأيام والأبجاء  
الجاهلية وعناصر جديدة يستمدانها من العصر والسياسة . والأخطل من هذه  
الناحية لا يتصل بالعناصر الإسلامية مباشرة ، ولكنها تتسرّب إليه ، فهو حين  
يمدح عبد الملك مثلاً لا يفكر في ملحه بالتصوى وقراءة القرآن الكريم على نحو ما  
يصنع جرير ، وهو لا يمدُّ أظناب المسألة إلى نزعَة أموية تقابل النزعَة  
الشيعية على نحو ما صورنا ذلك عند جرير ، ومع هذا تتسرّب إليه بعض  
العناصر ، فيصف عبد الملك بأنه خليفة الله أو يصفه بأنه إمام المسلمين ونحو  
ذلك .

على أن الأخطل إذا قَصُر من حيث العناصر الإسلامية ، لأنها لم تكن  
مهيأة له ، ولم يكن يفهمها كما كان يفهمها جرير ، فإنه لم يقصُر من حيث

الاتصال بالعصر والظروف السياسية. ويتبين ذلك في نقيضته «خف القطين» التي هلك لها عبد الملك وكبير، فقد سبق أن قلنا إنه ملحه فيها من حيث هو خليفة للمسلمين. ولم يقف عند هذا المعنى طويلاً، لأنه كما قلنا لا يمكن بحسه إحساساً عميقاً. وليس هذا الذي يلفتنا، وإنما يلفتنا، أنه ملحه بعناصر جديدة استمدتها من الحياة الحاضرة أو الحياة الحديثة إذ نراه يضيف إلى ذلك ملبغ عبد الملك في أثناء حربه لمصعب بن الزبير. وبذلك استطاع أن يمدح عبد الملك قائداً يحسن تنظيم الجيوش وتنسيقها. فالعقل الدائب الذي شاهدناه عند جرير في توليد المعاني وتجديدها نجده عند الأنخل، وإن كنا نلاحظ أن عقل جرير كان أكثر توليداً.

وكان الأنخل يحاول دائماً أن يضيف على جرير بانتصاره لقيس، فيذكر خروجها على طاعة الأمويين وانتفاضها عليهم، ويؤيد في الوقت نفسه بتغليب وموقفها من الخلافة ونصرتها لبني أمية، فيضطرب جرير حين يحاول الرد عليه. وكان جرير يتصدى له من جانب آخر يحاول أن يشدد على خناقه منه، وهو جانب مسيحيته، وقد لعب هذا الجانب دوراً بعيداً في نقائص جرير مع الأنخل، وكان هو نفسه يعترف به، فالرواة يتحدثون عنه أنه قال: «أعنت على الأنخل بكفره»<sup>(١)</sup> وكان معاصروه يشعرون بذلك، فقد روى الرواة عن عمر ابن عبد العزيز أنه قال: «إن الأنخل ضيق عليه كفره القول»، وإن جريراً وسع عليه إسلامه قوله<sup>(٢)</sup>.

ولا نستطيع في الواقع أن نزعم لأحدهما تفوقاً تاماً على صاحبه في نقائضه، لأن المسألة كانت تُرهن بالظروف، وفي العادة يتفوق صاحب النقيضة الأولى. وقد تفوق الأنخل على جرير في نقيضته «خف القطين» تفوقاً ظاهراً، لأنه كان البادئ، ولأنه كان يملك زمام الموقف، فاستغل خصومة قيس لبني أمية وعلى رأسهم عبد الملك استغلالاً واسعاً. وعلى العكس من ذلك تجنّب جرير في رده عليه موقف قيس، ولم يستطع أن يمدح عبد الملك على نحو ما صنع الأنخل. فالظروف

السياسية التي صاحبت قيساً كانت أحياناً تُحدثُ اضطراباً في جرير وفي نفسه ، وخاصة أنه كان يريد الاتصال ببني أمية ، وأن يكون شاعرهم الأول ، فإذا تحدث الأخطل عن عصبان قيس أحس كأنما ألقمه حجراً ، فيتعثر في أثناء رده ويضطرب فنوناً من التعر والاضطراب .

وكذلك كان الفرزدق معه في هجائه يستغل عصبان قيس وخروجها على الطاعة ، وكان ذلك يُحدثُ أزمة محققة في نفسية جرير ، وانضم إلى ذلك أنه كان من أسرة متواضعة بينما كان الفرزدق من أسرة أرستقراطية . ومن هنا كان يشعر بالصغار أمامه ، وعلى العكس كان الفرزدق يشعر بغير قليل من الكبرياء والاستعلاء والغطرسة . وأكبر الظن أن هذين العاملين هما اللذان أتاحا للفرزدق أن يتقدم في نقائضه على جرير ، وربما كان من عوامل ذلك أيضاً أن جريراً لم يكن من قيس نفسها فدفاعه عنها لم يكن صادراً من قلبه على نحو ما كان يصدر دفاع الفرزدق عن تميم . على كل حال من يقرأ نقائض الفرزدق وجرير يحس تفوق الفرزدق على صاحبه ، ولعل ذلك ما جعل جريراً يعتمد إلى الهجاء الشخصي أكثر من صاحبه فهو يكثر من السباب والشتم ، بينما يتوقر الفرزدق ويترقع ، عن أن ينحدر معه إلى السفح الذي يهوى إليه .

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن جريراً يتخلف تخلفاً عاماً في شعره عن صاحبه ، فإن من بترك النقائض إلى ديوانيهما ، ويبحثهما فيهما ، ويوازن بين شاعريتهما ، يجد جريراً في ديوانه أشعر من صاحبه . وكان جريراً كان يسقط أو يضعف أمام الفرزدق في المناظرات لعوامل نفسية طارئة ، فإذا فصل عن هذه العوامل وأصبح حراً استعاد كل مقدرته ، وأصبح أشعر من صاحبه .

وقد حاول القدماء كثيراً أن يتحكموا بينهما ، ووسّعوا الحكومة إلى الأخطل ، فذهبوا إلى أن الفرزدق يتفوق في الفخر<sup>(١)</sup> ، بينما يتفوق الأخطل في المديح وتنعّت الخمر<sup>(٢)</sup> ، أما جرير فأعطوه السبق في الهجاء والغزل والرثاء<sup>(٣)</sup> .

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والأغانى ١٠/٨

وكذلك ٣٨/٨

(١) ابن سلام ص ٨٧

(٢) ابن سلام ص ١١٣ والأغانى ٣٤/٨

وهذه الأحكام تحتاج فضلاً من البحث والدواسة ، أما أن الأخطل يتفوق في نعت الخمر ، فإنه مما لا ريب فيه ، لا لأن جريراً والفرزدق كانا ينعتانها فلا يوفقان ، بل لأنهما لم يحاولا هذا النعت ، فقد منعهما الإسلام منه ، وإن لم يمنع شعراء مسلمون آخرون من ذلك <sup>(١)</sup> . أما هما فإنهما نقرأ منه ، فلم يقبلا عليه ، ولا اشتغلا به ، على عكس الأخطل فإنه كان مسيحياً ، وكان صبيّاً بالخمر ، فأكثر من وصفها ونعتها ، وأجاد في ذلك على نحو ما نرى في قوله <sup>(٢)</sup> :

صَرِيحٌ مُدَامٍ يَرْتَفِعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ      لِيَحْبَا وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَتَفَصِيلٌ  
نُهَادِيهِ أَحْيَانًا وَحِينًا نَتَجِرُّهُ      وَمَا كَادَ إِلَّا بِالْحَشَاشَةِ يَسْتَقِيلُ

على كل حال يتقدم الأخطل صاحبيه في نعت الخمر ، لا لأنهما أجزيا معه فيه ، وسبقتهما ، ولكن لأنه انفرد به . أما في المديح ، فقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ، إذ كان الأخطل يجود في المديح ، وكان ما يزال ينوع في معانيه على ما تقدم في غير هذا الموضع . ولا شك في أنه كان يتقدم في هذا الفن الفرزدق لأن نفسية الفرزدق كانت منظوية على التمرد ، كما قلنا ، فهو لا يُعجَبُ إلا بقومه ، وهو يثور على كل من عداهم . لذلك كان غير مهيباً من الوجهة النفسية للفرزدق في المديح .

وإذن فالمقارنة في المديح ينبغي أن تكون بين الأخطل وجرير ، وإذا ذهبنا نقارن بينهما وجدنا الأخطل يُنوع في مديحه ، ولكن تنوعه ينصب في أكثره على الإفادة من العناصر القديمة ، فهو يمدح بالحصل المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومرورة وحلم وصبر على المكروه ، ويقف في أكثر مديحه عند ذلك . أما جرير فإنه يُقيد في مديحه من العناصر الإسلامية الجديدة ، فيخلق على الخلفاء والولاة صفات دينية كثيرة من إقامة العدل بين الناس ومن عصيان داعي الهوى والاهتداء بالكتاب والسنة وإقامة الفرائض والحدود . وقد تحول الجزء الأكبر من مديحه في الخلفاء إلى دفاع حار عن دعوة الأمويين وتفضيل حزبهم على الحزب الشيعي وغيره من الأحزاب ، وذهب يُسبغ عليهم كل ما يسبغه الشيعة على

(٢) الشعر والشعراء ص ٣١٠ .

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة ابن أرتاة في الأغاني ٢/٢٤٢ .

أتمتهم من خصال وصفات .

ومعنى ذلك أن تنوع الأخطل في المديح ينصبُّ في أغلبه على الإفادة من المعاني الجاهلية القديمة ، وكان القدماء أنفسهم يشعرون بذلك ، فأبو عبيدة يقول : إن الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهلية (١) .

فإذا نظرنا إلى معاني المديح وصلتها بالجديد الإسلامي قدمنا جريراً على الأخطل ، وإذا نظرنا إلى الصياغة وجزالتها ومحاولة استنفاد المعاني والصور القديمة والتوليد فيها قدمنا الأخطل على صاحبه ، كما حكم بذلك القدماء .

أما الفرزدق وما يقولون من سبقه لصاحبه في فن الفخر فصحيح إلى أبعد حد ، إذ كان من أسرة ذات شرف وسيادة ، وكانت نفسه تمتلئ بمكانة أسرته امتلاء لا نهاية له . ولم يكن الأخطل من أسرة تشبه أسرته ، وكان جرير من أسرة متواضعة ، فلم تكن لكل منهما النفسية العنيفة التي اشتمل عليها الفرزدق ، وما انطوى فيها من شعور بالعزة لا يكاد يُحدّ ، وشعور بالكرامة لا يكاد ينتهي ، فلم يستطيعا أن يُحلقا معه في آفاق الفخر التي حلق فيها ، إذ كانت أجنحتهما من الضعف بحيث لا تستطيع أن تبلغ شأوه ، وارجع إلى شعره فستجد قطعاً كثيرة من الفخر تتألق فيه تألقاً ، من مثل قوله (٢) :

لنا العزةُ الغلباءُ والعددُ الذي عليه إذا عدّ الحصى يتحكلفُ  
ولا عز إلا عِزُّنا قاهرٌ لهُ ويسألنا النصفَ الدليلُ فيُنصفُ  
تترى الناسَ ماسرينا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناسِ وقفوا

ومثل هذه القطعة هو الذي كان يرفعه على جرير في نقائضه ، إذ كان يشعر ضده بنظرة شديدة ، فيرميه بحقائق آبائه وأجداد عشيرته ، وكأنها سهام يُصوبها إلى نحره ، واستمع إليه يقول له في إحدى نقائضه واصفاً قومه (٣) :

الأكثرُونَ إذا يُعدُّ حصاهمُ والأكرمُونَ إذا يُعدُّ الأولُ  
حائلُ الملوكِ ليامننا في أهلينا والسابغاتِ إلى الوغى نتَسرَّبُ بِلُ

(٣) النقائض ص ١٨٧ .

(١) أغاني ٢٩٢/٨ .  
(٢) النقائض ص ٥٧١ .



أَحْلَامُنَا تَزْنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً      وَتَخَالِنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَلُ  
فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أُرِدْتَ بِنَاءَ كَمَا      شَهْلَانُ ذَا الْمُهْضِبَاتِ هَلْ يَتَحَكَّمُ<sup>(١)</sup>

ويُسرف الفرزدق في مثل هذا الفخر ، ويملا شعره ونقائضه ضجيجاً وصياحاً  
بآبائه وعشيرته على هذا النحو . ومن أجل ذلك كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على  
صاحبيه في هذا الفن من فنون الشعر .

وإذا تركنا فن الفخر إلى فن الهجاء ، أو قُل إلى قطع الهجاء في النقائض  
وقارناً بين الثلاثة وجدنا جريراً أشد عنفاً من صاحبيه فيها ، فهو حين يصل إليها  
يشبه الطائر الجارح حين ينقض على فريسته ، يريد أن لا يُبقي فيها شيئاً ، ولعل  
ذلك ما جعله يلجأ في أحوال كثيرة إلى هتك الحرُمات والأعراض كأنه يريد أن  
يُمزق خصمه تمزيقاً .

ولم يكن الأخطل والفرزدق على هذه الصبورة من العنف ، وارجع إلى نقائض  
الأخطل فستجده يستمر له غير قليل من شبيهه ووقاره ، وكذلك الفرزدق حين  
يتناقض أو يهجو يستمر له شيء من الاعتداد بنفسه وبكرامته . ومن هنا كانا  
لا يعمدان إلى السب والقذف على نحو ما يعمد جرير ، فهما يَحْتَشِمَان ، أما  
جرير فلم يكن يعرف حشمة ولا ما يشبه الحشمة ، بل كان ينصب انصباباً على  
خصمه ، يريد أن يطعنه الطعنة المصمبية .

ولعلنا نفهم الآن ما يقوله الرواة من أن الفرزدق كان يُسْتَمَقُّ لَوْنُ وجهه حين  
يقول له قائل : إن جريراً أنشد اليوم في المربد قصيدة<sup>(١)</sup> ، إذ كان ينتظر دائماً  
أن يتقدفته جرير في أثناء قصيدته أو نقيضته بحجرٍ غليظ من حجارته  
يَجْرَحُهُ جُرْحًا بليغاً .

وإذن فجرير كان يتفوق على صاحبيه في الهجاء ، ولكن ليس معنى ذلك أنه  
كان يتفوق عليهما في النقائض ، فالنقائض تحتوي موضوعات مختلفة . حقاً هو  
والأخطل كانا فَرَسِيَّ رِهَان ، وكان يتفوق منهما في العادة من يكون صاحب  
النقيضة الأولى لأنه حر ، ولأنه لا يتقيد بمعان خاصة ولا بأوزان وقواف خاصة . أما

(٢) ابن سلام ص ٨٦ .

(١) شهلان: جبل. يتحمل: يزل ويتحرك .

مع الفرزدق فالمسألة تختلف ، لأن الفرزدق يتفوق عليه في مجموع التقيضة بفضل هذا الشعور العميق بأبائه ، وما كان يحسه تلقاءه من تَسَامٍ وكبرياء . فجرير مع إقذاع هجائه ومرارته وتفوقه في هذه المرات لا يتقدم الفرزدق في مجموع التقيضة ، لأن نفسية الفرزدق كانت أقوى من نفسيته .

وشأن جرير في الغزل شأنه في الهجاء كان يسبق صاحبيه سبقاً لا يدع مجالاً للشك والريب ، فقد شهد به معاصروه وشهد به نقاد العصور التالية . ومعنى ذلك أننا إذا فرَّقنا التقيضة قطعاً وجدنا جريراً يسبق صاحبيه في الهجاء والغزل أما إذا جمعناها جمعاً ، فإن الفرزدق هو السابق المُجَلَّى .

على كل حال كان جرير يتفوق في الغزل كما كان يتفوق في الهجاء ويلاحظ ذلك في وضوح مَنْ يرجع إلى ديوانه وديوانتي صاحبيه . وربما كان تَخَلَّفُ الأخطل في الغزل راجعاً إلى أنه كان متكلفاً في شعره ، يسعى به إلى الصورة التي نعهدنا عند شعراء الجاهلية من أمثال زهير والنابغة .

ومن أهم ما يحتاج إليه الغزل أن يكون طبيعياً صادراً عن شعور حقيقي ، لا عن تكلف وافتعال ، ولهذا لم يستطع الأخطل أن يتفوق في هذا الفن من فنون الشعر العربي لأنه لم يُحدِّثنا فيه حديث العاطفة الطبيعية ، وإنما حدِّثنا فيه حديث العاطفة الصناعية ، إذ لم يكن يُعبِّر عن شيء حقيقي يشعر به وإنما كان يعبر عن الصناعة التقليدية ، أما جرير فكان على تقيضه يعتمد على مشاعره وإحساساته في غزله ، وينطلق في التعبير عن عواطفه ووجداناته ، ومن هنا كنا نُحسُّ عند الأخطل بالهفاف والحمود ، بينما نحس عند جرير أنه يتحوَّل إلى شعور وعواطف خالصة . وحظُّ الفرزدق في هذا الفن فنُّ الغزل وما يتنطوي فيه من تسيب وتشبيب ليس أسعدَ كثيراً من حظِّ الأخطل . حقاً إنه لم يكن يتكلف تكلفه ، ولم يكن يُفَسِّح شخصيته في القدماء من أمثال زهير والنابغة على نحو ما أفناها الأخطل ، ومع ذلك فإنه لم ينجح في هذا الفن ، على الرغم من أنه كان فاجراً مستهتراً ، بل كان زيراً للنساء .

وفي رأينا أن الفرزدق لم ينجح في الغزل ، لأن نفسه كانت غليظة ولم تكن رقيقة ، فقد كانت خشنة جافة ، لم تُطَبِّع على شيء من اللين ، إنما طبعَت

على التمرد والقسوة وعدم الخضوع والاستكانة ، فهي نفس - في قرارها - جاهلية ، لم تهذب ، ولم تكلن ، ولم تصنف .

والغزل لا ينجح فيه إلا صاحب النفس اللينة الصافية ، ولذلك تقدمه جرير إذ كانت نفسه لينة حقاً ، صافية حقاً ، وقد جاءه ذلك من أنه كان مُتَدَبِّئًا يذوب في الإسلام ، فصقتى الإسلام جوهر نفسه ، وأعدّه لينخ في هذا الفن ، ويتفوق على زميله الذي كان يرتبط بالعادات والطباع الجاهلية .

واتفق مع ذلك أن جريراً كان من أسرة فقيرة ، بينما كان الفرزدق من أسرة شريفة ، فكان ذلك سبباً لأن يشعر جرير في أعماقه بشيء من الحزن ، وخاصة أن الفرزدق دائم التمدح عليه بأبائه وأجداده في الجاهلية .

ولا نشك في أن هذا الحزن الذي كان يتسرب إلى قلبه كان ذا أثر بعيد في صفاء نفسه وإرهاقها وتهيتها لأن يتفوق في الغزل والتشبيب ، لأن الحزن من عاداته أن يَجْلُو النفسَ وَيَجْلُو ما يَصْدُرُ عنها ، وخاصة إذا كان شكوى من حبيب .

وكل من يقرأ غزل جرير ومقدماته لتناقضه وقصائده يشعر أنه يقرأ لنفسٍ غير مبتهجة ، فليس له ما يبتهج به في الآباء ، وإنما له ما يؤذيه ، وما يشعر معه بالمقصور والحزن . ولعل ذلك ما جعله يطيل مقدمات نقائضه مع الفرزدق ، فإنه كان يُودع فيها إحساساً عميقاً بحزنه ، وينفس فيها عن شعور النقص الذي يشعره إزاء خصمه . وعلى العكس كان الفرزدق يُفصّر هذه المقدمات ، وكان في بعض الأحيان لا يأتي بها ، بل يهجم مباشرة على فخره ، وتعدّد مناقب آبائه .

فالتفسيّتان كانتا مختلفتين ، تَفْسِيَّةٌ تَفْسِيَّةٌ في الأجداد والمناقب القديمة ، ونفسية تأتي وتحزن ، لأنها لا تجد لها أجداداً ومناقب تعترُّ بها . وفي الوقت نفسه ترتبط أولاهما بالعادات والطباع الجاهلية ، فهي نفس غليظة ، بينما ترتبط الثانية بالحياة الإسلامية الحديثة ، فتصفيها ، وتهذبها ، وتسمو بها ضروباً من السمو . وكل ذلك هيباً جريراً لأن يتقدم صاحبه في هذا الفن الرقيق من فنون الشعر ، واستمع إلى قوله في بعض غزله (١) :

إِنَّ الَّذِينَ عَسَدُوا بِبُكِّكَ غَادَرُوا      وَشَلَّابِعَيْتِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا  
غَيْضُنَ مِنْ عَبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَا لِي      مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَلَقِينَا

وواضح ما في هذين البيتين من بكاء ودموع ، وهما يصدُرَان من نفس  
يشوبُها غير قليل من الحزن ، واستمع إليه يقول مرة ثانية (١) :

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَّضٌ      قَتَلْتُنَا ثُمَّ لَمْ تُحْيِينَا قَتَلْنَا  
يَضْرَعَنَّ عَنْ ذَا اللَّبْحِيِّ لِاحْتِرَاكَ بِهِ      وَهَنْ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا  
أَتَبَعْتَهُمْ مُقَلَّةً إِنْسَانُهَا غَرِقٌ      هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا

فلأنك ترى غزله يتجيش بالعاطفة ، ويمسح عليه حُزُنٌ غير قليل . وهكذا  
جرير دائماً في غزله يشكو ، ويرقُّ ويكِين هذه الرقة واللين .

ولم يكن الفرزدق مهياً من الوجهة النفسية ليصدر عنه مثل هذا الغزل الرقيق  
الصافي ، ولعل من الطريف أنه كان يعترف لجرير بسبقه في هذا الفن ، وكان  
يقول : « ما كان أحوجّه مع عفافه إلى صلابة شعري ، وأحوجّني مع شهواتي  
إلى رقة شعره » (٢) .

فالفرزدق يعترف لجرير برقة شعره وغزله ، وأنه لا يستطيع أن يحقق ذلك  
لنفسه ، فشعره صلبٌ ، فيه غِلَظٌ وخشونة . ومن هنا كان لا يستطيع أن ينجح في  
الغزل الذي يحتاج دِقَّةً في الشعور ، ورقة في الإحساس ، واستمع إلى جرير يقول (٣) :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبَهُ عَزِيزٌ      عَلِيٌّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ  
وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ      وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

فإنك تشعر حقاً بهذه الرقة التي يشير إليها الفرزدق ، وهي رقة كان عفافه  
أحد أسبابها لا كما ظنَّ الفرزدق أن العفاف يقتضي الخشونة ، بل هو يحدث من  
الطُّهْرِ في النفس والتسامي ما يجعلها تصفو ، وتلين ، وتتحوّل إحساساً وشعوراً خالصين .  
على كل حال كانت نفس جرير نفساً لينة رقيقة ، وكانت نفس الفرزدق

(٢) الديوان ص ٥١٢ .

(١) أغاني ٣٩/٨ .

(٢) أغاني ١٢/٨ .

نفساً خشنة غليظة ، فأتاح ذلك لجرير أن يبسزه ويتفوق عليه في هذا الفن من الغزل وما يندمج فيه من نسيب وتشبيب .

وكما يتفوق جرير على صاحبيه تفوقاً واضحاً في المهجاء والغزل يتفوق عليهما أيضاً في الرثاء ، لأن الرثاء كالغزل يحتاج وقرة في الشعور وصدقاً في الإحساس ، فإذا اتفق أنه يصدر من نفس محزونة كان ذلك عاملاً آخر في إحسانه والبراعة فيه . وقد قلنا إن الأخطل كان متكلفاً في شعره ، لا يصدر فيه عن طبع ولا ما يشبه الطبع ، فطبيعي أن لا يتفوق في هذا الفن ، وكذلك كان الفرزدق غليظاً جافياً ، فيه صلابة ، وفيه خشونة ، فكان من الطبيعي أيضاً أن لا يتفوق فيه ، إنما يتفوق فيه جرير ، الذي رفق مشاعره الإسلام ، والذي طبع بؤس أسرته نفسه بطابع حزين ، واستمع إليه يقول في رثاء زوجه أم حنزة<sup>(١)</sup> :

لولا الحياءُ لصادني استعمارُ	ولزرتُ قبركِ والحبيبِ يزارُ
ولهمتُ قلبي إذ علنتني كبترةُ	وذو والتَّمَسَّامِ من بينكِ صغارُ
ولقد أراكِ كُسيبتِ أجملَ منظرِ	ومعَ الجمالِ سَكينةُ ووقارِ
صَلَّى الملائكةُ الذينَ تُخَيَّرُوا	والصالحونَ عليكِ والأبرارُ
لا يَلبَثُ القُرْناءُ أن يَتَفَرَّقُوا	ليلُ يَكُرُّ عليهمُ ونهارُ

وهذا رثاء يتبيض أسى وحزننا ولوعة وحسرة على زوجه أم حنزة ، التي كان يتغزل فيها غزلاً عذباً ، فلما توفيت أخذ يرثيها رثاء حاراً ، ولعل رثاءه في ابنة سوادة أشد حرارةً ، فقد كان يبكيه بكاءً مرّاً ، وسمعته يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم	كيف العزّاءُ وقد فارقتُ أشبالي
ودعشتي حين كفت الدهرُ من بصري	وحين صيرتُ كمعظمِ الرمةِ البالي

فنفسه تتساقط أنفاساً على فلذذة كبدته وسويد آه فؤاده ، فهو ينوح عليه نواحاً لا ينقطع ، ويعتز به الناس ، ويذكرونه ثواب الصبر ، فلا يزيد ذلك إلا نواحاً وحزناً .

(١) الديوان ص ١٩٩ .

(٢) الديوان ص ٤٣٠ والأغاني ٢/ ٢٢٠ .

ومن يقرأ ديوان الفرزدق لا يستطيع أن يتحيف على مثل هذا الرثاء، لأن نفسه لم تكن مفضولة على الخزن ولم تكن مهيأة لأن تجزن، فهي نفس غليظة جافة، ويتندر الرواة عليه، فيقولون إنه حين سُوفيت زوجته النوار لم يجد الناحية شعراً له ينوحون به عليها، فناحوا بشعر جرير السابق في رثاء زوجته (١).

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن ما يتميز به كل شاعر من الأقطاب الثلاثة، فجرير يتفوق في المهجاء والغزل والرثاء، بينما يتفوق الفرزدق في الفخر والنقائض، أما الأخطل فإنه يتفوق في الخمر، كما يتفوق في المديح إن لاحظنا جزالة الأسلوب ومثاقه، أما إن لاحظنا المعاني والملاءمة فيها بين العناصر الجاهلية القديمة والعناصر الإسلامية الحديثة فإن جريراً يتقدمه، ولا يبقى له إلا نعت الخمر.

والحق أن الأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق جميعاً، أما هما فيمتاز من بينهما الفرزدق بأبنية شامخة في الفخر، وقوة باذخة في الشعر، بحيث يمكن أن نسميه شاعر القوة، بينما يمتاز جرير بالعذوبة والأسلوب الرشيق والموسيقى الصافية. وهذا الحكم الذي نحكم به على الأخطل وما نزعهم من تخلفه عن صاحبيه سبقنا إليه بشار بن برد زعيم المجددين من الشعراء في العصر العباسي، فقد روى ابن سلام أنه سأله عن الثلاثة فقال: «لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له، وأفرطت فيه، فقال له ابن سلام: فجرير والفرزدق؟ فقال بشار: كان جرير يُحسِنُ ضرورياً من الشعر لا يُحسِنُها الفرزدق، وفضل جريراً عليه» (٢).

ونحن نتفق مع بشار في هذا الحكم، فالأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق، وكذلك جرير يتقدم الفرزدق بكثرة ما أحسن فيه من فنون الشعر، فهو يتقدمه في المهجاء والغزل والرثاء، وإن كان ذلك لا يمنع الفرزدق من تقدمه عليه في النقائض والفخر.

على أن حكمتنا على الأخطل بالتخلف عن صاحبيه ينبغي أن لا يُخفى عن أعيننا جانباً عنده، هو جانب الصقل في الصياغة وتنقيح العبارة، وذلك أنه كان من عبيد الشعر الذين يبالغون في تنقيحه ويُلحِّحون في نخله وتهذيبه. ومن

(٢) ابن سلام ص ٨٦.

(١) الموضع المرزباني ص ١١٦.

هنا كانت أساليبه أكثر استواء من أساليب صاحبيه ، ويبالغ الرواة فيما كان يتخذه لذلك ، فيقولون إنه كان ينظم تسعين بيتاً ، ثم يختار منها ثلاثين ، فيُدبِعُ بها<sup>(١)</sup> .  
قصائده مُنتخبة ، كل قصيدة انْتُخِبَتْ من أضعافها .

وليس من ريب في أن هذا يدلُّ على جُهْدٍ كان يَضْطَلِعُ به الأخطل ، في صنْعِ شعره ، فهو لم يكن ممن يفهمون الشعر على أنه شيء يصدر عن الفطرة ، بل كان يفهمه على أنه يصدر عن الخبرة والجهد والتثقيف والتتقيح ، فهو ممن يَعْمَلُونَ شعرهم عملاً ويتكلفونه تكلفاً ، وما يزالون يُتَقَنُّونَ فيه ، ويجودونه حتى يُخْرِجُوهُ مُسْتَوِيّاً .

والأخطل من هذه الناحية يشبه زهيراً صاحبَ الحَـرَوَليَّاتِ ، وقد قالوا إنه صنَعَ إحدى قصائده في حَوَلٍ كامل<sup>(٢)</sup> ، فهو من هذه المدرسة التي كانت تَقَسُّوْ على نفسها في صنع شعرها ، فما تزال تَتَقَفُ في القصيدة ، وتَصَقِّلُ ، وتَجوِّدُ ، وتَفَحِّصُ ، وتَسْتَحِينُ ، وتُجَرِّبُ ، حتى تُخْرِجَها نموذجاً تاماً .  
ولعل ذلك ما جعل اللغويين يلاحظون أنه أكثر الثلاثة عَدَدَ قصائدٍ طوالٍ جَيِّدٍ ، ليس فيها فُحْشٌ ولا سَقَطٌ<sup>(٣)</sup> . فأساليبه في أشعاره أساليب متخاة ، لا نُبوٌّ فيها ولا شلوذ .

وكل ذلك يَحْرِضُه الأخطل في موسيقى ضخمة فيها رِزَاةٌ ووقار ، وفيها هذا الجو الذي يصلنا بالماضي ، ولذلك كانت موسيقاه شديدة الصلة بالموسيقى القديمة في العصر الجاهلي . أما جرير فلإننا لا نقرؤه حتى نشعر أن موسيقاه جديدة بحكم اندماجه في الإسلام وحفظه للقرآن الكريم وتجاوُّبه مع عصره من جميع النواحي .

وجرير في ذلك يتقدَّم الفرزدق كما يتقدم الأخطل ، فقد كان أكثر من الفرزدق استجابة للإسلام وطواعية له وانقيادا ، وكان كذلك أكثر منه قُرْباً إلى الحياة الحديثة . لذلك كانت موسيقاه أقرب إلى معاصريه منه ، لما امتازت به من لين وصفاء ومرونة . وكان الفرزدق نفسه يشعر بذلك ، فيقول : ما أشرَدَ قافيتي<sup>(٤)</sup> ؛

(٣) أغاني ٢١١/٨ .

(٤) أغاني ١١/٨ .

(١) أغاني ٢٨٤/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٨٧/٨ وما بعدها .

وكان الأخطل يشعر شعوره ، فقد روى الرواة أنه اجتمع يوماً مع الفرزدق فقال له :  
« إن جريراً أوتى من سبب الشعر ما لم نُؤنّه ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال  
أهجى منه ، قلت :

قوم إذا استنبَح الأضيافُ كَلْبَهُمْ      قالوا لأَمْهَمِ بُولَى عَلَى النَّارِ

فلم يَرَوْه إلا حكماءُ أهلِ الشعر ، وقال هو :

والتغلبى إذا تَسَحَّنَحَ لِلْقِرَى      حَكَ أَسْنَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

فلم تَبْقَ سَقَاةٌ وَلَا أَمْثَالُهَا إِلَّا رَوَاهُ<sup>(١)</sup> ، . فقضيا له أنه أسيرُ شعراً منهما .  
وهذا نفسه كان يُحِسُّه معاصروهم ومن جاءوا بعدهم ، فقد سأل معاويةُ بن  
أبي عمرو بن العلاء ابنَ سَلَامٍ : « أَىُّ البَيْتَيْنِ عِنْدَهُ أَجْوَدُ : قول جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمُطَايَا      وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ

أم قول الأخطل :

شُمْسُ الْعَدَاةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَمْ      وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

فقال ابن سلام : بيتُ جرير أحسن وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن ،  
فقال معاوية لابن سلام : صدقت ، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة ،<sup>(٢)</sup> .

فشعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشاراً من شعر صاحبه بشهادتهما وشهادة  
النقاد لسبب بسيط ، وهو أنه أقرب إلى نفوس معاصريه ، إذ اندمج في الحياة  
الجديدة بأكثر مما اندمج زميلاه ، فكان طبيعياً أن تصبح أساليبه أكثر ذيرعاً ،  
وأكثر ألفتة للناس . أما الأخطل فكان محافظاً يتمسك بالقديم وأساليبه ، وأما  
الفرزدق فكانت فيه غلظة وخشونة ، وكانت في أساليبه صلابة غير مألوفة ، فكان  
ذلك لا يَتِيحُ لهما أن تنتشر أشعارهما وتطير انتشار شعر جرير وطيرانه .

وكل من يقرأ الفرزدق يشعر أن موسيقاه تمتاز بكثير من الشلوذ والالتواء في  
أساليبها ، وهو التواء وشلوذ أتياه من تمرده الذى اشتملت عليه نفسه ، وهل منا



مَنْ لَا يَحْفَظُ بَيْتَهُ الْمَلْتَوَى الْمُعَقَّدَ فِي مَدِيحِ إِبْرَاهِيمِ بْنِ هِشَامِ الْهَزْرَوِيِّ خَالَ هِشَامِ  
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، إِذْ يَقُولُ فِيهِ (١) :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُسْتَكْنَا أَبُو أُمِّهِ حَتَّى أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

فقد خالف في ترتيب ألفاظ البيت حتى أصبح لا يكاد يفهمهم مع أن الفكرة التي  
يحتويها بسيطة ، وهي تظهر من ترتيب الألفاظ على وَضْعِهَا السليم هكذا ، وما  
مثله ( المملوح ) في الناس حتى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه ، يريد إلا ملكاً هو  
هشام بن عبد الملك الذي يشترك معه في الجلد فهو ابن أخته .

وكما كان يأتي بهذا الالتواء وما يشبهه في أساليب شعره كان يأتي أيضاً بشواذ  
نحوية ، يخالف فيها الطرق المألوفة في الصياغة ، من مثل قوله (٢) :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَابِسٍ مَرَّوَانٍ لَمْ يَدْعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْرَفًا (٣)

فقد عطف على كلمة « المسحت » المنصوبة بالرفع . وكان ذلك يؤدي اللغريين  
الذين كانوا يعاصرونه في البصرة ، فكانوا يراجعونه ، وكان عبد الله بن أبي إسحق  
الحضرمي خاصة يُكثِرُ الرَّدَّ عليه ، والتعرض له ، فقال فيه يهجوهُ :

فَلَوْ كَانَ عَبِيدُ اللَّهِ مَتَوًى هَجَوْتُهُ وَلَكِنْ عَبِيدُ اللَّهِ مَتَوًى مَتَوَالِيًا (٤)

ويقال إن ابن إسحق حاول أن يُقْنِعَهُ بأن الصواب أن يقول « مولى موال » .  
ولعل في ذلك كله ما يدلُّ دلالة واضحة على أن الفرزدق لم يكن مُهَيَّبًا لأن تصدُر  
عنه موسيقى عمدت به ، إنما كان مُهَيَّبًا لأن تصدر عنه موسيقى صلابة ، وهو يختلف  
في ذلك من صاحبيه ، فالأخطل يحكم تنقيحه وتنقيفه استطاع أن يُكَوِّنَ له موسيقى  
جَزَلَةٌ فيها متانة ، ولكن ليس فيها صلابة موسيقى الفرزدق وخشونتها . أما  
جرير فكان تبعاً يتدفق ، وقد وصفه الفرزدق وصفًا دقيقًا ، فقال : « إني وإياه  
لنستغترف من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر » (٥) . فهو يعترف بأن

(٤) أخبار النحويين البصريين السيرافي

(طبع كرنك) ص ٢٦ .

(٥) ابن سلام ص ٨٧ .

(١) الديوان ص ١٠٨ .

(٢) القفاص ص ٥٥٦ .

(٣) المسحت والمجرف : المتأمل .

جريراً أقدر منه في الاستمداد من نهر الشعر ، إذ يستطيع أن يستمد منه في أى مكان يريد لا يتعسر عليه ولا يتعذر ، أما الفرزدق فكان كثيراً ما يشعر بجواز تحول بينه وبين ما يريد ، وعبّر عن ذلك تعبيراً طريفاً ، فقال : « أنا عند تميم أشعرُ تميم ، ولربما أتت على ساعة ، ونزعُ ضرسٍ على أسهلٍ من قول بيت ،<sup>(١)</sup> فهو يُقِرُّ بأن شيطان الشعر لا يُوَاتيه دائماً .

وهذا كله معناه أن موسيقاه لم تكن تطرد له ، بل كان كثيراً ما يجد فيها التواء وعسراً وصعوبة على صور مختلفة ، بخلاف جرير فموسيقاه لينة سائغة ، تطرد له اطرأداً ، وقد عبّر عن ذلك الأخطل في جملة المأثورة التي مرت بنا في غير هذا الموضع ، إذ قال : « جرير يتغرف من بحر ، والفرزدق ينحس من صخر ، وفترق بعيد بين الماء السائغ العذب ، وبين الصخر الغليظ الضخم .

(١) الشعر والشراء ص ١٩ .

## الفصل الرابع

### ألوان جديدة

١

#### غزل ابن أبي ربيعة

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وفي الغالب يُنسبُ إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة ، وكُنْيَتُهُ المشهورة أبو الخطَّاب . وهو شاعر قُرَشِيٌّ من أهل مكة ، ومن أسرة ثرية واسعة الثراء من أسرها ، هي أسرة بني مَخزُوم ، وكان أحدُها وهو هشام بن المغيرة يُلقَّب في الجاهلية بربِّ قريش (١) ، وأخوه الوليد كان سيِّداً من سادات مكة ، وفيه نزل قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رَجُلٍ من القُرَيْشِ عَظِيمٍ » . وكان لهذين الأخوين أخ ثالث هو أبو ربيعة جدُّ عمر ، وكان شجاعاً من شجعان قريش ، ويقولون إنه لم يكن يقاتل إلا بِرُمُحَيْتَيْنِ (٢) .

وهؤلاء الإخوة الثلاثة وأبناؤهم قصص الرواة عنهم وعن ثرائهم أخباراً كثيرة ، وفي الوليد نزلت الآية الكريمة : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْنُوناً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ » . وفي الطبرى أنه لما أسلم عِكْرَمَةُ بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَسْأَلْنِي شَيْئاً أُعْطِيْتَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أُعْطِيْتَهُ لَكَ ، قَالَ عِكْرَمَةُ : مَا كُنْتُ لِأَسْأَلَكَ مَالاً ، وَإِنِّي لَمَنْ أَكْثَرَ قَرِيْشٍ مَالاً » (٣) فَفَرَعَا الْوَلِيدَ وَهَشَامَ كَانَا ثَرِيْقَيْنِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ فَرَعُ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَابْنَهُ عَبْدُ اللَّهِ كَانَ تَاجِراً مُوسِراً مِنْ تِجَارَةِ مَكَّةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ مَسْتَجِرُهُ فِي الْيَمَنِ ، وَكَانَتْ

(١) الاشتهار لابن دريد (نثر الخانجي)

(٢) ألفاظ طبع دار الكتب ١١/١ وما بعدها .

(٣) طبرى ٢٣٨٦/٢

١٠١ ، ١٤٧ ، ١٥٠ .

قريش تُسَمِّيهِ الْعَدْلُ ، لأنه كان يكسو الكعبة في الجاهلية سنة ، وتكسوها هي سنة (١) ، ويُقَالُ إنَّ الرُّسُولَ اقْتَرَضَ مِنْهُ بِيضَةَ عَشْرِ أَلْفًا يَسْتَتَعِينَ بِهَا فِي مَوْعِدَةِ حُنَيْنٍ (٢) ، ويقال أيضاً إنه كان يملك عبيداً من الحبشة كثيرين ، وعرض على رسول الله أن يستخذه صهم في غزوة ثقيف فأبى ذلك (٣) . ويروي الرواة أنه ولي للرسول ولاية في اليمن على مقاطعة تسمى الجند ، ولم يزل والياً عليها ، حتى توفى أثناء حصار العرب لعُمان بن عفان سنة خمس وثلاثين للهجرة (٤) .

فأبو عمر وهو عبد الله كان سيِّداً من سادات مكة ، وكان ثرياً مُفْرِطَ الثَّراء ، ويقول الرواة إنه تزوج بحبشيَّة جاء منها بولد ، سماه الحارث ، وهو القُبَاعُ الذِي ولَّاهُ ابنُ الزُّبيرِ على البصرة ثم عزله عنها ، وقد مر ذكره في نقائض جرير والفرزدق ، وتزوج عبد الله أيضاً سببيَّةً من سببايا اليَمَنِ تسمى مَجْدُوداً وهي أمُّ عمر (٥) .

فعمرب يسمي الأمُّ قُرَشِيَّةُ الأَب ، وقد توهم بعض المعاصرين أنه من أهل المدينة ، وكتب دراسة له على أساس هذا الوهم الخاطيء (٦) والحقيقة أنه من أهل مكة كما تشهد بذلك أخباره في كتاب الأغاني وما ذكره ابن سعد من أن أباه نزل مكة بأمله بعد الهجرة إلى الله ورسوله (٧) . ونرى عمر نفسه يقول : في بعض شعره .  
وأنا امرؤٌ بِقَرَارِ مَكَّةَ مَسْكِنِي  
ولها هوايَ فقد سبَّتْ قَلْبِي  
ولم يكد عمر يتجاوز الثانية عشرة من عمره حتى توفي أبوه فكفلته أمه ، وقامت على تربيته ، بل لقد كانت تقوم على هذه التربية وأبوه وال على الجند باليمن ، فلم يلزمه ابنه ، على ما يظهر ، أثناء ولايته ، بل تركه وأمّه في مكة .

وكان لقيام هذه السيدة على تربية ابنها ، سواء في حياة أبيه أو بعد مماته ، أثرٌ عميقٌ في نفسية ، فقد نشأته نشأة كلِّها دلال ، وتصادف أن عمر كان جميلاً (٨) ، وكانت هي غريبة ، فاشتدَّ ولحهاً بابنها - واشتدَّت

(١) انظر كتاب عمر بن أبي ربيعة : حياته

وشعره لجبور طبع بيروت .

(٢) ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(٣) خزاعة الأدب للبغدادى ( طبع بولاق )

٤٢٠/٢ .

(٤) أغاني ١/٦٤ .

(٥) طبرى ٢/٢٣٨٦ .

(٦) أغاني ١/٦٥ .

(٧) الكامل لابن الأثير ٣/١٦١ وشذرات

الذهب لابن الهادي ( طبع القسوس ) ٤٠/١ .

(٨) أغاني ١/٦٦ .

صَبَابَتِهَا بِهِ ، فَكَانَتْ لَا تُفَارِقُهُ وَكَانَ لَا يَفَارِقُهَا ، وَكَانَتْ تَبَالِغُ - كَعَادَةِ  
أُمّهَاتِ الْوَالِدِ الْوَاحِدِ - فِي هَيْئَتِهِ وَزِينَتِهِ وَعِطْرِهِ وَكُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِهِ . وَاسْتَمَرَ  
ذَلِكَ دَأْبَهُ طَوْلَ حَيَاتِهِ (١) .

وَهَذِهِ التَّرِييَةُ الْمُنْزِلِيَّةُ الْمُدَلَّلَةُ الْعَاطِرَةُ تَصَادَفُ فِي أَثْنَائِهَا أَنْ مُجْتَمَعَ مَكَّةَ  
كَانَ يَنْتَوِرُ وَيَتَحَضَّرُ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْعُنَاصِرِ الْأَجْنِبِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي دَخَلَتْ فِيهِ بِسَبَبِ  
الْفَتْوحِ ، فَكَانَ يَكْتَنِظُ بِجُؤَارَى الرُّومِ وَالْفُرْسِ ، وَكَانَ يَشِيْعُ فِيهِ الْغِنَاءُ وَالْمُوسِيقَى .  
وَقَدْ وَجِدَتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ الْعَاطِلَةُ الَّتِي لَا بَدَأَ أَنْ تَمَلَأَ أَوْقَاتِهَا بِشَيْءٍ تَتَّجِدُ فِيهِ  
لِئَهْوَاهَا أَوْ عَلَى الْأَقْلَى بَعْضَ اللّهُوِ ، وَكَيْفَ تُمْضِي هَذَا الْفَرَاغَ الْهَائِلَ الَّذِي  
حَلَّ بِهَا ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ مَعْلُومَةً ، يَخْدُمُهَا الْأَجَانِبُ ، وَيَهَيْثُونَ لَهَا حَيَاتِهَا ، إِنْ  
لَمْ تَتَّخِذْ فَنَاءً كَفَنَ الْغِنَاءِ ؟ .

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ أَصْبَحَتْ مَكَّةُ مَدِينَةً مَتْحَضَّرَةً ، وَقَدْ أَخَذَتْ نَعْمَهَا خِصَائِصَ  
كَثِيرَةٍ مِنْ تِلْكَ الْخِصَائِصِ الَّتِي نَرَاهَا فِي الْمَدِينِ حِينَ تَتَحَضَّرُ ، فَهَمَّ فِيهَا الْإِهْتِمَامُ  
بِفَنِّ الْغِنَاءِ ، وَعَمَّ فِيهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّرَفِّ ، وَأَخَذَ يَسُودُ الْمَجْتَمَعَ ضَرْبٌ مِنَ  
الْحَرِيَةِ فِي حَيَاةِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، فَشَاعَتْ أَحَادِيثُ الصَّبَابَةِ وَالغَزَلِ ، يَشَاعُ مَعَهَا كَثِيرٌ  
مِنَ اللّهُوِ .

وَكَانَ الْغِنَاءُ أَمَّ فَنُونِ اللّهُوِ حَيْثُذَ ، فَقَدْ تَلَقَّفَتْهُ أَيْدِي الْمُوَالِي وَالْجُؤَارَى مِنْ  
الْأَجَانِبِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَخْرَجَتْ مِنْهُ نَظْرِيَّةً جَدِيدَةً تَحَدَّثُنَا عَنْهَا فِي غَيْرِ هَذَا  
الْمَوْضِعِ ، وَهِيَ نَظْرِيَّةٌ أَحَدَتْ نَسْتَهَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الْجَدِيدَةُ لِلْمَجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ ، وَمَا تَعْلُقُ  
بِهِ النَّاسُ هُنَاكَ مِنَ السَّمَاعِ وَالْجُلُوسِ إِلَى الْمَغْنِينِ وَالْمَغْنِيَّاتِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمَغْنُونِ  
وَالْمَغْنِيَّاتِ يُسَلِّكُونَ ، فَهَمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُوَالِي الَّذِينَ صَبَّبَتْهُمْ الْفَتْوحُ فِي حُجُورِ  
الْمَكِّيِّينَ ، فَكَانُوا يُغَنُّونَ دَائِمًا حَسْبَ إِرَادَةِ سَادَتِهِمْ وَسَيِّدَاتِهِمْ ، إِذْ كَانُوا رَهْمَنَ  
إِشَارَتِهِمْ . وَبِذَلِكَ تَحَوَّلَتْ مَكَّةُ إِلَى مَا يَشْبَهُ الْمَسْرَحَ الْكَبِيرَ ، فَالْمَغْنُونِ وَالْمَغْنِيَّاتِ  
مَا يَزَالُونَ يَضْرِبُونَ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ عَلَى أَوْتَارِهِمْ ، وَهَذَا الشَّبَابُ الْمَتَعَطِّلُ مِنْ حَوْلِهِمْ  
فَتِيَّاتٌ وَفَتِيَّانَاتٌ يَجْتَمِعْنَ بِهِمْ ، وَيَسْتَمِعْنَ إِلَيْهِمْ ، يَسْتَمِعْنَ فِي بَعْضِ الْمَنَازِلِ ،  
وَيَسْتَمِعْنَ فِي بَعْضِ الْمَتَنَزَّهَاتِ بِالضُّوَاْحَى .

لم تعد مكة مدينة مُتَبَدُّيةً ، بل أصبحت مدينة متحضرةً يعرف أهلها كثيراً من ضروب الترف والنعم في الملبس والمطعم وألوان الزينة المختلفة ، وماذا يَنْقُصُهُمْ ؟ إن المال مِلْءٌ حَجُورِهِمْ ، والحجورى الفارسيات والروميات مِلْءٌ قصورهم ، وهؤلاء المغنون يقيمون لهم كل يوم ما يشاؤون من حفلات الغناء . وقد أخذت تَلَمَّحُ ، في هذا المجتمع ، أسماءُ أبناء الطبقة الراقية ، واشتهر كثير منهم بذوق رفيع ، حتى بين النساء أنفسهن .

وفي هذا المجتمع المتحضر الجديد عاشَ عمر بن أبي ربيعة ، ونعمَ بما نعيم به شبابُ عصره من مُتَعَةِ الغناء والموسيقى ، وتَمَنَّقَسَ في هذه الحرية ، التي ظفر بها المجتمع الجديد ، من حيث الصلَّة بين الرجل والمرأة ، وكانت منزلته وأسرته تَتَبَّحان له الاختلاط بكثير من أسر مكة ، وكان يتدفق على لسانه هذا ينبوع العذب ، ينبوع الشعر ، فذهب يُصوِّرُ به مشاعره ومشاعر المرأة المكية في عصره ، واستمرَّ في هذا التصوير ، حتى آخر حياته ، أو قل حتى وفاته .

والروايات تضطرب في تحديد وفاته ويقول أبو الفرج إنه عاش سبعين سنة وإنه ولد ليلة قتل عمر بن الخطاب <sup>(١)</sup> أى في سنة ٢٣ للهجرة ، ومعنى ذلك أنه تَوُفِّيَ سنة ٩٣ في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) . وهناك رواية تزعم أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) نفاه إلى الطائف <sup>(٢)</sup> ، وأخرى تزعم أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نفاه إلى دَهْلَسَك <sup>(٣)</sup> . والروايتان مَدْحُولَتَانِ ، لأنه لم يَلْحَقْ عصر سليمان ولا عصر عمر . ويَزْعَمُ بعضُ الرواة أنه غَزَا في البحر ، فَأُحْرِقَتْ سفينته فاحْتَرَقَ <sup>(٤)</sup> . وليس بمعقول أن يذهب إلى الغَزْوِ في سِنِّ السَّبْعِينَ . ويَزْعَمُ آخرون أنه تغزَّلَ بسيدة وهي تَحْبُجُّ ، فدَعَتْ عليه فات <sup>(٥)</sup> وهذه الرواية أقرب إلى القصص منها إلى الحقيقة .

وإذا كان الرواة اضطرَبُوا في وفاة عمر وكيف تَوُفِّيَ ، فإنهم اضطربوا أكثر

(١) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٧١/١ .  
 (٢) أغاني ٦٧/٩ .  
 (٣) أغاني ٦٤/٩ والشعر والشراء ص ٣٤٩ .  
 (٤) الشعر والشراء ص ٣٤٩ .  
 (٥) أغاني ٢٤٧/١ .

وحملك جزيرة في البحر الأحمر بالقرب

في أخبار حياته ، إذ أخذت شكلاً قصصاً يدور حول مغالاته للمرأة المكية وبعض نساء المدينة ونساء العرب الخوارج . ولا يترتاب من يقرأ الأغاني وأخبار عمر فيه أنه أصبح شخصية خيالية يتسحج حولها الرواة الأفاقيص ، ومن هنا اضطربت صورة حياته ، وأصبح من الصعب معرفة الحيوط الحقيقية من الحيوط الزائفة التي نسجت منها هذه الحياة ، إذ تدخلت فيها مخيلة القصاص والرواة .

ومن أجل ذلك يكون من الخطأ أن يحكم على عمر وعشقه من هذه الأحاديث التي دارت عنه في الجزء الأول من كتاب الأغاني ، فأكثرها كتيب لتسليية الناس والترفيه عنهم ، لا لوصف حقيقة عمر وحبه ، فإذا سلمنا بها وصحتنا منها حياة عمر وعشقه نكون قد حمرنا هذه الحياة وذلك العشق بمقدار ما حرف القصص فيها .

والواقع أن قصص الرواة عن عمر لا يمثل عمر تماماً ، وأيضاً فإنه لا يمثل النساء والفتيات اللاتي تغزل بهن عمر ، فلم يكن مجتمع مكة ماجناً كل هذا المجون الذي يقصه الرواة عن المرأة المكية في هذا العصر .

وفرق بين أن يكون المجتمع حراً وأن يكون ماجناً ، فالذي لا ريب فيه أن المرأة المكية نالت حرية واسعة في هذا العصر لم تكن جدتها أو أمها تتألم ، وأن طبيعة الحياة نفسها وما كان فيها من مزاحمة الجوارى الأجنبية من فارسيات وروميات لما جعلها تخرج من حجابها القديم ، وتطلب الرجل وتغازله . ولكن الرواة وسعوا الصورة ، وكادوا يجعلونها عبيثاً خالصاً ، وفرق بين العيب والحرية . ولذلك كنا نجد نساء فضليات كالسيدة مسكينة بنت الحسين تمشوش صورتها في الأغاني كما تمشوش صورة الفتاة الأولى في حياة عمر وهي الشريفة<sup>(١)</sup> بنت علي ابن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس .

ومن يرد أخبار الثريا بعضها إلى بعض يستطيع أن يعرف في وضوح أنها كانت من الفتيات البارزات في مكة حسباً ونسباً ، وتزوجها سهيل بن عبد العزيز بن مروان . وكانت وهي في مكة تُعجب بالفن البلدي ، فن الغناء ،

(١) أغاني ١/٢٢٨ وما بعدها .

وقد تخرّج في بيتها الغمريّض وبسحيتي قبيل وسُميَّة . ولعل ذلك ما جعلها تحصل بعمر ، إذ كان ينظم الشعر في الحب وكان أكبر مصدر لمقطوعات هذا الشعر التي تُغنى في مكة ، فمرقتّه ، وبرزت إليه على سنّة الشريقات في عصرها ، ونظّم فيها كثيراً من غزله ، وبادلته ودّاً بُوداً<sup>(١)</sup> .

واختلاط أخبار الرّيا مع عمر يشبهه اختلاط أخبار السيدة الثانية في ديوانه ، وهي زينب الجمّحيّة ، ولم تكن من أهل مكة ، وإنما كانت من أهل المدينة ، حتّمت مع أخيها قدامة ، فأعجبت بها عمر<sup>(٢)</sup> ، ولم تلبث أن انعقدت بينهما أسباب الودّ ، ونظن ظناً أنها هي الجمّحيّة التي تزوّج بها<sup>(٣)</sup> ، فكل من يقرن أشعار عمر بعضها إلى بعض يستطيع أن يعرف أن زينب هذه هي نفسها هند<sup>(٤)</sup> التي أكثر من الصّابة بها في شعره . وأيضاً هي نفسها نُعم<sup>(٥)</sup> ، وهي ذات الخال<sup>(٦)</sup> التي يتغنّى بها . ولم يحاول الرواة أن يبيّنوا شيئاً من ذلك ، وإنما حاولوا أن يقصّوا عن عمر والأسماء الموجودة في ديوانه قصصاً كثيراً للتّسليّة وقطع أوقات الفراغ ، ولم ينتبهوا إلى أن بعض هذه الأسماء قد يكون حقيقياً وأن بعضها قد يكون رمزياً إلا ما كان من أبي الفرج ، إذ أشار إلى أن اسم نُعم التي يتغزل فيها عمر اسم رمزيّ<sup>(٧)</sup> . ولا ريب في أن أسماء أخرى كانت رمزيّة ، فكان مرة يذكر الاسم صراحة ، ومرة يكتفي ، وكانت زينب الجمّحيّة خاصة تطلب منه ذلك<sup>(٨)</sup> .

وهذا كله لا يهمنا هنا ، وإنما يهمنا أن نعرف أن المرأة التي كان يتغزل بها عمر كانت تختلف اختلافاً تاماً من أمها أو جدتها في الجاهلية ، فهي منعمة ، وهي مخدومة بالجواري الأجنبية ، وهي تقضى أوقاتها في الاستماع إلى الغناء . ومن هنا كانت الظاهرة الأولى في غزل عمر أن المرأة التي يتغزل بها متحضرة مبالغة في تحضرها ، وقد أصابت ضرباً من الحرية تحت تأثير الحياة الاجتماعية الحديثة ،

(١) انظر أخبارها في الأغاني ٢١٢/١ وكذلك  
٢٢٨/١ .  
(٢) أغاني ٩٨/١ .  
(٣) أغاني ٢٢٠/١ .  
(٤) انظر أخبارها في الأغاني ١٨٣/١٠ ٩٩/١ حيث  
يروى حادثاً واحداً مع هند مرة وزينب أخرى .  
(٥) انظر الأغاني ٢١٣/٤ ، ٢٣٩/٩ .  
(٦) أغاني ٢٣٩/٩ .  
(٧) نفس المصدر ٢٣٩/٩ .  
(٨) ديوان عمر (طبع لبيك) ص ٨٢، ٨٧ .



كما أخذت تُقْبِل على الرجل بأكثر مما كانت تُقْبِل عليه المرأة الجاهلية ، فهي ليست مثلها حشمةً وتَصْنَعاً وتكَلُفًا وما يتصل بالتكَلُف ، وإنما هي سيدة حديثة تأخذ قِسْطًا واضحًا من الحرية فَتَبْرُزُ للرجال ، وقد تفازلهم غزلاً عفيفاً .

ونحن نظن أن من أسباب اندفاع المرأة المكية إلى الرجل في هذا العصر بجانب ما قد منا من وجود الجوارى الأجنبية في قَصْرِها أن كثيراً من الشبان خرجوا من وطنهم للغزو والجهاد ، ولم يعودوا ، إما لأنهم قُتِلوا في الفتح أو لأنهم آثروا الأرض الجليدية التي نزلوا فيها ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إقبال المرأة المكية على الشباب في هذا العصر ، ودائماً عقب الحروب تحدث مثل هذه الهزات في نفسية المجتمع .

أسباب مختلفة جعلت المجتمع المكي يسوده شيء من الحرية غير قليل ، بعضها يرجع إلى ما أحرز العرب من مجد الفتح وإحساس المرأة القرشية بذلك ، وبعضها يرجع إلى الجوارى الأجنبية وما أتحنَ بتريتهن للمجتمع من حرية ، وبعض آخر يرجع إلى النقص الياذي في شباب مكة ، وخاصة أنهم استمروا طوال هذا العصر الأموي ينزلون في الأقاليم المختلفة ، فكانت المرأة القرشية تَبْرُزُ للرجال محاولة أن تتجدد بهم إليها من هؤلاء الجوارى من جهة ، ومن تلك الأوطان التي ينزلونها من جهة أخرى ، وهي في هذا كله شاعرة بمكانتها ومكانة قومها ، وما أحرزوه من دولتي الفرس والروم .

ولعل في هذا ما يدل دلالة واضحة على أن المرأة التي نجدها في غزل عمر كانت من ذوق آخر غير الذوق الجاهلي ، ذَوْقٍ متحضر ، وأظن أن ذلك ما جعل الرواة يكثرون عنها من القصص في غير احتياط ، فقد وجدوا صورتها في ديوان عمر تختلف من صورة أمها وجدتها في الشعر القديم ، فذهبوا ينسجون حولها كثيراً من القصص واندفعوا إلى رواية صورٍ ماجنة لا تؤيدُها حقيقة الحياة حينئذ ، ولا ديوان عمر نفسه .

على كل حال غزلُ عمر بن أبي ربيعة الذي نقرؤه في ديوانه جديدٌ في تاريخ الشعر العربي من حيث المرأة التي يتغزل بها ، فهي امرأة متحضرة ، أُتِيح لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة ما لم يُتَحَّ للمرأة الجاهلية . وفي غزل عمر أبيات كثيرة

تصفُ ملابسَ هذه المرأة المتحضرة . وما كانت تفرق فيه من الخلى والطيب<sup>(١)</sup> ،  
وفيه أيضاً أبيات كثيرة تصور مدى ما وصلت إليه من ترف ونعيم ، واستمع إلى  
عمر بقول<sup>(٢)</sup> :

لو دبَّ ذرٌّ فوقَ صاحي جليدِها      لأبانَ من آثارِه منَ حدُورِ

فلو أن الذرَّ اتصل بظاهر جسمها لظهرت فيه من آثاره كلُّوم وجزُّوح .  
وفي كل جانب من جوانب غزل عمر نجد أثر هذا النعيم بل قل أثر هذا الترف  
الشديد .

ومعنى ذلك أن صورة المرأة في غزل عمر صورة جديدة ، هي صورة امرأة  
مُنعمَة مُترفة ، تحفُّ بها الجوارى يسليهنها ويُعيدنَ لها من أفانين اللهو  
واللعب ما تقطع به وقتها قطعاً هنيئاً ، على هذا النحو الذي يصفه عمر<sup>(٣)</sup> :

ولقد قالتُ لجاناتِها      كالمهاتِ يَلْعَبْنَ في حُجْرَتِها  
خذُنَ عَنِّي الظلَّ لا يَشْبَعُني      ومَضتْ تَسْعَى إلى قَبْطِها

وهذا دلالةٌ أيُّ دلالة ، أن تطلب امرأة من جواربها أن يأخذن الظل عنها ،  
وأكبر الظن أنها لا ترمز بذلك إلى شيء سوى الظلِّ نفسه ، فالحديث حديث  
دلال ولعب .

وهذه المرأة المدللة المترفة ، كما كانت تتسلى بالدعيب مع جواربها ، كانت  
تتسلى يلعب المغنين والمغنيات ، وما يلحنون على عيدانهم . ومن هنا تأتي صلةُ  
عمر بها ، فقد كان يلزم المغنين ، يقدم لهم الشعر ويغنون فيه ، فطبعي أن يتصل  
بسيداتهم من مثل الشريبات مولاة الغرييض وكان من أهم المغنين في عصره ، كما يتصل  
بغيرها ممن يزرنها ويجلسن معها للسماح .

وكما يُعقِّدُ هذا المجلس في بيت الثريا قد يُعقِّدُ في منزله أو في بعض ضواحي  
مكة ، فيجلس بعض السيدات ، وقد يجلس معهن بعض الشباب ، يستمعون جميعاً  
إلى مغنٍّ أو مغنية ، ففي الأغاني أن الحارث بن خالد المخزومي الشاعر المعروف قال :

(٣) أغاني ٢٠٨/٨ .

(١) أغاني ٩٥/١ .

(٢) الديوان من ١٥ .

« بَلَغَتْنِي أَنْ الْغَرِيضُ خَرَجَ مَعَ نِسْوَةٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ ، لَيْلًا ، إِلَى بَعْضِ الْمُتَحَدِّثَاتِ مِنْ نَوَاحِي مَكَّةَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً مُقَمَّرَةً ، فَاشْتَقَّتْ إِلَيْهِنَّ ، وَإِلَى مَجَالِسِهِنَّ ، وَإِلَى حَدِيثِهِنَّ ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ مَعِي قَرِيبًا ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ فَلَانَةَ وَفَلَانَةَ وَفَلَانَةَ — حَتَّى سَمِيتِهِنَّ كُلَّهُنَّ — قَدْ بَعَثْتَنِي وَهَنْ يَتَقَرَّانَ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَقُلْنَ : تَشَوَّقُنَّ إِلَيْكَ فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ لَصَوْتِ أَنْشِدَانِهِ الْغَرِيضُ ، وَكَانَ الْغَرِيضُ يُغَنِّي هَذَا الصَّوْتِ ، فِيجِيدُهُ ، وَكَانَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بِهِ مُعْجَبًا ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ الْغَرِيضَ أَنْ يُغَنِّيَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هَذَا الْقَلْبُ مَعْمُودًا إِذَا أَقُولُ صَحْحًا يَعْتَادُهُ عِيدًا

فَلَمَّا أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ قَالَ : لَقَدْ أَرَعَجْتَنِي فِي وَقْتِ كَانَتْ الدَّعَاةُ أَحَبَّ فِيهِ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ صَوْتُ الْغَرِيضِ وَحَدِيثُ النِّسْوَةِ لَيْسَ لَهُ مُتَرَكٌّ ، وَلَا عَنْهُ مَحْبِصٌ ، فَدَعَا بِشِابِهِ ، فَلَبِسَهَا ، وَقَالَ : أَمَضْ فَمَضِينَا نَمَشِي الْعَجَلُ ، حَتَّى قَرَبْنَا مِنْهُنَّ ، فَقَالَ لِي عَمْرٌ : خَفِّضْ عَلَيْكَ مَشْيُكَ ، فَفَعَلْتُ ، حَتَّى وَقَفْنَا عَلَيْهِنَّ ، وَهَنْ فِي أَطْيَبِ حَدِيثٍ وَأَحْسَنِ مَجْلِسٍ ، فَسَلَّمْنَا ، فَتَهَيَّبْنَنَا ، وَتَخَفَّرْنَا مِنَّا ، فَقَالَ الْغَرِيضُ : لَا عَلَيْكَ ! هَذَا ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ جَاءَا مُتَشَوِّقِينَ إِلَى حَدِيثِكَ وَغَنَائِي ، فَقَالَتْ فَلَانَةُ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَاللَّهِ مَا تَمَّ مَجْلِسُنَا إِلَّا بِكَ ، اجْلِسَا ، فَجَلَسْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَأَخَذْنَا عَلَيْهِنَّ جَلَابِيْبَهُنَّ ، وَتَمَنَّعْنَا بِأَخْمِصَاتِهِنَّ ، وَأَقْبَلْنَا عَلَيْنَا بِوُجُوْهِنَّ . . . فَلَمْ نَزَلْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ وَأَطْيَبِهَا حَتَّى بَدَأَ الْقَمَرُ يَغِيبُ ، فَجَمَعْنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذْنَا النِّسْوَةَ طَرِيقًا وَنَحْنُ طَرِيقًا ، وَأَخَذَ الْغَرِيضُ مَعَنَا « (١) .

ولعل في هذا الخبر ما يرينا كيف كان أهل مكة يجتمعون لسماع المغنين تارة في منازلهم وتارة في بعض الضواحي ، ليسمعوا إلى ما يُحَدِّثُونَ وكان يحضر المغنِّي ويحضر معه في أحوال كثيرة الشاعرُ الذي يُغَنِّي في شعره . وكل من يقرأ أخبار عمر في الأغاني أو أخبار الغرَّيْضِ وابنِ سُرَيْجٍ يحسُّ أنه كان لا يفارقهما ، وكانا أهم مغنيين هناك ، فكان يحضر معهما مجالس الغناء ، وكان يستأثر بهما من دون الناس استئثارًا ، إذ كان ثريًّا ثراءً مفرطًا ، وكان كثير البذلِّ والعطاء لهما ، فعاشا في ظلالة ،

وأصبحا يؤلفان معه ما يشبه الجوقة .

وكان نساء مكة يعجبن بهذه الجوقة الطريفة كما كان يعجب بها نساء أهل المدينة ، فكان يُرسلن في طلبها ، وكان يرسلن طبعاً إلى ربها عمر ، حتى يحضر معه ابن سُرَيْج أو الغرييض أو هدا معاً ، ففي الأغاني أن نسوة اجتمعن في المدينة فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظهرته وحسن مجلسه وحديثه ، وتشوقن إليه ، وتمنينه ، فقالت سَكِينَةُ بنت الحسين : أنا لكن به ، فبعثت إليه رسولا ، ووعدهت الصَّوْرَيْنِ<sup>(١)</sup> الليلة سَمَّتْهَا ، فوافاها على رواجله ، ومعه الغرييض ، فحدثهن حتى وافى الفجر . وكان انصرافهن ، فقال لمن : إني والله لمشتاق إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ، ثم انصرف إلى مكة ، وقال :

أَلَمِمْ بِزَيْنَبَ إِنْ الْبَيْتِ قَدْ أَفِدَاً      قَلَّ الشَّوَاءُ لَنْ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَاً<sup>(٢)</sup>

وأكبر الظن أن زينب هذه هي زينب الجموحية . وعلى هذا النحو كان عمر يختلط بالنساء في عصره ، وكان يجذبهن إليه شعره والمغنون الذين يغنونه . وكل ذلك أحدث طرافة في غزله إذ جعله يتصل مباشرة بالمرأة المتحضرة لعهده ، وقد رشحته تربية أمه ومعاشرته لها ولبن يزرئها من النساء أن يحسن وصفهن ، وأن يعرف حقاً كيف بصور نفسيتهن في مكة لعصره ، فقد خيبرهن من قرب عن طريق أمه من جهة ، وعن طريق اختلاطه بهن مع الغرييض وغيره من جهة أخرى ، فتحوّل في غزله إلى وصف أحاديثهن ، وما ينطوى فيها من غيرةٍ وغير غيرةٍ ، وخاصة حين يتعرض شخصٌ لسيدة يصف جمالها ، فيزرع بذلك الحقد في قلوب أخواتها ، ويسفسن عليها ما توصف به من حسنٍ وفتنة ، واستمع إليه بقول<sup>(٣)</sup> :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتِنَا مَا تَعِدُ      وَشَقَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَعِدُ  
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً      إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ  
وَلَقَدْ قَالَتْ لِحَارَاتٍ لَهَا      ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ

(١) الصوران : موضع بالمدينة

(٢) أغاني ٢/٣٧٦ ، وأند : اقتراب ،

والنواء : الإقامة .

(٣) أغاني ١/١٨٦ والديوان ص ١١٥

أَكَمَا يَنْعَتُنِي تُبْصِرُنِّي عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أُمَّ لَا يَفْتَصِدُ  
فَتَضَاحِكُنْ وَقَدْ قُلْنِ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِّنْ تَوَدِّ  
حَسَدًا حُمْلَتَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

فعمر يتحدث هنا بلسان النساء ونفسيتهن ، وما يغمرهن من غيرةٍ شديدة حين يتغنى شخص بجمال إحداهن وما لها من فتنة وإغراء .

وغزلُ عمر طريف من هذه الناحية ، فهو يقصُّ علينا كثيراً من أحاديث النساء وتُرَّهاتهن ، وما يجول في أذهانهن ، وكل ذلك يمدُّه فيه تربية أمه له ، وما تعودته من الجلوس مع المرأة في عصره . وأكبر الظن أني لا أغلو إذا زعمت أن عمر به جانبٌ من انعكاس العاطفة وشلوذاها ، فنحن لا نجد عنده الشاعر الغزل المألوف الذي يُعنى بوصفِ حُبِّه ، وإنما نجد شاعراً يعنى بوصفِ المرأة نفسها ، ووصفِ أحاسيسها ، وكأن غاية من ديوانه أن يصف المرأة وصفاً نفسياً .

ومعنى ذلك أن عمر في ديوانه وغزله مُعَطَّلٌ إلى حد كبير ، إذ حوَّل الغزل من الرجل إلى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه معشوقٌ لا عاشق . وعمر في ذلك يُعَبِّرُ عن تطوُّر جديد في الحياة العربية ، فقبله لم تكن نعرف شاعراً يصبح شخصه موضوعَ الغزل في غزله ، وإنما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وعبارة أخرى كانت المرأة قبل غزل ابن أبي ربيعة هي المعشوقة ، أما في غزله ، فقد تحولت إلى عاشقة ، كما تحول عمر نفسه من عاشق إلى معشوق .

ولعل هذا ما جعل عمر يتفرَّد في غزله بشخصية واضحة ، لم يستطع أحد أن يُجاريها ، لأن عمر نفسه ليس من السهل أن يوجد مراراً ، إذ لا بد للشاعر من ظروف كثيرة تُحوِّله من عالم العاشقين إلى عالم المعشوقين ، لا بد أن يكون له ثراءٌ عمر ، وأن تكون له أمه التي عاشت له ، وعاشت تعشقه ، وأيضاً لا بد أن يوجد سُجَّتَمُ مكة وما فيه من نساء أصبَنَ شيئاً من الحريرة ، فكشَّرَ الاختلاط بينهما وبين الرجال ، على نحو ما كثر بين نساء مكة وابن أبي ربيعة .

وهو ما يمكن فإن هذا جانب واضح في غزل عمر بل هو خاصة تميِّزه عن غيره من الغزَّالين في ذلك . يخ الشعر العربي ، فقد انعكست العاطفة عنده ، وشذت هذا الشلوذ

الذى حوَّله من عاشق إلى معشوق ، فإذا النساء هنَّ اللاتي يَطْلُبُنَّه . وإذا هو الذى يُدِلُّ عليهن ، ويَخْتَال ، على نحو ما نرى في قوله (١) :

قالت ليرب لها تحدُّثها      لتفسدَنَّ الطوافَ في عُمَرَ  
قوى تصدَّى له ليعرفننا      ثم اغمِز به يا أختَ في خفِيرِ  
قالت لما قد غمِزته فأبى      ثم اسبَطَرتُ (٢) تسعَى على أنثرى

فعمز هو المتبوع لا التابع ، وهو المطلوب لا الطالب ، وهو المعشوق لا العاشق ، فالنساء يُغَمِّزْنَ به ، ويتصدَّين له ، وينتهزن كل فرصة لقاته ، ويُسِرْنَ له باليد حيناً وبالعين حيناً ، ويغمِزونه ضرباً مختلفاً من الغمِز ، وهو في كل ذلك لا يُعْنَى ولا يَلْتَقِي دلالاً وتيهياً ، وإعجاباً بنفسه وبجماله . وقد عرف معاصروه ذلك فيه ، ففى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق قوله :

بينما ينعتننى أبصرتنى      دون قيد (٣) الميل يبعُدُ وبى الأغر  
قالت الكبرى أتعرفن الفتى      قالت الوسطى نعم هذا عُمَرَ  
قالت الصغرى وقد تسمتها      قد عرفناه وهل يخفى القمَرَ

فقال له ابن أبى عتيق : « أنت لم تنسب بها وإنما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعتُ خدَّي ، فوطئتُ عليه » (٤) .

ومعنى ذلك أن معاصرى ابن أبى ربيعة كانوا يعرفون فيه هذا الضعف العاطفى ، وأنه مشغول فى غزاه لا بسيدات عصره ، وإنما بنفسه (٥) ، وكأنما حسنه وجماله هيَّأه لذلك ، فانقلب يتحدث عن نفسه وعيش السيدات والفتيات له ، حتى ليجعل زواجه ما تَمَّ لهن ، بل تاراً مُستعيرة فى قلوبهن ، واستمع إليه يقول على لسان الثرى (٦) :

خبروها بأننى قد تزوجتُ      تظلمتُ تكاتيم الغيظ سراً  
ثم قالت لأختها ولأخرى      جزعاً ليشه تزوج عَشراً

(٥) خزانة الأدب ٤٢٠/٢ والموشح (طبع)

المطبعة السلفية ص ٢٠٤ .

(٦) الديوان ص ٢٣٤ .

(١) أغاني ١٠٣/١ .

(٢) اسطرت : أسمرت .

(٣) قيد : قدر .

(٤) أغاني ١١٨/١ .

وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسر سترًا  
 ما لي قلبي كأنه ليس مني وعظامي إخال فيهن فتترًا  
 من حديث نسي إلى فظيع خلت في القلب من تلتظيه جمرًا

فهو الذي تستعير له قلوب النساء حين يغير من ألبهين ، وهو الذي يُدب قلوبهن كمدأ وحسرة حين ينصرف عنهن . إنه هو العشوق الذي يستصيبهن ، والمحبوب الذي يُعدنهن ، وهل في مكة من فتاة أو سيدة إلا قد برأها حبه ، وإنها لتنتظر من وراء الكوى والحروق ممره ، لتملأ عينها بجماله وحسنه (١) :

وكن إذا أبصرنتي أو سمعنتي سعين فرقعن الكوى بالبحاجر

فكل مكبة تلهج باسمه ، وتشكو تباريح حبه ، فأحشاء النساء خافقة به ، وقلوبهن هائمة بجماله ، وهو لا يتعد ولا يروح ، حتى يراهن يسعين في أثره ، كما يقول في بعض غزله (٢) :

البيت التي قالت لسولة لها ظهراً  
 أشيري بالسلم له إذا هو نحونا خطراً

فالنساء متيمات به ، قد أفرح الحب قلوبهن ، وهن يتابعنه بالسلام والغمز والإشارات ، وهو يدل عليهن ويصد عنهن ، بل إنه ليهجرهن من غير سب ، ويعلن ذلك إعلاناً فيقول (٣) :

ما ضراري نقيمي بهجرة من لبي من مسيئاً ولا بعيداً نواه  
 واجتنباني بيت الحبيب وما الخلد بأشهى إلى من أن أراه

فهو الذي يهجر حبيته من غير إساءة ولا ذنب جنته ، وهو يهجرها مع قربها منه ، كأنما يجد لذة في الهجر من حيث هو ، لأنه يعتبر بما يريد من تبه ودلال وإعجاب بنفسه ، كما تعجب المرأة المعشوقة بدلالها ونسبها ، وهي في ذلك تريد أن تعلن عن غرائب الحسن فيها وعجائب الجمال وما يطوئ في الجمال .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

(١) الديوان ص ٢٣٥ .

(٢) أفان ٩٢/١ .

ولا ريب في أن غزل عمر من هذه الناحية جليد خالص في اللغة العربية ، فهو لا يشكو على عادة المحبين هَجْرَ مَنْ يَجْبُونُهُمْ وَتَأْيِسُهُمْ وَصَدَّ عَنْهُ ، وإنما يعلن أنه هو الذي يهجر ، وهو الذي يتأى ويصد ، وهو الذي يقترح الجفون ، ويكمد القلوب . وغزله كله يصور ذلك تصويراً دقيقاً ، من مثل قوله (١) :

قالت لقيمتها وأذرت عبيرة<sup>١</sup>      مالى ومالك يا أبا الخطّاب  
أطمعتنى حتى إذا أوردتني<sup>٢</sup>      حلاّلتنى<sup>٣</sup> ألم أستتيم شرابى

وهو شراب كانت تتمتناه لنفسها كل فتاة وكل سيدة ، أو على الأقل يحاول عمر أن يعطينا هذه الصورة لنفسه ، فهو الجميل الذى يعكف عليه النساء ، وهو الذى يتمشى حبه في عظامهن ، ويخالط دماءهن وأرواحهن ، ثم هو على ذلك يهجرهن ، فيُرسلن وراءه الرُّسل ، يقول في بعض غزله (٣) :

إن هندا قد أرسلت<sup>٤</sup>      وأخو الشوق مُرسِلُ  
أرسلت<sup>٥</sup> تمسحتنى<sup>٦</sup>      وتقدى وتهدلُ

فهند وغير هند يُرسلن إليه ، وهو يتأبى ويتمنع ، وهن لا يرشئن ولا يتمهلن ، بل يتولهن ويتهمن ، ويرسلن بالرُّسل تِلْوُ الرُّسل ، فلبين بعد طول الصدِّ والتمنع .

وتكثر هذه الرسل في غزله من مثل بثرة (٤) وأروي (٥) وسليمتى (٦) . وهكذا عمر دائماً ، أو هكذا غزله ، فالصورة — ونقصد صورة العشق — معكوسة في ديوانه ، إذ كل ما نعرفه عند المرأة نجد عمر يُصوّر به نفسه ، واستمع إليه يقول (٧) :

عجباً لموقفنا وموقفها      ويسمع تيربيتها تُراجعتنا  
ومقالها سريلة معتنا      نعهد فإن البين فاجعتنا  
قلت العيون كثيرة معكم      وأظن أن السير ما نعنا

(٥) الديوان ص ١٢١ .  
(٦) الديوان ص ٥٥ وانظر أيضاً ص ١٣٢ .  
(٧) أغاني ١/٩١ .

(١) الموشح ص ٢٠٥ .  
(٢) حلاّ : منح .  
(٣) أغاني ١/١٨٣ .  
(٤) الديوان ص ٨٩ .



فصاحبه هي التي تطلب منه أن يسير معها ، وهو الذي يخاف العيون والمراصد التي ترصده . والموقفان جميعاً غريبان ولكن لا غرابة عند عمر ، فقد تبدلت طبيعة الغزل عنده ، وأصبح هو المَشوق لا العاشق . ومن طُرَف هذا الباب عنده أن نُجمله يذكر الوشاة على عادة العاشقين ، غير أن الوشاة عنده لا يأتون ليَشكوا هو منهم ، وإنما لشكوا عاشقاته منهم ، كما نرى في بعض غزله ، إذ يقول (١) :

ولمَّا التَقَيْنَا سَكَمْتَ وَتَسَمَّتْ      وَقَالَتْ كَقَوْلِ الْمُحْرَضِ الْمُسْتَجَنَّبِ  
أَمِينٌ أَجَلٌ وَأَشْ كَاشِحٌ بِنَمِيمَةٍ      مَشَى بَيْنَنَا صَدَقْتَهُ لَمْ تَكْذِبِ  
تَطَعْتُ وَصَالَ الْجَبَلُ مِنَّا وَمِنْ يَطْعٍ      بَدَى وَدَهُ قَوْلَ الْمُتَحَرِّشِ يُعْتَبِ

فالمرأة في شعر عمر هي التي تشكو من الوشاة ، وهي التي تطلب إليه أن لا يصدقهم ، وأن لا يقطع حبال الودِّ والحُبِّ ، فيحقق لم أمنيتهم .

وعلى هذه الشاكلة يحاول عمر أن يجعل كل فتاة وكل سيدة في مكة ممن يذكرهن في غزله متعلقة به ، ويُنخبِّلُ إلى الإنسان أنه لم تكن هناك شريفة ولا غير شريفة إلا وهي تسمى منه نَظْرَةَ عَطْفٍ وَرِضًا . ولا شك في أن هذه صورة معكوسة للعشق المعروف عند العرب ، حتى لئراه يطلب من عاشقته أن لا تبوح باسمه ، على نحو ما يطلب بعض النساء من عاشقين أن لا يبوحوا باسمهن ، الأتراه يقول في بعض غزله (٢) :

أَلَمْ تَعْلَمِي مَا كُنْتُ آلَيْتُ فِيكُمْ      وَأَقْسَمْتُ لِاتْحَكِيكِ ذَاكِرَةً بِاسْمِي  
فَعَمَّرُ يَطْلُبُ مِنْ صَاحِبَتِهِ أَنْ لَا تَعْلَنَ عَنْ اسْمِهِ . والحق أن كل الصورة التي نجدها للمرأة المحبوبة في الغزل العربي نجدها قد أُلصقتُ إصاقاً بعمر ، ونُحليعتُ عليه بجميع تفاصيلها وتفاريحها .

وإذن فلم يكن عمر عاشقاً في غزله ، بل كان معشوقاً ، ولعل في ذلك ما يدل بوضوح على فساد هذا القصص الذي أكثر منه الرواة عنه ، والذي حكاه صاحب الأغاني ، فأكثره لا يتفق وهذه الشخصية التي شدت في عواطفها . ولذلك كنا لا نشك في عِفَّة عمر كما شك القلماء (٣) ، فثله في تربيته وعواطفه لا يكون إباحياً ،

(٣) أغاني ١ / ٧٥ - ٧٦ .

(١) الديوان ص ١٧٨ .

(٢) الديوان ص ٧٨ .

ولعل ذلك كان سبباً مهماً في أن نساء قريش كنَّ يَبْهَرُزْنَ له ، ويتحدثنَّ إليه .  
ونستطيع بذلك أن نفهم لماذا لم يكن لعمر مدرسة في تاريخ الغزل العربي ، لأنه  
كما قدمنا كان مُتَفَرِّدَ الشخصية ، وعملت ظروف مختلفة في تكوينه ، ليس من  
السهل أن توجد عند غيره . ولا ريب في أنه ثمره هذه الحضارة التي دخلت في مكة  
والمدينة ، فأرَهَقَت المشاعر ، وطَبَّعَت الناس بطوايع جديدة . قد يكون فيه ضرب  
من الشذوذ العاطفي ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يَتَفَقَّدَ إلى تصوير مُجْتَمَعِهِ  
الجديد ، فتحن لا نقرأ ما يصف به امرأةَ عصره وإقبالها على حديث الرجال وما يكون  
بينها وبينهم من رُسُل ، حتى نَطَّلَع على صورة جديدة للمرأة العربية .

وغَزَلَ عمر لذلك بديع ، لأننا نستطيع أن نَتَفَقَّدَ منه إلى معرفة كثير من  
المحرِّكات النفسية للمجتمع العربي في مكة والمدينة وما أصابه من تبدُّل تحت تأثير  
الحضارة الجديدة ، إذ أتاح لنا بواسطة هذا الحوار المفتوح في الديوان بين السيدات  
عن جماله وفتنته أن نتعرَّف إلى كثير من جوانب الحياة المعاصرة له ، وخاصة حياة  
النساء وما نلنَّ من حظوظ في الحرية ، وأيضاً فإنه كشف في أحاديثهنَّ عن جوانب  
كثيرة من نفسياتهنَّ ، وما يتغلغل فيها من ترَّهات وتخلَّجات ووجدانات .

ومحورُ الغزلِ هو عمر نفسه وعشق النساء له ، ولكن سقط في أثناء ذلك كلُّ  
ما يُصَوِّرُ المرأةَ المعاصرة له في مكة والمدينة بواسطة هذه الأحاديث التي يُجْزِيها بين  
النساء أو هذا الحوار الذي يَلْتَفِتُ كل من يقرأ غزله . وربما كانت هذه هي الخاصة  
الثانية الكبيرة في ديوانه ، ففيه حوار مفتوح لا ينضبُ متعبه ولا تجفُّ قطراته  
في نفسه . ومن هنا كان لغزله طابعٌ ثانٍ يخالف فيه طابعَ الغزل العربي كله إلا ما يأتي  
نادراً ، ونقصد طابعَ القَصَصِ والحوار الذي يشيع في شعره ، وهو طابعٌ يُعَدُّ نتيجة  
للطابع الأول طابعَ العشوق لا العاشق ، فإنه أتى بالنساء في شعره لا لبيثهن تباريحَ  
الحبِّ ، ولا ليصف جمالهن ، ولا ليشكو من هجرهن ويصف آلامه وإنما جاء بهن  
ليعبرن عما يفتشُ من لواجع الحب فيهن ، وليصفنَّ حسنه البديع ، وما يتألَّمن به من  
هجرة وصدِّه ، فهن مصوِّراتٌ في شعره مشغولاتٌ به هائعاتٌ بجمالِه ، تردِّد  
الأحاديث بينهن في فنته وإغرائه . فكان لا بد لهذا كله أن يُطْبِعَ شعر عمر  
بطابع الحوار والقصص ، إذ عمر إنما يتكلم في غزله بلسان غيره من الفتيات والنساء ،

ومن هنا تعمق هذا الطابعُ كل ديوانه .

وعلى هذا النحو أصبح طابعُ الحوارِ والقصصِ أساسياً في شعر عمر ، ونفذ إلى كل مقطوعاته ، وهو قصصٌ وحوارٌ يستمد من هذه الخيِّلةِ الخصبَةِ التي كانت تنعقد فيها سُحُبُ الأحاديثِ بين النساءِ ، ثم تتقاطر حَبَّاتِها في هذه الأسلاكِ من الشعر التي بصوغها عمر . ولا شك في أن هذا يعطى غزله طرافةً خاصةً ، إذ يُشجج فيه الحياة ؛ ويجعله زاخراً بالإحساسات والمشاعر ، لا إحساسات الشاعر ومشاعره فحسب ، بل إحساسات الفتيات والنساء في عصره ومشاعرهما . فهو لا يُعبِّرُ في غزله عن نفسه فقط ، بل يُعبِّرُ أيضاً عن المرأة التي عاصرتَه ، أو قل إنه يُعبِّرُ عن نفسه ، ولكن عن طريق المرأة التي عاصرتَه ، بحيث أصبح ديوانه صَوْتٌ نفسه وصَوْتُ المرأة التي كانت تعاصره ، فكل محبوبة له وكل معشوقة ، أو قل كل مُحِبَّةٍ له وكل عاشقة ، تظهر في غزله مع أخواتها وصديقاتها وجواربها ، ويدور بينهن الحوارُ تارة من ورائه ، وتارة من أمامه وخاصة في أوقات الوداع . وله في وصف هذه الأوقات طُرْفٌ كثيرة لا ريب في أنه كان يستعين في جوانب منها بـخيِّلةِ القصاصِ البارِعِ ، فن ذلك قوله في رائيته المشهورة ، وقد أمضى مع صاحبتِه الليلَ حتى تنفس الصبح ، وخشيت أن يتَّهَمَها الناسُ (١) :

من الحُزنِ تُذري عبْرَةً تتحدَّرُ  
كيساءٍ أن من خبزٍ دِمَقَسْرٍ وأخضرُ  
أني زائراً والأمرُ للأمرِ يُقدَّرُ  
أقلى عليك اللومَ فالخطبُ أيسرُ  
فلا مِرْناً يَفْشُو ولا هوَ يَظْهَرُ  
ثلاثُ شُخوصٍ كاعبيانٍ ومُعْصِرُ (٢)  
ألم تَنقِ الأعداءَ والليلُ مَقْصِرُ  
أما تَسْتَحِي أو تَرَعَوِي أو تَفْكَرُ

فقامتَ كشيبي ليس في وجهيها دمٌ  
فقامتَ إليها حرَّتَانِ عليهما  
فقالَتْ لأختيها أعيننا على فتى  
فأقبلتَا فارتاعتا ثم قالتَا  
يقومُ فيمشي بيننا مُتَنَكِّراً  
فكان مجتني دونَ مَنْ كنتُ أتقي  
فلما أجزنا ساحةَ الحى قُلنَّ لى  
وقُلنَّ أهذا دأبك الدهرَ سادراً

والجن : الترس .

(١) الديوان ص ٣ .

(٢) المعصر : الفتاة دخلت عصر شبها ،

وغزل عمر كله بُنِيَ هذا البناء القصصى ، وهو بناء غير كامل من حيث القصة ، فليس فيه عقدة ، وليس فيه تركيب ولا تحليل . ومع ذلك ينبغي أن نلاحظ أن الخيال لعب دوراً مهماً في هذا القصص ، كما يلعب عادة في أقاصيص من يتقنون إذ يُخَرِّجوننا من عالمنا إلى عالم جديد لهم ، يَمَلِّسُونَهُ بِخِيَالَتِهِمْ . وكذلك كان عمر في كثير من جوانب ديوانه يملؤه بكثير من أخيلته ، فهو قصاص في غزله ، بتخييل ، ثم يتقن ما يتخييل ، سواء حين يصف مغامراته كما صنع في القطعة السابقة ، أو حين يصف أحاديث النساء فيه وتعلّقتهن به . واستطاع أن ينفذ من خلال ذلك إلى تصوير عواطف المرأة التي تحضرت في عصره حين تحب ، وما يكون بينها وبين أختواتها أو جواربها من أحاديث عن حبها وعن صاحبها ، وعن ككَلَفِهِ بِغَيْرِهَا وَكَلَفِهَا بِهِ . وبذلك أعطانا صورة حيّة للمرأة المتحضرة ، وما قد يمرّ بها من هواجس ووساوس ، وما يبدؤ أعيب خيالها من أفكار وأوهام .

فإذا قلنا بعد ذلك إن غزل عُمَرَ لَوْنٌ جديد في الشعر العربي لم يكن من الممكن أن يوجد قبل العصر الأموى لم تكن مجاوزين للواقع في شيء ، لأنه في حقيقته إنما يصور عواطف المرأة العربية التي تحضرت في هذا العصر ، وغير معقول أن توصف المرأة العربية المتحضرة في شعر العصر الجاهلى لأنه عصر بدآوة ، أما عصر ابن أبى ربيعة فهو عصر الحضارة ، وهو العصر الذى يتيح لهذه المرأة أن توجد ، ثم يتيح للشاعر أن يصفها في شعره أو غزله .

لم يكن من الممكن إذن أن يوجد غزل ابن أبى ربيعة في العصر الجاهلى لأن الموضوع الأساسى الذى يستمد منه في صنع هذا الغزل ، وهو المرأة العربية المتحضرة ، لم يكن قد وُجِدَ ، فطبيعى أن لا يوجد الشعر الذى يعبر عنه . ولعل في هذا كله ما يتيح لنا أن نقول إن غزل ابن أبى ربيعة غزل حضارى تنضح فيه صفات مُجْتَمَعٍ متحضّر ، لا عهد لنا به عند العرب ، وهو لذلك يُعَدُّ شيئاً جديداً حقاً .

وليس هذا كل ما يلاحظ فيه من جديد ، فهناك جديد ثان لم نتحدث عنه حتى الآن وهو أن عمر استطاع أن يكتب في هذا الغزل ديواناً ضخمًا ، وهذه أول

مرة نجد فيها شاعراً عربياً يكتب ديواناً في الغزل . والحق أن العقلية العربية تطوّرت وأصبحت عقلية تخصص ، فالشاعر يأخذ فناً واحداً ، ويحاول أن يعيش فيه ، حتى الشعراء الذين اضطربوا في الحوادث من مثل جرير والفرزدق والأخطل استطاعوا أن ينفذوا بالهجاء إلى فن جديد هو فن التناقض الذي صورنا خصائصه في غير هذا الموضع .

على كل حال عاش ابن أبي ربيعة في إطار الغزل لا يتحوّل عنه إلى إطار آخر ، وهو إطار كان يُشغَفُ به أهل مكة والمدينة جميعاً ، حتى كاد كثير من الشعراء أن يتخصصوا به ، فهم لا يفارقونه إلى غيره ، مثل العرجي في مكة ، فهو كعمر لم يشغل نفسه بمديح ولا هجاء ولا رثاء .

وما لا شك فيه أن شيوع الغزل في المدينتين الكبيرتين بالحجاز يرجع إلى عوامل نفسية كما يرجع إلى عوامل اجتماعية ، فأما النفسية فترجع في جملتها إلى شعور الفرد في المدينتين بنفسه أكثر مما كان يشعر بها في الجاهلية ؛ فقد كان قديماً يفتنى في قبيلته ، ويلوب فيها ، ولا يحسُّ لنفسه بوجود إلا من خلالها ، وهو لذلك يتغنى بمفاخرها ، ويهجو خصومها ، ويمدح ساداتها ، أما في هذا العصر فقد شعر شباب المدينتين أنهم ورثة كسرى وقبصر ، وقد صبّت في حجورهم خزائن الأرض ، وشعروا كأن الدنيا تدبّر لهم ، فتولّد فيهم شعور عميق بأنفسهم .

وكان هذا الشعور بالنفس عند شباب مكة والمدينة وما انطوى فيه من إحساس الفرد بمنزلته سبباً في أن تحوّل الشعر من بعض الوجوه إلى الحديث عن النفس لا عن القبيلة ، فأصبح كله ، أو كاد ، غزلاً بعد أن كان أكثره فخراً وهجاء . وإذن فعمر في غزله صورة لمجتمعة ، يُعبّر به عن هذا التحول الذي أصاب نفسية من حوله من أهل مكة والمدينة ، فهو لا يتنظّم في الفخر ولا في الهجاء ، وأيضاً لا ينظم في المديح الذي شاع بين شعراء العراق ، وإنما يتنظّم في هذا الموضوع الذي كان يُعبّر عن شعور الجماعة الجديدة في مكة والمدينة ، وقد أخذ يقطر لهم فيه عواطف المرأة المعاصرة وما أصاب حياتها من تبدل وتطور ، كما أخذ يقطر عواطفه وخواطره ، ومن هنا كان من الظواهر اللافتة في غزل الحجازيين لهذا العصر أن الشاعر أخذ يحلل نفسه وعواطفه إزاء المرأة ، ولم يعد يقتصر على وصفها الحسى الذي كنا

نألفه عند شعراء الجاهلية من أمثال امرئ القيس ، فقد اتجه اتجاهًا داخليًا ، يتحدث عن نفسه إزاء حبه وصبايته ، أو يتحدث عن المرأة وحبها وصبايتها كما يصنع ابن أبي ربيعة .

وهذه العوامل النفسية التي أنتجت ديوان عمر الذي بُنِيَ كَلَهُ على الغزل كانت تقابلها عوامل اجتماعية ، منها هذا التحضر الذي أصاب المرأة ، ومنها جانب آخر لم نتحدث عنه حتى الآن ، مع أنه كان بعيد الأثر في الغزل الذي أصدرته الحجاز في هذا العصر ، وهو فن الغِنَاء الذي ذاع وشاع حينئذ ، والذي تحولت من أجله مكة والمدينة إلى ما يُشبه المسارح الكبيرة .

فكرة في هذا العصر الذي عاش فيه عمر كانت تشبه مسرحًا كبيراً يُغَنَّى فيه المَغْنُون والمَغْنِيَات من مثل ابن مِسْجَح وابن مُحَرَّر وابن سُرَيْج والغَرِيض وَسُمَيَّة وسَلَامَةَ القَسَّس ، وغير هؤلاء كثيرون منبثون في مكة ونواديها .

وكانوا يُغَنِّون في الشعر القديم ، ولكن ليس هذا هو الطريف الذي كان يُلائم عصرهم ، إنما الطريف حقًا هو هذا الغزل الذي كان يصنعه عمر ونظرائه من الشعراء ، وكان المَغْنُون يطلبونه طَلَبًا وَيُحِثُّون في طَلَبِهِ . ولا أظننا نغلو إذا قلنا إن عمر كان أهمَّ شاعر لَبَّى حاجة هؤلاء المَغْنِين والمَغْنِيَات ، فهو أهمُّ شاعر رَوَى له أبو الفرج أصواتًا من شعره في كتاب الأغاني .

ويُحَسُّ الإنسان كأنما أراد بشعره كله إلى الغناء ، فغزله في حقيقة أمره أغان ، ولعل ذلك ما جعله كله مقطوعات إلا بعض قصائد قليلة جدًا ، ومع ذلك غُنِّيَتْ أو غُنِّيَ منها غير قليل من أبياتها ، ولم لا تُغَنَّى ، وقد كان عمر نفسه يعمل على ذلك ، فهو يُقَرِّب منه ابن سُرَيْج والغَرِيض ويَلْتَزِمهما : حتى يُؤَلِّفوا جميعاً ما يشبه الجوقة ، فهو لا يذهب ولا يجيء إلا مع أحدهما أو معهما . ويظهر أنه كان كثير البَدَلِ لمن يُغَنِّون في شعره ، فما يروى عنه أنه أعطى ابن سُرَيْج في تلحين قطعة له ثلاثمائة دينار<sup>(١)</sup> ، كما أعطى الغَرِيض في تلحين أخرى خمسة آلاف درهم<sup>(٢)</sup> . وكان يذهب إلى المدينة ، فيحضر نوادي الغناء

(١) أغان ١/٢٥٩ .

(٢) أغان ٣/٣٢٢ .

هناك ، وكان مَنْ يُغَنِّي في شعره يَهْتَبُ له المئات ، والرواة يقولون إنه أعطى الدُّلَّال في تلحين إحدى مقطوعاته مائة دينار (١) كما أعطى جَمِيلَةَ في مقطوعة أخرى عشرة آلاف درهم (٢) . وكان في داره جاريتان خاصتان به تغنيانه في شعره ، وهما بَعُومُ وأَسْمَاءُ (٣) .

لذلك كله إذا قلنا إن غزل عمر إنما هو أغاني قيلت لَتُغَنِّي لم تكن مغالين . وكان لهذا طابع مهم في غزله مَيَّزَه من الغزل القديم الذي كان يُنْشَدُ ، ولم يكن يُنْظَمُ لِيُغَنِّي ، وحتى إن هو غُنِّي لم يحاول المغني فيه أن يُلْحَنَه على أساس قواعد خاصة لنظرية في الغناء ، إنما كان يُلْحَنُه حسب ذوقه ، أما في هذا العصر فقد استحدث الأجناب في مكة والمدينة نظريةً جديدة لإيقاع الشعر وتلحينه ، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكان عمر ينظم غزله تحت تأثير هذه النظرية وألحانها وإيقاعاتها ، وكان يُعَاشِرُ أصحابها ويُدْأخِلُهُم ، فكان لذلك من أهم الشعراء الذين تلاءموا معها .

ونستطيع أن نلاحظ هذا التلاؤم عند عمر في جانبين من ديوانه ، أو قل من مَوْسِقِي شِعْرِهِ . أما الجانب الأول فهو استخدامه للأوزان الخفيفة ، كما يلاحظ من يقرأ الأشعار التي استشهدنا بها فيما مرَّ من حديثنا عنه ، وهي أوزان كانت تلائم الغناء الجديد من مثل أوزان السريع والخفيف والوافر والرمل والمُتَقَارِبِ ، وكانت هذه الأوزان موجودة في العصر الجاهلي ، وعمر من هذه الناحية لم يوجِدَ وزناً جديداً ، وإنما أكثر من استعمال الأوزان السهلة ، التي لا تحتاج مجهوداً من المُغَنِّي ، والتي في الوقت نفسه تُتَبَّحُ له ما يريد أن يُحْمَلَهَا من النحان وإيقاعات ، ولذلك عُنِيَ بهذه الأوزان حتى يَرْضَى المغنين والمغنيات .

وأما الجانب الثاني فهو جانب تَقْصِيرِ الأوزان وتَجْزِئَتِهَا ، وهو أيضاً جانب واضح فيما استشهدنا له من أشعار ، وهو جانب كان موجوداً في القديم ، ولكن عمر أكثر منه إكثاراً ، حتى ليكاد يكون خاصّةً من خصائص ديوانه ، فكثيرٌ من غزله بُنِيَ من مجزوات ، حتى يَهَيِّئَ للمغنين والمغنيات الفرصة

(٢) أغاني ١/١٦٥ .

(١) أغاني ٤/٢٩٦ .

(٢) أغاني ٨/٢٠٨ .

لتطبيق ألحانهم وأنغامهم التي اجتلبوها من فارس والروم ، على ما ذكرنا في غير هذا الموضع وغزل عمر أو قل أغانيه مليئة بهذه المجزوعات ، من مثل قوله (١) :

قُلْ لِمُنْسِدٍ وَتُرْبِيهَا      قَبْلَ شَحَطِ النَّوَى غَدَاً  
إِنْ تَجُودِي فَطَالَمَا      بَتُّ لَيْلٍ مُسَهَدَاً

وهو من مجزوه الخفيف ، وقوله (٢) :

لَقَدْ أَرْسَلْتُ جَارِيَتِي      وَقَلْتُ لَهَا : خُذِي حَتَدَرَاً  
وَقُولِي فِي مُلَاطَفَتِي      لَزِينَبَا : نَوِّلي عُمَرَاً

وهو من مجزوه الوافر ، وقوله (٣) :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ مَهِيضَاً      رَاجِعَ الْحَبِّ الْفَرِيضَاً

وهو من مجزوه الرمل . وتكثر هذه المجزوعات في شعر عمر كثرة مفرطة ، وهي مجزوعات نستطيع أن ننفذ منها إلى الظن بأن تحريفات كثيرة حصلت في الأوزان عنده تحت تأثير الغناء . ولنتصور المغنين في العصر الحديث يحاولون أن يبدؤا نظرية أجنبية لغناء الشعر العربي أو نظرية اشتقوها وتأثروا فيها بألحان أجنبية كثيرة ، فما مَدَى ما يَحْدُثُ من تعديل وتحريف في أوزان الشعر ؟ والجواب واضح ، وهو أنه لا بد أن يحدث من ذلك آثار كبيرة في الشعر وأوزانه .

والصورة العامة في أوزان عمر أنها أوزان سهلة خفيفة ، وأن كثيراً منها جزئي ، حتى يكون خفيفاً على هؤلاء المغنين من الأجانب . ونحن نظن ظناً أن تحريفات كثيرة وقعت ، وإن كانت كلها تستغرقها نظرية الزحافات والعلل التي أتت بها الخليل بن أحمد ، إذ قال إن كل تفعيلة من حقها أن تعمل عِللاً كثيرة ، بتسكين المتحرك فيها ، أو حذف ساكنها ، ونحو ذلك .

ولا نشك في أن هذه النظرية الجديدة للغناء التي استحدثها هؤلاء المغنون حرقت كثيراً في هذا الجانب ، وأودعت الشعر كثيراً من الزحافات والعلل حتى يجهز

(٣) أغاني ١٧٨/١ والفريسي : الفص

(١) أغاني ٥٩/١ ، والشحط : البعد .

(٢) أغاني ٩٣/١ .



المغنون في أماكن من غنائهم ويسمّدوا النغم ، أو حتى يهَمِّسُوا ويُقَصِّروا ، فما لا شك فيه أنهم كانوا يسمّدون أحياناً في بعض الحروف ، ويحدّثون أو يهَمِّسُون في بعض الحروف الأخرى . وكان عمر بن أبي ربيعة يرى ذلك كله ، فصنع شعره تحت تأثيره ، ونفذ بما وجد القدماء يصنعون من تنجزيّة أو زحاف وعلّة إلى كثير في هذا الباب .

على كل حال من الطوابع المهمة لغزل عمر أنه أغان ، وأنه كُتِبَ أو نُظِمَ لكى يُغَنَّى فيه المغنون والمغنيات تحت تأثير النظرية الجديدة التي نقرّوها في الأغاني ، إذ يقولون مثلاً « ثَقِيلٌ أولٌ بالخِصَر » أو « رَمَلٌ بالبِصَر » أو « خَفِيفٌ رَمَلٌ بالوُسْطَى » ونحو ذلك ، مما حاولنا تفسيره فيما أسلفنا .

وليس هذا كل ما يلاحظ في غزل ابن أبي ربيعة من حيث إنه أغان ، فهناك ناحية ثانية أثارَ فيها الغناء أيضاً ، وهي ناحية لُغَتِهِ وأساليبه ، فإن الغاية به إلى الغناء جعلته غزلاً شَعْبِيّاً أو يكاد ، أليس يُقَدِّمُ إلى مسارح مكة والمدينة ، وهي مسارح كان أصحابها أنفسهم من الأجانب ، ونقصدُ المغنيات والمغنين الذين كانوا يقومون عليها . ثم هؤلاء الناس الذين يستمعون في هذه المسارح منهم أجانب كثيرون . من أجل ذلك كله كان من الطبيعي أن تَسَهَّلَ لغة هذه الأغاني وأساليبها ، بسبب ما يريد لها ابن أبي ربيعة من الرّواج بين الجمهور الذي يُقَطِّرُ له عواطفه فيها .

وغزل عمر من هذه الناحية يصور تطوراً هاماً في تاريخ الشعر العربي ، فقد أخذ يظهر فيه ضرب من الشعر الشعبي ، هو هذا الشعر الذي كان يَنْظِمُ فيه ابن أبي ربيعة وأمثاله من شعراء الحجاز والذي كان يُغَنَّى فيه المغنون والمغنيات ، وهو شعر هَجَرَ فيه أصحابه - إلى حد ما - الأساليب القديمة ، كما هَجَرُوا الألفاظ الغربية ، وبَسَّوْهُ بناءً سهلاً ، يتلاءم مع حياة الناس الجديدة التي تحضرت ، حتى يقتربوا منهم ومن لغتهم اليومية ؛ شعر ليس فيه بُعدٌ ولا ما يشبه البُعد ، وإنما فيه القُربُ كلَّ القُرب من حياتهم ومن مُجْتَمَعِهِمْ ، وهو يقترب من هذه الحياة وذلك المجتمع في العواطف التي يُصوِّرها ، كما يقرب منهما في اللغة التي يتحدث بها الناس .

وبخلاصة ذلك كله أن غزل عمر صيغَ من مادةٍ معاصرة ، سواء من حيث النفسية التي تتغلغل فيه ، أو من حيث المرأة التي يُبهرز عواطفها ويحتلّ خواطرها أو من حيث الأوزان التي ينظم فيها ، وأيضاً من حيث اللغة ، فهو من لغة قريبة ، لغة مالوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذي نجدُه عند القلماء أو الذي نجدُه عند شعراء العراق من مثل الفرزدق ، وإنما فيها الخفة والقرب وما يلائم الأذواق المتحضرة الجديدة .

وقد استطاع عمر أن يبيّز في كل هذه الضروب من التجديد كثيراً ممن عاصروه سواء في مكة أو في المدينة ، ولذلك كان اسمه يُدوَّى في أثناء حياته ، وما زال يُدوَّى حتى اليوم ، لتفوقه حقاً في هذا الفن من فنون الشعر العربي .

ولعل ذلك ما جعل النساء يُعجببن به ، فقد كنَّ يَطْلُبُنَّ منه أن يتغنّى باسمهن حتى ربّات القصور الأموية ، كنَّ إذا حَجَجْنَ تَمَنِّينَ أن تلتقطهن عَيْنُ<sup>(١)</sup> عمر فَيَبْظَهْرُنَّ في هذه الآلة المصوّرة ، التي كانت تُذاعُ صورها على لسان المغنين والمغنيات . وأى امرأة لا تريد التغنّى بها وبجمالها ؟ من أجل ذلك كنا لا نَعْجَبُ أن يطلب شريفات بنى أمية من عمر أن يَظْهَرْنَ في شعره وأغانيه . ولم يكتفِ عمر بالحواج من الأمويات ، فقد ذهب يتغنّى بهن من شريفات العرب ، وفي ذلك يقول<sup>(٢)</sup> :

يَقْصِدُ النَّاسُ لِلطَّوْافِ احْتِسَابًا      وَذُنُوبِي مَجْمُوعَةً فِي الطَّوْافِ

فهو لا يذهب للحج والطواف كبقية الناس ، وإنما يذهب لالتقاط الصور الجميلة ، وكان عينه آلة مُصَوِّرة ، فهي لا تصادف جميلة إلا وتلتقطها ، فترسمها ، ويروى له أبو الفرج في ذلك طرفاً كثيرة<sup>(٣)</sup> .

وأظن أنه قد اتضح الآن اتضحاً لا سبيل إلى الشك فيه أن ابن أبي ربيعة جدّد في غزله فنوناً من التجديد، وهي فنون تَمَّتْ تحت تأثيرات حضارية وأخرى

(١) أغاني ١٦٦/١ وانظر أغاني ١٩٠/١ ، (٢) انظر الأغاني ٨٤/١ وكذلك ١٤٧/١  
٣٥٧/٢  
(٣) عيون الأخبار ١٠٧/٤ .  
١٠٦/١ ، ٢١٤/١

نفسية ، وهي كلها تأثيرات جديدة نبتت في هذا العصر ولم يكن من الممكن أن توجد قبله . وقد دفع عمر بكلتا يديه الشعر العربي هذه الدفعة القوية إلى آفاق شعبية جديدة ما زالت تنمو من بعده في صور مختلفة مارة من عصر إلى عصر ، حتى انتهت إلى الموشحات والأزجال المعروفة في الأندلس .

## ٢

## لوحات ذى الرمة

هو غَيَّلَان بن عُقْبَةَ بن مَسْعُود<sup>(١)</sup> ، وقال ابن سَلَام هو غَيَّلَان بن عُقْبَةَ بن نَهَيْس<sup>(٢)</sup> ، من بني عَدَى بن عَبْد مَنَآة . ويختلف الرواة في سبب تَلْقِيهِ بِذِي الرُّمَّةِ ، فيزعم بعضهم أن مَبِيَّةَ التي أَحَبَّهَا وَتَغَنَّى بِهَا في شعره هي التي لَقَّبَتْهُ بِهَذَا اللَّقْبِ ، وذلك أنه مرَّ بِخَبِيَّاتِهَا ، وهي جالسة إلى جنب أُمِّهَا ، فَاسْتَسْقَاهَا مَاءً ، فَقَالَتْ أُمُّهَا قَوْمِي فَاسْقِيهِ ، وَكَانَتْ عَلَى كَتْفِهِ رُمَّةٌ ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ حَبَلٍ ، فَأَتَتْهُ بِالْمَاءِ وَقَالَتْ : اشْرَبْ يَا ذَا الرُّمَّةِ ، فَلَقَّبَ بِذَلِكَ . وَزَعَمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَنَّهُ لُقِّبَ بِذَلِكَ لِقَوْلِهِ فِي بَعْضِ شِعْرِهِ : « أَشْعَثُ بِأَقْي رُمَّةِ التَّقْلِيدِ » . وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ كَانَ يُصِيبُهُ فِي صِغَرِهِ فَرْعٌ ، فَأَتَتْ بِهِ أُمُّهُ الْحُصَيْنِ بْنِ عَبْدَةَ الْعَدَوِيِّ الَّذِي كَانَ يُقْرِئُ الْأَعْرَابَ فِي الْقَبِيلَةِ ، فَكَتَبَ لَهَا مَعَاذَةَ فِي جِلْدِ غَلِيظٍ ، وَعَلَّقَتْهَا أَمَّهُ عَلَى يَسَارِهِ ، وَشَدَّتْهَا بِحَبَلٍ أَسْوَدَ ، وَمَرَّتْ بِهِ يَوْمًا عَلَى الْحُصَيْنِ لَتُسْمِعَهُ بَعْضَ شِعْرِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ أَحْسَنَ ذُو الرُّمَّةِ<sup>(٣)</sup> .

وقد ولد ذو الرُّمَّةِ حَوْلَ سَنَةِ ٧٧ لِلْهِجْرَةِ فِي فَيَافِي الدَّهْنَاءِ بِبَادِيَةِ الْيَمَامَةِ ، إِذْ كَانَتْ قَبِيلَتُهُ تَنْزِلُ هُنَاكَ مَعَ تَمِيمٍ . وَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا شَيْءٌ وَاضِحٌ عَنْ أُسْرَتِهِ إِلَّا مَا يَرُودِي مِنْ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، وَكَانَتْ تُسَمَّى ظَنِّيَّةً ، وَيَقُولُ صَاحِبُ الْأَغَانِي : كَانَ لِذِي الرُّمَّةِ إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ : مَسْعُودٌ وَجِرْفَاسٌ وَهَشَامٌ وَكُلُّهُمْ

ص ٢٢٣ .

(٢) أغاني ١٠٦/١٦ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٠٦/١٦ .

(٢) أغاني ١٠٦/١٦ وانظر الشعر والشعراء .

شعراء<sup>(١)</sup>. ويضع ابن قتيبة بدلاً من جرفاس أوفى<sup>(٢)</sup>، أما صاحب الأغاني فيجعل أوفى ابن عمه .

ومعرفتنا بحياة ذى الرمة ليست أكثر وضوحاً من معرفتنا بحياة أسرته . ونظن من صلاته بالخصين معلّم القبيلة أنه علّمه القرآن والكتابة، ففي أخباره أنه كان يقرأ ويكتب<sup>(٣)</sup>. ولا نجد له أخباراً تتصل بقبيلته إلاّ ما يروى من خصومة نشأت بينه وبين من يسمى عتّيبة بن طرثوث بسبب برّ كانت لقبيلة ذى الرمة ، فاحتكما إلى المهاجر بن عبد الله وإلى اليمامة ، فحكم بها لذي الرمة<sup>(٤)</sup>. وخيبرّ ثان يرويه الرواة وهو أنه نزل مع جماعة من قبيلته على قبيلة امرئ القيس بن عبد منّاة في قرية لها تسمى مرّاة ، فلم يقضوهم ، ولم يكفروهم ، وفي ذلك يقول :

ولمّا دَخَلْنَا جَوْفَ مَرَّاءَ عُلِقَتْ دَسَاكِرُ لَمْ تُرْفَعْ لَخَيْبِرٍ ظِلَالُهَا

فكان ذلك سبباً في اصطدامه بشيطان من شياطين هذه القبيلة هو هشام المرّقي ، فنشب الهجاء بينهما<sup>(٥)</sup>، ولكنه لم يستمر على نحو ما استمر بين جرير والفرزدق، لأن هشاماً كان متخلّفاً في الشعر ، ولم تكن له قدرة ذى الرمة .

ولا نجد بعد ذلك أخباراً لذي الرمة تتصل بقبيلته . وكل من يقرأ ديوانه يلاحظ أنه كان كثير الرحلات إلى العراق وخاصة البصرة والكوفة ، وفي ديوانه ما يشير إلى أنه نزل البصرة عام<sup>(٦)</sup>، وفيه قصائد كثيرة قيلت في عمّار بن هبيرة الفزاري وإلى العراق بين سنتي ١٠٣ و١٠٥ للهجرة وبلال بن أبي بردة الأشعري وإلى البصرة لخالد القسري ، ومالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة خالد ، وأبان بن الوليد وإلى فارس لخالد أيضاً . وفي الديوان ما يشير إلى أن رحلاته امتدت إلى أصبهان<sup>(٧)</sup>، وفيه أيضاً مدائح في خليفة أموي<sup>(٨)</sup> أكبر الظن أنه هشام بن عبد الملك . ومعنى ذلك أن رحلاته امتدت إلى دمشق .

(٥) أغاني ١٦/١١٢ .

(٦) الديوان ص ٦٥٣ .

(٧) الديوان ص ٣١٢ .

(٨) الديوان ص ٤٥٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٤ .

(١) أغاني ١٦/١٠٧ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٢٦ .

(٣) أغاني ١٦/١١٦ وانظر الشعر والشعراء

ص ٣٣٤ .

(٤) الديوان ص ٤٧٣ .

وأغلب الظن أنه نزل في السنين الأخيرة من حياته بالعراق ، وتَرَكَ منازل قبيلته في الدَّهْنَاء ، وإن كان ظلَّ دأَمَ الصَّلَاةَ بها يزورها ، وينزل فيها ، ويرحل إليها في الحين بعد الحين . على أن الحياة لم تَطُلْ به فقد تُوَفِّيَ ، ولما يجاوز الأربعين من عمره . وتضطرب الروايات في مكان موته وسببه ، فروايةٌ تذهب إلى أنه تُوَفِّيَ بالحجر في اليمامة ، وتذهب أخرى إلى أنه تُوَفِّيَ بسبب نفور ناقته منه في الصحراء بالقرب من البصرة وعليها شرابُه وطعامه ، وما زالت تَنْشُرُ منه وريثاتها حتى مات ، وتذهب روايةٌ ثالثة إلى أنه تُوَفِّيَ بالجُدْرَى<sup>(١)</sup> ، وتزعم رواية رابعة أنه لما تُوَفِّيَ قال : لا تَدْفِنُونِي فِي الرَّهَادِ وَالغَمُوضِ ، وطلب أن يدفنه في حَزُونِي ، وهي كُثْبَان مرتفعة بالدَّهْنَاء<sup>(٢)</sup> . وفي ديوانه أشعار يشكو فيها من المرض ، وأنه لا يستطيع الرَّحْلَةَ من مثل قوله<sup>(٣)</sup> :

أَتَشْنِي كَلَابُ الْحَيِّ حَتَّى عَرَفْتَنِي      وَمُدَّتْ نُسُوجُ الْعَسْكَبُوتِ عَلَي رَحْلِي

وقوله<sup>(٤)</sup> :

أَيْنَمَا وَشَكْوَى بِالنَّهَارِ كَثِيرَةٌ      عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ

وربما كان هذا دليلاً على أنه لم يَمُتْ فجأةً بالصحراء . ويقال إنه ظلَّ يَنْشُدُ الشعرَ حَتَّى فارق الحياة<sup>(٥)</sup> .

وقدمر بنا في الحديث عن الحياة الدينية أن في شعره أدعية وابتهالات ، وهي لا شك تدلُّ على نزعة دينية فيه . وهي نزعة تلاحظ في صور مختلفة ، فهو إذا مدح وصف مادحه بالتقوى والإيمان<sup>(٦)</sup> وإذا هجا وصف مهجوه بتترك الشعائر الدينية<sup>(٧)</sup> . وهو دائم الإشارة في أثناء وصف رحلاته بالصحراء إلى تقصير الصلاة والتميم<sup>(٨)</sup> وتلاوة القرآن .

وزراه في أثناء وقوفه مع صاحبيه في الأطلال يدعو لهما أن ينالارضوان ربهما وأن

(١) انظر في ذلك الأغاني ١٦/١٢٢ .  
 (٢) الأغاني ١٦/١٢٢ .  
 (٣) الديوان ص ٤٩١ .  
 (٤) الديوان ص ٦٦٣ .  
 (٥) أغاني ١٦/١٢١ .  
 (٦) الديوان ص ٢٧٣ ، ٦٥٥ .  
 (٧) الديوان ص ٢٠٠ .  
 (٨) الديوان ص ١٥٨ .

يَتَجَزَّيْهُمَا خَيْرَ الْجِزَاءِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، يَوْمَ يُؤْفَى كُلُّ شَخْصٍ مَا كَسَبَتْ يَدَاهُ ،  
وَأَسْمَعُ لَهُ يَدْعُو لِصَاحِبِيهِ (١) :

يَا صَاحِبِي انظُرَا آوَاكُمَا دَرَجٌ عَالٍ وَظِلٌّ مِنْ الْقِرْدِ دَوْسٍ مَمْدُودٌ  
وَيَدْعُو لَهَا مَرَّةً أُخْرَى ، فَيَقُولُ : (٢)

وَلَا زِلْتُمَا فِي حَبْرَةٍ مَا بَقِيْتُمَا وَصَاحِبَتُمَا يَوْمَ الْحِسَابِ مُحَمَّدًا

ولعل من الطريف أننا نجده يذكر ، بجانب الأثافي والنؤى والآرى مما يشاهده  
في الأطلال ، بقايا المسجد الذي كانت تتخذة القبيلة ، كقوله في بعض شعره (٣) :

عَفَّتْ غَيْرَ آرِيٍّ وَأَعْضَادِ مَسْجِدٍ وَسُفْعِ مَسَاحَاتٍ رَوَّاحِلَ مِرْجَلٍ

وهذه النزعة الدينية الواضحة في شعر ذي الرُّمَّة تجعلنا نؤمن بأنه كان حين  
ينزل البصرة أو الكوفة يذهب إلى المسجد الجامع للاستماع إلى الوعظ الديني ، وإلى  
ما كان يدور بين العلماء من أبحاث في القَدَر والإيمان . وقد مر بنا في الحديث عن  
الحياة العقلية أنه كان يأخذ بمذهب القَدَرية ، وأنه كان يُنَاصِلُ عنه الشعراء من  
مثل رُوْبِيَّة .

فدو الرُّمَّة كان يعرف جدال العلماء في العراق حول القَدَر ، كما كان  
يعرف اللجاج في الخصومات العقلية . وقد أكثر من مديح بلال بن أبي بردة  
وإلى البصرة وقاضيهما بيبين الآراء الصحيحة وعمق فكره ، وبُعْدِ مسافة غَوْرٍ  
عقله في الأمور المشتبهة (٤) . وتدل أخباره على أنه كان ذكياً ذكاه ممتازاً ، فقد  
وصفته الكُمَيْبَةُ بدقائق الفطنة وذخائر كثير العقل ، وتعجب أن يكون  
بَدَوِيًّا ، وَيَصِلُ إِلَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ فِي شِعْرِهِ (٥) ، وغاب عنه أنه فارق البادية ،  
وأن عقله نهيل مما كان ينهّل منه الناس في البصرة .

واشتهر ذو الرُّمَّة بحبه لميِّة بنت طُلُبَّة بن قَيْس بن عاصم المِنْقَرِيَّة

النواب ، والأضداد : الجواب ، والسفع :  
الأثافي . ودعاها رواحِلَ لأن المرجل (القدر) يملؤها .

(٤) الديوان ص ٤٤٢ .

(٥) أغاني ١٠٨/١٦ .

(١) الديوان ص ١٣٢ .

(٢) الديوان ص ١٢١ ، والحبرة :

الجبور والسرور .

(٣) الديوان ص ٥٠٢ والآرى : مريظ

التَّحْيِيْمِي ، وتضطرب الروايات في تعرفه عليها وسبب ذلك ، فرواية تزعم أنه كان يسير في الصحراء مع أخيه مسعود وابن عمه أوفى يطلبون إبلًا لهم ضلّت ، فلما أجهدهم العطش عمد ذو الرمة إلى خيباء كبير يطلب ماءً ، فوجد فيه ميةً وأمها ، فسقته ميةً ، وتعلق نظره بها ، وظلّ طول حياته هائمًا بحبها (١) . وتزعم رواية ثانية أنه أراد أن تخيط له ميةً إداواته ، فقالت له إنني خرقاء لأحسن ذلك (٢) . ومن هنا كان ذو الرمة يُسميها مرة ميةً ومرة خرقاء ، فالاسمان جميعاً يتردّدان في شعره . على أن بعض الرواة ظنّ أن خرقاء اسم لامرأة أخرى غير مية . ومن ثمّ زعمت رواية أن خرقاء من بنى عامر (٣) . ويتسع القصص عن خرقاء هذه ، فيقال إنها كانت كحالة (٤) ، ويقال إن ذا الرمة هجر ميةً إليها ، لأنها شتمته بإيعاز من زوجها (٥) . ولا يقف الرواة عند فصم العلاقة بين ذي الرمة وميةً ، فراهم ينسبون إليه شعراً في ذمها ، ويقول بعض الرواة : بل هو لكثيرة ابنة عمها ، إذ كانت تغار منها ، ويقال بل كثيرة هذه كانت مولاة لابنة عمها (٦) .

وهكذا تكثر الروايات عن ميةً وخرقاء ، ويتعلّق بهما خيال القصّاص والرّواة ، فتتسع الرواية ويتسع القصص . غير أن من يتتبع الديوان يؤمن بأن ميةً هي نفسها خرقاء ، فقد تغنى ذو الرمة بميةً في خمس وخمسين قصيدة ، بينما تغنى بخرقاء في ثمان ، ولا فرق بين نفسية الشاعر في هذه ونفسيته في تلك ، فدائمًا اللوعة وحرقة الحب واليأس القاتل من اللقاء . وفي الديوان أخرى تسمى أمّ سالم ذكّرت في خمس قصائد ، وهي نفسها خرقاء أو هي نفسها مية (٧) .

وكل ما تحت أيدينا من أخبار ذي الرمة يدل على أنه أحب ميةً من النظرة الأولى كما يقولون ، واستمرّ هائمًا بحبها طوال حياته ، فهي الشعاع الذي أضاء روحه في شبابه ، وهي النبت الذي انبت منه في نفسه الفن ، أو قل تفجّر منه الشعر ، فنها استمد مشاعره وإحساساته الأولى ، فذهب ينادى باسمها في كل مكان يحلّ فيه ، في البادية وفي اليمامة وفي البصرة والكوفة وأصبهان وفي دمشق والشام ، فهي

- (١) أغاني ١٦/١٠٩ .  
 (٢) أغاني ١٦/١١٠ وما بعدها .  
 (٣) الشعر والشعراء ص ٣٣٥ وما بعدها .  
 (٤) أغاني ١٦/١١٩ .  
 (٥) أغاني ١٦/١١٠ .  
 (٦) أغاني ١٦/١١٤ .  
 (٧) انظر الديوان ص ١٦٤ .

صاحبه التي شغفت قلبه حباً ، وهي التي ألهمته الشعر ، واستمرت مصدر إلهامه ، حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

والإنسان لا يقرأ ما سبق أن روينا من أنه كان يُفزع ، وهو لا يزال في المهذب صبيّاً وأن أمّه أخذته إلى الحُصَيْن بن عبدة العدوي ، ليصنع له تعويذة تنقيه هذا الفزع ، ثم يقرأ ديوانه وحبّه العميق لميّه ، حتى يشفق عليه ، فقد بطل عملُ التعويذة القديمة أمام حبّ ميّه ، وأصبح ذو الرُمة في كل أوقاته مُفزعاً ، تروعه ميّه أطراف النهار ، ويروعه خيالها أثناء الليل . وتصادف أنها تزوجت من ابن عمها عاصم ، فزاد به الفزع ، وعَمِلَ سِجْرُ ميّه أوسع عمل ، فإذا الشاعر يائسٌ منها ومن حياته<sup>(١)</sup> :

بَدَا اليأسُ منيُّ على أن نفسهُ      طويلٌ على آثارِ منيُّ نَحِيْبُهُمَا

فهو يائس منها ، ومع ذلك هو لا ينساها ، بل يذكرها دائماً ، يذكرها بالنحيب والبكاء والدموع ، ولكن أي دموع ؟ إنها الدموع التي تخنق<sup>(٢)</sup> :

لَعَمْرُكَ إِي يَوْمَ جَرَّ عَآءِ مَالِكٍ      لِدَوْعِبْرَةٍ كَلًّا تَفِيضُ وَتَخْنُقُ  
وإنسانٌ عَيْتِي بِحَسِيرِ الْمَاءِ تَارَةً      فَيَبْدُو وَتَارَاتٍ يَجِيْمُ فَيَغْرَقُ

فهو يبكي بكاءً مُراً ، بكاءً تتساقط قطراته في خيوط مستمرة ، وكأنها جبال توشك أن تخنقه خنقاً ، بل وكأنها تدبجه ذبحاً ، أو تكاد ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

أَجَلٌ عِبْرَةٌ كَادَتْ لِعِرْفَانَ مَنَزَلٍ      لِمِيَّةٍ لَوْلَمْ تُسَهِّلِ الْمَاءَ تَدْبَحُ

وفي كل جانب من شعر ذي الرُمة نجد هذا البكاء ، فهو يبكي دائماً ويُدري الدمع ، ويبتثره نُشْرًا ، علّه يشتقي ، أو علّه يُطْنِءُ شيئاً من هذه اللوعة الملتهبة في أحشائه ، وإنه ليقول في مطلع ديوانه :

مَا بِالْ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ      كَأَنَّهُ مِنْ كَلْمِي مَقْرِبَةً يَسْرِبُ

(٢) الديوان ص ٧٧ .

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) الديوان ص ٣٩١ .



والكلى : الرُقْع تكون في أصل عُرْوَة المَزَادَة ، والمَسْفِرِيَّة : المقطوعة ،  
وسَرِب : سائل ، فهو يرى في عينه التي لا يَجِيفُ ماؤها رُقْعًا تشبه تلك الرقع  
في مَزَادَة الماء التي تَسْبَلُ خُرُوزُهَا ، وقد بَلَّيتْ خُرُوزَ عَيْنِهِ ، وتَفَرَّحتْ  
أجفانها ، وتصدعت رُقْعُهُما تصدُّعًا ، لاسبيل إلى إصلاحه ، فهي غارقة في الدموع  
سائلةٌ بها دائمًا . ويشعر كل من يقرأ ديوانَ ذِي الرِّمَّةِ بأنه كان عاشقًا حقًا لِمَيْتَةٍ ،  
فجبه لها قد امتزج بروحه ، واختلط بدمه ، وجرى في عظامه ، وتمشَّى في عروقه ،  
وعبَّرَ عن ذلك عبارات مختلفة ، فمن ذلك قوله (١) :

إذا قلتُ ودَّعْ وصلْ نحرَ قِئَاءٍ وَاجْتَنِبْ زيارَتَهَا تَخْلُقْ حَيْسَالُ الوسائلِ  
أبتَ ذِكْرًا عودُنْ أَحشَاءَ قَلْبِيهِ خُفُوقًا ورَقَصَاتُ البُهْوَى في المفاصلِ

فهو يُحِسُّ بالخفقات في أحشاء قلبه ، كما يحس باهتزازات الحبِّ في  
مفاصله ، فهو حب سَرَى في الروح ، وتعلق بالجسم حتى العظام ، وهو لذلك  
كان إذا بكى أحسَّ كأن كل شيء فيه يبكي ، بل إنه ليحس كأن الطبيعة  
تبكي معه (٢) :

ولمَّا أتاني أنْ مَيًّا تروَّجَتْ خَمْسِيًّا بكي سَهْلُ المَيِّ وحزُونُهَا

ولا ريب في أن ذا الرمة من هذه الناحية يُعبَّرُ عن شاعرية أصيلة في نفسه ، كما  
يعبر عن تأثر عميق بحب مَيَّةَ ، وهو دائم الإعلان لهذا الحب ، وما يتغلغل منه  
في روحه وعظامه وأحشائه ، وإن زفراته لتنساب في صدره فتكاد تحطمه حطْمًا ،  
يقول في بعض شعره (٣) :

تَحْتَادُنِي زَفْرَاتُ مَيِّنْ تَدْكُرُهُمَا تَكَادُ تَنْفُضُ مِنْهُنَّ الحَيَازِيمُ

وإن الإنسان ليخيل إليه في كثير من الأحوال أنه لم تعد فيه بقية ، فقد  
أصبح زفرات خالصة يُلْهَبُهَا هذا الحب الذي لا يرحم ، يقول في بعض غزله (٤) :

وجبُّها لي سوادَ الليلِ مُرْتَعِدًا كأنها النارُ تَحْبُو ثم تلتهبُ

(١) الديوان ص ٤٩٤ .

(٢) الديوان ص ٥٦٩ .

(٣) الديوان ص ٦ .

(٤) الديوان ص ٦٤٨ والمعى : موضع .

فكل شيء فيه يرتعد ، بل يستعير ويكتسب ، وإنه ليفزع دائماً إلى دموعه ، لعلها تطفيء هذه النار الملتهبة في أحشائه ، فلا تزيدها إلا التهاباً ولباحاً ، وتوقداً واشتغالاً .

وعلى هذه الشاكلة استمر ذو الرمة يصف جبه لميئة ومدى استغراقه فيه . ولكن ليس هذا هو اللون الجليد عنده الذي نريد أن نعرض له ، فهناك جانب ثان في ديوانه ، لعله أروع من هذا الجانب الخاص بحبه وعشقه ، وهو جانب وصف الصحراء ، إذ استطاع أن ينفذ في هذا الوصف إلى لوحات رائعة . وهي لوحات دبجت بها براعة شاعر عاشق لا لميئة فحسب ، بل للصحراء نفسها ، وكأنما كان يرى في الصحراء إطار ميئة ، فأحبها كما أحب ميئة ، وازداد شغفه بها حين رأى الصورة أو رأى ميئة تفلت من يده ، ولا يبتقى له إلا هذا الإطار الرائع الذي كان يراه من حولها ، فاعتز به وضمه إلى صدره ، وأحبه حباً ملك عليه ذات نفسه .

وذو الرمة في هذا الجانب فريد في الشعر العربي القديم ، حقاً الشعراء من قبله ومن حوله كانوا يصفون الصحراء وكل ما فيها ، ولكن ذا الرمة انفرد منهم بعشقه لها ، فهو يصفها لا وصف الشاعر الذي يشاهدها ويعجب بها ، ولكن وصف الشاعر الذي يتدمج فيها ويتقنى . وشعره من هذه الناحية يمكن أن يعد من ذوق جليد في اللغة العربية ، فالشعراء من قبله كانوا يصفون الصحراء من الخارج إن صح هذا التعبير ، أما ذو الرمة فيصفها من الداخل ، داخل نفسه وروحها ، إذ كان شديد الحس بها ، بل قل شديد العشق لها ، وقد تحول يصنع لوحات يسجل فيها مشاهدتها ، ويرسم مناظرها بجميع تفاصيلها ، يرسم أيامها ولياليها وصخورها ورمالها وأعشابها وأشجارها وحيوانها ، وكل ما يتجري فيها من رياح ويرق ورعد ومطر ، وكل ما يلمع في سماءها من كواكب ونجوم وغيوم ، وكل ما تكتظ به من سمائم وطير وآبار وسراب .

كل ذلك يرسمه ذو الرمة في ديوانه رسماً يحشد فيه دائماً أكثر ما هناك من جزئيات وذرات في الطبيعة جارية وغير جارية ، ومتحركة وغير متحركة ، ويحس الإنسان في كثير من الأحوال كأن هدفه من قصيدته أن يرسم هذه المناظر

فحسب . وقرأ القصيدة الأولى من ديوانه فستراه يفتتحها بالفرز ، ثم ينتقل إلى وصف الصحراء ، فيودع فيه بقية قصيدته ، وبينما تأخذ مية نحو ثلاثين بيتاً نجد الصحراء تأخذ نحو مائة بيت عمداً فيها إلى تصوير ثلاثة مشاهد رائعة ، وهي مشهد حمار الوحش مع أُنثيه في الصحراء ، ثم مشهد تنور الوحش يجرى فيها ، ثم مشهد الظليم مع نعامته وأولاده . وهذا كله يوضع في القصيدة لا ممدخلاً لغرض من وراءه ، كما كان يصنع شعراء الجاهلية غالباً ، فهو المنخل وهو الغرض جميعاً في القصيدة . ومن هنا كان ذو الرمة يختلف اختلافاً واضحاً عن سبقه وعاصروه ، فالصحراء ومشاهدها عنده غاية ، ويشعر الإنسان كأنما مية هي الوسيلة والصحراء غايتها ، فهو يبدأ قصيدته بمية ، ثم يسترسل في وصف مشاهد الصحراء استرسالاً . ولذلك كنا نزع أن الصحراء في ديوان ذي الرمة أهم من صاحبته ، فنناظرها ومشاهدها تنطفي عليها طغياناً شديداً ، وهو طغيان أرادته ذو الرمة وعمداً إليه عمداً ، حتى يسوي هذه اللوحات الفاتنة لصحرائه ، التي ما يزال يبدي ويعيد في تلويها وممد خطوطها وحشد ظلالها وأضوائها .

وذو الرمة يُعبر في ذلك كله عن مقدره جديدة في التلوين والتخطيط والتظليل ونشر الأضواء ، وهي مقدره استغل صاحبها كل ما وصل إليه الشاعر الجاهلي ، ثم تفقد منه إلى هذه اللوحات الخافقة المليئة بالحركة والحياة . ونحن لا ندخل في ديوانه حتى نحس كأننا ندخل عالماً جديداً ، فهذا كتاب الصحراء قد فتحت صفحاته أو قل فتحت لوائحاته ، وفي كل لائحة نرى مشهداً عجباً من مشاهد الصحراء . وارجع إلى القصيدة الأولى في الديوان فستجد أول مشهد بديع يقابلك فيها مشهد حمار الوحش ، وقد عضته وحوش من غير أسرته ، فهو يجرى في الصحراء ظالماً ، وأمامه أن رمادية اللون ، وهو يصيح عليها في يوم حار صوحت فيه الأعشاب والبقول . وما يزال يجرى في إثرها حتى يصفر قرن الشمس وحتى يقرب من الماء الذي يطلبه منذ أول النهار ، فيسرع في جريه حتى يصل إلى هذا الماء ، ويشد ركضه وركض أنثيه ، ولكن الماء لا يزال بعيداً ، فيسرع أعظم ما تكون السرعة . ويستمر في هذه السرعة وذلك الجري طوال الليل ، حتى تبدأ أنوار الصباح في التفككت خلال الآفاق ، وإذا هو

يصل إلى عَيْنِ أُنْثَى التي تصطبغ فيها الضفادع ، وهو يتقدم أُنْثَى ، يشق لها الطريق إلى أُنْثَى هذه العين وأمكنتها المظلمة التي تنزل منها لتشرب وترتوي . وبينما الأُنْثَى وحمارها تريد أن تَشْفِي غُلَّتْهَا من الماء إذا هي تسمع صوتاً خفيفاً ، فتَقْشَعِرُ أبدانها خوفاً من أن يكون هناك صائد يَشْرَبُصُ لها وراء الأشجار . وإنه هناك يَتَلَقَّعُ بشيابه البالية وَيُضَائِلُ في شخصه وجسمه ، وفي يده قَوْسُهُ ، وفي حِجْرِهِ سهامه :

فَعَرَضَتْ طَلَقًا أَعْنَاقَهَا فَتَرَقًا ثُمَّ اطْبَأَهَا خَرِيرُ الْمَاءِ يَسْتَسْكِبُ<sup>(١)</sup>

فهى تُمِيلُ أعناقها تنظر ، ولكن خريير الماء الذي طلبته منذ صباح اليوم السابق يَسْتَدْعِيهَا ، فتقبل على المياه ، وقد وَجِبَتْ جُنُوبَهَا ، وَخَفَقَتْ قُلُوبَهَا ، حتى إذا مَسَّتْ المياه حناجرها صَوَّبَ الصائد سهامه إليها فطاشت كلها ولم تُصَيِّبَهَا :

رَمَى فَأَخْطَأَ وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ فَأَنْصَعَمْنَ وَالْوَيْلُ هِجِيرَاهُ وَالْحَرْبُ<sup>(٢)</sup>

وعادت - من حيث جاءت - مُسْرِعَةً ، تَقْدَحُ حَصَى الصحرَاءِ قَدْحًا بأقدامها ، حتى ليكاد يلتهب التهاياً ، ويشتل اشتعالاً .

ويخرج ذو الرَّمَّةِ من هذه اللَوْحَةِ البديعة لمشهد الحمار وأُنْثَى في الصحراء وما صورَّ خلال ذلك من الأعشاب التي ذَبَلَتْ وَبَيَسَتْ إلى لوحة جديدة يصور فيها ثَوْرَ الْوَحْشِ ، وإنه ليَعْرَضُهُ علينا بِنَقْطِهِ السَّوْدَاءِ التي تُرْصَعُ سَيْقَانَهُ ، وقد اِكْتَنَى من الحرِّ اللافح في نباتات الصحراء من الخِلْفَةِ وَالرَّبْلِ وَالْأُرْطَى . وما زال في هذا البيت أو الكِنَاسِ حتى أقبل الخريف ، فخرج إلى مكان جديد ، يستدعيه ما أُلْفَهُ فيه من رِيَبٍ وَأَعْشَابٍ ، وإنه ليجري في الصحراء يطلب مأْوَاهُ ، وقد أحاطت به الرمال من كل جانب ، وما يزال يجرى حتى يَدْهَمَهُ اللَّيْلُ وَيَدْهَمَهُ الْمَطَرُ ، فيلجأ إلى أُرْطَاةٍ يُمْضِي فيها ليلته ، وما يزال المطر يسقط من فوقه ، وكأنه جُمَانٌ ينحدر من سِلْكِهِ ، وإنه ليريد أن يدخل أكثر مما دخل

(٢) انصن : تفرق ، وهجراه : دأه وشأنه . والحرب : الغضب .

(١) طلقاً : زيادة الطلق وهو الجرى ، واطبأها : استعماها .

في كِنَاسِهِ ، فتمنعه فروع الأُرطَى وغصونها ، وهو في هذا كله يترقب ويسمع ، فيسمع صوتاً خفياً من حوله ، هو صوت الليل في الصحراء ، وقد اختلط بصوت الريح والمطر ، وإن نفسه لتوسوس له كأن جيناً تريده في هذا الليل المظلم بدُجَاهِ وغيومه . وما يزال في هذا الكِنَاسِ حتى تنفذ من الأفق أضواء الصباح ، فيخرج من بيته برعى ويلهو . وإنه ليبدو هناك وكأنه ليهب . وإنه لفي رعيه ، وإذا كلاب الصيد قد أرسلها صاحبا عليها ، فيعدو عدواً سريعاً ، يزيد أن يُفْلِتَ منها :

حتى إذا دوّمت في الأرض راجعته كِبرٌ ولو شاء نجى نفسه الهربُ

فتصدى لما يصارعها وتصارعه ، وتشتد المعركة ، ويشد طعنه في أعناقها وصلورها وقلوبها ، وما يزال بها حتى يتركها مقسمة بين جريح وقتيل ، ويُفْرِخُ رَوْعَهُ وتنجلي عنه الكُربُ .

وعلى هذا النحو نراه يُصَوِّرُ في لوحة ثور الوحش هذه الملحمة الرائعة بينه وبين الكلاب ، كما صور في لوحة حمار الوحش وأتته الملحمة التي نشبت أوكادت بين الصائد بسهامه والحمار وأُتته وقد ولت هاربة لا تُلدوي على شيء .

ولا يكتفي ذو الرمة في قصيدته الأولى في ديوانه بهاتين اللوحتين اللتين استنفد فيهما وفي تصويرهما ورسميهما جهداً كبيراً ، فقد عمد إلى لوحة ثالثة رسم فيها الظلم وصاحبته وأولادهما ، وقد استهلها بالظلم وهو يرعى الآء والتنوم والعقبة والحيلة إلى غير ذلك من أعشاب الصحراء ، وقد امتدت عنقه الطويلة في النباتات فغمرتها ، ولم يبق منه إلا هذه القبة من الريش التي تشبه خبيثة العربي ، وإن الظلم ليبدو وكأنه يلبس قطيفة سوداء لها خمائل وأهداب . وبينما الظلم يرعى إذا هو يذكر أفراخه الثلاثين التي تركها بالقرب منه وقد أخذ الجو يكفهر وأخذت الريح تحمل الحصى والتراب ، فانبرى يتعدو إلى أفراخه ، وانبرت معه النعامة تسابقه وكأنها دلو بر انقطع جبلها ، فهي تسقط على الأرض سقوطاً سريعاً . وإنهما ليعدون وإن جلودهما لتكاد تنشق عنهما من سرعة الجري وفرط النشاط خوفاً على أفراخهما أن تلعو عليها سباع الليل أو ينزل عليها برد السماء ، فقد تركاها

ولا غطاء لها إلا الرمال التي تفتتريتها . ويستمر في وصف الأفراخ ووصف رموسها وأشداقها ، وأعناقها .

وبذلك ينتهي ذو الرمة من القصيدة الأولى في ديوانه ، وهي كما ترى قصيدة أريد بها أن ترسم بعض مناظر الصحراء ، فلا غاية لها وراء ذلك . ولذی الرمة قصائد فيها مديح وهجاء ، ولكن حتى هذه القصائد يحس قارئها أن المديح والهجاء يأتيان فيها ، وكأنهما وسيلة لا غاية ، فالغاية دائماً الصحراء ومشاهدها واستخراج كل ما يستطيع الشاعر من مفاتها ومواضع الجمال فيها .

ذو الرمة إذن شاعر الصحراء في عصره ، وقد عكف عليها يرسم مشاهدها ومناظرها في إحساس عجيب بالبهجة والمسرّة وشعور عميق باللذة والمتعة ، ولعل هذا أهم ما يفرق بينه وبين شعراء العربية من قبله ومن حوله في وصف الطبيعة إذ يحس الإنسان أنه يدخل فيها لا بعينه وذهنه فحسب ، بل بشعوره ووجدانه . ومن هنا كان يشعر من يقرأ ديوانه أن حيوانات الصحراء أصبحت جزءاً من نفسه ، ولذلك كان يبذل في وصفها ، فهو يصف رحلاتها في الصحراء كما رأينا في المناظر الثلاثة السابقة ، وكأنه يصف رحلاته هو ، أما هي فصادية تطلب الماء ، وأما هو فصائد يطلب مية . وقد تولد للحيوانات فيه أثناء هذا الوصف كثير من العواطف ، ولعله من أجل ذلك كان لا يدع الفرصة لسهام الصائد ولا لكلابه أن تصيدها ، وربما كان لنفسه اللاشاعرة أثر في ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يحصل على حبة ، وكذلك الصائد لا يستطيع أن يصبل إلى صيده .

على كل حال الظاهرة الأولى في رسم ذي الرمة لحيوانات الصحراء أنه لم يرسمها رسماً ظاهرياً يقف فيه عند وصف جسمها وحركاتها بين المراعى حين يشتد الحر ، أو يدخل الليل ، أو يسقط المطر ، بل هو يصفها وصفاً داخلياً . وليرجع في القصيدة الأولى ثانية إلى لوحة ثور الوحش ، فإننا نرى ذا الرمة يصف نفسه وهواجسه وسواسه وما يصاحبه في أثناء ذلك من اضطراب وقلق خوفاً من الإنسان وكلابه التي يرسلها عليه . ويستمر ذو الرمة حتى يصله بهذه الكلاب ، فيفر منها بادئ الأمر ، ثم يعود ، وقد استشعر كرامته ، فأنف أن يهرب من المعركة . وذو الرمة في ذلك يمثل في الثور نفسية البدين الذي يرى الهروب من المعركة شراً

أى عار ، وها هو الثور يعود ، وقد وهب المعركة روحه مخلصاً ، كما يهبها العرب  
لربهم في جهادهم وفتوحهم ابتغاء الأجر والثوبة :

فَكَرَّ يَمَشُوقُ طَمَعِنَا فِي جَوَاشِينِهَا كَأَنَّهُ الْأَجْرُ فِي الْإِقْبَالِ يَحْتَسِبُ<sup>(١)</sup>  
وكما يَنْفُثُ ذُو الرِّمَّةِ فِي الثَّورِ نَفْسِيَةَ الْبِلْدِيِّ الْمُعْتَزِّ بِنَفْسِهِ نَرَاهُ يَنْفُثُ فِيهِ وَفِي  
غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ كُلِّ مَا يَضْطَرِبُ فِي نَفْسِهِ هُوَ مِنْ قَلْتَقٍ وَسَاوِسٍ إِزَاءَ حُبِّ مَيَّةَ ،  
ولعله من أجل ذلك كان يسترسل في وصف هذا القلق .

وكان ذُو الرِّمَّةِ ماهراً حقاً في بَثِّ العواطف والحركات النفسية في الحيوان ،  
وقد صَوَّرَ فِي لَوْحَةِ الظِّلْمِ ونعامته السابقة حُنُوقَ الأبِّ وَالْأُمِّ عَلَى أَبْنَائِهِمَا أَوْ أُرَاقِهِمَا  
تصويراً طريفاً ، فهما يخشيان عليها أن تمتدَّ لَهَا يَدُ سِبَاعِ اللَّيْلِ ، أَوْ يَدُ بَرَدِ  
السَّيَاءِ ، وَهُمَا لِذَلِكَ يعلوان إليها علواً سريعاً . واستمع إليه بصور عاطفه الظَّيْبِيَّةِ  
نحو خَشْفِهَا إِذْ يَقُولُ<sup>(٢)</sup> :

إِذَا اسْتَوَدَّ عَنِّي صَفْصَفًا أَوْ صَرِيْمَةً تَنَحَّحَتْ وَنَصَّصَتْ جَيِّدَهَا بِالْمَنَاطِرِ<sup>(٣)</sup>  
حَدَّارًا عَلَى وَسَنَانٍ يَبْصُرُ عَنْهُ الْكَرَى بِكُلِّ مَقْيِيلٍ عَنِ ضِعَافِ فَوَاتِرِ  
وَتَهْجُرُهُ إِلَّا اخْتِلَاسًا نَهَارَهَا وَكَمْ مِنْ مُحِبِّ رَهْبَةِ الْعَيْنِ هَاجِرِ  
حَدَّارَ الْمَنَابِرِ رَهْبَةً أَنْ يَفْتَنَهَا<sup>(٤)</sup> بِهِ وَهِيَ إِلَّا ذَاكَ أَضْعَفُ نَاصِرِ

فهو يُصَوِّرُ الظَّيْبِيَّةَ وَقَدْ رَمَتْ بِخَشْفِهَا أَوْ ابْنَهَا عَلَى الْأَرْضِ أَوْ الرِّمَّةَ ،  
ووقفت بعيداً كأنها تخشى إن مكثت معه أن تدلَّ عليه السباع ، فهي تبعده عنه  
وتنظر من حولها حداراً على ابنها ، وإنها لتخالس النظر إليه ، وهكذا تأخذها الشفقة  
عليه ، فتبعده وهي المحبة ، وتهجر وهي العاشقة .

وهذا جانب في ديوان ذِي الرِّمَّةِ أَوْ فِي لَوْحَاتِ ذِي الرِّمَّةِ يجعلها تفيض  
بالحياة ، وهو من أهم الجوانب التي تفرق بين لَوْحَاتِ الشَّاعِرِ وَلَوْحَاتِ الرَّسَّامِ ،  
فالرَّسَّامُ يُصَوِّرُ الظَّاهِرَ أَوْ يُصَوِّرُ الْجَسَدَ ، أما الشَّاعِرُ فيصور العواطف والحركات  
الوجدانية ، ولذلك كانت لوحاته ناطقة ، أو هي أكثر نطقاً ، بما تصور من

(١) يمشق : يطمن ، الجواشن : الصدور ،  
يحتسب : يطلب الثواب .  
(٢) الديوان ص ٢٨٦ .  
(٣) الصفصف : الأرض المستوية ،  
والصريمية : الرملة ، ونصت : رفعت ونصبت .  
(٤) يفتنها : يسبقها .

## المشاعر والوجدانات المختلفة .

وهي مشاعر ووجدانات استمدتها ذو الرمة من إحساسه العميق بالحيوان وحياته ، ووجد فيها ما يُعَبِّرُ عن مشاعره هو ووجداناته . ولا نشك في أن المشاعر الإنسانية التي بشَّها الإسلام في نفسه كان لها أثرٌ في هذا الجانب من جوانب لوحاته ، إذ ملأه بالعطفِ على كل ما يجرى من حوله ، واستمع إليه يقول<sup>(١)</sup> :

أرى فيك من خرقاءِ ياطبِبةِ اللبويِّ      مشأيه جنبتِ اعتلاقِ الحبائيلِ

وهذا حننٌ بالغ على الحيوان ، فهو يدعو للظبية أن لا تقع في حياة صائد ، وهو دائماً لا يسكنُ الصائد من حيوان في ديوانه .

وعلى هذا النحو نجد في لوحات ذى الرمة مشاركة وجدانية بينه وبين الحيوان كما نجد بشاً لعواطف بل لحركات عواطف لا تنتهي في ديوانه ، فالحيوان يُصوَّرُ تصويراً نفسياً ، مليئاً بالحنن والعطف من جهة وبالحركات الوجدانية من جهة ثانية ، وهو في ذلك كله كأنه مرآة دقيقة لنفسية ذى الرمة وكل ما يجيش فيها من عواطف ، ويضطرب من خواطر . ومن هنا كان ذو الرمة لا يبدأ في وصف حيوان حتى يُحسَّ الإنسان أنه لا يريد أن ينتهي لأنه يعبر بواسطته عن نفسه وكل ما يتحرك في نفسه من نزعات ورغبات .

وصفُ الحيوانِ إذن في ديوان ذى الرمة حديثٌ نَفْسٌ قبل أن يكون حديثٌ حِسٌّ ، حديثٌ نَفْسِ الحيوان وحديثٌ نَفْسِ ذى الرمة . وفي هذا الحديث يُفِيضُ ذو الرمة في بيان المشاعر والعواطف ، فهو عن النفس الباطنة يصدُرُ ، لا عن العين الظاهرة ، وهو لذلك يمتنعُ من يطيل النظر في لوحاته ، إذ يجد فيها معيناً لا يَنْضَبُ من حركات النفس ومشاعرها .

وطبيعي أن تصحب هذه الحركات النفسية حركاتٌ حسية على نحو ما رأينا في رحلات حمار الوحش ، والثور ، والظلم ، في الصحراء . فالحركة أساسية في لَوَحَاتِ ذى الرمة وهي من أهم الفوارق التي تفرق بينها وبين لوحات الرسامين التي يتجمد المنظر فيها ، ويأخذ وضْعاً خاصاً لا يفارقه ، بسبب ما يتقيد به

(١) الديوان : ص ٤٩٥ .



الرسام من المكان ، أما الشاعر فإن انفساح الزمن عنده يعطيه الفرصة كي يرسم ما يريد في أوضاع مختلفة . وكان ذو الرمة شديد العناية بالأوضاع في صورته على نحو ما نرى في قوله يصف ظبيّة<sup>(١)</sup> :

بِرَأَقَةِ الْجَيْدِ وَاللِّبَاتِ وَأَصِحَّةِ  
كَأَنَّهَا ظَبْيِيَّةٌ أَفْضَىٰ بِهَا لِسَبِّ  
بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عَقْدٍ  
عَلَىٰ جَوَانِبِ الْأَسْبَاطِ وَالْهَدْبِ

فهو يختار للظبية هذا الوضع البديع ، فهي آتية من بعيد ، وقد أفضت بها رَمَلَةٌ ، وهي تخرج من هذه الرملة في وقت الغروب بين النهار والليل ، فزراها هناك في الوادي وهي تَلْمَحُ وسط النباتات والأعشاب .

وعلى هذا النحو كان ذو الرمة يُعْنَى عناية بالغة بالوضع في صورته ، ولم يكن يقف عند وضع واحد بل كان يُعَدُّد الأوضاع ، ومن ثمَّ نَشَرَ حركة واسعة في ديوانه لا في الطبيعة الحبيّة فحسب ، بل أيضاً في الطبيعة الميتمّة أو الطبيعة الصامتة ، إذ كانت لديه مهارة حقّاً في تحريك هذه الطبيعة ، وكأنه كان خبيراً بفنّه خيرة فائقة ، فنحن نراه حين يصف الكُشْبَانَ والجبال والصخور في الصحراء يختار النهار حين يمتد فيه السراب ، فإذا رَعَانُ الجبال وأعاليتها تتحرّك ، وكأنها مجاميع من خيل أو إبل ، واستمع إليه يقول في جبل<sup>(٢)</sup> :

تَرَى رَعْنَهُ الْأَقْصَىٰ كَأَنَّ قُمُوسَهُ  
تَحَامِلُ أَحْوَىٰ يَتَّبِعُ الْخَيْلَ ظَالِحِ

فالصخور العالية في الجبل تلبو له وسط السراب كأنها خييل تجرى ، وقد نَدَّت منها صخرة تجرى ورامها وكأنها فرس ظالع . واستمع إليه يقول أيضاً في رِيعَانِ الْجِبَلِ<sup>(٣)</sup> :

كَأَنَّهُنَّ ذُرَىٰ هَدْيٍ مُّجَسَّوْبَةٍ  
عَنِ الْجِلَالِ إِذَا أَبْيَضَ الْأَبَادِيمُ

الفارقة في السراب ، والأحوى : الفرس الأسود .  
(٣) الديوان ص ٥٧٧ ومجموعه : مكشوفة ،  
والجلال : ما تصان به الإبل من الأكسية ،  
والأباديم : الأرض الصلبة .

(١) الديوان ص ٣ ، واللبات : موضع  
القلادة ، واللب : ضرب من الرمل ، وكذلك  
العتد . والأسباط : نبات ، والهدب : ورق  
الأرطى .  
(٢) الديوان ص ٣٧٠ والقوس : الأجزاء

فهو يتصور أعالي الجبال متحركة في السراب كأنها أسنمة ليل أهديت  
إلى البيت الحرام ، وقد كشفت عنها جلالها ، وهي تجرى في أرض بيضاء  
صلبة .

وعلى هذا النحو يرى ذا الرمة يحرك الطبيعة الصامتة نهاراً بواسطة السراب وما  
يتخيله تحت عينه من مشاهد غريبة . أما في الليل فكان يرى النجوم متحركة من  
حوله ، وقد أخذ يصفها بصور الوحش المختلفة التي يشاهدها في صحرائه ، واستمع  
إليه يقول (١) :

وَرَدَّتْ وَأُرْدَأَفُ النُّجُومِ كَأَنَّهَا      وَرَاءَ السَّمَائِكِينَ الْمَهْمَا وَالْيَعَافِرُ

فهو يتصور النجوم تسير وراء السماكين وكأنها المهما واليعافر ، أو بعبارة  
أخرى كأنها بقر الوحش والظباء ، واستمع إليه يقول (٢) :

وَقَدْ مَالَتِ الْجُوزَاءُ حَتَّى كَأَنَّهَا      صَوَارٌ تَدَلَّتْ مِنْ أَمِيلٍ مُقَابِلِ

فهو يتخيل نجوم الجوزاء صواراً أو قطعاً من قطعان البقر متحركاً في هذا  
الرمال الواسع المسمى أميلاً . وهكذا كان يُشيع الحركة في الطبيعة ليلاً ونهاراً .  
وقد ملأ ديوانه في أثناء ذلك بتشبيهات لا تُحصى حتى قالوا إنه أحسن أهل الإسلام  
تشبيهاً (٣) . وهو لا يقف عند التشبيه ، بل يضيف إليه ضرباً لا تُحصى من  
التشخيص ، واستمع إليه يقول (٤) :

وَلَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ وَالشَّمْسَ حَيَّةً      حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حُشَاشَةَ نَازِعٍ

فهو يتصور الشمس وهي تودع النهار كأنها نازع عند الموت ، يكاد يلفظ  
آخر أنفاسه . وهذا التشخيص ملأ به تصويره للطبيعة الصامتة ، واستخرج صوراً  
نادرة كثيرة ، من مثل قوله (٥) :

وَرِيحُ الْخَزْأَمَى رَشَّهَا الطَّلُّ بَعْدَمَا      دَنَا اللَّيْلُ حَتَّى مَسَّهَا بِالْقَوَادِمِ

(٤) الديوان ص ٣٦٤ .

(٥) الديوان ص ٦١٧ . والقوادم : الریش

في مقدم الجناح .

(١) الديوان ص ٢٤٨ .

(٢) الديوان ص ٤٩٧ .

(٣) ابن سلام ص ١٧ .

ويحس الإنسان كأن مُخَيَّلَةَ ذِي الرِّمَّةِ لا يمكن أن تَنفَدَ صورها  
ورسومها التي تُذَيِّعُها في شعره . وقد كان يلاحظ هذا التشخيصَ ضرباً من  
التجسيم والتركيـز والتخشد في الصورة ، وذا الرمة لا يكاد يسبقه شاعر عربي في  
هذا الباب ، واستمع إليه يقول (١) :

وما قِلْنِ إِلَّا سَاعَةً فِي مُنَوَّرٍ وما يَتْنِ إِلَّا تَلْكَ وَالصَّبْحُ أَدْرَعُ

فالإبل لم تسرح في رحلتها إلا قليلاً ، قالت ساعة أو بعض ساعة ، وبانت  
كللك ساعة أو بعض ساعة ولم تَبِتْ إِلَّا في أعقاب الليل ، حين أخذت أضواء  
الصباح تبليج في الآفاق . والتجسيم هنا إنما هو في كلمة «أَدْرَعُ» ، والأدْرَعُ :  
الحماملُ ظهره أسود وبطنه بيضاء ، فهو يعبر عن هذه القطعة من أواخر الليل  
وأوائل النهار بهذا الحمل الأدرع الذي يكسوه الظلام فوق ظهره ، ويكسوه الضياء  
تحت بطنه . واستمع إليه يقول في فلاة (٢) .

وَدُوٌّ كَكَفِّ الْمُسْتَرِي غير أَنَّهُ بِسَاطٍ لِأَخْفَافِ الْمَرَّاسِيلِ واسعُ

فهي فلاة ضيقة ، وهي لذلك تركز في خياله ، كأنها كفٌ مُشْتَرٍ  
مفتوحة لعقد صقفة ، ثم تعود فتتسع ، فإذا هي بساط تجرى عليه أخفاف  
الإبل .

وهذه الحاسة الرائعة حاسة التركيز والتجسيم عند ذى الرمة استطاع بها أن  
يركز ويجمم كل شيء ، حتى الزمن نفسه ، فهذه عهوده القديمة التي كان يرى فيها  
مبىة والتي مرت به وكأنها لحظة يشبهها بظل الكرم لا يمتد حتى يطوى ،  
يقول (٣) :

وَدَعُ ذِكْرَ عَيْشٍ قَدَمْضَى لَيْسَ رَاجِعًا . وَدُنْيَا كَفِيلِ الْكَرَمِ كُنَّا نَخْوُضُهَا

فهو يتصور حياته في أيامه الماضية كأنها ظل كرم كان يخوضه ، وسرعان  
ما خاضه فهو ليس ظلًا فحسب ، بل هو ظل يستعجله ذو الرمة ، فيخوض فيه

(٢) الديوان ص ٣٣٨ .

(٣) الديوان ص ٣٢٦ .

(١) الديوان ص ٣٤٩ . والمنور : المكان

الذي تنور فيه ، وقلن : من القيلولة .

يقطعه ، وهو لا يدري أنه يقطعه ، وقد رجع إلى هذه الصورة ، فأخرجها أو  
جسمها ثانية ، إذ يقول<sup>(١)</sup> :

لَيْلِي اللَّهْوُ يَطْبِينِي فَأَتَّبِعُهُ كَأَنِّي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَتَعِبُ

فهو يتمثل ليليه الماضية كلها مع مَيِّتة كأنها هذا الوقت القليل الذي يقضيه  
سابق في أول النهار أو آخر النهار ببركة ماء يلهو ويلعب .

ونحن كلما تصفحنا لوحات ذى الرمة أو صفحات ديوانه استمتعنا كثيراً  
من هذه التجسيمات والترميزات التي تدل على موهبة خيالية ممتازة ، واستمع إليه  
يصف مفازة في أثناء سُرَّاه في الليل ، وقد حَسَنَتْهَا السَّهْمُ<sup>(٢)</sup> :

وَتَيْهَاءَ تُوْدِي بَيْنَ أَرْجَائِهَا الصَّبَا عَلَيْهَا مِنَ الظَّلْمَاءِ جُلٌّ وَخَسَنَدَقُ

ويمكن أن نتصور موت الصبا في هذه المفازة إما لشدة حرها أو لشدة اتساعها ،  
وكذلك نستطيع أن نتصور الظلماء تُسَدُّ لُ غطاءً كثيفاً أو جُلًّا على الصحراء  
أو المفازة ، ولكن الغريب هو هذا الخندق الذي يَحْفِرُ به ذو الرمة هذه الظلماء  
في أذهاننا حَقْرًا ، يَحْفِرُها بكل ما فيها من مخاوف أثناء الليل المظلم الكئيب .  
ولن نستطيع صورة أن تعبر عن مخاوف الليل الدَّاجِي في الصحارى بأروع مما تعبر  
صورة هذا الخندق الذي تتحوَّل إليه الصحراء ، فيظن راكبها أنه يسقط سقوطاً  
في مهاوٍ ، لا يستطيع خروجا منها ولا إفلاتا .

وفي كل جانب من ديوان ذى الرمة نجد هذه الروعة التي لا يستطيع وصف مهما  
يكن أن يُلِمَّ بها ، فهو دائمُ الرسم والتصوير ، وهو دائم الاستعانة بهذه الحاسة  
الدقيقة ، حاسة التجسيم والترميز ، واستمع إليه يقول<sup>(٣)</sup> :

قَدْ انْجَلَى اللَّيْلُ عَنَّا فِي مُلْعَعَةٍ مِثْلِ الأَدِيمِ لَهَا مِنْ هَبْوَةِ نَيْمٍ

فهو يرى الأرض تلمع بالسراب كأنه أديم أو ثوب تلبسه ، وهذا الأديم أو  
الثوب الذي تلبسه يمتد فوقه ثوبٌ نَصَفٌ من فَرَوٍ أو نَيْمٍ كما يقول ذو الرمة ،

(١) الديوان ص ٧ . ويطبيني : يدعوني .

(٢) الديوان ص ٥٧٦ .

(٣) الديوان ص ٣٩٩ .

وبعبارة أخرى يعلوه معطّاف فرّو ، وهو معطف من هبّوة أو من غبار غليظ . ولا ريب في أن هذه الصورة بالغة التجسيم والتركيّز ، وهي كأخواتها السابقة تدل على هذه القدرة البديعة في التخيّل والتصوّر .

وهي قدرة كان يمدّها حيناً دقيق بوحداث الصحراء ، لا وحدثها المنظورة فحسب ، بل أيضاً وحدثها المسموعة ، فالصوّر السمعيّة في الصحراء تجسّم هي الأخرى كما تجسّم الصوّر البصريّة . ولعل ذلك ما جعل ذا الرمة يمثّل لنا في ديوانه أصوات من يصفهم من الإنسان والحيوان ، فهذا الصائد مخنّف وراء الأشجار ، وهو يجمع في نفسه ، وقد اعتمد على زُجّي مِرْفَقِيّهِ أو حَدَدَيِّ مِرْفَقِيهِ سهران يتنظر ، وأصوات صدره الخفيفة وأنفاسه تخرج منه في أثناء ذلك على نحو ما يقول (١) :

وقد أسهرت ذا أسنهم بات طاوياً له فوق زُجّي مِرْفَقِيّهِ وَحَاوِحُ  
فهذه الواوح هي أصوات الصائد التي تخرج من صدره مع أنفاسه وهو يتربّح ما يريد صيده . وكما يصرّ ذو الرمة صوت الصائد نراه يصرّ صوت الظبّيّة « ماء » بمد الميم مُمالّة بين الكسر والفتح ، فيقول (٢) :

لا يَنْعَشُ الطَّرْفَ إِلَّا مَا تَخَوَّنَهُ دَاعٍ يناديه بِاسْمِ المَاءِ مَبْغُومُ  
فالخِشْفُ لا يرفع الطَّرْفَ إلا حين تناديه أمه « ماء » هذا الصوت المَبْغُومُ المعروف . وكما صوّر صوت الظباء في شعره صوّر صوت الإبل في أثناء شربها وهو يدعوه « شيب » يقول في ذلك (٣) :

تداعينَ بِاسْمِ الشَّيْبِ فِي مُتَشَلِّمِ جَوَانِيْبِهِ مِنْ بَصْرَةِ وَسَلَامِ

وقد تَسَمَّعَ إلى صوت أخفاف الإبل ذات ليلة ، وهي تسير ، فسمع فيه صوتها وهي تَرَشُّفُ الماء بعد العطش الشديد ، أو كما يقول بعد اليوم السابع ، فصرى يقول (٤) :

(٣) الديوان ص ٦٠٩ والبحرة والسلام :

حجارة .

(٤) الديوان ص ٣٦٨ .

(١) الديوان ص ١٠٩ .

(٢) الديوان ص ٥٧١ ، وينعش : يرفع ،

وتخونه : تمه .

لأخفافها بالليلِ وَقَعَ كَأَنَّهُ عَلَى الْبَيْدِ تَرَشَافُ الظَّمَاءِ السَّوَاعِ .

وهذه كلها أصوات كان يبيِّنُها . وكانت بجانبها أصواتٌ أخرى ، هي إلى الهمسِ أقرب منها إلى أى شيءٍ آخر ، وهى أصوات الفلوات نفسها إذا جَنَّ الليل ، أصوات أصدائها التى تتجاوب فيها ، وما كانوا يتوهمونه من جينٍ وغير جن ، على نحو ما نرى فى قوله (١) :

وَدَوِيَّةٌ مِثْلَ السَّمَاءِ اعْتَسَفَتْهَا وَقَدْ صَبَّحَ اللَّيْلُ الْحَصَى بِسَوَادٍ  
بِهَا مِنْ حَسْبِيسِ الْقَفْرِ صَوْتٌ كَأَنَّهُ غِنَاءٌ أَنْتَاسِيٌّ بِهَا وَتَسَادِيٌّ

فنو الرُّمَّةُ يحس بأصوات الليل من حوله أو قل أصوات الفلوات كأنها غناء ، أو كأن أناساً ينادى بعضهم بعضاً . وإن الأوهام لتكبرُ فى نفسه وتتضخم حتى ليخيل إليه كأن أصوات الجينِ المروعة تهمس إليه ، بل تأخذه من كل جانب ، فيقول (٢) :

وَرَمَلٌ عَزِيفُ الْجِنِّ فِي عَقِيدَاتِهِ هُدُوءٌ أَكْتَضَرَّابِ الْمُغْتَسِبِينَ بِالطَّبِيلِ

وهو طبل يسمع أصواته تأتي من بعيد ، بل إنها لتأتيه من قريب ، أو قل هى تارة تأتيه من قريب ، وتارة تأتيه من بعيد ، وهى لذلك قد تشبه طبلًا مرُوعًا أحيانًا ، وقد تشبه غناء أحيانًا أخرى على نحو ما نرى فى قوله (٣) :

لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِيهَا زَجَلٌ كَمَا تَجَاوَبَ يَوْمَ الرِّيحِ عَيْشُومٌ  
هِنًا وَهِنًا وَمِنْ هِنًا لَهْنٌ بِهَا ذَاتَ الشَّمَائِلِ وَالْأَيْمَانِ هَيْئُومٌ  
دَوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا يَسْمُ تَرَاطُنٌ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ

فهو يسمع للجنِّ فى الفلاة صوتًا كصوت الريح حين تهب عاصفة على نبات العيشُوم ، وهو صوت هَيْئُوم ، أو صوت هَيْئُومَة ، تُسْمَعُ ولا تفهم ،

هدأ الليل وسكن .  
(٣) الديوان ص ٥٧٥ .

(١) الديوان ص ١٣٩ ، والحسب : الصوت .  
(٢) الديوان ص ٤٨٨ . والمقدات :  
ما انمقد من الرمل ، وهلوعاً : حين

وإن الصوت ليتجسم في سمعه قليلا قليلا ، فإذا هو كأنه صوت روم يتراطنون في حافات يسم . ولقد استطاع ذو الرمة أن يجسم لنا هذا الصوت بواسطة ألفاظ الشطر الأول في البيت الثاني ، فالصوت يترامى إليه من كل جانب ، أو كما يقول هو يترامى إليه من ههنا وههنا ومن ههنا . وما أظن كلمات تستطيع أن تمثّل اضطراب ذى الرمة وخوفه وقسوته أثناء سراه في ظلمات الليل كهذه الكلمات المكررة مع اختلاف خفيف في تحريك الهاءات ، فإنها تسبغ من ذلك كل ما يريد من تصوير . وذو الرمة من هذه الناحية كان يعرف معرفة دقيقة كيف يُعبّر بصوت كلماته عما في نفسه . وقد أكثر من تصوير هذا الهمس الذى يشعر به راكب الصحراء ، وجسم لنا في أثناء ذلك ليلته ورحلاته داخل هذه الليالى ، يقول (١) :

أخْوَقَمَرَةٌ مُسْتَوْحِشٌ لَيْسَ غَيْرُهُ ضَعِيفُ النِّدَاءِ أَصْحَلُ الصَّوْتِ لِأَجْبِهِ  
تَلَوَّمَ بِهَيْبَتِهِ بِيَاهِهِ وَقَدَّ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ جَوَّزًا وَسَبَطَرَتْ كَوَاكِبُهُ  
فهو يدعّر نفسه أخصًا للقمر ، يسير فيه ولا أنيس له سوى القمر نفسه ، إن أمكن أن يكون القمر أنيسًا لأحد . وإنه ليصور نفسه وقد أكثر من النداء حوله ضعيف الصوت ، قد بُحَّ من كثرة ما نادى ، فهو أصحَلُ لاغب . وانتقل في البيت الثانى بصور طول ما مر به من ليل وإسراء ، فهو يتابع هذه الحركة حركة التثاؤب التى صورها فى كلمة « ياه » وكررها هذا التكرار الواضح فى البيت ليدل على ما أصابه من إعياء ، فقد مضى من الليل جَوَّزًا أو شطر كبير ، وأسرعت كواكبه تريد الزوال ، وكأنما انتهى إلى أعجاز الليل وأوقات سحره .

ولعل فى هذا كله ما يدل على هذه المقدرة البديعة عند ذى الرمة فى نقل الصور المسموعة وتصويرها فى لَوَحَاتِهِ ، وهى لوحات شاعر فنان كان يعرف كيف يرسم ، وكيف يحول الشعر إلى صور ، وهى صور كما رأينا تفرق عن صور الرسامين من نواح كثيرة ، إذ نراها تعتمد على حديث النفس كما قدمنا أو على بثّ الشعور والعواطف والحركات الوجدانية فى الحيوانات المصورة . ولا يستطيع الرسام أن ينقل فى لوحاته حركات وجدانية متعاقبة لالحيوان ولا لإنسان ، إنما كل

ما يستطيعه أن ينقل حركة واحدة ، أما ذو الرمة وغيره من الشعراء فإنهم يستطيعون أن ينقلوا حركات متعاقبة .

وليس هذا كل ما يفتقر لوحاتُ ذى الرمة من لوحات الرسامين ، ففيها تشخيص واسع ، إذ نراه يرسمُ الصخور كأنها خيل وإبل متحركة ، أو يرسمُ النجوم كأنها ظباء وبقر ، أو يرسمُ النهار وقت الغروب كأنه شخص تتعثر في حركته حشرات الموت . وفيها أيضاً هذا التجسيم والتركيـز الذى يـصور الزمن الماضى كأنه ظلٌ كـرّم ، والذى يجعل الليل المظلم الداجى كأنه خندق ، كما يجعل السراب يُجـلِّلهُ الغبار كأنه ثوب تـكـبسهُ الصحراء ، وتلبس من فوقه معطف صوف رمادى اللون .

وليس هذا كل ما يفرق لوحات ذى الرمة من لوحات الرسامين ، ففيها أيضاً هذه الصور السمعية التى ينقلها ذو الرمة عن حيوان الصحراء ، بل عن همهمات الفلوات . وفيها هذه الصور التى يسمعها لنفسه فى أثناء الليل ، وقد أخذته المواجس من كل جانب ، وهو طائر فوق ناقته كأنه من عتاق الصقور ، لا ينام إلا حسو الطير .

ولكن أنظرن أننا استطعنا حتى الآن أن نصف فنّ هذا الشاعر وخصائصه فى تصوير لوحاته وصنفاً دقيقاً ؟ لقد بقيت أهمُّ صفة تراءى لمن يقرأ ديوانه ، وهى صفة الربط بين الصور المتباعدة ، فن أهم ما يميز ذا الرمة أنه كان صاحب مخيـلة رابطة ، وهى مخيلة من طراز لا نألفه عند شعراء العرب إلا فى المثال بعد المثال ، أما عند ذى الرمة فقد صدر عنها كثيرٌ من صورهِ الطريقة التى يرسمها فى لوحاته . وهذه الصفة عنده تدلنا دلالة قاطعة على أنه كان يُحسُّ الكون كله إحساساً لا مكان له ولا زمان ، فكل وحدة فيه يمكن أن تنتسب إلى غيرها انتساباً دائماً لا تنقطع جزئياته ، ولا تنفصل ذرّاته . ومن هنا يأتى الربطُ عنده بين الأشياء المتباعدة أو التى لا تكاد تقع إلا فى الوهم . ونحن نؤمن بأن ذلك كان نتيجة نظرة عميقة فى الكون ، وهى نظرة هيّأها الإسلام وهيّأتها الأبحاث العقلية الجديدة ، فإذا ذوّر الرمة يشعر فى أعماق نفسه بالصلة التامة ، بل بالربط التام بين وحدات الطبيعة فى سمائها وأرضها ، وبرّها وبحرها ، وصخورها وسفنها ، وظلماتها ونجومها وصدها .



وهذا الإحساس العميقُ بالكونِ هو الذي تقاربت فيه صورُ الأشياءِ ، بل كادت تتحدُّ ، كما تقاربت فيه المسافات بل كادت تتنمَّحِي ، وهو إحساس نمته الحياة الجديدة والحضارة الجديدة ، ولذلك كنا نزعِم أن لوحات ذى الرمة لوحات جديدة في الشعر الربي ، أوجدها العصر الأموي ، ولم يكن يمكن أن توجد قبله . يمكن أن توجد بعض أمثلة لها أو بعض بذورها ، ولكن لا يمكن أن توجد هذا الوجود الذي نراه عند ذى الرمة من إحساس الكون إحساساً دقيقاً بكل جزئياته ووحدياته . ومن هنا كانت لوحاته يتلاشى فيها الزمن ، كما تتلاشى المسافة ، لهذا العمق في الإحساس وهذه الدقة في الشعور بالكون ، وأعل ذلك ما جعل الكُمَيْت ، كما مرّ بنا ، يصفه بدقائق الفطنة وذخائر كثر العقل ، وهي دقائق وذخائر لم يحصل عليها العرب إلا في هذا العصر وعند ذى الرمة الذي تحوّل بصور طبيعة الصحراء في لوحاته ، فإذا صورة الكون كله تشعُّ في نفسه من صورة هذه الصحراء ، وإذا هذا الشعور العميق الذي يدمج بين صور الطبيعة كلها صحراء وغير صحراء ، واستمع إليه يقول<sup>(١)</sup> :

كَأَنَّنا وَالقَيْنانَ القودَ تَحْمِلُنَا  
مَوْجُ القُرَاتِ إِذا التَّجَّ الدَّيَّامِمْ

فهو يتصور نفسه ، والسرابُ يحيط بالقَيْنانِ أو القمم الشامخة من حوله ، كأنه يتسبَّح في الصحراء ، فهذه الدياميم أو هذه الفلوات هي نفسها القُرَات ، وهذا السراب أواجه . وقد يمكن أن يقع هذا التشبيه في الذهن ، ولكن استمع إلى قوله<sup>(٢)</sup> :

كَانَ مَطَايانا بِكُلِّ مَفَازَةٍ  
قَرَّاقِيرُ في صحراءِ دِجْلَةٍ تَسْبِحُ

والقراقير : السفن ، وتشبيه المطايا بالسفن قديم ، ولكن الجديد هنا إضافة الصحراء إلى دجلة . فالأمواج تضاف إلى الفلاة ، والصحراء تضاف إلى دجلة لتعبير عن متسع الماء هناك . وأنت مهما حاولت أن تفهم هذه الصورة فلن تستطيع فهمها إلا إذا ارتددت إلى فكرة الإحساس بالكون كله إحساساً يحدث الصلّة الواضحة بين صورته . واستمع إليه يقول في وصف ظباء ، تلعب في فلاة<sup>(٣)</sup> :

(٢) الديوان ص ٥٨٩ .

(١) الديوان ص ٥٧٦ .

(٢) الديوان ص ٩٢ .

كَانَ بِلَادَهُنَّ سَمَاءً لَيْلِيًّا تَكْشَفُ عَنْ كَوَاكِبِهَا الْغُيُومُ

فالفلاة تشبه السماء لا من حيث الظباء والنجوم فحسب ، بل أيضاً من حيث الغيوم ، ففي الأرض آفاق تخرج منها هذه الظباء كما تخرج النجوم من غيوم السماء ، واستمع إليه يقول (١) :

كَانَ أَدْمَانُهَا وَالشَّمْسُ جَانِحَةٌ وَدَعَّ بِأَرْجَائِهَا فَضًّا وَمَنْظُومٌ

فالفلاة لا تشبه السماء في غيومها ونجومها فحسب ، بل هي تشبه أيضاً البحر بيوداعه وأصدافه متجمعة ومثورة . فلا فارق في لوائح ذي الرمة بين برٍّ وبحرٍ وأرضٍ وسماء . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قوله السابق في وصف الثور حين عاد إلى الكلاب بصارعها ، إذ يقول :

حَتَّى إِذَا دَوَّمَتْ فِي الْأَرْضِ رَاجِعَتَهُ كَبِيرٌ وَلَوْ شَاءَ نَجَى نَفْسَهُ الْهَرَبُ

فقد عبر بالتدويم عن دوران الكلاب في الصحراء ، والتدويم إنما يكون للطيور في السماء . ولامه بعض اللغويين أن وضع التدويم في غير مكانه ، وهم الملمومون ، لأنهم لم يفهموا ذا الرمة ، ولم يعرفوا أنه كان يصدر عن إحساس عميق بالكون لا بد أن يصيب اللغة فيه بعض الاختلال ، لأنها تعودت الفصل بين وحدات هذا الكون وجزئياته . ومن صور هذا الإحساس الدقيق أن نراه يتمصور نباتاً التفت أصوله ، وكثرت فروعه ، وتراكت أعشابه ، فبدأ فيه سواد الخضرة . كأنه الليل ، يقول في حمارٍ وحشٍ يرعى في قطعة من النبات (٢) :

وَقَدْ كَسَا كُلُّ مَرْتَادٍ لَهُ خَضِيلٌ

مُسْتَحْلِسٌ مِثْلَ عَرَضِ اللَّيْلِ بِحَمُومٍ

فكل مكان يرتاده الحمار في هذه القطعة قد كساه نبات رطب ناعم كثيف كأنه عرض الليل في سواده وظلمته . وإذا كان هذا الإحساس هو الذي هدَى ذا الرمة إلى هذه المشابهة فرأى سواد الليل في النهار ، فإن هذا الإحساس نفسه قد

(١) الرطب ، ومستحلس : متراكم ، والحموم : الأسود .

(١) الديوان ص ٥٧٧ . والأدمان : الظباء ،

وفض : متفرق .

(٢) الديوان ص ٥٨٢ ، والخضيل : النبات

جعله يرى ظلال النهار في فحمة الليل ، إذ يقول (١) :  
 قد أغسِفُ النَّازِحَ المَجْهُولَ مَعْسِفُهُ في ظِلِّ أَغْضَفِ يَدِ عَوْهَامَةِ البُومِ  
 والأغضف : الليل ، وهو يقول إنه يسير على غير هُدًى في مفازة لا تحمل  
 عاكماً يَهْدِي فيها ، وهو يسير هذا السير في أثناء ليل أو قل في ظلمات ليل مخيف  
 يدعو فيه البومُ بعضه بعضاً . وواضح أنه وضع كلمة ظل بدل كلمة ظلمة ، فهو  
 يرى في ظلمات الليل ظلال النهار ، كما يرى في ظلال النهار ظلمات الليل .

وهذا كله مصدره الإحساس الشامل بالكون ، وهو إحساس جاء من تأمل  
 عميق ، يمثل كل ما حصل عليه الذهن العربي في العصر الأموي من فكر دقيق .  
 ونحن لا نقرؤه حتى نحسَّ بجماله وأن شاعراً قديماً لم يستطع أن يجرى مع ذى الرمة في  
 هذا الميدان ، لأن ذين ذى الرمة كان ذهنًا صافياً من هذه الأذهان القليلة التي  
 تُعكِّسُ فيها مناظر الطبيعة ، وكأنها رؤى حاملة ، أقول إن ذلك كله كان حلماً  
 كبيراً لذى الرمة ؟ ولكن كلمة الحلم في الواقع لا تصوِّره ، فقد أسرف الناس في  
 استعمالها ، حتى أصبحت لا تدل على شيء واضح ، إلا إذا خصصناها هنا وعند  
 ذى الرمة بهذا الربط بين الصور المتباعدة التي لا تقع المشابهة بينها في الذهن العادي  
 إلا أن يحلِّم ، فإذا الشيء تحققت المشابهة بينه وبين أبعد الأشياء عنه ، وكان  
 هناك خيوطاً واصله في مُحَيِّكَةِ الشاعر تنغيب عن الأشخاص العاديين . ومن  
 هنا كنا نحسُّ حين نقرأ ذا الرمة بعنصر المفاجئة في صورته ، وهو عنصر يغتمُّ  
 الصور بنور زائع يُجسِّمها في أذهاننا تجسيمياً ، أو قل يتحفيرها حفرًا .

ومن غير شك كان يستوحى ذو الرمة الشعر القديم وصوره ، ولكنه  
 عرف كيف ينفذ من خلال ذلك إلى طريقة جديدة في وصف صحرائه ، استطاع  
 أن يصنع من خلالها هذه اللوحات الفاتنة التي تدل دلالة واضحة على أن الشعر  
 العربي تطور في هذا العصر تطوراً لم يقف عند السطح والظاهر فحسب ، بل تناول  
 الداخل ، تناول النفس وأحاسيسها ، فانطبعت فيه روح تأمل واسعة في الطبيعة ،  
 وهي روح كانت تتأثر بالإسلام كما كانت تتأثر بالعقل الجديد . ولم يلبث  
 ذو الرمة أن نفذ من خلالها إلى هذه الروعة في التخيل ، وذلك الإحساس العميق

بالكون ، فانفتح باب في التصوير الشعري كان مغلقاً ، ياب كله حُلْمٌ ورؤى بهيجة .

## ٣

## هاشميات الكميث

هو الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ من بني أسد ، واشتهر معه في هذا العصر بذلك الاسم شاعران آخران من نفس قبيلته ، وهما الكُمَيْتُ بنُ ثَعْلَبَةَ أحد الشعراء المحضرين ، وحفيد له يسمى الكُمَيْتُ بن معروف . وولد الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ في الكوفة سنة ٦٠ للهجرة وعاش حتى سنة ١٢٦هـ . فهو شاعر حضري لم ينشأ في البادية ثم انتقل إلى الكوفة أو البصرة كبعض شعراء عصره من مثل الفرزدق وجرير وذو الرمة ، بل نشأ في الحاضرة وعاش فيها حياته .

وطبعي أن يتصل بكل ما كان في الكوفة من ضروب معرفة وثقافة ، وكل من كتبوا عنه يُشيدون بمعرفته بأنساب العرب وأيامها (١) ، ويقولون إنه كان فقيه الشيعة (٢) هناك ، وينقل صاحب الأغاني عنه مجموعة من الأحاديث (٣) . فهو فقيه محدث عالم بالأنساب والأيام .

وليس هذا كل ما يلاحظ على معرفته وثقافته ، فقد تقدم في حديثنا عن الحياة العقلية أنه كان شيعياً زيدياً على مذهب زيد بن علي ، وكان زيد بن علي يتلمذ لواصل بن عطاء ، ومن هنا كان الزيدية جميعاً معتزلة ، ومن هنا أيضاً كان الكميث نفسه من المعتزلة .

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة اتصلت ببيئات المتكلمين وتلقنت منها طرقهم في الجدال والحوار والاستدلال على ما يتحلونه من أفكار وآراء . وبظهر أن الكُمَيْتَ رأى أن لا يكفي بأن يكون مطلقاً أو متلقياً ، فذهب يُلقنُ ويُلقي

(٣) أغاني ١٥/١٢١ .

(١) أغاني (طبع الساسي) ١٥/١٠٩ .

(٢) خزائن الأدب البغدادي ١/٦٩ .

على التلاميذ تعاليمه ، فقد روى الرواة أنه كان مُعَلِّمًا ، يعلمُ التلاميذ في مسجد الكوفة (١) وأكبر الظن أنه كان يُعَلِّمهم اللغة وأنساب العرب وأيامها ، ومن يدري ربما كان يُلَقِّنُهُمْ في أثناء ذلك حَدِيثًا وَفِيهَا شِيعِيًّا وَاعْتِزَّ الْأَ .  
ويظهر من مجموع أخباره أن حياته لم تكن هادئة ، فقد كان على مذهب زَيْدِ ابنِ علي ، وكان زَيْدٌ يدعو للثورة ، ويخاصم لذلك خالداً القَسْرِيَّ وإلى العراق هشام بن عبد الملك ، وجرت هذه المخاصمة كثيراً من شيعة الكوفة معها وعلى رأسهم الكُهمَيْت . وهنا نجد الكميث يحاول أن يؤلب الناس على خالد ، وقد اتخذ لذلك نقطة ضعف فيه ، فقد كان خالد يَمَنِّيًّا يَتَعَصَّبُ لِلْيَمَنِينِ تَعَصُّبًا شديدًا ، فوقف الكُهمَيْتُ أمامه يَتَعَصَّبُ لِمُضَرٍّ ، وكأنه يريد أن يُحَدِّثَ بشعره فوضى في العراق بين اليَمَنِينِ وَالْمُضَرِّيَّةِ ، فينفذ من خلال ذلك إمامه زَيْدًا إلى ما يريد من ثورة أو انتفاض على الدولة .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم التناقض عند الكميث بين شيعته ومُضَرِّيَّتِهِ ، فالعقول أن يتخلَّى الشيعي عن عصبية القبليَّة إلى عصبية جديدة ، هي عصبية النُحُلَةِ والعقيدة . ولكن المسألة كما لاحظنا لم تكن مسألة عصبية قبليَّة حقًا ، إنما كانت مسألة سياسية ، أريدَ بها خدمة زَيْدٍ وأصحابه ، وتدخل في هذه الغاية قصيدته المشهورة : ( الْأَحْيِيَّتِ عَنَّأ يَامَدِينَا ) وهي المعر بالمذهبة ، وهي من أهم القصائد وأقدمها في العصبيات ، فقد هجا فيها اليَمَنِينَ هجاء مُخْزِيًّا ، ويقال إنه لم يترك حيًّا من أحيائها إلا ولطَّخه بمثالبه ومساوئه . وبلغت هذه القصيدة أكثر من ثلاثمائة بيت ، ويظهر أنها كانت سببًا في حبس خالد القَسْرِيَّ له . وتذهب بعض الروايات إلى أن الذي أمر بحبسه هشامُ بن عبد الملك حين سمع شيئًا من شعره في بني هاشم وأن هذه القصيدة قيلت بعد الحبس . وفي الوقت نفسه نجد روايات أخرى تتصل بشاعر يَمَنِيٍّ يسمى حكيم ابن عِيَّاش الكَلْبِيَّ كان يتعصب لليَمَنِينِ ضد مُضَرٍّ ، وتزعم بعض الروايات أنه لما كثر هجاؤه للمُضَرِّيَّةِ وتَلَبَّه لها بأقبحِ المثالب انتصر بنو أسد بشاعره الكُهمَيْتِ واضطروه أن يدخل معه في المعركة . وهناك رواية تزعم أن

حكيمًا كان يهجو عليَّ بنَ أبي طالب وبنِي هاشم إذ كان منقطعًا لبني أمية ، وكان يعرف أن ذلك يرضيهم ، فانبرى له الكميّ الشيعي (١) .

وهكذا تضطرب الروايات في خصومة الكميّ اليمينية ، وخاصة حين رأوا شاعراً يمينياً يدخل معه في هذه الخصومة . ولكن المسألة في رأينا واضحة ، وهي كلها يشعّرها ترجع إلى خالد القسري نفسه وتخصّبه ضد الشيعة . ومن الممكن أن يكون حكيم بن عبيّاش تهاجى مع الكميّ في أثناء ذلك إما بسبب اليمينية وحدها ، أو بسبب تعصبه لبني أمية ضد عليّ وشيعته ، أو بسببهما جميعاً .

على أن هذا كله محدود بالمدة التي ولى فيها خالد القسريّ على العراق من سنة ١٠٥ حتى سنة ١٢٠ هـ . ويمكن أن نجعل هذه المدة نفسها تاريخ هاشميات الكميّ ، فأغلبها نُظِمَ فيها ، أما قبل ذلك فإننا نجد الكميّ يفد على يزيد (٢) ابن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) ويحمده قبل هذا التاريخ يوالى أسرة يمنية مشهورة هي أسرة المهلب ، إذ كان يمدح مخلد (٣) بن يزيد بن المهلب ، الذي ولاه أبوه على خراسان (٤) في أثناء خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٨٩٩ هـ) وقد توفّي سنة مائة للهجرة .

ومعنى ذلك أن الكميّ قبل خلافة هشام بن عبد الملك وولاية خالد القسري على العراق كان يتقد على بني أمية من جهة ، وكان راضياً على اليمن واليمينية من جهة ثانية . ونحن نظن لذلك أن تشيّعَه لم يتمّ ولم يكتمل قبل ولاية خالد القسري سنة خمس ومائة للهجرة ، إذ بدأ ينظم هاشمياته ويحدث هذا الشغّب ضد اليمينية وخالد معاً .

وهناك رواية تزعم أنه أنشد على بن الحسين الملقّب بزین العابدين إحدى هاشمياته (٥) ، وقد توفّي على بن الحسين سنة ٩٤ للهجرة (٦) . وفي رأينا أن هذه الرواية غير صحيحة لأن زيد بن علي الذي تشيع له الكميّ لم يكن قد دعا لنفسه

(١) أغاني ١١٢/١٥ وما بعدها .

. ١٣٥٠/٢

(٥) خزنة الأدب ١/٦٩ .

(٢) أغاني ١١٧/١٥ .

(٦) ابن سعد ٥/١٦٤ .

(٣) أغاني ١٠٨/١٥ ، والبيان والتبيين ٢/٢٣٩ .

(٤) طبري ٢/١٣١١ ، وكذلك ٢/١٣٢٤ .

في أثناء حياة أبيه . وأخبار الكُمَيْت من هذه الناحية تضطرب كثيراً ، لأن القدماء لم يحاولوا أن يبينوها في دقة .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور الموقف في وضوح ، فالكُمَيْت كان شاعراً شيعياً متعصباً لبني هاشم في مدة ولاية خالد القسري ، فجره ذلك إلى عصبية ضد خالد وقبيلته اليمينية . وإذن فالأساس عنده كان التشيع ، أما العصبية للمضرية ضد اليمينية فكانت شيئاً في الظاهر . وهذا نفسه نستطيع أن نتبينه في خصومته مع حكيم بن عيَّاش الكلبي فإنه كان يهجو على بن أبي طالب وبيته من بني هاشم ، فأراد أن يبعده عنه وعن أسرته من الهاشمين ، واحتال على ذلك بإثارة اليمينية والمضرية ، وبالغ في هذا الإبعاد حتى كان يفخر عليه أحياناً ببني أمية ، وتعجب ابنه المُسْتَهْل من ذلك ، فسأله فيه ، فقال له : « يا بُنَيَّ أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بني أمية وهم أعداء على عليه السلام ، فلو ذكرت علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرَّضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية ، وقلت إن نَقَضَها على قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غمّاً وغلبتُه ، فكان كما قال ، أمسك الكلبي عن جوابه فغلب عليه » (١) .

فاليمينية التي أثارها الكُمَيْت مع عيَّاش كان يرادُ بها صرْفُه عن علي وبيته ، وكان يراد بها في الوقت ذاته إيذاء خالد القسري الذي كان يخاصمه كما قدمنا من أجل إمامه زيد . وأظن أن هذا هو الوضع الصحيح للمسائل ، ولهذا كنا ننفي عن الكُمَيْت ما يروى من أن بني أسد حين لجأوا إليه ليهجو حكيم بن عيَّاش وقومه قال لهم : لا أستطيع هجاءه ، لأن خالداً القسري محسنٌ إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه (٢) ، إذ الحوادث تؤكد أنه لم يكن بينهما ودٌ ولا إحسان ، بل كان بينهما خصومة ومغاضبة وحقد وانتظار للحوادث . ومن الأدلة القاطعة على ذلك أننا نجد الكُمَيْت حين يرى خالداً يولتي على خراسان أخاه أسداً سنة ١١٧ للهجرة يرسل إلى أهل مَرَوْ بهذا الشعر (٣) :

(٢) طبري ١٥٧٤/٢ .

(١) أفان ١٢٣/١٥ .

(٢) أفان ١١٢/١٥ .

أَلَا أَبْلُغُ جَمَاعَةَ أَهْلِ مَرْوٍ      عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَأْيٍ وَبُعْدٍ  
رِسَالَةَ نَاصِحٍ يَهْدِي سَلَامًا      وَيَأْمُرُ فِي الَّذِي رَكِبُوا بِجِدِّ  
فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَرْضَوْا بِخَسْفٍ      وَلَا يَنْغُرُّكُمْ أَسَدٌ بِهَهْدٍ  
وَالَا فَارِقُوا الرَّايَاتِ سُودًا      عَلَى أَهْلِ الضَّلَالَةِ وَالْتَعَدَى

وهذه دعوة صريحة إلى الثورة على أسد وأخيه خالد ، وكان الكميّيت كان يريد أن تثور خراسان على الدولة ، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك ، فإن الخراسانيين هم الذين انتفضوا على بني أمية . ولعل في هذا الشعر أيضاً ما يدل على أن خراسان كانت تُعدّ منذ هذا التاريخ وكرماً مهماً للشيعة .

على كل حال تدل هذه الأبيات أو قل هذا المنشور الذي أرسل به الكميّيت إلى أهل خراسان أن العلاقات كانت بينه وبين خالد سيئة ، وأنه كان يتدأ من الأيادي السوداء التي تلعب في الخفاء ضد بني أمية في العراق وخراسان جميعاً . وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم الظروف التي نشأت فيها خصومة الكميّيت مع خالد القسري واليمنية ، فهي خصومة تستمد من نخلة الشيعة ، وكان الكميّيت يريد أن يؤججها حرباً على خالد ، وهو يتخذ من إثارة العصبية المضمرية ضد العصبية اليمينية نقاباً يريد أن يشعل به هذه الحرب ، التي يتلطف عليها هو وإمامه . هي إذن حرب عصبية في الظاهر وهي في الباطن حرب سياسية يرادُ بها إلى نُصْرَةِ الشِيعَةِ وَنُصْرَةِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ خَاصَةً . ومعنى ذلك أن قصيدته المذهبة التي خص بها اليمنية قصيدة شيعة كتبت لغرض الدعوة الشيعة وخدمة زيد بن علي عن طريق تشييت الجماعة الإسلامية وبث الفرقة فيها . وقد كان زيد بن علي يطمح إلى الخلافة كما طمح إليها جده الحسين ، فكان يبث دُعَاةً فِي الْكُوفَةِ ، وَكَانَ الْكُمَيْتُ مِنْ أَكْبَرِ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ ، فَهُوَ الشَّاعِرُ الَّذِي تَكْفَّلَ بِالدُّعْوَةِ لِزَيْدِ شِعْرًا ، وَلَمَّا اصْطَلَمَ زَيْدٌ بِخَالِدِ الْقَسْرِيِّ تَحَوَّلَ يَهْجُوهُ وَيَهْجُو قَوْمَهُ مِنَ الْيَمِينَةِ وَشَاعِرُهُ حَكِيمُ بْنُ عِيَاشِ الْكَلْبِيِّ .

وفي أثناء ذلك كان الكميّيت يؤلف قصائده المعروفة بالهاشميات ، وهي قصائد لا تبتدئُ بِبِكَاءِ الْأَطْلَالِ وَالِدِيَارِ عَلَى عَادَةِ الْقَصَائِدِ الْقَدِيمَةِ ، إِنَّمَا تَبْتَدِئُ بِحُبِّ أَهْلِ



البيت الهاشمي والنسب بهم ، على نحو ما يقول في إحدى هاشمياته (١) :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ      وَلَا لَعِبًا مِنِّي أَدُو الشَّيْبِ يَلْتَعَبُ  
ولكن إلى أهل الفضائل والنهَى      وخَيْرِ بَنِي حَوَاءَ وَالْخَيْرِ يُطَلَّبُ

وقد يصف رحلته في الصحراء ولكنه يأتي بها في آخر القصيدة ، كأنه يريد أن لا يشغله شيء عن مديح بني هاشم . وهي ليست مدائح بالمعنى المعروف ، إنما هي دفاع عن البيت الهاشمي ، وتقرير لما يراه إمامه زيد في صورة حماسية رائعة . وليس من ريب في أن خالدًا سمع بهذه القصائد ، بل يقول الرواة إنها وصلت سمع هشام ، فحبس الكمين . ويروى الرواة إن امرأته كانت تزوره في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون ، فلبس يوماً ثيابها ، وخرج عليهم دون أن يعرفوه ، وفي ذلك يقول :

خَرَجْتُ خُرُوجَ الْقِدْحِ قِدْحِ ابْنِ مُقْبِلِ

على الرغم من تلك النواجح والمُشْبِلِ (٢)

على ثياب الغنائيات وتحتتها      عزيمة أمرٍ أشبهت سلة النصل

وتوجه إلى الشام مستغيثاً بأشرف بني أمية ، ولما كان ذنبه عظيماً لم يجرؤ أحد على طلب العقوب عنه من هشام ، ونصح له ناصح أن يضرب قبته على قبر ابنه معاوية الذي توفى قريباً ، فلما رأى أولاد معاوية ذلك ربطوا ثيابهم بثيابه ، حتى دخل ودخلوا معه ، على جدِّهم ، فلما رأهم اغرورقت عيناه بالدمع وعمقا عنه لهم ، وفي رواية أن مسلمة بن هشام هو الذي استصدر له العفو من أبيه (٣) .

وبذلك ردت حربة الكمينت إليه ، ولكن بعد جهن جهيد ، وبعد شعر كثير نظمه في هشام وابنه مسلمة ، وكان هشام يريد أن يوليه العهد بدلاً من ابن أخيه الوليد بن يزيد ، ويروى الرواة للكمينت في مسلمة (٤) :

إن الخلافة كائن أوتادها      بعد الوليد إلى ابن أم حكيم

(١) الهاشميات ص ٢٧ .

(٢) قلع ابن مقبل : من قداح الميسر ، كان لقب عامر بن صعصعة ، ولا يحمل في القداح إلا مخرج فائزاً . انظر الميسر والقداح ص ٦٦ .

والمثل : الذي يفرى الكلاب بالصيد .  
(٣) انظر في حبس الكمينت والروايات المتصلة بعفو هشام عنه الأغانى ١٥ / ١١٠ ، وما بعدها .  
(٤) طبرى ١٧٤٢ / ٢ .

وأم حكيم هي أم مسلمة . على كل حال اتصل الكميّت بهشام وابنه ، وقد أخذ ينظم فيهما مدائح كثيرة قبل عفو هشام عنه وبعد هذا العفو فيما يظهر ، استرضاء لهما ، وفي هشام يقول من قصيدة (١) :

أَنْتُمْ مَعَادِنُ لِلْخِلا ۙ فَكَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرٍ  
بِالتَّسَعَةِ الْمُتَابِعِ ۙ بَيْنَ خِلَافَتَا وَيخَيْرِ عَاشِرٍ  
وإلى القِيَامَةِ لَا تَزَا ۙ لُ شَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرٍ

ويقول الرواة إن مسلمة أمر له بعشرين ألفاً ، وإن هشاماً أمر له بأربعين ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم ، وجمّع له بنو أمية مالا كثيراً (٢) .

وعاد الكُميّت إلى الكوفة ، وسرعان ما عزّل خالد سنة ١٢٠ للهجرة وتولّى يوسف بن عمر الثَّقَفِي ، فرصد الكوفة بأكثر مما رصدّها خالد ، ومكث ينظر في حركات زيد بن علي وصحبه بعين بَقِيظَةٍ لَا تَغْفُل . واعتزم زيد الخروج في أصحابه ، وسرعان ما رأى الفرقة تدبّ فيهم ، فلم يثبت معه إلا نفر قليل . وبذلك انتهى إلى نفس المصير الذي انتهى إليه جده الحسين ، فقتله جُنْدُ يوسف بن عمر سنة إحدى وعشرين ومائة ، وصلّب يوسف جسده بالكوفة ، وأرسل برأسه إلى هشام ، فبعث بها إلى المدينة ، وظلت معلقة هناك ، حتى ولى الوليد فأنزلت وأحرقت (٣) .

ولم يخرج الكُميّت مع إمامه زيد ، لا لأنه رَفَضَهُ كما رَفَضَهُ كثير من شيعة الكوفة ، بل لأنه كان يرى أن لا يخرج زيد لما يعرفه من نفسية أهل بلدته وأنهم إذا جدّ الجدّ لا ينصرونه ، ومع ذلك فقد تولّى أسيفاً يتنعى على نفسه هذا التخلف والنكوص عن إمامه ، إذ يقول في بعض هاشمياته (٤) :

دَعَا نِي ابْنَ الرَّسُولِ فَلَمْ أُجِبْهُ ۙ أَلْهَيْ لِي لِقَابَ الْفَرُوقِ  
حِدَارَ مَنِيَّةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا ۙ وَهَلْ دُونَ الْمَنِيَّةِ مِنْ طَرِيقِ

(٣) طبري ١٦٩٨/٢ وما بعدها .

(٤) الهاشميات ص ١٥٧ .

(١) أغاني ١١٣/١٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١١١/١٥ .

فهو محزون لفراقه في خروجه ، وأنه لم يبذل نفسه في سبيله ، فالموت لا بد منه ، وهو إن تأخر اليوم فسيموت غداً .

ولعل هذا الجانب في الكميّة هو الجانب الوحيد الذي خالف فيه إمامه ، ومع ذلك فقد كان يخالفه على ما يظهر قاصداً إلى ذلك ، ففي هاشمياته اعترف بأنه لا يرى الخروج متأسيباً في ذلك بكثير من الأئمة السابقين ، ونفسُ زين العابدين والد زيد لم يخرج ، وكان أخوه محمد الباقر يرى عدم الخروج ، ومن ثمّ يقول الكميّة (١) :

تَجُودُ لَمْ نَنْفَسِي بِمَا دُونَ وَثَبَةٍ تَتَظَلُّ لَهَا الْغَيْرِبَانَ حَوْلَى تَحْجِجِلُ  
وَلَكِنْ لِي فِي آلِ أَحْمَدَ أُسْوَةٌ وَمَا قَدْ مَضَى فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَطْوَلُ

فالكميّة لم يخرج عن قصد وإيمان بوجهة نظر كان يشايعه فيها بعض الشيعة ، وكأنه كان يرى أن الوقت لم يتحّن للخروج ، وأنه لا بأس من استمرار السريّة والتقيّة (٢) . على أنه ذهب يبكي بكاءً مرّاً حين قُتِل زيد بن علي ، كما ذهب يهجو يوسف بن عمر هجاءً مرّاً أيضاً ، ومن قوله فيه (٣) :

يُعَسِّرُ عَلَيَّ أَحْمَدُ بِالَّذِي أَصَابَ ابْنَهُ أُمْسٍ مِنْ يَوْسُفٍ  
خَيْثُ مِنَ الْعَصْبَةِ الْأَخْبَثِينَ وَإِنْ قُلْتُ زَانِينَ لَمْ أَقْدِفِ

ولا ريب في أن هذا الهجاء بلغ يوسف كما بلغه بكاء الكميّة على زيد ، فأخذ يتحسّن له الفُرُصَ ، حتى إذا كانت سنة ستّ وعشرين ومائة وأربناه يتفد عليه مدحه ، وفاته أنه يُمكنه بذلك من نفسه ، ويضع الفرصة في يده ، فبينما كان يُنشد قصيدته وَضَعَ الْجَنْدَ سِيوفَهُمْ فِي بَطْنِهِ ، فلم يزل الدّمُ يُتْرَفُ منه حتى مات (٤) ، ويقال إنه كان يفتح عينيه ، وهو يجرد بنفسه ، ويقول : اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد (٥) .

والكُمَيْتُ فِي هَذَا كُلِّهِ يُعَبَّرُ عَنْ تَشْيِيعٍ عَمِيقٍ فِيهِ ، وَلَيْسَ هَذَا مَا يَلْفَتُنَا

(١) الهاشميات ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) الهاشميات ص ١٤٢ .

(٣) الهاشميات ص ١٥٧ .

(٤) أغاني ١٥/١١٦ .

(٥) أغاني ١٥/١٢٤ .

عنده ، فقد تَشَبَّحَ في هذا العصر كثيرون وَقْتَلُوا ، ولكن الذي يلفتنا عنده أنه أنشأ مجموعة من القصائد اشتهرت باسم «هاشميات الكميت» وفيها نراه لا يكتفي بمديح العلويين بل يعمد إلى تقرير نِحَلَتِهِمْ تقريراً قوامه الجدال والاحتجاج . والكميت في هاشمِيَّاتِهِ يصلر عن ذوق جديد لا نعرفه في العربية لشاعر من قبله ، ذوق عطفى ، إن صَحَّ هذا التعبير ، فهو لا يعبر فقط عن الشعور والعواطف ، وإنما يعبر أيضاً عن الفكر ، بل لعل تعبيره عن الفكر أهم من تعبيره عن العواطف . وهو من هذه الناحية يصور لنا التطور الذي أصاب العقل العربي في هذه العصور ، فهنا هاشمِيَّاتُهُ حجاج وجدال في مسألة الهاشميين ، بالضبط كما كان يُحاجُّ ويمجاد الحسن البصرى وزملائه وتلاميذه في مسألة القدر ، فعنده فكرة معينة متناسقة يكتب فيها هاشمياته ، وله هدفٌ معينٌ يريد من هذه الهاشميات .

ليس الكميت إذن من ذوق شعراء عصره الذين وَزَّعُوا أنفسهم على المدح والهجاء والفخر على نحو ما نرى عند الفرزدق مثلاً ، بل هو شاعر يتقصر نفسه وشعره على نظام فكري مُعَيَّن . وهذا ما جعلنا نقول منذ السطور الأولى في حديثنا عنه إنه شخصية طريفة بين شعراء عصره ، إذ أخرج الشعر من أبوابه القديمة إلى باب جديد ، هو باب التقرير والاحتجاج للعكويين والدفاع عنهم . ولا حظ القدماء ذلك في صور مختلفة ، فقال الجاحظ إن الكميت أول من دلَّ الشيعة على طرق الاحتجاج ، وقال آخرون إن الكميت خطيب لا شاعر (١) ، وسُئِلَ عنه بشار فقال إنه ليس بشاعر (٢) . كل ذلك لأنهم رأوه ينظم هاشمياته بطريقة جديدة ليست هي الطريقة المألوفة عند الشعراء .

ومن غير شك لم يكن همُّ الكميت في هاشمياته منحصراً في فن التَّعْبِيرِ ، بل كاد أن يكون منحصراً في فن الاحتجاج ، وهو لذلك لا يُعْجِبُ بشاراً الشاعر ، إذ يجده لا يُعْنَى بفسنه كشاعر ، وإنما يعنى به كداعٍ يدعو للمذهب معين ، فهو يُعْنَى أكثر ما يعنى بطرق الاستدلال . وهي عناية صاحبها شعور وصاحبها عواطف نحو البيت الهاشمي ، ومن أجل ذلك كان هناك من يزعم أن شعره أشبه ما يكون بالخطب ، فهو جدال وإقناع ، وهو تفكير يصاحبه الشعور ،

أو هو نظام فكري خاص .

وهكذا لم يَعد الشعر عند الكميت يُعبّر عن الشعور فحسب ، بل أصبح يعبر أيضاً عن الفكر ، وأصبح يُشْفَع بكل ما وصل إليه العقل العربي في هذا العصر من قُدرة على الجدال والإقناع . وهي قدرة اشتهر بها إمام الكميت زَيْدُ بن علي . ولا شك أنها أمتها جميعاً من تلمذتهما لواصل بن عطاء رأس المعتزلة . وبذلك خرج الكميت شاعراً مناظراً من طراز ممتاز . ولم تكن المناظرة كاملة عنده كما كُلت عند جرير والفرزدق في النقائض ، بمعنى أنه وُجِدَ شاعر يتناظر معه في النظرية التي يمتج لها ، فقد حاول حكيم بن عيَّاش الكلبي أن يدخل معه مجادلاً في نظريته ، ولكنه صرفه كما قدمنا إلى العصبية اليمنية يُنْأَصِل عنها . فهو مناظر في الهاشميين يقف وحده ، ولا يسمح لأحد أن يدخل معه في هذه المناظرة ، لا لأنه ضعيف الحجّة فيها ، ولكن لأنه يخشى أن تتحول المناظرة إلى قَدْفٍ في أمتة الذين يجهلهم ويشغف بهم .

هَاشِمِيَّاتُ الكُمَيْتِ إذن مناظرات في حقوق الهاشميين ، وهي مناظرات لا تعتمد على الإقناع العاطفي ، وإنما تعتمد قبل كل شيء على الإقناع العقلي ، وقد اتخذ الكُمَيْت لهذا الإقناع طرفاً ثابتة لا يَحِيد عنها ، فهو يستعين بالنظر العقلي الخفص ، كما يستعين بآي القرآن الكريم ، وما يقرره من حق الأقرين . وهو في هذا كله تلميذ لواصل ومناظراته وحججابه في مسائل الاعتزال ، وقد عُرِفَ واصل بسرعة بديهته في استحضار آيات القرآن التي تؤيد مذهبه ، كما عُرِفَ بعمق تفكيره ومعرفته بالمسالك المختلفة في الردّ على خصومه .

وعلى هذا النحو نجد الكُمَيْتِ في هاشمياته لَسِيناً مجادلاً من طراز لم نألفه عند الشعراء من قبله ولا في عصره ، لأن الجدال عمل عقلي ، وهو ألصق بأصحاب المداهب والآراء . غير أننا لا نتقدم إلى أواخر هذا العصر الأموي حتى يكتب العقل العربي ثروات كثيرة من هذا الجدال ، وما هي إلا أن يتناول الكميت قَبَساً منه ، فإذا هذه الهاشميَّات التي تُفَرِّرُ حقّ الهاشميين في مهارة عقلية بديعة ، واستمع إليه يقول (١) :

فَلَمْ أَرَ غَضَبًا مِثْلَهُ يُنْتَصَبُ  
تَأْوِيلًا . إِنَّا تَقَىٰ وَغَرِبُ  
لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لِذِي الشَّكِّ مُنْصَبٌ  
وَبِالْفَتْحِ مِنْهَا وَالرَّدِيفِينَ نُرَكَّبُ  
وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكُ أُمَّ وَلَا أَبُ  
سَفَاهًا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجَبُ  
بِهِ دَانَ شَرَقِيٌّ لَكُمْ وَغَرِبُ  
وَنَفْسِي ، وَنَفْسِي بَعْدُ بِالنَّاسِ أَطْيَبُ  
وَنَعْتَبُ لَوْ كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نُعْتَبُ  
لَقَدْ شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ (١)  
وَكَئِنَّةً وَالْحَيَانَ بَكَرٌ وَتَغْلِبُ  
وَكَانَ كَعَبْدِ الْقَيْسِ عَضُوهُمُورِبُ (٢)  
وَلَا غَيْبًا عَنْهَا إِذِ النَّاسُ غَيْبُ  
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالِدَمَاءُ تَصَبُّ  
فَإِنَّ ذَوِي الْقُرْبَىٰ أَحَقُّ وَأَقْرَبُ

بِخَاتَمِكُمْ غَضَبًا تَجُوزُ أُمُورُهُمْ  
وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً  
وَفِي غَيْرِهَا آيَاتٌ وَآيَاتٌ تَسَابَعَتْ  
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُنَا  
وَقَالُوا وَرَثَتَاهَا أَبَانَا وَأَمْنَا  
يَسْرُونَ لَمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا  
وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمِينَةَ الَّذِي  
فَدَىٰ لَكَ مَوْرُوثًا أَبِي وَأَبُو أَبِي  
وَتَسْتَخَفُّ الْأَمْوَاتُ غَيْرَكَ كُلَّهُمْ  
يَقُولُونَ لَمْ يُوْرَثْ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ  
وَعَكَ وَلِخُمِّ وَالسَّكُونِ وَحَمِيرٍ  
وَلَا تَنَشَلَتْ عَضُوبِينَ مِنْهَا يُحَابِرُ  
وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَذَلَّةً  
هَمْ شَهِيدٌ وَابَدْرًا وَخَيْبَرٌ بَعْدَهَا  
فَإِنَّ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَى سَوَاهِمُ

وواضح أن الآيات تدور حول تقرير حق البيت الهاشمي في الخلافة ، وهو يستهلها بأن خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم الخلافة ، خاتم بني هاشم ، ويستخدمه اليوم بنو أمية غضبًا من أصحابه ، وإنه ليقرر حقهم عن طريق آي الذكر الحكيم في سور حاميم وغيرها من ، مثل قوله تعالى : « لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى » وقوله عز وجل : « إنما يريد الله ليذُهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطهِّرَكم تطهيرًا » وقوله سبحانه : « وآت ذا القربى حقه » وقوله تعالى اسمه : « فأنَّ لله خمسَته والرَّسُولَ ولذِي القربى » . فهذه الآيات في القرآن الكريم ناطقة بحق بني هاشم ، وإن لبني أمية منها ، كما يقول الكميت ، لعند آباء ونصبًا ، إذ لا يستطيعون تأويلها ، ولا صرَّفَها عن وجهها .

مراد ، مؤرب : تام .

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان .  
(٢) انتشلت : أخذت ، يحابر : يظن من .

والكميت في هذا كله يَسْتَتَعِينَ في احتجاجه بالقرآن الكريم على نحو ما كان يستعين وأصيل في احتجاجه تلقاء مسائل الاعتزال ، فالخلافة حتى بنى هاشم بحكم القرآن نفسه ، وقد اغتصب بنو أمية منهم هذا الحق ، فتولوا أمر المسلمين ، يتقدمهم معاوية والرديفون الذين جاءوا من بعده ، وإنه ليسميه القَدَّ وهو أحد سيهام الميَسِير . وينتقل الكميته من ذلك إلى مسألة الوراثة التي قررها الأمويون في انتقال الخلافة منهم إلى أبنائهم ، فيقول إنهم يحتجون بأن آباءهم أوثقوا لهم ، وهو ميراث باطل ، لأن صاحب الحق الأول هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي يُوَرِّث ، وبنو هاشم أولى بميراثه من غيرهم ، فهم آله الأقربون . وإنه ليبين ما في حديث بنى أمية واحتجاجهم من ضلال وبتلان ، فهم يَدْعُونَ ميراث الخلافة ، وفي الوقت نفسه يقولون إن النبي لا يورث ، وهذا تناقض . على أنه إن لم يورث لكان معنى ذلك أن الخلافة حق الجميع ، وليست مقصورة على قريش ، وإذن لطلبتها القبائل العربية المختلفة من مثل بسكيل وأرحب وعك ولحخم والسكون وحيمير وكندة وبكر وتغلب ، ولطلبت نصيبها منها بحابر ، وكان لعبد القيس منها نصيب موفور ، بل لكان للأنصار الحظ الأوفر ، وهم الذين آووا رسول الله ، ونصروه على أعدائه في بدر وغير بدر .

الخلافة إذن ميراثٌ بدليل اختصاص قريش بها ، وما دامت ميراثاً فلنتبع قانون الموارث ، ولنرُجِعِهَا إلى أهلها الحقيقيين ، ولنردِّهَا عليهم من أيدي المغتصبين الظالمين ، فهي تركة الرسول ، وهم أقرباؤه الذين حرمتهم منها الفتن الطاغية التي تدعى لنفسها إرثها ، وتمنعها من صاحبها الأول وأقربائه ، فتجعل لها حق الاستخلاف وعمل أولياء العهد ، بينما تحرم الرسول من ذلك . وبنو أمية كلهم يُسْتَخْلَفُونَ ، ولا يُعْطُونَ للرسول الكريم هذا الحق ، وهو أولى منهم به ، وآله من بنى هاشم أولى بميراثه .

السنا هنا في جدال صرف واحتجاج خالص ؟ فهذا الكميته يُقرُّ حق بنى هاشم تقريباً يستمد من نظرية الأمويين أنفسهم الذين يذهبون إلى أن الخلافة ينبغي أن تكون في قريش ، وهو يقول لهم ما دمتم تذهبون هذا المذهب ، وما دمتم تدفعون القبائل العربية والأنصار معهم عن الخلافة بهذه الحججة ، فلا معنى لتقديم

قربش على العرب إلا القرابة من رسول الله ، وإذا كانت القرابة هي الحججة ، فالأقربون أولى ، فبنو هاشم أولى من بنى أمية ، وبنو علي من أبناء فاطمة أحق بنى هاشم بالخلافة . وهو يستعين على هذا كله بالقرآن مرة ، وبالنظر العقلي مرة ثانية .

وعلى هذا النحو يتحول الشعر عند الكُمَيْتِ إلى تأليف حُجَجٍ وصياغة أدلّة . وهذا معنى ما نقوله من أن الهاشميات جديدةٌ في اللغة العربية ، فالشعر فيها يتصل بمنابع عقلية جديدة ، لا صلة بينها وبين المنابع القديمة التي كان يستمد منها الشعراء ، فهي جدال في مسألة حادثة ، هي حقُّ بنى هاشم في الخلافة وتقدّمهم في هذا الحق على بنى أمية ، وهي تتخذُ في إثبات هذا الحق نفسَ الطرق أو نفس الأدلة ، التي كان يتخذها وأصل وأمثاله من المتكلمين حين يُقَرَّرُونَ مسألةً ، فتراهم يستعينون بالنظر العقلي من جهة ونصوص القرآن الكريم من جهة ثانية ، ولذلك كنا نزعم أن الكُمَيْتِ تلميذ لهذه المدرسة وتلميذ لواصل الذي اشتهر بقوة إقناعه خاصة .

والمسألة لا تحتاج حدساً وتَحْمِيناً كما قدمنا ، فَصِلَةُ الكُمَيْتِ بواصل واضحةٌ مقررة ، وقد أخذ يكتب تحت ضوء ما تلقّنه منه هذا الدفاع الذي أخذَ شكلَ جدالٍ وحوارٍ واسع ، فهو يجاور ويمجادل في حقوق الشيعة وفي أنهم أصحاب الخلافة ، ويفتح في ذلك أبواباً للمناظرة والاستدلال لم تكن مألوفة عند الناس والشعراء من حوله .

وما أظننا ، إذا قلنا إن هاشميات الكميت كانت مِنحَةً المعتزلة ومنحة العقل الذي كوّنه في العصر الأموي ، نكون مخطئين أو مبعدين في الوهم ، فهي صورة دقيقة لطرق القوم في استدلالهم وحوارهم وما كانوا يتشققون به هذا الاستدلال والحوار من نَظَرٍ عقلي عميق .

فالكميت يناظر في هاشمياته عن الشيعة ، بل إنه يحول شعره إلى تقرير نظرية معينة ، يعيش يجادل فيها ومجاور ، ويدفع حُجَجَ الخصوم ، ويثبت مكانها حُجَجاً قوية ، لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها حُجَجٌ تَسَلَّحَتْ بكل ما يمكن من قضايا ومقدمات صحيحة ، تارة تَسْتَمِدُّ من



القرآن الكريم وتارة تستمد من العقل نفسه ، ونقصد العقل الأموى أو قل عقل المتكلمين في أوائل القرن الثاني حين أحرزوا ثروات استدلال وجدال خصبة . ومعنى ذلك أننا يلزأء شاعر شيعى معتزلى فى الوقت نفسه . ومن هنا كانت هاشميات الكميت تمتاز من الشعر الشيعى الذى عاصرها أو سبقها ، فقد نُظِم شعر شيعى كثير فى هذا العصر ، ولكنه كله كان يصدرُ عن العاطفة وحدها فحسب ، فهو إما بكاء ، وإما إعلان لثورة . أما عند الكميت فهو قبل كل شيء يصدر عن العقل ، وليس هذا فحسب ، بل يصدر عن كل ما اكتسبه وادّخره العقل العربى لهذا العصر عن طريق المناظرات الكلامية وما اتصل بها من طرق احتجاج وجدال واستدلال .

وهذا كله هو الذى يجعل للهاشميات أهمية خاصة فى هذا العصر ، إذ تعبّر أجمل تعبير وأدقّه عن الصياغة الفكرية التى وصل إليها العقل العربى ، فلم يعد يُعبّر عن صياغة شعورية فقط ، بل أصبح يُعبّر فى بعض جوانبه على الأقل عن صياغة ذهنية ، دُعِمَتْ بكل ما عُرِفَ حيثئذ من مسالك أدبٍ وطرق براهين . وهذه هى أهمية الكميت بين شعراء عصره إذ لم يتّبع الدروب الموروثية ، بل اختار لنفسه درباً جديداً غير مألوف من سابقه ومعاصره ، فسار فيه ، وأظهر فى ذلك براعة فائقة ، إذ حوّل شعره من ميادين العاطفة إلى ميادين الفكر ، وجعله كأنه مقالة يكتب فيها عن نظرية بنى هاشم فى الخلافة . وهو يجمع لهذه المقالة الخيوط من هنا وهناك ، أو قل المقدمات ليكون ما يريد من حجج وأدلة .

وبذلك خرج ديوان الشعر عن صورته القديمة وأصبح مقالة . فالمقالةُ الشيعيةُ بل المقالةُ الزيديةُ بنوع خاص كتبت فى هذا العصر ، ولم تُكتب نَشراً على عادة المقالات ، بل كتبت شعراً ، كتبها الكميت فى هاشميانه . والهاشمياتُ من هذه الناحية تُورخُ نزعاً عقليةً جديدةً فى اللغة العربية لم تكن معروفة قبل الكميت ، إذ لم يُعرَف عن شاعر قبله أنه خصّص نظرية معينة مجموعة من قصائده لُقِبَتْ بلقب يدلُّ على غايته أو منزعِهِ ، إنما كان الشاعر حين يُلِمُّ بعقيدة يؤمن بها يكتب فيها البيتين أو الأبيات ، وقد يكتب قصيدة ولكنه يُخصّصها بشخص من الأشخاص الذين يُعبّرون عن عقيدته أو

فكرته ، فهو لا يكتب كتابة مجردة عن الأشخاص ، وإنما يمدح شخصاً أو يترى في شخصاً ، ويعبر في أثناء ذلك عن بعض آرائه . أما عند الكُمَيْتِ فالقصيدة تُكْتَبُ في الفكرة من حيث هي ، لا تهمُّها الأشخاص بقدر ما تهمُّها الفكرة نفسها ، وقارن بينه وبين شاعر شيعي مثل كُثَيْبِ الذي تحدثنا عنه في غير هذا الموضوع ، فستجد كُثَيْباً يمدح ابنَ الحنفية إمامه ، فيعرض لبعض مبادئ الطائفة المعروفة باسم الكَيْسَانِيَّةِ ، وقد برئيه ، فيعرضُ لشيء من هذه المبادئ ، وقد يهجو بعض خصومه من أمثال ابن الزُبَيْرِ ، فيُضْمَنُ هُجاءه شيئاً من الإشادة بإمامه . وكُثَيْبٌ لهذا كله ، قريبٌ من الذوق العام في الشعر العربي ، فقصيدته الشيعية في ديوانه تتصل بشخص مُعَيَّنٍ دائماً ، لأنها قصيدة كُتِبَتْ حول شخص ، ويهمُّها الشخص نفسه قبل أي شيء آخر . أما عند الكُمَيْتِ فالقصيدة كُتِبَتْ قبل كل شيء لتخدم نظريَّةً معيَّنة ، وهي لذلك تُجَرِّدُ من اسم إمامه زَيْدٍ غالباً ، حتى هاشميته اللامية<sup>(١)</sup> التي نَظَمَها في رثائه ليس فيها اسمه من قريب ولا من بعيد ؛ لأنها في الواقع ليست قصيدةً من النوع المألوف عند العرب ، وإنما هي مقالةٌ كُتِبَتْ احتجاجاً للبيت الهاشمي بصفة عامة ولزَيْدِ بنِ عليٍّ بصفة خاصة . ولا يهمُّها زيد بقدر ما يهمُّها البيتُ كله ، لأن زَيْداً نفسه رمزُ البيت . فهي قصيدة تلور حول فكرة قبل أن تلور حول شخص . وكان زيد لا يُقْبَدُ الخلافة بفرعِ الحسينِ جدِّه ، بل يُطْلَقُها في أبناء فاطمة كلِّهم ، سواء كانوا من فرع جدِّه أو كانوا من فرع عمه الحسن ، فساعد ذلك أيضاً على التعميم في الهاشميات .

فالكُمَيْتُ على مذهب إمامه لا يتقيدُ بشخص من أبناء فاطمة ، ومن هنا كانت تظهر فيه نزعةٌ عامة ، أو على الأقل ساعد ذلك على النزعة العامة فيه ، فانطلق يدافع في قصائده أو مقالاته عن النظرية الشيعية نفسها ملتزماً ما يلتزمه إمامه . وكان إمامه معتدلاً يُحْكَمُ المنطقَ والعقلَ في آرائه ، فتبعه يدعو دعوته ويستئنُّ به في كل ما يأخذ ويدعُ من الآراء والأفكار . وبدلُ على ما نقوله من

(١) أغاني ١١٠/١٥ وانظر الهاشميات ص ١١٠ وما بعدها .

بعض الوجوه أن زيدا ذهب إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحح خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي لمصلحة رأها الصحابة ، وقاعدة دينية اتبعوها<sup>(١)</sup> . وأحدث هذا الرأي خلافاً بين شيعة زيد من أهل الكوفة ، وخرجت عليه جماعة ، وأسقطت حقه في الإمامة . وهنا نجد الكُمَيْت يقف مع إمامه ، ينصره بلسانه ، ويؤيده بشعره ، من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بيشتم أبي بكر ولا عمرا  
ولا أقول وإن لم يعطيا فدا كنا بينت الرسول ولا ميراثه كفترا  
الله يعلم ما ذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتدرا

فهو يفرق بين تشيعه وتكفيره لأبي بكر وعمر ، فيقول إنه لا يستحيل ذلك ، وإن كانا قد ارتكبا ذنب فدك ، فإن أهلها صالحوا الرسول على نصف أرضهم دون أن يرسل لها خيلا أو جيشا ، فاعتبرت خالصة له ، وكان سفيق منها على أبناء السبيل ، فلما توفى طالبت فاطمة بها ، فأبى أبو بكر وعمرو لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » واعتبرت الشيعة ذلك خطأ من أبي بكر وصاحبه ، وجوزوا أن يورث الرسول حتى تطرد لهم فكرة الميراث في الخلافة . ولكن زيدا لم يكن يأخذ بهذا الرأي ، بل كان يقسوس ذلك إلى الله ، ولا يحاسب الشيخين عليه ، والكُمَيْت يتجرى على رأيه ، فيقول إنه لا يخطئهما ولا يكفرهما ، بل يدع ذلك إلى ربه يوم الحساب .

ولا ريب في أن هذا جانب اعتدال واضح في مذهب الزيدية ، وقد جاء زيدا من تلمذته لواصل رأس المعتزلة فقد كان واسع الفكر ، وكان يجوز الخطأ على أصحاب الجسمل وأصحاب صيفين ، ولا يلزم الخطأ فريقا بعينه . وكان زيد يعجب بأرائه ، ويقول السابقون إن أخاه محمداً الباقر كان يعاتبه

(٢) الهاشميات ص ١٥٦ .

(١) الملل والنحل ص ١١٦ وانظر هنا

الطبري ١٦٩٩/٢ .

على تَتَلَمُّذِهِ لواصل ، لأنه يجوز الخطأ على جندِهِ في قتال الناكثين للمَهْدِ (١) . ولكن ذلك لم يَصْرِفْ زَيْدًا عن واصل بل استمرَّ يتابع دروسه ، وكان لها تأثير عميق في نظريته ونظرية أتباعه ، ويكفي أن نراه الآن يُسَلِّمُ بِصِحَّةِ خِلافةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وهو مالا تُقِرُّهُ جميع فرقِ الشيعة ، بل إنه ليخطو خطوة أوسع ، فيجوز تجويزاً عاماً إمامةَ المَفْضُولِ مع قيام الأفضَلِ .

ومن هنا لا يكون من بأسٍ على الكُمَيْتِ أن يَعْتَرِفَ في بعض شعره بإمامة الأمويين ، فهم مفضولون على كل حال ، ومع ذلك ففي جَوَازِ الكُمَيْتِ هذا ؟ إنه لم يجوزهُ إلا حين قَبَضُوا عليه ، فاضْطُرَّ اضْطِرَّاراً إلى ملحمهم على نحو ما مرَّ ، وهو مدح مطعون فيه ، لأنه قيل تحت رماحهم وسيوفهم ، ويظهر أن القدماء نَسُوا ذلك ، فقد ذهب بعضهم يُكَبِّرُ من مدائحهِ في بنى أمية ، حتى ليقول ابن قُتَيْبَةَ إنه كان يَشْتَبِعُ وَيُنْحَرِفُ عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره في بنى أمية أجود منه في الطالبيين ، ولا أرى علَّةَ ذلك إلا قوةَ أسبابِ الطمع وإيثارِ النفسِ لعاجل الدنيا على آجل الآخرة (٢) .

وأكبر الظن أن ابن قُتَيْبَةَ يبالغ في ذلك ، وكأنى به لم يقرأ الهاشميات قراءة فاحصةً ، إذ نعرف أن الكُمَيْتِ فيها لم يَقِفْ عند طَالِيٍّ بعينه ، إذ كان بصدد الدفاع عن نظريته معينة ، أما في ملحمه للأمويين من مثل هشام وابنه مَسْلَمَةَ ، فقد كان يَمْدَحُ أشخاصهم . وفرَّقَ بين مديح الأشخاص والدَّعْوَةِ لنظرية معينة ، فالمقارنة بين الكُمَيْتِ في هاشمياته ومدائحهِ مقارنةٌ ناقصةٌ . وقد عرفنا أن الكُمَيْتِ لم يطلب دُنْيَا الأمويين ، إنما طلب أن تُرَدَّ له حريرته ، وحاولوا أن يشروه بديارهم معلودة ، فأعطاهم مديحاً لم يدرهمهم وحريرته المسلوقة ، فلما عادت إليه حريرته ارتدَّ يدعو دعوته ويشور ثورته .

ولعل مما يدل على أن الكُمَيْتِ لم يكن يطلب الدنيا أنه كان يرفض أن يأخذ من بنى هاشم مالا نظير ما يُدَبِّجُهُ فيهم ، فقد روى الرواة أن جعفرأ الصادق أعطاه يوماً بعد إنشادِ الأُمِّيَّةِ المشهورة ألفَ دينار وكُسُوفَةٍ ، فقال له الكُمَيْتِ : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت مَنْ هِيَ في يديه ، ولكني أحببتكم

(٢) الشعر والشعراء ص ١٨ .

(١) الملل والنحل ص ١١٦ - ١١٧ .

للآخرة ، فأما الثيابُ التي أصابت أجسادكم فلاني أقبلتها ليركتيها ، وأما المال فلا أقبلته (١) . فالكُمَيْتُ لم يكن من طُلَّابِ الدنيا . ومن طريف ما يروى عنه في صدّد مديحه لبني أمية أنه كان إذا سُئِلَ عنه قال : إني لا أحفظُ منه شيئاً ، إنما هو كلام ارتجَلْتُهُ (٢) .

والحق أن شعر الكُمَيْتِ في هشام وابنه مسلّمة كان شعراً عارضاً في حياته ، وهو من هذه الناحية لا يُصَوَّرُ شيئاً في عاطفته ولا في ذهنه . أما شعره في الهاشمين ، فهو الشعر الذي عاش يُنَمِّيهِ ، لأنه كان يُعَبِّرُ فيه عن عاطفه صادقة ، كما كان يُعَبِّرُ عن كل ما حصل عليه من ثقافة ومقدرة في الجدل والإقناع ، ومع ذلك فهو ليس شعراً بالمعنى القديم ، إنما هو شعر بمعنى جديد ، فيه يتحول الفكر الخالص إلى شعر ، أو هو مقالة شيعية بمعنى أن الأفكار الشيعية تُنَسَّجُ شعراً لا نثراً .

وهاشميات الكُمَيْتِ ليست مقالة شيعية عامة ، وإنما هي مقالة زَيْدِيَّةٌ كما قلنا ، ومن هنا كانت نصّاً طريفاً للمذهب الزَيْدِيَّة في أول تكوُّنه . وليس كلُّ ما في الهاشميات من هذا المذهب مسألة صحّة خلافة أبي بكر وعمر وحوّاز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، ففيها ما يشترطه زَيْدٌ في الإمام الشيعي ، ويتضح ذلك إذا رجعنا إلى الشهرستاني ، إذ يقول إن زيدا كان يشترط في الإمام أن يكون من أبناء فاطمة ، وأن يكون عالماً ، زاهداً ، شجاعاً سخياً (٣) . وهذه الصفات الأربعة تردّدُ في الهاشميات تردّداً واسعاً ، فالكُمَيْتُ لا يمل تكرارها ، بل دائماً يُبَدِّئُ ويُعِيدُ فيها ، من أجل قوله (٤) :

النَّحْمَةَ الكِفَاةُ في الحَرْبِ إن ل  
والغَيْرُوثُ الذين إن أمَحَلَّ النَّ  
غالبين هاشميين في العا  
وهمُ الآخرون من ثِقَةِ الأُمِّ

فَ ضَرَامًا وَقودُها بضرام  
اسُ قَارَى حَوَاضِينَ الايْتَامِ  
م رَبَّوْا من عَطِيَّة العلام  
ر بِتَقْوَاهُمُ عَرَى لا انفِصَامِ

(٣) الملل والنحل ص ١١٥ .

(٤) الهاشميات ص ٢ .

(١) خزانة الأدب ٧٠/١ وانظر الأغاني

١١٨/١٥

(٢) أغاني ١١١/١٥ .

وَتَسَوَّىٰ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي هَاشِمِيَّاتِ الْكُمَيْتِ ، وَيُظَنُّهَا مِنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ مَذْهَبِهِ أَنَّهَا تَكَرَّرٌ وَخَطَابَةٌ ، وَهِيَ نَظَرِيَّةُ الرَّيْدِيَّةِ يُدْبِعُهَا الْكُمَيْتُ فِي الشَّعْرِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فَيُطِيلُ فِيهَا ، وَيَكْثُرُ مِنْ ذِكْرِهَا وَتَرْدَادِهَا ، حَتَّى يَثْبُتَ الْمَذْهَبُ فِي نَفْسِ أَتْبَاعِهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَنَفْسِ غَيْرِ أَتْبَاعِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَتَدُلُّنَا هَاشِمِيَّاتُهُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتُ لَيْسَتْ كُلِّ مَا كَانَ يُطَلَّبُ فِي الْإِمَامِ ، فَهَنَّاكَ صِفَاتٌ أُخْرَى ، نَعْلَمُهَا كَانَتْ أَهْمٌ فِي رَأْيِ زَيْدٍ وَفِي رَأْيِ النَّاسِ ، وَلَمْ يُشْرُ إِلَيْهَا الشَّهْرِسْتَانِيُّ ، وَعَلَى رَأْسِهَا صِفَةُ الْعَدْلِ . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ هَاشِمِيَّاتُ تَكْرُرٍ مِنْ ذِكْرِ عَدْلِ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ ، وَعَدْلُ الْأُمَّةِ السَّابِقِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ . وَلَيْسَتْ هُنَاكَ هَاشِمِيَّةٌ لَمْ تُقَرَّرْ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَةُ تَقْرِيراً ، بَلْ لَمْ تُنْبَسِطْ بِسَطْوًا ، فَهِيَ أَسَاسٌ مَهْمٌ مِنْ أَسَاسِ الْمَذْهَبِ ، وَأَصْلٌ مَهْمٌ مِنْ أَسْوَاقِ الْعَقِيدَةِ . وَالْكُمَيْتُ لَا يَكْتَفِي عَادَةً بِتَقْرِيرِ عَدْلِ إِمَامِهِ أَوْ أُمَّتِهِ ، بَلْ يَحَاوِلُ أَنْ يُقَرَّرَ جَوْزَ بَنِي أُمِيَّةٍ ، وَيَسْتَطِرِدُ إِلَى الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ سِيَاسَةِ الطَّرْفَيْنِ مَقَارَنَةً يَرِيدُ بِهَا هَدْمَ النَّظَامِ الْقَائِمِ وَتَحْطِيمِهِ ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَقُولُ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَأُمَّتِهِمْ (١) :

القريبين من نَدَىِّ وَالبَتَيْدِ	ن من الجورِ في عَرَى الأحكام
رَاجِحِي الْوَزْنَ كَامِلِي الْعَدْلِ فِي السِّ	يرة طَبَّيْنِ بِالْأُمُورِ الْجِسَامِ
سَامَةً لَا كَمَنْ يَرَى رِغْبَةَ النَّأ	س سَوَاءً وَرِغْبَةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ	أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ
رَأْيِهِ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الدُّ	لَةِ فِي النَّائِمَاتِ (٢) جُنْحِ الظَّلَامِ
جَزْ ذِي الصُّوفِ وَانْتِقَاءِ لَذِي الْمُ	حَةَ وَانْعَقِ وَدَعْدَعًا بِالْبِهَامِ (٣)
فِهِمُ الْأَرَاغُونَ بِالنَّاسِ فِي الرَّأ	فَةِ وَالْأَحْلَامُونَ فِي الْأَحْلَامِ
أُخِذُوا الْقَصْدَ وَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ	حِينَ مَالَتْ زَوَامِلُ (٤) الْأَتَامِ

وَوَاضِحٌ أَنَّ الْكُمَيْتَ يُقَرَّرُ عَدْلُ أُمَّةِ الشَّيْخَةِ وَأَنَّهُمْ لَا يَجُورُونَ وَلَا يَظْلَمُونَ ، أَمَا بَنُو أُمِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَصِمُهُمْ بِوَصْمَةِ الْجُورِ وَالظُّلْمِ ، وَأَنَّهُمْ يَسُوسُونَ الرِّعِيَّةَ سِيَاسَةَ

(١) الْهَاشِمِيَّاتُ ص ٢ وَمَا بَعْدَهَا .  
(٢) الثَّلَاةُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّعْمِ ، النَّائِمَاتُ : الْبِهَامُ : أَيِ النَّعْمِ .  
(٣) وَانْعَقِ وَدَعْدَعًا : يَرِيدُ صِيَاغَ الرِّعَاةِ عَلَى الْبِهَامِ .  
(٤) الزَوَامِلُ : الْإِبِلُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَاءَ .

(١) الْهَاشِمِيَّاتُ ص ٢ وَمَا بَعْدَهَا .  
(٢) الثَّلَاةُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّعْمِ ، النَّائِمَاتُ : الْبِهَامُ : أَيِ النَّعْمِ .  
(٣) وَانْعَقِ وَدَعْدَعًا : يَرِيدُ صِيَاغَ الرِّعَاةِ عَلَى الْبِهَامِ .  
(٤) الزَوَامِلُ : الْإِبِلُ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَاءَ .

غاشمة ، تقوم على استخلاص كل ما يملكون ويدّخرون . وكان الرعية غنّتم لهم ، يَجْزُونَ صوفها ، ويشربون ألبانها ، ويأكلون لحومها . وفي الوقت نفسه يَصِيحُونَ عليها كل صبيحة ، ويزجرونها كل زَجْرٍ ، فهم الظلّمةُ الغاشمون . أما بنو هاشم فهم العدول الذين لا يَسْجُورُونَ ولا يظلمون ، وإنما يَبْتَغُونَ العَدْلَ والقِسْطَ بين الناس ، وقد استقاموا على الطريقة ، بينما ينحرف بنو أمية ، وعليهم حُـوْلُ الآثامِ والخطايا .

وفي كلِّ مكانٍ من الهاشميات نُحَقِّدُ هذه المقارنة بين عدل الإمام الشيعي وجور الخليفة الأموي ، فإذا قلنا إن الزيدية كانوا يقرّرون العدلَ صفةً مهجة من صفات الإمام لم نكن مُبْعِدِينَ ، بل كنا مُحَقِّقِينَ ، لأن هذه الصفة في الحقيقة هي الصفة التي دفعت زيدا إلى الخروج على هشام ، وكان زيد يُقَرِّرُها في الناس كما كان يقرّها الكُمَيْتِيت دَاعِيَتَهُ فيهم ، فلم تَخْلُ منها هاشمية من هاشمياته ، وقد ذهب بِشُبُهَتِهَا في صور كثيرة ، وانزلق منها يُقَرِّرُ أن الإمام الشيعي هو العالم الفقيه الذي يحكم بين الناس كما أراد الكتابُ والسنة ، وإذن فهذا أصل آخر من أصول الزيدية ، وقد نفذ منه الكُمَيْتِيت إلى بيان ما في الحكم الأموي من شلوذ وعدول عن هَدْيِ القرآن وسُنَّةِ الرسول ، فهو يصف الأمويين دائماً بأنهم أهلٌ يَدْعِ وضلال ، على نحو ما نرى في قوله (١) :

لم كلَّ عامٍ يَدْعَةُ بِحُدِّ ثَوْنِهَا	أزَلُّوا بها أتباعَهُمْ ثُمَّ أُوْحِلُوا
كما ابتَدَعَ الرُّهْبَانُ ما لم يَسْجِي بِهِ	كتابٌ ولا وَجِيٌّ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
تَحِلُّ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ	وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهْدَلِ
فِيَارِبٌ هَلْ لِإِلْبَكِ النَّصْرَ نَبْتَنِي	عليهم وهل إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْوَلُ

وعلى هذه الشائكة كان الكُمَيْتِيت يُقَرِّرُ في شعره جورَ الأمويين وخروجهم عن الحادّة ، فهم أهلُ أهواءٍ ويَدْعِ في الدين ، يُحِلُّون ما حرّمه الله ، ويحرمون ما أحلّه ، يُحِلُّون قَتْلَ الْمُسْلِمِ ، ويحرمون أكلَ التَّمْرَةِ .

ونحن نقراً هذا الشعر فنظنه ثورةً على بنى أمية فقط ، وهو في حقيقته كان تقريراً للمذهب الزيدية ، وهو تقرير تضمن هذه الثورة ، لأن زيدا نفسه كان نائراً على الأمويين ، وكان يدعو إلى الانتفاض عليهم ، ولذلك لا تعجب حين نجد داعيته يقرّر ما يقرّر من خروجهم على الدين ، وهو بذلك يمهّد للثورة عليهم ، ولكنه في الوقت نفسه يعطينا وثيقةً طريفةً عن الزيدية ومبادئهم ، كما كانت تُفهم في عصر إمامها الأول زيد بن علي .

هاشميات الكُمَيْتِ إذن في حقيقتها مقالة الزيدية في العصر الأموي ، وهي من هذه الناحية تُعدُّ شيئاً طريفاً حقاً ، ففيها مبادئ الزيدية ، وفيها الأصول التي كان يدعو إليها زيد بن علي ، وفيها ما يُكَمِّلُ كُتُبَ المَلَلِ والنَحْلِ عن الزيدية وما يشترطونه في الإمام ، على نحو ما رأينا في شعر الكُمَيْتِ من شرط العدل والأخذ بالكتاب والسنة ، أو ما شرع الله ورسوله . وليس هذا ما يؤمن به الزيدية فقط ، فالكُمَيْتُ يقرّر مسألة وصاية الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عمه عليّ يوم غدِيرٍ<sup>(١)</sup> خُمٌ ، إذ يقول<sup>(٢)</sup> :

ويومَ الدَّوْحِ دَوَّحَ غَدِيرِ خُمٌ أبان له الولاية لو أُطِيعَا

فهو يزعم كما تزعم الفرق الشيعية الأخرى أن رسول الله أوصى بالخلافة لعليّ ، ولكنه لا ينتهي كما انتهوا إلى أن أبا بكر وعمر اغتصباها حقّه ، بل يدعُ الأمر في ذلك لله .

وكما قلنا مبادئ الزيدية معتدلة ، والكُمَيْتُ يصورُ هنا الاعتدال في هاشمياته ، فليس فيها غُلُوٌّ في تصور حقيقة الإمام ، ولا في العلم الذي بشه الله فيه ، فالإمام ينبغي أن يكون فقيهاً ، وليس هناك بعد ذلك ما يُصوّرُ علماً باطنياً أو شعوراًً .

ونستطيع أن نقول إن نظرية الزيدية كما تصوّرها الهاشميات إنما تركز على نظرية الإمامة والوراثة الشرعية لها ، ثم شروط تُشترط في الإمام من الزُهدِ

(٢) الهاشميات ص ١٥٢ .

(١) غدِيرِ خُمٍ : غدِيرِ خُطْبِ عِنْدَهُ رَسُولِ  
الله بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان .



والتقوى والشجاعة والسخاء والعلم بالكتاب والسنة واتباع هدى الشريعة ،  
والعدل بين الناس عدلاً تستوى فيه الرعية لا يحيد فيه الإمام قيد  
أنملة عما شرعه الله ورسوله للمسلمين من قواعد وأحكام وحدود وقوانين ،  
حتى يعم الدولة النظام ، وحتى يتأمن الناس على أنفسهم وأموالهم .

وليس في الهاشميات بعد ذلك تقرير لرجعة أو تناسخ ونحو ذلك مما يؤمن به بعض  
غلاة الشيعة ، وإنما فيها مذهب الزيدية وهو أكثر مذاهب الشيعة اعتدالا ،  
وأقربها إلى مذاهب أهل السنة ، ولذلك كنا نعجب من الجاحظ إذ يقرر  
أن الكُمَيْت كان شيعياً من الغالية (١) ، ولم يكن الكُمَيْت يوماً غالياً في تشيعه  
إنما كان شيعياً معتدلاً ، أو بعبارة أدق كان زيدياً ، ولعل الجاحظ نعت الكُمَيْت  
بذلك إرضاءً للعباسيين ، فإن الكُمَيْت كان يقرر في حماسة إرث بيت علي  
للسلطان معتمداً على القرابة ، ولذلك كان يقف في صف أبناء فاطمة . وكان هذا  
لا يرضى العباسيين منه ، فقد ادعوا أنهم أصحاب هذا الإرث (٢) ، وأنهم  
الأحق به ، فكان طبعياً أن يفضبوا على الكُمَيْت ، ولعل ذلك نفسه سبب  
غضبهم على ابنه المستهمل وما كان من ضرره وتعذبه (٣) ، حتى ليروى عنه  
أنه قال لهم (٤) :

إذا نحن خفنا في زمانِ عدوكم وخفناكم إن البلاء لراكِدُ

فلعل الجاحظ ، لهذا ، دعا الكُمَيْت غالياً في تشيعه ، وهو لم يكن غالياً  
حقاً إلا من حيث تقرير نظرية بيت أبناء فاطمة . ومع ذلك فنحن نجد في  
هاشمياته شعراً يُشيد فيه بالعباس بن عبد المطلب جد العباسيين ، ولعل المستهمل  
هو الذي أدخله في الهاشميات إرضاءً لهم (٥)

ولم ينعته الجاحظ الكُمَيْت بالغلو في التشيع فقط ، بل ذهب يترى على  
ملحه للرسول عليه السلام في هاشمياته ، إذ ادعى أن الناس يسوءهم مديحه :

(١) البيان والتبيين ٤٦/١ .  
(٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ٢/٢٩٣ .  
(٣) انظر الأغاني (طبع الساسي) ١١٨/١٥ .  
(٤) الأغاني ١١٨/١٥ والشعر والشعراء ص ٣٧١ .  
(٥) انظر الهاشميات ص ٢١ ، ٦٣ .

وقيل: أفرطت بل قصدت ولو عتفتى القائلون أو تلبسوا

وكان الجاحظ ينسى التاريخ وأن بنى أمية كانوا يعترضون على الكمية لمديحه الرسول في هاشميانه ، لأنه لم يُرد إلى مدح الرسول ، وإنما أراد الدفاع عن حتى بنى هاشم ، فهو حين يقول إن الناس يعنفونه على مدح الرسول إنما يقصد أهل بيته ، فوجه القول إليه وهو يريد آله وما يجرى على لسانه من موالاتهم والانحياز إليهم والدعوة لهم . واستطرد الجاحظ ، فذكر هذين البيتين للكميت في الرسول ، إذ يقول :

وبورك قبر أنت فيه وبورككت به وله أهلٌ بذلك يشرب  
لقد غيبوا يراً وحزماً وناثلاً عشيّة وآراه الصفيح المنصب<sup>(١)</sup>

يقول الجاحظ وهذا شعر يصلح في عامة الناس<sup>(٢)</sup> . وهذا صحيح ، ولكن ينبغي أن لا نقيس الكميّة ببنتين ، فمن الممكن أن لا يكونا معبرين عن صورة مدحه للرسول . والذي يقرأ الهاشميات غير متحزب على الكميّة يراه متحمساً حماساً لا حدّاً لها للنظرية التي يؤمن بها وبمصدرها ، وهو الرسول نفسه ، صاحب هذا البيت الذي حُبس من أجله بل الذي قُتل بسببه ، وفيه وفي بيته يقول في نفس الهاشمية التي استشهد الجاحظ منها بالبيتين السابقين :

ومالٍ إلا آل أحمد شعبة ومالٍ إلا مذهب الحق مذهب

فالكميّة لم يُقتصر في مديح الرسول ولا في مديح العلويين . كل ما يمكن أن يقال إنه لم يخل في مديحهم ، وذلك لأنه لم يكن غالباً كما يقول الجاحظ بل كان زبدياً معتدلاً ، لا يُسرف على نفسه في المديح والثناء . ومع ذلك فقد كان زبدياً ثائراً ، فكانت نفسه تتعلّى بالثورة على بنى أمية ، وكأنه كان يحمل في سبيل مذهبه أو زبديته رُوحه على يده ، يريد أن يُصحى بنفسه ، ويكنى أن نرجع لهاشميته اللامية التي يقال إنه رمى بها زبدي بن علي حين

(٢) الحيوان ٥/ ١٧٠ .

(١) الصفيح : الحجارة ويريد حجارة القبر ، والمنصب : الذي رفع بعضه على بعض .

قتلوه ، لئرى ثورَةَ جامعة ، إذ يقول (١) :

وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانُوا  
عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي فَتَنَحَلُّ  
أَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ  
عَلَى الْحَقِّ تَقْضِي بِالْكِتَابِ وَتَعْدِلُ  
كَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ يُعْنَى بِأَمْرِهِ  
وَبِالنَّهْيِ فِيهِ الْكُودُ نَبِيُّ الْمُرْكَلِ (٢)  
فَتَلِكُ مَلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ  
فَحَتَّامٌ حَسَنَامٌ الْعَسَاءُ الْمَطُولُ  
وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلَنَا  
لَأَجْوَرَ مَنْ حُكَّامُنَا الْمَثَلُ

والحق أن الهاشميات الكُهميَّة طُرْفَةٌ نفيسة من طُرْفِ عصرِ بنى أمية ، لا لأنَّ صاحبها شاعرٌ شيعي فحسب ، بل لأنه اتخذها دفاعاً عن حقوقِ بنى هاشم كما يتصورها زيد بن علي وأصحابه . وأظن أننا لا نبالغ بعد ذلك إذا قلنا إن الهاشميات أقدمُ نَصٍّ يُعرِّفنا بالمقالة الزيدية ، فقد كتَّبت الكميَّة هذه المقالة شعراً في العصر الأموي قبل أن تُكتَّبت نثراً في العصر العباسي . ومن أجل ذلك كانت الهاشميات تعدُّ لثوفاً أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي ، فن قبل الكُهميَّة لم يتخذ شاعر شعره لإثبات مقالة مذهبية ، أما الكميَّة فإنه عمَّد عمَّداً إلى صياغة مقالة الزيدية في الشعر ، مُستعيناً بكل ما تُقِفُه العقل العربي في العراق لهذا العصر من صور حجاجٍ وجدالٍ واستدلالٍ .

(١) الهاشميات ص ١١١ وما بعدها .  
(٢) الكودي: البليد كأنه كودن أي برذون ،

المركل : الذي يضربه راحته برجله .

### خمریات الوليد

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك . فهو من سلالة هذه الدوحة المروانية التي ظلت صاحبة الولاية على الأمة العربية منذ مروان بن الحكم إلى آخر عصر بني أمية . وأمه قيسية من ثقيف ، فهي بنت (١) محمد بن يوسف أخي الحجاج ، ولدته في خلافة عمه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ للهجرة (٢) ، وسمته أو سمّاه أبوه باسم عمه تسمناً به . ولما بلغ الحادية عشرة ولّى أبوه الخلافة ، وجعله صغيراً سنه حينئذ يعنه من بعده لأخيه هشام ، ثم له (٣) .

وكلّ الدلائل تدلّ على أن يزيد نشأ ابنة نشأة كلها ترّف ودلال ، فقد كان هو نفسه صبياً بالدلال والترّف ، فأصبح كثيراً من فنونهما على ابنه . ويظهر أنه لم يترك وسيلة إلى الترفيه عنه إلا اتخذها ، وقد عرّف هو نفسه بحبه لمباهج عصره . ولم تكن المباهج حينئذ سوى الخمير والاستماع إلى الغناء ولبس الثياب الحريرية المزركشة . وقد وصف أبو حمزة الخارجي يزيد في خطبة له ، فقال :

« إنه يشرب الخمر ، ويلبس الخلة قومّت بألف دينار . . . حبّابة عن يمينه ، وسلامته عن يساره ، تغنيّانه ، حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدّ ثوبه ، ثم التفت إلى إحداهما ، فقال : ألا أطير (٤) . ويروى الرواة أنه اشترى حبّابة بأربعة آلاف دينار (٥) وسلامه بعشرين ألفاً (٦) . وفي غير مكان من كتاب الأغاني نجدّه يستقدم المغنين من الحجاز ، فيقيمون له الحفلات الغنائية بقصره في دمشق ويميزهم ، حتى لتبلغ الجائزة للمغني أحياناً ألف دينار (٧) . ومن هؤلاء المغنين الذين كان يستقدمهم ابن سريج ومعبّد ومالك الطائي وابن عائشة والبسّدي الأنصاري وابن أبي لهب . ويقصّ الرواة أن

(٥) أغاني (طبع السامي) ١٤٩/١٣ .  
 (٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٤٣/٨ .  
 (٧) أغاني ١٠٩/٥ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١/٧ .  
 (٢) الطبري ١١٩٢/٢ وانظر ١٨١٠/٢ .  
 (٣) طبري ١٧٤٠/٢ .  
 (٤) البيان والتبيين ١٢٣/٢ .

مَعْبَدًا غَنَّاهُ صَوْتًا ، فَاسْتَخَفَهُ الطَّرَبُ ، حَتَّى وَتَبَّ ، وَقَالَ لِحَوَارِيهِ : أَفْعَلْنَ  
كَمَا أَفْعَلُ ، وَجَعَلَ يَدُورُ فِي الدَّارِ ، وَيَتَدَرَّنَ مَعَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا دَارُ دَوْرِي سِي يَا قَرَقَرُ امْسِكِي (١)

وبين هذه المعازف وما يتصل بها من لَهْوٍ وَخَسْرٍ وقيان شَبَّ الوليد . ولم يكذب يتجاوز الحلقة الخامسة عشرة من حياته ، حَتَّى تُوُفِّيَ أبوه ، وروى الخليفة عَمَّهُ هشام . وقد جعله شبابه وفراغه وما في حِجْرِهِ من أموال يَسِيرِ نفس السيرة اللاهية التي سارها أبوه ، بل أَوْغَلَ فِيهَا إِيغَالًا . وكان كل شيء يدفعه إلى ذلك ، فهو الشاب المُدَلَّل الذي لم يعرف شَطَطَ العَيْشِ يومًا ، وهو ابن يزيد الذي مَلَأَ قَصْرَهُ بِالغَنَاءِ وَالْقِيَانِ ، وَنَشَأَهُ عَلَى التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ .

ويستطيع من يتتبع سيرة الوليد أن يجد أخباراً كثيرة عن تَرْفِهِ الشَّدِيدِ . حتى في ملابسه ، فقد كان يلبس الوشِيَّ (٢) وَالْقَصَبَ (٣) وَالثِّيَابَ الْمَلْسُونَةَ (٤) ، وكان لا يكتفي بذلك ، فقد قَصَمُوا عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ الْعُقُودَ مِنَ الْجَوَاهِرِ ، وَيُغَيِّرُهَا فِي الْيَوْمِ مَرَارًا كَمَا يُغَيِّرُ الثِّيَابَ (٥) .

وتصادف أن أباه أسلمه إلى مؤدَّبٍ يُسَمَّى عَبْدَ الصَّمَدِ بْنِ عَبِيدِ الْأَعْلَى ، وكان فيه مجونٌ وزندقة (٦) ، فكان يُغْوِيهِ ، وكان إغواؤه يصادف هوى في نفسه . وهكذا اجتمع بَيْنَهُ وَمُعَلِّمِهِ عَلَى تَوْجِيهِهِ فِي سُلُوكِهِ تَوْجِيهًا لَاهِيًا مَاجِنًا ، ولم يلبث أن اجتمعت له بطانة ، وتسامع به المغنون ، فقصدوه كما كانوا يقصدون أباه ، قَصَدَهُ ابْنُ عَائِشَةَ وَغَنَّاهُ صَوْتًا أَعْطَاهُ بِهِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ (٧) ، وقصدته يونس الكاتب ، وَقَدَّمَ مِنْ عِنْدِهِ بِالذُّنْيَا (٨) ، كما قصدته غيرها من المغنين . ومعروف أن الشام كانت تستورد المغنين من الحجاز حتى هذا العصر ، وقد نبغ فيها أخيراً وفي هذا العهد عهد الوليد ولوهو ومجونه مُغَنِّنٌ يُسَمَّى أَبَا كَامِلٍ

(٥) أغاني ٥٩/٧ وانظر ٢٨١/٦ ،

٨٨/٧ .

(٦) أغاني ٢/٧ وانظر الطبري ١٧٤٣/٢ .

(٧) أغاني ٢٢٧/٢ .

(٨) أغاني ٢٢٧/٤ .

(١) أغاني ٦٩/١ .

(٢) أغاني ٢/٢١٠، ٦/٢٨١، ٧/٧٠٧ .

٩١/٧ .

(٣) طبري ٢ ١٨٠٦ .

(٤) أغاني ١١/٧ .

الغزِيل ، فكان يلزم الوليد<sup>(١)</sup> كما لزمه عمر الوادي<sup>(٢)</sup> مُعْتَنِي الحِجَاز المشهور .  
وفي الوقت نفسه كان الوليد يطلب الخواري المغنيات ، ويشترين ، ويبالغ  
في شرائهن<sup>(٣)</sup> ، وهو في هذا كله يجتمع بندماته يشربون ، ويسمعون ،  
ويمرحون .

وحاول عمه هشام حين رآه يسير هذه السيرة المَعْوَجَّة أن يستصلحه ،  
فكان ينتهز فرصة زيارته له ، فينصحه ، أو يوحى لمن في حضرته أن ينصحوه ،  
ولكنه كان لا يَسْتَمِيعُ ، بل كان يزداد على مَرَّ الأيام إمعاناً في اللهو والمجون ،  
وكأنه وضع لنفسه مذهباً في حياته هو مذهب اللذَّة الحسبيَّة ، ولم يكن يستطيع  
أن يفارق هذا المذهب أو يعدل عنه . ولما رأى هشام أن نصائحه تذهب أدراج  
الرياح عَوَّل على خَلْعِهِ من ولاية العهد وتولية ابنه مَسْلَمَةَ ، وجعل يذكر للناس  
تَهْتِكَةً وإدمانه على الشراب . وولاه إمارة الحج سنة مائة وست عشرة ليظهر  
مجونه بالخرميين فيسقط ، فحجَّ الوليد وحَمَلَ معه كلاباً في صناديق ، وتشاغل  
بالمغنين والشراب ، وأمر مَوَلِيَّيْهِ له ، فحجَّ بالناس ، وعكف هو على الخمر  
والاستماع إلى مُعْتَنِي الحِجَاز<sup>(٤)</sup> . وأقبل إلى دمشق ومعه الأبنجر أحدُ المغنين  
هناك<sup>(٥)</sup> . فطالبه هشام بخلع نفسه ، فأبى ، وتعادى في الشراب وطلب اللذات ،  
وكتب إليه هشام يُعْتَقُهُ ، ويسأله على أي دين هو ، فكتب إليه :

يا أيها السائلُ عن ديننا نحنُ على دينِ أبي شاكِرِ  
نَشْرَبُهَا صِرْفًا ومزوجةً بالسخنِ أحيانًا وبالفسائِرِ

وأبو شاكِر لقب مسلمة الذي كان يُرَشِّحُهُ هشام للخلافة ، وقد ولَّاه أميراً  
على الحج سنة ١١٩ هـ فأظهر النمسك والوقار واللين ، وقسم بمكة وأسينة أموالاً ،  
فقال مولى لأهل المدينة يردُّ على الوليد<sup>(٦)</sup> :

(٤) أغاني ٣/٧ وانظر الطبري ١٧٤١/٢ .

(٥) أغاني ٣/٣٤٦ .

(٦) انظر الطبري ١٧٤٢/٢ والجرود : جمع

أجرد ، وهو الفرس قصير الشعر الجواد ،  
والأريسان : جمع ريس : الحبل واللعام .

(١) أغاني ٧/٩١ .

(٢) وكان يسميه جامع لذاته ويحي طربه ،

انظر الأغاني ٧/٨٥ .

(٣) انظر الأغاني ٦/٢٥ وكذلك ٦/٢٦ ،

٧/٥٠ ، ٧/٥٢ .

يا أيها السائل عن ديننسا نحنُ على دين أبي شاكِرٍ  
الواهبِ الجرْدَ بأرْسَانِهَا ليسَ بزِنْدِيقٍ ولا كافرٍ

وازيادات الأمور بين الوليد وعمه سوءاً، فرأى أن يخرج مع ندمائه وبيطانته إلى الأزرق، وهو موضع في طرف الحجاز على ماء يسمى الأغداف، وترك بالرصافة التي كان ينزلها عمه كاتبه عياض بن مسلم ليُرْسِلَ له بما يكون من أخبار. وعلم عمه بجاشية السوء التي معه، ونقل إليه الوشاة شعراً نظمها عبد الصمد، فيه تحرش به، فأرسل إليه يأمره بإخراجه عنه، فصعد الوليد بأمره، وكتب يستأذن في نديم آخر، يسمى ابن سهيل؛ فأحضره هشام، وضربه كما ضرب كاتبه عياضاً ضرباً مبرحاً، ولم يكتف بذلك، بل حرّم الوليد عطاءه وحرّم سائر مواليه وأسيابيه، فكتب إليه يستعطفه، وكتب هشام يتوعده ويُندره<sup>(١)</sup> وللوليد شعر كثير يستدرُّ به عطف عمه من مثل قوله<sup>(٢)</sup> :

رَأَيْتُكَ تَبْنِي جَاهِداً فِي قَطِيعِي      وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ لَهْدَمْتَ مَا تَبْنِي

ودار الزمنُ دورتهُ، فتوفّي هشام دون أن يبلغ أمنيته من خلع الوليد، وألقيت البشري إلى الوليد في ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، فاجتمع حوله ندماءؤه يشربون نخبته، وفي ذلك يقول<sup>(٣)</sup> :

طابَ يَوْمِي وَلَدْتُ شُرْبُ السَّلَاقَةِ      إِذْ أَنَا نَحِيٌّ مِّنْ بِالرُّصَافَةِ  
وَأَنَا الْبَرِيدُ يَنْعَى هِشَاماً      وَأَنَا بَخَاتِمِ الْخِلافَةِ  
فَأَصْطَبَحْنَا مِنْ حَمْرِ عَانَةٍ صِرْفاً      وَلَهُونَا بِقِيْنَةِ عَرَافَةِ

وظلَّ يشرب معه رفاقه، وهو يستمع إلى العزف والغناء، فقد أقيمت الدنيا عليه، وتوفّي خصمه اللدود، ولما أفاق من سكره انطلق يقول<sup>(٤)</sup> :

هَلَكَ الْأَحْوَالُ الْمَشْرُومُ      فَقَدْ إِزِيلَ الْمَطْرُومُ

(٣) أغاني ١١٦/٧ .

(٤) أغاني ٢٠/٧ .

(١) انظر الكتابين في الأغاني ١٢/٧ .

وما بعدها والطبر، ١٧٤٦/٢ .

(٢) أغاني ١٠/٧ .

## تُصَنَّتْ اسْتُخْلِيفَ الْوَلِيِّ دُ فَقَدَ أَوْرَقَ الشَّجَرِ

وابتسمت الدنيا له ، وأحسَّ كأنها تلبس ثياباً جديدة أنيقة من أجله .  
وتحوَّل من منفاه إلى قصر الخلافة ، فجعله كأنه مسرحٌ من المسارح ، إذ  
استقدمَ له المغنِّين من الآفاق ، وجلس مع ندمائه للهو والشرب والغناء . وأخذ  
يبحث عن كل ملاهى مملكته ، ويجمعها لنفسه ، فهؤلاء ظرفاء الكوفة مُطِيع  
ابن إياس وحمَّاد عَجْرَد والمُطِيعي المغنِّي يستقدمهم ، وينادهمهم ، ويستمرِّون  
عنده حتى وفاته (١) . وهؤلاء المغنون الحجازيون معبَّد وعطرَد ومالك الطائي وابنُ  
عائشة ودَحْمَان الأشقر وحكَم الوادي ويونس الكاتب والهُذَلِيُّ والأبْجَرُ  
وعُمَر الوادي ويَحْيَى قَبِيلٍ يَبْعُجُ بهم بلاطه (٢) أو مسرحه . وهذا حمَّاد  
الراويَّة يستقدمه ، ليروي له أطرف ما تركه القدماء حتى يُغَنِّيَ فيه مُغَنِّوه (٣) .  
وهذا أشعَب مضحكُ أهل المدينة يستحضره ، ويُنسِسه لبِسة قِرْد لها ذنب ،  
ويشدُّ في رجله أجراساً وفي عنقه جلاجل (٤) ، ويتخذ منه « أراجوزاً » يَحْرَكُ  
خيوطه ويضحك كلما أراد . ويخَيَّلُ إلى الإنسان أنه لم يترك لُعبَةً طريفة من  
لُعبِ عصره ، أو تسلية تُدْخِلُ المِسْرَةَ إلى نفسه ، إلا جَلَّسَهَا ، وكان يجَلِّبُ  
خاصة الندماء والمضحكين ، ويجمعهم حوله ليفكِّهوه ، ويَسُرُّوه . روى صاحب  
الأغاني أنه بعث إلى شُرَاعَةَ بن الزَّنْدَبُودِ ، فلما قدم عليه قال : « يا شراعة إنني  
لم أستحضرك لأسألك عن العلم ، ولا لأستفتيك في الفقه ، ولا لتحدثني ،  
ولا لتقرئني القرآن ، قال : لو سألتني عن هذا لوجدتني حِمَاراً فيه ، قال :  
فكيف علمك بالفتوة ؟ قال : ابنُ بَجْدَتِهَا ، وعلى الخَبِيرِ بها سَقَطَتْ ،  
فسئل عما شئت ، قال . فكيف علمك بالأشربة ؟ قال : ليسألني أميرُ المؤمنين  
عما أحبُّ ، قال : ما قولك في الماء ؟ قال هو الحياة ويَشْرِكُنِي فيه الحمار ،  
قال : فاللبن ، قال ما رأيته قط إلا ذكرتُ أمِّي فاستَحْيَيْتُ ، قال : فالحمر ؟  
قال : تلك السارةُ البارةُ ، وشَرَابُ أهل الجنة ، (٥) .

(٤) أغاني (سأسي) ١٧/١٠٠ .  
(٥) أغاني (دار الكتب) ٤٩/٧ وانظر  
مروج الذهب للسمرودي (طبع باريس) ٦/٦١

(١) أغاني (سأسي) ٣/٧٦ وما بعدها .  
(٢) أغاني (دار الكتب) ٢٩/٧ .  
(٣) أغاني ٢/٢١ ، ٦٨/٦ ، ٩١/٦٤ .



وعلى هذا النمط تحول قصر الخلافة إلى مقصّف للخمر والعزف والغناء ، واستغوت اللذة الوليد ، فذهب يُقَطِّرُ كئوسها بل يعبئها عبأ ، وبلغ من غلوّه في هذا المذهب ، مذهب اللذة ، أن صنع لنفسه بركة ملاًها خمراً ، فكان يجلس على حافتها ، والمغنون يغنونه ، حتى إذا انتشى نزع ثيابه ، وقدّاف بنفسه فيها يتسهّل ، ثم يخرج منها وهو كالميت سُكراً ، فيلتقاه غلماناه بالمجامير والثياب المطيَّبة<sup>(١)</sup> ، ومن حين إلى آخر ينشد<sup>(٢)</sup> :

أنا الوليدُ الإمامُ مُفْتَحِيراً      أنعمِ بالي وأتبع الفزلا  
أو ينشد<sup>(٣)</sup> :

أشهد الله والملائكة الأب      رآرَ والعابدينَ أهلَ الصّلاحِ  
أنّي أشتهي السّماعَ وشربَ ال      كأسِ والعضّ للخدودِ الملاحِ  
والنديمِ الكريمِ والخادمِ الفا      رهَ يَسْمَى على بالأقداحِ

واستخدم عمّالَه لا في المحافظة على الأمن ، ولكن في إرسال كل ما يمكن من لُعبٍ لهُنُو وتسلية . ويُروى أنه كتب إلى نصير بن سيّار صاحب خراسان وقائد الجيوش فيها أن يبعث إليه ببرابيط وطناير ، ولم يدع نصير بخراسان جارية ولا آلة من آلات الطرب إلا اشتراها ، فقال بعض شعراء الجنّد هناك<sup>(٤)</sup> :

وأبشِرْ يا أمينَ اللّ      أبشِرْ بتباشيرِ  
بإبلٍ يُحمَلُ المألُ      عليها كالأنابير<sup>(٥)</sup>  
بِغَزالٍ تَحْمِلُ الخمرَ      حقائبها طنابيرِ  
ودلّ البَرَبَرِيّاتِ      بصوتِ البسمِ والزورِ  
وقَرعِ الدّفِّ أحياناً      ونفخِ بالمزاميرِ  
فهذا لك في الدنيا      وفي الجنّةِ تحبيرِ<sup>(٦)</sup>

(٤) طبري ١٧٦٥/٢ .  
(٥) الأنابير : أكداص الطعام .  
(٦) تحبير : سرور ونعيم .

(١) أغاني ٥٢/١ وانظر أغاني ٣٠٧/٣ .  
(٢) أغاني ٤٤/٧ وانظر رسالة الففران  
لأبي الملاء (طبعة متنية) ص ١٤٦ .  
(٣) أغاني ٢٢/٧ .

ولما تمادى الوليد في ذلك ثَقَلَ على رعيته وعلى أبناء عمومته ، وسَخَطُوا عليه وعلى سيرته . ولم يكتف بإغضابهم من خُلُقِه ، بل أنزل بهم مِحْنًا كثيرة ، فقد مرَّ بنا أن عمه هشامًا حاول أن يَخْلَعَهُ من ولاية العهد ، ويولِّي ابنه مسلمة ، وكان يؤيده في ذلك أبناء أخيه الوليد بن عبد الملك . فلما خلصت الخلافة له أخذ يصبُّ عليهم جامَ انتقامه ، وفي ذلك يقول (١) :

ليت هشامًا عاشَ حتى يترى مِكيالَه الأوفرَ قد أتُرعا  
كِلْنَا له الصاعَ التي كالتها فما ظلمناه بها أضوعا  
لم نأتِ ما نأتيه عن يدِ عَمِّ أحلَّهُ القرآنُ لي أجمعا

ولم يمض الوليد في انتقامه أكثر من عام واحد ، حتى صَمَّمَ ابن عمه يزيدُ ابن الوليد أن يخلعه ، وأيديه في ذلك كثيرٌ من أسرته .

وكان قد اجتمع على الوليد سُخْطٌ آخر من قبيل اليمانية ، فإن يوسف بن عمر الشَّقَبي والى العراق استبدَّ به ، وحدثَ أن أسلَمَ إليه الوليد خالدًا القَسَري زعيمَ اليمانية ، فحبسه وعذَّبه وقتلَه في عذابه وحبسِه (٢) ، فأعاظ ذلك اليمانيين وأخذوا ينتظرون الحوادث . ويظهر أن الوليد كما كان يتسرَّع إلى إغضاب أبناء عمه كان يتسرَّع إلى إغضاب اليمانية ، وملء قلوبها بالحقد عليه ، واستمع إليه يقول ، وخالد صاحبها لا يزال في حبسِه (٣) :

وَطِشْنَا الأشعَرينَ بعزِّ قَيْسٍ فيالكِ وَطَاءٌ لَنْ تُسْتَقَالَا  
وهذا خالدٌ فينا أسيراً أَلَا مَتَعُوهُ إِنْ كَانُوا رَجَالَا  
عَظِيمُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ قَدِيمَا جَعَلْنَا المَخزِيَاتِ لَهُ ظِلَالَا  
فَلَوْ كَانَتْ قِبَالُ ذَاتِ عِزٍّ لَمَا ذَهَبَتْ صِنَاعُهُ ضِلَالَا  
وَكَئِدَةٌ وَالسَّكُونُ فَمَا اسْتَقَالُوا وَلَا بَرِحَتْ خِيولُهُمُ الرِّحَالَا  
فَمَا زَالُوا لَنَا أَبَدًا عَبِيدَا نَسُوهُمْ المَذَلَّةَ وَالسَّقَالَا

(٢) ديوان الوليد بن يزيد (نشر للجمع  
العلمي العربي بدمشق) ص ٥٠ .

(١) أغاني ١٨/٧ .  
(٢) طبري ١٧٨٠/٢ .

ولا فتك يوسف التقي بخالد اشند سحق اليمنية على الوليد وأخذت  
تتهز الفرصة للانتقام عليه والانتقام منه ، بل أجمعت عزمتها على  
قتله (١) ، فلما دعا يزيد بن الوليد دعوته وضعت اليمنية يدها في يده . كل  
ذلك والوليد غارق في خمره ، معتزل للناس في الأزرق بقمع هناك مسرح عزفه  
وقصفيه . وبايعت دمشق يزيد ، وعلم الوليد ، فتحرك نحو البخراء ، قصر  
النعمان بن بشير ، يظن أنه مانع ، فحاصره القوم وقتلوه .  
ومعنى ذلك أن قتل الوليد لم يكن مؤامرة من بني عمه فحسب ، بل كان قبل  
كل شيء مؤامرة من اليمنية وانتقاماً لخالد القسري زعيمها ، وفي ذلك يقول بعض  
الشعراء (٢) :

سبكي خالداً بمهنداتٍ ولا تذهب صناعته ضللاً

وهو يرُدُّ في وضوح على شعر الوليد السابق ، فهي مؤامرة ، وهي ثار ،  
واستمع إلى أبي محجن مولى خالد يقول (٣) :

سائل وليداً وسائل أهل عسكره غداة صبحة شؤبونا البرد  
هل جاء من مضرن نفس فتصنعه والحيل تحت عجاج الموت تطرد  
ويقول خلف بن خليفة :

تركنا أمير المؤمنين بخالد مكيباً على خيشومه غير ساجد  
فإن تقطعوا منا منا مطا قلادة قطعنا به منكم منا مطا قلايد

فالوليد قتل أخذاً بالثار لخالد القسري . وليس من شك في أن قتل  
الخليفة كان بعد كبيرة من الكباثر ، وقد استحل المتآمرون قتل الوليد بحجة  
إسرافه في الملذات وعكوفه عليها ، وشنعوا عليه في هذا الباب تشنيعاً كثيراً ،  
ثم جاء العباسيون فوجدوا في سيرة الوليد السيئة ، أو وجد لهم الرواة ما يشنعون به  
على بني أمية عامة .

ومن هنا كثر القصص عن الوليد ، وكثرت المبالغة فيه وفي فسقه ، وخروجه

(٢) انظر في هذين البيتين وتاليهما الطبري  
١٨٢٣/٢

(١) طبري ١٧٧٨/٢  
(٢) طبري ١٨٠٩/٢

على الدين ، حتى اتهموه بالكفر والماتويّة ، وللرواة في ذلك أقاصيصٌ يتضح فيها الانتحال ، فمن ذلك ما يرويه أبو الفرج عن العلاء البندار ، إذ يقول : وكان الوليد زنديقاً ، وكان رجلٌ من كتّاب يقول بمقالته ، مقالة الثنويّة ، فدخلتُ على الوليد يوماً ، وذلك الككنبيُّ عنده ، وإذا بينهما سَفَطٌ قد رُفِع رأسه عنه ، فإذا ما يبلو في منه حريراً أخضر ، فقال : ادنُ يا علاء ، فدنوت ، فرفع الحريرة ، فإذا في السَفَطِ صورةُ إنسان ، وإذا الزئبق والنوشادر قد جعلًا في جفنيه ، فجفنه يَطْرَفُ كأنه يتحرك ، فقال : يا علاء هذا ماني لم يَبْتَعِثِ اللهُ نبياً قبله ، ولا يبتعث نبياً بعده <sup>(١)</sup> . وهي قصة ظاهرة الانتحال ، ومثلها في رأينا ما يُروى من أنه دَعَا ذات ليلةً بمصحف ، فلما فتحه وافق ورَقَةً فيها : ( واستفتحوا وخاب كلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ من ورآئه جهنّمٌ ويُسْقَى من ماءٍ صديدٍ ) فقال أسجعاً سجعاً علقوه ، ثم أخذ القوس والنبل ، فرماه ، حتى مزقه ، ثم قال :

أَتُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنيدٍ      فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنيدٌ  
إِذَا لَاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ      فَقُلْ لَهِ مَرْقِي الْوَلِيدِ <sup>(٢)</sup>

ولسنا أولَ مَنْ يشكُّ في القصص الذي يضاف إلى الوليد ، فقد كان من القدماء مَنْ يشكُّ فيه ويشتمه ، وكان الخلفاء العباسيون أنفسهم يشكون أحياناً فيما يرويه الرواة لهم ، وكان منهم مَنْ يُدافع عنه <sup>(٣)</sup> . ولا نريد أن نُبرِّئَ الوليد من سوء سيرته ، ولا من إغراقه في اللهو والمجون ، ولكن نريد أن نعتدل ، وأن نحذر كل ما بُرِئَ عنه لأن السياسة لَعَبَتْ دَوْرًا غير قليل <sup>(٤)</sup> في تشويه سيرته ؛ وَجَدَتْ مَادَّةً ، ولكنها بالفت فيها وأفرطت ، ثم جاء الرواة والقصاص ، فأسرفوا على أنفسهم في الخيال ، وأسرفوا على الوليد في تصوير عَيْشِهِ ومجونه .

ومهما يكن فقد اجتمعت ظروف كثيرة لتخريب الوليد على هذا النحو من أنحاء

(٣) أغاني ٧/٨٣ .

(٤) انظر الطبري ٢/١٨٣٤ ، ٢/١٨٤٤ .

١٨٥٢/٢ .

(١) أغاني ٧/٥٧٢ .

(٢) أغاني ٧/٤٩ ، وانظر ٧/٢ والمسوي

١٠/٦ وما بعدها

الحياة ، فقد نشأه أبوه على اللهو والعبث والاهتمام بالفناء والسماع والأخذ من مُتَع الدنيا وخاصة الخمر والشراب ، وألحق به أستاذاً مؤدّباً كان من نفس المزاج هو عبْدُ الصَّمَدِ بن عبد الأعلى . وهذا كله أضيف إليه الثراء الواسع ، فكان الوليد يُسْرِف على نفسه إسرافاً طاغياً في كل شيء ، في أناقته وثيابه وعطره ، حتى كان يتحلّى بالجواهر ، وكانت مَسْجَمِيرُ العُود ما تزال مشتعلة في أرجاء قَصْرِهِ الملىء بالطنافس والقيان والحواري من روميات وغير روميات .

حياة كلها زاهية مترفة على هذا النحو لا بد أن ينشأ صاحبها على حبّ اللذائل الحسية والإسراف فيها والعكوف عليها والعصبّ منها ومن مفاتنها ومباهجها . ويخيّل إلى الإنسان أن الوليد لم يترك مُتَعَةً من مُتَع عصره ولا طُرْفَةً من طُرْفِهِ إلا وجمعها لنفسه ، وحياته من هذه الناحية أشبه ما تكون بشريط بَسْرَاقٍ من أشرطة دور الحليّات ، فهي تُمَثِّل تحت بَصَرِكَ مكثّفة بمشاهد كثيرة خلافة . وهو شريط لا يخلو من الحبّ ، بل نحن نرى الحبّ في كل موضع منه ، فقد تصادف أن تزوّج سَعْدَةَ بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، وفي إحدى زيارته لأهلها رأى أختها لها تسمى سَلَمَى ، فشغِفَ بها حبّاً ، وأحبّها حبّاً جَمّاً ، فطلّق أختها رجاء أن يتزوَّج منها ، ورفض أبوها رغبته ، فهام بها ، ونظّمَ فيها أكثر مقطوعاته ، وطرحها على المغنين يغنونه فيها ، واحتفظ لنا كتابُ الأغاني بطائفة منها ، من مثل قوله (١) :

وَبِحَ سَلَمَى	أَوْ تَرَانِي	لَعَنَّاها	مَا عَنَّا
مُتَلَفّاً	فِي اللّهُو مَالِي	عَاشِقاً	مُحَوِّراً
شَاقَّ	قَلْبِي وَعَنَّا	حُبُّ	سَلَمَى وَبِرَّانِي
وَلَكُمْ	لَا مَ نَصِيحٌ	فِي	سَلِيمَى وَنَهَّانِي

وقوله (٢) .

أَرَانِي	اللّهُ يَا سَلَمَى	حَيَاتِي
أَلَا تَجْزِينِ	مَنْ تَيَسَّمْتِ	عَصْرًا
وَفِي	يَوْمِ	الحِسابِ كَمَا
وَمَنْ	لَوْ	تَطْلِبِينَ لَقَدْ
		قَضَاكَ

وَمَنْ لَوْ مَتَّ مَاتَ وَلَا تَمْسُقِي      لَوْ أَنْسَى لَهُ أَجَلَ بَكَكِ  
 وَمَنْ حَقًّا لَوْ اعْطِي مَا تَمْنَى      مِنَ الدُّنْيَا العَرِيضَةَ مَا عِنْدَكَ  
 وَمَنْ لَوْ قَلَّتْ مَتُّ فَأَطَاقَ مَوْتًا      إِذَا ذَاقَ المَمَاتَ وَمَا عَصَاكَ

وشعره في سَلَمَى كله على تلك الشاكلة من الصباية وحرقة الهوى وشدة اللوعة . وما زال يُدبب قلبه شعراً فيها ، حتى ولى الخلافة ، ويزعم الرواة أنه تزوجها حيثلد وأنها لم تمكث معه إلا مدة يسيرة ، ثم توفيت ، فبكاها بكاء حاراً ، على نحو ما نرى في قوله (١) :

يَا سَلَمَى كُنْتَ كَجَنَّةٍ قَدْ انْتَمَرَتْ      أَفْنَانُهَا دَانَ جَنَّتَاهَا مُوَضِعٌ (٢)  
 أَرْبَابُهَا شَقَقْنَا عَلَيْهَا نَوْمَهُمْ      تَحْلِيلٌ (٣) مَوْضِعَهَا وَلَمَّا يَهْتَجِعُوا  
 حَتَّى إِذَا فَسَحَ الرَّبِيعُ ظَنُونَهُمْ      نَشَرَ الحَرِيفُ ثَمَارَهَا فَتَصَدَّعُوا

وحب الوليد لسَلَمَى وإخلاصه لها وتفانيه فيها يدلُّ على أنه كان مرهف الشعور ، ليس فيه جفاء ، بل فيه الحسُّ الرقيقُ والعاطفةُ الدقيقة . ومع ذلك فحبه لم يُنسيه يوماً آلات طربه ، ومجالس شرايه ، وسأقياته الحسان ، وعازفاته من القيان ، يقول في بعض شعره (٤) :

وَلَقَدْ قَضَيْتُ - وَإِنْ تَجَلَّلَ لِمَسِّي      شَيْبٌ - عَلَى رُغْمِ العِدَا لِدَائِي  
 مِنْ كَاعِبَاتٍ كَالدُّمَى وَمَتَاصِيفٍ      وَمَرَكَبٍ لِلصَّيْدِ والنَّشَوَاتِ

ولعل إخفاقه قبل خلافته في هذا الحب ، بل إخفاقه فيه حين حصل عليه واغتصبته منه الموت ، كان باعثاً مهماً على إدمانه للخمر . وفي كل موضع من سيرته نجد الحديث عن كثرة شربه وما كان يُفْرِغُه في جوفه من أرتال الخمر وأقداحها ، تسقيه بها الملاح على نقر الدُّقُوفِ وترجيع الغناء .

ويكاد الإنسان يؤمن بأن العرب لم يوجد عندهم قبل الوليد من عشيق الخمر عشيقته . حقاً هناك وصفٌ كثير للخمر في الشعر الجاهلي وفي الشعر الأموي ، ولكن

(١) أغاني ٧/٦٥ .  
 (٢) التحليل : النزول اليسير .  
 (٣) أغاني ٧/١٢ . والمتاصيف : الجوارى .  
 (٤) أغاني ٧/١٢ . والمتاصيف : الجوارى .

(١) أغاني ٧/٦٥ .  
 (٢) موضع : منفذ .

الإنسان لا يجد في الوصف القديم ولا في الوصف المعاصر للوليد ما يجده عنده من شفافية التعبير ، وهي شفافية جاءت من أنه عشق الخمر ، أو قل عبدها ، واتخذها مذهباً له في حياته . ولعل هذا أهمُّ فارق بينه وبين الشعراء القدماء ، فقد كانوا ينظمون القصيدة ، فيذكرون فيها خمراً وغير خمر ، وكذلك كان يصنع الأخطل . أما عند الوليد ، فالقطعة تؤلّف للخمر فحسب ، فهي ليست وسيلة لشيء بعدها ، وإنما هي وسيلة لنفسها أو هي وسيلة وغاية في الوقت نفسه .

هي خَمْرِيَّةٌ ، والوليد من هذه الناحية يعيش للخمر ، ويرصد حياته كلها لها ، ويموت أو يُقتلُ في سبيلها ، ويبتغي لها البرك ، يسبّح فيها أحياناً كالطوت ، وينام على حافتها كالطبير ، وفي سبيلها أضاع ملكه ، بل كان يقول (١) :  
 دعوا لي سُلَيْمِي وَالطَّلَاءُ وَقَيْنَسَةُ      وَكَأْسًا أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ مَسَالَا  
 خَدُوا لِي مُلْكَكُمْ لِأَنْتَبَّتْ اللَّهُ مُلْكَكُمْ      فَلَيْسَ بِمَاوِي مَا حَسِبْتُ عِقَالَا  
 وأخذوا منه حقاً ملكه ، وراه وهم يهمون بأخذه ، فلم يرعَوِ ، ولم يزد جبراً ، بل استمرَّ يصل سُكْرًا بِسُكْرٍ ، ونشوةً بنشوة ، وكأنه يحرص على آخر قطرةٍ من فطرات المتعة .

وهكذا حياةٌ كلها خَمْرٌ وعكوفٌ على الخمر ومبادرةٌ إلى بيوتها وأدبيرتها وحاناتها حكى مرّ عبداً قال : « ماشعت يوماً ، وقد فتحتُ حانوتي وجاست إلى جانب الهَيْسِكِل ، إلا بثلاثة فوارس قد أقبلوا في طريق السّماوة في البرِّ ، حتى وقفوا علىّ ، وهم متلثمون بعمائم الخبز ، وعليهم حُلَلُ القَصَبِ ، فسلموا علىّ ، وأسفّر أحدهم ، وقال : أنت مرّ عبداً وهذا دينرٌ حنّةٌ ؟ قلت نعم ، قال : قد وُصفت لنا بجودة الشراب والنظافة ، فاستقني رطلاً ، فبادرت ، ففسلت يدي ، ثم نقرت الدنان ، ونظرت أصفها فبسرته (٢) ، فشرب ، ومسح يده وفمه بالمنديل ، ثم قال : استقني آخر ، ففسلت يدي ، وتركت ذلك الدنان وذلك القَدَحَ والمنديل ، ونقرت دناناً آخر ، فلما رضيت صفاه بزأت منه رطلاً في قَدَحٍ ، وأخذت منديلاً جديداً ، فناولته إياه ، فشرب كالأول ، ثم قال استقني رطلاً آخر ، فسقيته في غير ذلك القَدَحِ وغير ذلك المنديل ، فشرب ،

(٢) بزل الدن : فتحه وصبه .

(١) أغاني ٧٩/٧ ورسالة الغفران ص ١٤٩

ومسح فـه ويده ، وقال لى : بارك الله فيك ، فـا أطيبَ شرابك وأنظفك وأحسن أدبك ! وما كان دأبى أن أشرب أكثر من ثلاثة أرطال ، فلما رأيت نظافتك دعتنى نفسى إلى شرب رابع فهاهه ، فناولته إياه على تلك السبيل ، فـشرب ، وقال : لولا أسباب تمنع من بيتك لكان حبيباً إلى جلوسى يوى هذا فيه ، وولتى منصرفاً فى الطريق الذى بدا منه ، ورى إلى أحد الراكبين اللذين كانا معه بكيس : فقلت : وحقّ النصرانية لا قبلته حتى أعرف الرجل ، فقال هذا الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، وُصِفَتْ له فأقبل من دمشق ، حتى شرب من شرابك ، ورأى دبرك والحيرة ، ثم انصرف ، فتحللت الكيس ، فإذا هو أربعمائة دينار<sup>(١)</sup> . وإذا كان الوليد يقصد دبر حنة فى الحيرة ، فأولى أن يقصد أدبرة الشام متخفياً إن أراد . وفى ديوانه شعر يذكر فيه دبر يوتنا يقول فيه<sup>(٢)</sup> :

حببنا ليلتى بدبر يوتنا      حيث نسقتى شرابنا ونغتنى  
كيفما دارت الرُجاجة دُرنا      يحسب الجاهلون أننا جننا  
وجعلنا خليفة الله فطرو      س مجوننا والمستشار يُحننا

ولعل زيارة هذين الدبرين وغيرهما من الأدبرة كان لها بعض الانطباعات فى نفس الوليد ، فهو بمجن وهو يفكر فى حقيقة الأديان .

وليس هذا فحسب ، فإن معلمه عبد الصمد اتهم بالزندقة ، ونحن لا نريد أن نتهمه لا هو ولا معلمه بهذه الزندقة ، كما اتهمها القدماء ، إنما نريد أن ندل هنا على ما أصاب العقل العربى من انطباعات شك ، بسبب اختلاط الأجناس وامتزاج الحضارات واقتباس العرب من الثقافات ، وكانت دمشق تتأثر بالثقافة اليونانية عن طريق ما كان يُدعيه المسيحيون من أمثال يوحنا اللمشى ، ومر بنا ما كان من تعارض الآراء فى مسألة القدر وحرية الإنسان فى العمل . فكان هذا وما يماثله يتشرك بعض الظل فى نفس الوليد فيظهر فى شعره شيء من الدعابة التى لا يراد

(٢) الديوان ص ٥٦ .

(١) مسالك الأبصار (طبع دار الكتب)



بها إلى الإلحاد كما ظن القدماء ، وإنما يراد بها إلى العبث من مثل قوله (١) :

أدير الكأسَ يمينا لا تُديرها ليمارِ  
استنى هذا ثم هذا صاحبَ العودِ النضارِ  
من كُمَيْتٍ عَتَّقَها منذ دَهْرٍ في جِرَارِ  
خَتَمَها بالأفاورِ (٢) وكافورٍ وقسارِ  
فلقد أيقنتُ أني غيرُ مَبْعُوثٍ لنارِ  
سأروضُ الناسَ حتى يركبوا دينَ الحمارِ  
وذروا من يطلبُ الجنَّةَ بِسَمَى لِيَبَارِ (٣)

ومن نظم الوليد إذا صنعنا كما صنع القدماء ، واتخذنا من مثل هذه الحميرية دليلاً قاطعاً على إلحاده ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا شعر ماجن ، قاله سكير يتعابث . ومن غير شك هو ظلُّ للحياة العقلية ، وما أصابها من تطور تحت تأثير الأفكار الجليدية المشعة ، ولكنه في الوقت نفسه ظلُّ يأتى هنا على سبيل الدُّعابة في مجال الشُّرب والخمر .

ومعنى ذلك أننا لا نقول بما قاله معاصروه من أنه لم يكن يؤمن بيوم الحساب (٤) أو ما قالوه من أنه لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً (٥) ، فهذا شعر يراد به إلى العبث . هو يعطى شيئاً من نزعَةِ الشكِّ في العقل العربي ، ولكنه لا يتطهى بصاحبه إلى إنكار يوم الحساب وشريعة الإسلام ، إنما هو صدَى التحول في العقلية العربية وما أصابها تحت تأثير البحث في العقائد والآراء . أما بعد ذلك فقد كان الوليد متديناً وربما كان مما يدل على ذلك ما يرويه الرواة من أن ابناً له مات كان يُسَمَّى مؤمناً ، فلم يستطع أحد أن يتنمَّه إليه حتى تميل ، فعناه إليه سينان الكاتب ، فقال في الحال (٦) :

أتانى سينانٌ بالوداعِ لمؤمنٍ فقلتُ له إنى إلى الله راجعُ

(٤) طبرى ١٨٥٣/٢ .

(٥) طبرى ١٨٤٤/٢ .

(٦) أغاني ٦٩/٧ .

(١) أغاني ٤٦/٧ ورسالة النفران ص ١٤٥ .

(٢) الأفلوحيه : أنواع من الطيب .

(٣) لُبَّار : الملاك .

ومعنى ذلك أننا نذهب إلى أن الوليد كانت تعتربه فترات عبث تحت تأثير الخمر ، ثم يثوب إلى رشده ، ومن المعروف أن الإنسان تتوالى فيه حالات نفسية وعقلية ، ترتفع وتهبط في انتظام كانتظام المدِّ والجَزْرِ . ومن الممكن أن يصوغ الوليد ، بل من المؤكد أنه كان يصوغ مثل الحميرية السابقة في فترات الهبوط أو في نَقْطِ الهبوط ، وهو أيضاً كان يصوغها على سبيل العبث والدُّعابة .

على كل حال نحن نميل إلى أن هذه الشَّرْعَة التي بَدَت في خمريات الوليد لم تكن مسببة عن أزمة روحية أو دينية ، إنما كانت مسببة عن أزمة عقلية أو فكرية ، وهي في الوقت نفسه لم يكن يرَاد بها إلى الجِدِّ ولا إلى ما يُشْبِه الجِدِّ . والوليد في هذه النزعة أستاذُ أبي نواس ومن لفَّ لَفَّهُ من شعراء الخمر في العصر العباسي ممن كانوا يتعابثون في خمرياتهم .

ويظهر أن تأثير الوليد بهذا الفن : فنَّ الخمريات فيمن جاعوا بعده وخاصة أبا نواس كان واسعاً جيداً ، فهو الذي فتح لهم بابَ هذه المقطوعات الرشيقية ، التي قلما زادت عن عشرة أبيات ، والتي تختص بالخمر وسُقَاتِهَا ووصف آلائِهَا وما تُحَدِّث من نشوة وَصَفًا يدلُّ على العشق والفتاء فيها .

فالوليد هو صاحب هذا الفنِّ في الشعر العربي ، وهو الذي عمل على إذاعته . كان موجوداً قبله في شعر الشعراء ، ولكنه لم يكن فناً قائماً بنفسه يَهَبُّ الشاعرُ شعره وحياته له على نحو ما وهبها الوليد ، لأن الحياة العربية كانت قاسية بعض القسوة ، وخاصة في العصر الجاهلي ، فلم تُتَحَّ للشعراء الفرصة أن يعيشوا للخمر وحدها ، على نحو ما عاش الوليد .

وأظننا الآن نتضح في أنفسنا فكرة التخصُّص التي أشرنا إليها مراراً في هذا البحث ، فالشعراء الممتازون في هذا العصر ، كاد كل منهم أن يتخصَّص بفن من الفنون لا يَعدُّوه ، وهو ضرب من النمو والتطور العقلي الذي أصاب الأمة العربية ، فالشاعر يستطيع أن يعيش في فنٍّ واحد ، يقوم عليه ، كما يقوم أصحاب الآراء والمعتقدات من قَدَرِيَّة وغير قَدَرِيَّة على مذاهبهم لا يتحولون عنها . وهو لا يكتفي بذلك ، بل يحاول أن يرتقي بالفن من الفنون الذي يتخصص فيه . فهذا الوليد يعيش للخمر ، ويرتقي بشعره فيها فنوناً واسعة من الرق ، أساسها أن تُفَرَّد

للخمر قطعة خاصة بها ، وأن يصفها الشاعر لا وصفًا حسيًا ظاهريًا كما كان يصنع القدماء ، وإنما يصفها وصفًا معنويًا ، يُعَبِّرُ فيه عن عشقه لها ، أو قل عن عبادته إياها ، فهو يَفَنِّئِي فيها فناء .

وربما اتضح هذا عند أبي نواس أكثر مما يتضح عند الوليد ، لا لسبب إلا لأن شعر الوليد فُقِدَ ولم يبق منه إلا هذه المقطوعات القليلة الماثونة في الأغاني وغيره من كتب الأدب ، وقد نُشِرَت بين مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق باسم ديوان الوليد بن يزيد . ومع ذلك فهذه المقطوعات القليلة نفسها تدل دلالة قاطعة على ما نزعته من أن الوليد هو الذي سَنَّ للعباسيين سُنَنَ الخمرية بكل ما يَسْمِيهَا من عِشْقِ الخمر وعبادتها وكل ما يتجَلَّى فيها من نَزْعَةٍ شَتَّى أو عِبَثٍ . وكان العباسيون أنفسهم يؤمنون بذلك ، يقول أبو الفرج : « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة » ، قد أخذها الشعراء ، فأدخلوها في أشعارهم ، وسَلَخُوا معانيها ، وأبو نُوَاسٍ خاصة ، فإنه سَلَخَ معانيه كلها ، وجعلها في شعره ، فكَرَّرَهَا في عدة مواضع منه ، ولولا كراهةُ التَّطْوِيلِ لذكرتها ها هنا ، على أنها تُشْبِهُ عن نفسها <sup>(١)</sup> . وكنا نودُّ لو أن أبا الفرج آثر التَّطْوِيلَ ، لأن ديوان الوليد فُقِدَ ، وَحَمَلَ الناسُ الخمرية على أبي نواس ، وَتَسَوَّأَ مُبَدِّعِيهَا ومنشئُ فنِّها في اللغة العربية بمعناه الكامل التام .

الوليد إذن هو صاحب هذا الفن ، فنَّ الخمرية في الشعر العربي ، فهو الذي نهج للعباسيين من مثل أبي نواس طُرُقَهُ ، وذَلَّلَ لهم مسالكه ، ورسم لهم صُورَهُ ، ووقَّع لهم نَعْمَتَهُ ، واستمع إلى هذه الخمرية <sup>(٢)</sup> :

اصدَعْ نَجِيَّ الهوم بالطَّرَبِ	وانعم على الدهر بابنة العنَبِ
واستقبل العيش في غضارته	لا تقف منه آثار مُعْتَقِبِ
من قهوة زانها تقادُ مُها	فتهيَّ عجزو تعلقوا على الحَقَبِ
أشهى إلى الشرب يوم جالوتها	من الفتاة الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلَّت ورق جَورِها	حتى تبدَّت في منظر عَجَبِ

فَهَيَّ بِغَيْرِ الْمَزَاجِ مِنْ شَرَرٍ وَهَيَّ لَدَى الْمَزَاجِ سَائِلُ الذَّهَبِ  
كَأَنَّهَا فِي زَجَاجِهَا قَبَسٌ تَذَكُّو ضِيَاءَ فِي عَيْنَيْنِ مُرْتَقِبِ

ولولم نعرف صاحب هذه الخمرية ومعناها لقلنا توّاً إنها لأبي نُوَاسٍ ،  
ففيها طابعه ، وفيها فتنته بالخمير وصبايته ، وفيها رِقَّةٌ حَيْسَهُ ، ودِقَّةٌ مشاعره ،  
مما ينم عن أثر الحضارة والترف . وإن الوليد لينفعل لإزاء الخمر انفعال العاشق أمام  
معشوقته الجميلة الكريمة النَّسَبِ . وفي كل موضع من خمرياته نشعر أنه يُقْبَلُ  
على أقداحه وكتوسه إقبال المفتون حَقّاً ، ومن هنا كانت تَشْبِيحُ في شعره وخمرياته  
على الخصوص رُوحُ المَرَحِ الشديد ، ولعل ذلك ما أفاضَ على خمرياته حَيَوِيَّةً  
غريبة ، هي نفس الحيوية التي نجدُها في خمريات أبي نُوَاسٍ ، واستمع إلى هذه  
الخمرية (١) :

عَبْلَانِي	وَاسْقِيَانِي	مِنْ شَرَابِ	أَصْبَهَانِي
مِنْ شَرَابِ	الشَّيْخِ كَسْرِي	أَوْ شَرَابِ	الْقَيْرَوَانِ
إِنْ فِي	الْكَأْسِ لَمَسِكًا	أَوْ بِكَفِّي	مَنْ سَقَانِي
أَوْ لَقَدْ	غَوَدِرَ فِيهَا	حِينَ صُبَّتْ	فِي الدُّنَانِ
كَلَّلَانِي	تَوَجَّانِي	وَبِشَعْرِي	غَنِّيَانِي
أَطْلِقَانِي	بَوْتَانِي	وَاشْدُدَانِي	بَعْنَانِي
إِنَّمَا	الْكَأْسُ رُبِيعٌ	يُتَعَاطَى	بِالْبَيْتَانِ
وَحُمِيًّا	الْكَأْسُ دَبَّتْ	بَيْنَ رِجْلِي	وَاسَانِي

ولا ريب في أن هذه خمرية طافحة بالحياة ، نظمها شاعر ، يعشق الخمر ،  
ويعيش لها ، ويُدْمِنُ عليها ، يشربها إذا أصبح ، ويشربها إذا أمسى ،  
ولا يكتفي بشربها ، بل يستحمُّ بها ، ويتنصَّحُها على جسده ، يتضمَّخُ بها كأنها  
ماءٌ معطرٌ ، فهي لذته من دنياه ، وهي نعيمُ الحياة في رأيه .

أنتظنا بعد ذلك نبأنا إذا قلنا إن الوليد هو الذي شرَّع لأبي نُوَاسٍ وأضرابه من

العباسيين هذا المذهب ، مذهب الخمريات ، أو مذهب الخمر واللذة ؟ لقد أخذت الخمريات عنده كل رسومها وصفاتها التي عاشت بها من بعده ، لا من حيث روحها ومعانيها ، كما لاحظ أبو الفرج ، بل أيضاً من حيث لغتها وأساليبها . وحتى الآن لم نتحدث عن هذا الجانب في الوليد ، وهو من أهم الجوانب في شعره ، إذ يشعر كل من يقرؤه أن شعره يُصاغ من لغة عادية ، ليس فيها غريب ولا مهجور ، وإنما فيها المألوف القريب . وقد أسلفنا في غير هذا الموضوع أن عمر ابن أبي ربيعة وأصحابه من شعراء الغزل الحجازيين هجروا أساليب الشعر القديمة إلى اللغة المألوفة في الحياة اليومية تحت تأثير الغناء وتطور الحياة العربية وما امتزج بها من حضارة . وكل من يقرأ الوليد يشعر عنده بنفس الصورة اللغوية ، بل لقد نمت الصورة عنده ، فأصبح أسلوب الشعر أطوع وأكثر مرونة وفي الوقت نفسه أدنى وأقرب إلى اللغة المألوفة .

ومعنى ذلك أن الوليد لم يُعطِ للخمرية في الشعر العربي معانيها فقط ، بل أعطاها أيضاً هذه اللغة السهلة المألوفة التي نجدها من بعده عند أبي نواس وأمثلة . وكان كل شيء يُعَدُّ الوليد لإعطاء هذه الصورة ، فقد كان أكثر اختلاطاً وامتزاجاً بأوساط المغنين ، وكانت الحضارة تتعمقه بأكثر مما تتعمق عمر ونظراءه من شعراء الحجاز . وليس هذا فحسب ، فقد اتحد عنده الغناء والحضارة والشعر ، فهو ابن قُصُور دمشق المتأثرة تأثراً عميقاً بالحضارة البيزنطية ، وهو شاعر ، ثم هو عازف قيثارة . يقول أبو الفرج : « له أصوات صنعها مشهورة وقد كان يتضرب بالعود ، ويوقع بالطبيل ، ويحشى بالدُف على مذهب أهل الحجاز » ثم يروي عن خالد صامة المغمي أنه قال : « كنت يوماً عند الوليد بن يزيد وأنا أغنية (أراني الله يا سلمى حياتي) وهو يشرب حتى سكير ، ثم قال لي هات العود ، فدفعته إليه ، فغناؤه أحسن غناء ، ففيسنت عليه إحسانه ، ودعوت بطبيل فجعلت أوقع عليه ، وهو يضرب ، حتى دفع العود ، وأخذ الطبل فجعل يوقع به أحسن إيقاع ، ثم دعا بدف ، فأخذه ومشيتي به ، وجعل يغنني أهزاج طويس ، حتى قلت قد عاش ، ثم جلس وقد انبهر ، فقلت يا سيدي : كنت أرى أنك تأخذ عنا ، ونحن الآن نحتاج إلى الأخذ عنك ا . » وروى أبو الفرج

قِصَّةٌ تُشَبِّهُ هَذِهِ أَيْضًا عَنْ بَيْحِي قَبِيلِ مَوَالِي الْعَبَلَاتِ (١).

فالوليد كان شاعراً وكان عازفاً أو مغنياً ، وأشار أبو الفرج في غير موضع من كتابه إلى بعض ألحانه (٢) ، ومن يتعقب شعره يجدُه ألحاناً خالصة ، فهو من جهة بَصَاعٌ من لغة سهلة تَجْرِي على اللسان في خِفَّةٍ ، ومن جهة ثانية تُخْتَارُ له الأوزان الخفيفة التي تَسْكِبُهُ في القلب : كأنه لحن خالص أو لحن صاف ، واستمع إلى قوله (٣) :

ورآوه الناسُ بادٍ وحَصْرٌ	شاع شعري في سُلَيْمِي واشتَهَرُ
وتغنينَ به حتى اشتَهَرَ	وتهادته العذاري بيئتها
لَسَجَدْنَا أَلْفَ أَلْفٍ لِلْأَثَرِ	لو رأينا لسُلَيْمِي أثراً
ولكانت حججنا والمعتمِرُ	واتخذناها إماماً مرتضى

فهذا شعرٌ ينطلق من الفم بخِفَّةٍ ، لأنه شعر عازف ، على عودٍ وقيثار ، يعرف كيف يؤلف اللفظ ، وكيف يصوغه لحنًا خالصاً ، واستمع إليه يقول (٤) :

اسقيني يا يزيد بالقرقارة	قد طربنا وحننت الزمارة
اسقني إسقيني فإن ذنوبي	قد أحاطت فإلتها كقماره

أو يقول (٥) :

خبروني أن سلمي	خبرجت يوم المصاتي
فإذا طيرٌ مكيحٌ	فوق غصن يتفلي
قلت من يعرف سلمي	قال ها ثم تعني
قلت يا طير ادن مني	قال ها ثم تدلني
قلت هل أبصرت سلمي	قال لا ثم تولني

فالسهولة والعدوبة والخِفَّةُ والرَّشاقة كلُّ ذلك أساسيٌّ في شعر الوليد :

(٤) الديوان ص ٤٤ وانظر مسالك الأبيصار  
٣٩٨/١ والمسعودي ٥/٦ .  
(٥) أغاني ٣٦/٧ .

(١) انظر الأغاني ٢٧٤/٩ وما بعدها .  
(٢) انظر الأغاني ٣٢/٧ ، ٤٤/٧ ،  
٢٧٤/٩ .  
(٣) الديوان ص ٤٣ .

خَمْرِيَّاتِهِ وَغَيْرِ خَمْرِيَّاتِهِ ، وَهُوَ فِي الْحَقِّ شِعْرٌ كُتِبَ لِيَلْحَنَ وَيُغَنِّي . وَمِنْ هُنَا كَانَتْ أُنْبِيئَتُهُ لَيْسَنَةً ، وَكَانَتْ أَوْزَانُهُ فِي الْغَالِبِ قَصِيرَةً . وَيَسْتَطِيعُ مِنْ يَتَقَرَّنُ الْأَشْعَارَ أَوْ الْأَصْوَاتَ الَّتِي غُنِّيَ فِيهَا لِلْوَلِيدِ إِلَى أَشْعَارِ عُمَرَ وَأَصْوَاتِهِ وَكَذَلِكَ أَشْعَارُ الْحِجَازِيِّينَ مِنْ وَرَائِهِ وَأَصْوَاتِهِمْ أَنْ يَلَاظِ الْإِشْرَاقَ هُنَا وَهُنَا فِي الْمِيلِ إِلَى الْأَوْزَانِ الْمُجْتَزِأَةِ ، فَإِنْ تَرَكَّتْ فِإِلَى الْأَوْزَانِ الْخَفِيفَةِ غَالِبًا كَالرَّمَلِ وَالْمُتَقَارِبِ .

وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ شَكِّ انْتَقَلَ الْوَلِيدُ بِهَذَا الْعَمَلِ نَقْلَةً ، فَهُوَ يَمِيلُ أَكْثَرَ مِنَ الْحِجَازِيِّينَ إِلَى التَّحْرِيفِ فِي الْأَوْزَانِ وَالتَّعْدِيلِ فِيهَا حَتَّى تَتَلَامَمَ مَعَ الْغِنَاءِ الْجَدِيدِ . وَالْوَلِيدُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يُعَدُّ خَطْوَةً نَهَائِيَةً لِلْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَالتَّغْيِيرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي أَوْزَانِ الشِّعْرِ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْغِنَاءِ ، فَقَدْ كَانَ عَازِفَ عَوْدٍ وَمُلْحِنَ أَصْوَاتٍ ، وَلِذَلِكَ بَدَتْ تَجَزِئَةُ الْأَوْزَانِ عِنْدَهُ بِأَوْسَعِ مَا بَدَتْ عِنْدَ شِعْرَاءِ الْحِجَازِ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ طَوَّعَ الشِّعْرَ لِلْغِنَاءِ بِأَكْثَرِ مَا طَوَّعَهُ عَمْرٌ وَأَقْرَانُهُ مِنْ شِعْرَاءِ الْحِجَازِ بِعَامِلِ الضَّرُورَةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُ فِي أَثْنَائِهَا ، وَضَرُورَةَ الْغِنَاءِ وَالْحَانَةِ وَاسْتِخْرَاجِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ تَوْقِيعَاتٍ وَتَرَنِيمَاتٍ . وَطَبِيعِيٌّ أَنْ يَكُونَ أَثَرُ شَاعِرٍ يَخْتَلِفُ إِلَى الْمَغْنِيِّينَ ، غَيْرِ أَثَرِ آخَرَ ، هُوَ نَفْسُهُ مُغْنٍ ، وَهُوَ نَفْسُهُ مُلْحِنٌ . فَعَمْرٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْحِجَازِيِّينَ كَانُوا يَتَأَثَّرُونَ بِالْغِنَاءِ الْجَدِيدِ وَالْحَانَةِ ، وَيَحَاوِلُونَ أَنْ يَجِدُوا ، وَأَنْ يَلْتَمُوا بَيْنَ شِعْرِهِمُ وَالْحَانِ الْجَدِيدَةِ مَلَائِمَةً قَدْ تُصِيبُ وَقَدْ تُخْطِئُ . أَمَّا عِنْدَ الْوَلِيدِ فَهُوَ الشَّاعِرُ وَهُوَ الْمَغْنِيُّ وَالْمُلْحِنُ ، يُوَلِّفُ الْقِطْعَةَ ، وَهُوَ يَعْرِفُ مَا يَرِيدُهُ مِنَ الْحَانِ وَتَوْقِيعَاتِ ، وَمِنْ تَقْصِيرِ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ وَالْهَمْسِ بِهَا أَوْ تَطْوِيلِهَا وَمِدِّهَا . وَلَعَلَّنَا لَا نَعْجَبُ حِينَ نَعْرِفُ أَنَّهُ نَظَمَ أَوَّلَ قِطْعَةٍ جَاءَتْ فِي كِتَابِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ وَزَنِ الْمَجْتَسِّ ، وَقَدْ قَالَهَا حِينَ تُوَفِّيَ عَمْرٌ هِشَامٌ ، وَهِيَ تَجْرِي عَلَى هَذَا النَّمَطِ (١) :

إِنِّي سَمِعْتُ بَلِيلَ	وَرَأَى الْمُصَلِّيَ بَرَّةً
إِذَا بَنَاتُ هِشَامِ	يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّ
يَنْدُبْنَ قَرَمًا جَلِيلًا	قَدْ كَانَ يَعْضُدُ هُنَّةً

وَلَا تَرْتَابُ فِي نِ الْوَلِيدِ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْوِزْنِ عَنِ طَرِيقِ الْخُرُوقِ الَّتِي كَانَ

يُحَدِّثُهَا فِي الْأَوْزَانِ ، أَوْ مَا يَسْمِيهِ الْعَرُوضِيُونَ بِالزَّحَافَاتِ ، حَتَّى يَلَامُ بَيْنَ شِعْرِهِ  
وَالْحَانَةِ الَّتِي يَرِيدُهَا . وَلَوْ أَنَّ دِيْوَانَهُ وَصَلَ إِلَيْنَا لَأَسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ بِالضَّبْطِ مَا أَحْدَثَهُ  
فِي هَذَا الْجَانِبِ ، وَمِنْ يَدْرِي رُبَّمَا أَحْدَثَ تَغْيِيرَاتٍ أُخْرَى فِي أَوْزَانِ الشِّعْرِ لَمْ يَحْتَفِظْ  
لَنَا بِهَا كِتَابُ الْأَخَانِي .

وَالْوَلِيدُ هَذَا كُلُّهُ يَأْخُذُ أَهْمِيَّةً بَعِيدَةً فِي تَارِيخِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى  
مِرْوَةِ أَوْزَانِهِ وَمُطَاوَعَتِهَا لِلغَنَاءِ الْجَدِيدِ ، كَمَا أَعَدَّ لِأَكْتِمَالِ فَنِّ الْخَمْرِيَّاتِ فِي  
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِذْ اتَّخَذَ الْحَمْرَ فِلْسَافَةً لَهُ ، وَتَفَنَّى بِهَا غِنَاءَ الْمُهَيْبِينَ . وَبِئْسَ ذَلِكَ فَحْسَبٌ ،  
فَقَدْ أَخْرَجَ شِعْرَهُ فِي لُغَةٍ شَجِيئَةٍ مَأْلُوقَةٍ . وَقَدْ رَوَى لَهُ أَبُو الْفَرَجِ أَرْجُوزَةً مَزْدُوجَةً  
خَطَبَ بِهَا فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ ، وَهِيَ تَعْدُ أُمَّةً لِلشِّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ الَّذِي شَاعَ فِي الْعَصْرِ  
الْعَبَّاسِيِّ عِنْدَ أَبَانَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَنَظَرَانِهِ

وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الشِّعْرِ قَدْ انْتَضَحَ لَنَا ، فَهُوَ شَاعِرٌ مُجَدِّدٌ مِنْ فَوْقِ  
حَدِيثِ ، يَتَفَنَّي وَالْحَضَارَةَ الَّتِي نَشَأُ فِيهَا وَالتَّرْفَ الَّذِي نَبَتَ فِيهِ ، بَلْ قَلَّ لِي أَنَّهُ  
ضَرِيئَةٌ هَذَا التَّرْفِ ، فَقَدْ تَحَوَّلَ يَتَفَنَّي بِالْخَمْرِ وَالْحُبِّ ، وَحَاطَلَ أَنْ يَجِدَّ دَبْكَ كُلِّ  
مَا يَسْتَطِيعُ فِي أَوْزَانِ الشِّعْرِ وَأَنْغَامِهِ .

٥

### مَتُونُ رُوْبِيَّةٍ

هُوَ رُوْبِيَّةُ بْنُ الْعَجَّاجِ التَّمِيمِيِّ وَاسْمُ الْعَجَّاجِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رُوْبِيَّةٍ ، وَنَسَبُهُ  
يَتَّصِلُ بِسَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ رُوْبِيَّةٌ سَنَةَ ٦٥ لِلْهِجْرَةِ وَهُوَ لَا يَزَالُ  
فِي الْبَادِيَةِ . وَلَمَّا شَبَّ رُوْبِيَّةٌ نَزَلَ أَبُوهُ مَعَهُ الْبَصْرَةَ ، وَمِنْ هُنَاكَ أَرْسَلَهَا الْحَجَّاجُ إِلَى  
دِمَشْقَ كَيْ يَتَّخِذَهَا عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ مَنْ يَتَّقِدُونَ عَلَيْهِ لِمَدْحِهِ <sup>(١)</sup> .

(١) أغانى (طبع الساسى) ٢٥٩/٢١ .



وهذا الخبر أقدم أخباره وفي ديوانه أرجوزة يمدح بها القاسم بن محمد بن القاسم الذمقي وفيها يشيد بفتوح أبيه في السند ، ومعروف أنه فتحها لعهد الوليد بن عبد الملك سنة ٩٤ للهجرة وكان تنويه رؤبة فيها بفتوح القاسم في الهند سبباً في أن يتبادر إلى بعض الباحثين أنه هو المملوح بها ، وكأنها نُظمت عقب فتحه للسند ، ولكن الحق أنها نظمت في عصر متأخر<sup>(١)</sup>. وفي الديوان أرجوزة أخرى في مديح شخص يسمى عبد الملك بن قيس الذمقي كان على السند<sup>(٢)</sup> ، مما قد يدل على أنه كان يسهل إلى هذه الأتحاء .

وفي شعره ما يدل على أنه اضطرب في الحروب والحوادث التي وقعت بخراسان بعد قتل قتيبة بن مسلم سنة ٩٦ للهجرة . وقد وقَّد في هذه الأثناء على سليمان بن عبد الملك في دمشق ، إذ حجَّ معه فيمن حجَّ من الشعراء ، الذين رافقوه في حجة مشهورة له ، وكان بينهم الفرزدق وجرير<sup>(٣)</sup> . وأكبر الظن أنه كان يرحل إلى دمشق ، ويتعمق في رحلاته شرقاً إلى خراسان ، ثم يعود إلى العراق ، فيعيش مع قومه من تميم .

ويتضح من أراجيزه أنه كان يتعصب تعصباً شديداً لقومه ، ولعل ذلك ما جعله يهجو المهلب الأزدي<sup>(٤)</sup> ، فقد كانت المنازعات تتحدث بين تميم والأزد في البصرة وخراسان ، وكثيراً ما تحولت هذه المنازعات إلى حروب تُسَنِّكُ فيها الدماء ، وكان يشترك في بعض هذه الحروب ، ففي البيسان والتبين أنه صاح في حرب منها : « يا معشر بني تميم أطلقوا من لساني وأبصر تميمياً طعن أزدياً طعنة » ، فصاح : لا عيباً ولا شكلاً<sup>(٥)</sup> .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم مدائح الكثيرة لمسلمة<sup>(٦)</sup> بن عبد الملك ، فإنه قضى على يزيد بن المهلب الأزدي وشورته في العراق عام ١٠٢ للهجرة ، وأيضاً نجده يمدح أحد قواد تميم الذين ساهموا مع مسلمة في القضاء على

(١) انظر كتاب العربية ليهان فك ص

٣٠

(٢) ديوان رؤبة (طبعة ليسك)

(٣) طبري ١٣٣٨/٢ .

(٤) الديوان ص ٧٤ .

(٥) البيان والتبين ١/٢١٤ .

(٦) الديوان ص ٢٥ ، ٢٥ ، ١٤٤ .

يزيد ، وهو هُرَيْمُ ابن أبي طَحْمَةَ المُجَاشِعِي<sup>(١)</sup> .  
ويغلب على الظن أنه بقى في العراق بعد هذه الحوادث مُدَدًا متطاولة ،  
ففي ديوانه أراجيز كثيرة يمدح بها خالداً القَسْرِيَّ وإلى هشام بن عبد الملك على  
العراق وولاته المختلفين من مثل المُهَاجِرِ بن عبد الله وإلى اليَمَامَةِ ، وبلال بن  
أبي بُرْدَةَ الأشْعَرِيَّ وإلى البَصْرَةَ ، وأَبَانَ بن الوليد البَجَلِيَّ وإلى  
فارس .

وليس في ديوانه مديح للخلفاء الثلاثة الذين جاؤوا بعد سليمان ، وهم عُمَرُ بنُ  
عبد العزيز ويزيدُ بن عبد الملك وأخوه هِشَامُ ، وكذلك ليس في أخباره ما يدل  
على أنه كان يَفْقِدُ عليهم . وأوَّلُ خليفة يَفْقِدُ عليه بعد سليمان هو الوليدُ بن  
يزيد بن عبد الملك ، ففي ديوانه أَرْجُوزَةٌ في مديحه<sup>(٢)</sup> . ونراه بعد ذلك يَفْقِدُ على  
مَرْوَانَ بن محمد آخر ولاةِ بني أمية ، وفي ملححه له تَحْيِينٌ شديدٌ وتعصبٌ ضد  
أعدائه المارقين عليه ، وإنه ليصفهم بالبغى والفضلالِ والكُفْرِ<sup>(٣)</sup> .

وتدلُّ أراجيزه على أنه كان لا يزال يَرِحَلُ إلى الشرق ، فنحن نراه يمدح  
نَصْرَ بن سَيَّارٍ وإلى خراسان ، وليس هذا فحسب ، فنحن نجده يُحَادِثُهُ  
أبا مُسْلِمِ الخُرَّاسَانِيَّ صاحب الدعوة العباسية هناك ، إذ يقول له في بعض  
أراجيزه<sup>(٤)</sup> :

يا نَصْرُ إن اتَّجَيْتَ الأَصَمَّا      يَحْرِقُ نَابًا وَيَمُجُّ سَمًا  
فَارَكَبْ بِجِدِّ دَارِعًا مُعْتَمًا      وَلَا تَمُوتَنَّ بِأَرْضِ غَمًّا  
فَالسَّيْلُ بِالوَادِي إِذَا مَا طَمًّا      أَبْدَى عُرُوقَ شَجَرٍ وَاقْتَمًّا<sup>(٥)</sup>

ولعل هذا ما جعله يخاف على نفسه حين انتقل الأمرُ إلى بني العباس ، ففي  
الأغاني أن أبا مُسْلِمِ الخُرَّاسَانِيَّ بعث إليه حين أفضت الخلافة إلى بني هاشم ،  
فلما دخل عليه رأى منه جَرَعًا وتوجُّسًا شديدًا ، فا زال يسكته ويهدئ من  
رَوْعِهِ ، ويطلب إليه أن ينشده بعض أراجيزه القديمة ، ورؤوبتهُ يُنْشِدهُ مقطعات

(٤) الديوان ص ١٣٩ .

(٥) أتم : كنس .

(١) الديوان ص ٦٦ .

(٢) الديوان ص ١٠٢ .

(٣) الديوان ص ١١٤ .

في مديحه ، حتى سكنَ وثابَ إلى رُشدِهِ ، فأنشده ما أرادَ من أراجيزه<sup>(١)</sup> .  
ويُضطرُّ رؤبَةَ أن يدخُلَ فيها دَخَلَ فيه الناسُ ، بل نراه يقف على  
أبواب الخلفاء وولاتهم ، ففي ديوانه أرجوزة في السَّقَّاح ، وأخرى في المنصور ،  
والتتان في سليمان بن علي والى البَصْرَة ، وأرجوزة في محمد بن الأشعث والى فارس .  
ولم تَطُل حياة رؤبَةَ في العصر العباسي كثيراً ، فقد لَحِقَهُ العصرُ كبيراً ،  
ولذلك سلكتاه في شعراء العصر الأموي ، إذ بدأ فَنَّهُ وأراجيزه منذ عصر الوليد بن  
عبد الملك ، ومعنى ذلك أنه عاش نحو أربعين سنة في العصر الأموي ينظم أراجيزه  
ويطوِّرها إلى أن بلغ بها الغاية .

وقد اخترناه دون أبيه العجاج ودون رُجَّاز العصر الأموي عامةً من مثل  
أبي النجم العجلبلي ، لأن فنَّ الرجز تكامل عنده ، وأوفى على الغاية التي كان يريدُها  
له أصحابه ، ولذلك اهتمت به كتبُ الأدب واللغة اهتماماً واسعاً .

والحق أنه تشويجٌ لكل ما ابتغى رُجَّازُ عصرَ بني أميةَ لفَنِّهم ، فقد  
مضى في غير هذا الموضع أن وَزَنَ الرَّجَزُ كان مملوداً في العصر الجاهلي ، فهو  
لا يكاد يُنظَّمُ إلا شَطُوراً قليلة ، وهي شطوركانت تقال في الحركة السريعة ،  
في الحرب ، أو في الخداع ، أو عند المتع من بشرٍ ، ونحو ذلك .

فلما جاء عصر بني أمية واتسعت معه طاقة هذا الوزن رأينا طائفة من أصحابه  
يحاولون أن يَمُدُّوا أطناب طاقته مدّاً واسعاً ، فإذا هم يؤلّفون أراجيز طويلة طولا  
مُسْرِفاً ، وإذا هم يَسْتَخِدُّونَها في كل ما تُسْتخدَمُ فيه القصيدة من  
تسيب ومديح وفخر وهجاء وعِتَاب .

وإذا كنا قد لاحظنا في القصيدة التماماً واتساقاً مع الرقِّ العَقْلِي الذي صادف  
العرب ، والنشاماً واتساقاً أيضاً مع نفسياتهم الجديدة التي بشَّها الإسلام ،  
والتماماً واتساقاً كذلك مع الظروف السياسية المعاصرة ، فإن الأرجوزة قد شاركت  
في هذا كله .

وأظن القارئ لا يزال يذكر ما قلناه في غير هذا الموضع من أن رؤبة كان يذهب إلى الجببر، بينما كان يذهب ذو الرمة إلى حرية الإرادة. وطبيعي أن يذهب رؤبة هذا المذهب، لأنه كان شاعراً أمويًا، وقد عرفنا أن الأمويين عملوا على إذاعة مذهب الجببر، واتخذوا الشعراء سبيلهم إلى ذلك. وكان ممن أذاعه لهم جرير والفرزدق، لسبب بسيط، وهو أنهما كانا من مدّأحهما، وكذلك كان رؤبة، ومن هنا يأتي شيوع عقيدة الجببر في أراجيزه.

وعلى نحو ما ذاع عنده الجببر في مدائحه لبي أمية وأنهم كتبوا على الناس واختارهم لهم ربهم على شاكلة ما نرى في أراجيزه التي يمدح بها مروان بن محمد<sup>(١)</sup>، كذلك ذاعت العناصر الإسلامية في أراجيزه، وقد كان يتصل بها مباشرة، إذ كان مُحَدِّثًا يروي الحديث بأسانيد<sup>(٢)</sup>، فطبيعي أن يتسرب الإسلام إلى شعره وأن يتمدح بالخصال الإسلامية التي دَعَا إليها الدين الخفيف.

وبنفس الطريقة كان يستغل الظروف السياسية المعاصرة في عمل أراجيزه، ولعل ذلك ما جعله يتمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد، إذ نَفَرَا من اليمينية، فابتعدا عنها، وأقصياها عن الحكم، وارتسميًا في أحضان القيسية.

ورؤبة في كل هذا شاعر أموي، وهو لا يضيف جديدًا في مديح الأمويين، إنما يسير على الدروب والمسالك التي فتحتها في مديحهم جرير والفرزدق من جهة، وأبوه العجاج وأبو النجهم العجلي من جهة أخرى، فإذا كان له من فضل، فهو فضل التطبيق والاتساع به.

وهذه كلها أشياء جاءت من رُقَى الحياة في عصر بني أمية وتعمقها وما كان للطبقات المثقفة من آثار في هذه الحياة. وحتى الآن لم نتحدث حديثًا مفصلاً عن طبقة خاصة، وهي طبقة اللغويين الذين انبثقوا هذا العصر في البصرة والكوفة، واتخذوا يحاولون أن يتصموا للموالى قواعد تفهيم الغلظ واللحن في اللغة العربية. وكان نشاط البصرة في هذا الجانب أوسع من نشاط الكوفة. وفي كتاب أخبار

(٢) أغاني ٢١/٥٨.

(١) انظر الديوان ص ١١٤.

النحويين للسرياني صورةً دقيقةً لهذا النشاط وبياناً واضحاً لمن شاركوا فيه منذ أبي الأسود الدؤلي إلى يونس وأبي عمرو بن العلاء وابن أبي إسحق الحضرمي وعيسى بن عمر الذين عاصروا رؤبةً .

وكان عملُ أساتذة هذه المدرسة اللغوية في البصرة وإخوانهم في الكوفة يقوم على وضع قواعد اللغة العربية ، وعلى السماع من أهلها وتلويح ما يسمعون ، ويقال إن كتبَ أبي عمرو بن العلاء التي كتَبها عن العرب الفصحاء ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف (١) .

وغير أبي عمرو بن العلاء كان ينحو نحوه في الكتابة عن العرب وعن فصحائهم خاصة . وكانوا يطلبون ذلك ويُلحِّثون في طلبه حتى يُستجلموا متن اللغة العربية تسجيلاً دقيقاً . ومن هنا ظهرت هذه الطائفة من البَدْوِ الرواة الذين تتناقل كتبُ الأدب العربي أخبارهم ، وهم جماعة كانوا يَمْلِكون على المدن ، فيروى عنهم أبو عمرو ويونس وأمثالهما شعرهم ، ويتخذون منه الشاهدَ والمَثَل . وسرعاناً ما رأينا الرَّجَزَ يصبح أكبرَ مُستودعٍ لهذه الأمثال والشواهد ، وكلُّ من له صلةٌ بكتب اللغة العربية التي تهتم بالغريب والشاذ يعرف أن أكثر ما يروى في هذه الكتب إنما يروى عن الرَّجَزِ ، وخاصة رؤبةً وأباه العجاج ، فاسماهما يجريان على جميع الشفاه .

والإنسان لا يلم بديوانيهما حتى يتقطع بأنهما كانا يؤكِّفان أراجيزهما قبل كل شيء من أجل الرواة ، ومن أجل أن يمدَّوهما بكل لفظ غريب وكل أسلوب شاذ . ومن هنا كنا نسمي هذه الأراجيز متوناً لغوية .

وقد بلغت هذه المتونُ صورتها المثالية عند رؤبةً ، فهو النموُّ الأخير لهذا العمل التعليمي الذي أرادته المدرسة اللغوية من جهة ، والذي استجاب له الشعراء وخاصة الرَّجَزَ من جهة أخرى . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يُوقِّرونه أعظم التوقير ، فأبو الفرج يُقدِّمه في ترجمته له بقوله : « أخذ عنه وجوه أهل اللغة ، وكانوا يفتنون به ، ويحسبون شعره ، ويجعلونه إماماً » . ثم يروى أن شبَّيل بن عزرَّة الضبي مرَّ بأبي عمرو بن العلاء ويونس ، فقال : يا أبا عمرو

أَشْعَرَتْ أَنِي سَأَلْتُ رُوْبَةَ عَنْ اسْمِهِ فَلَمْ يَلِدْ مَا هُوَ وَمَا مَعْنَاهُ ؟ فَقَالَ لَهُ  
يونس : وَاللَّهِ لِرُوْبَةِ أَفْصَحُ مِنْ مَعْدَنَ بْنِ عَدْنَانَ وَأَنَا غَلَامٌ رُوْبَةُ . وَيَقُولُ يونس  
فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى وَقَدْ سُئِلَ عَنْ فَصَاحَةِ رُوْبَةَ : مَا رَأَيْتُ قَطُّ عَرَبِيًّا أَفْصَحَ مِنْهُ (١) .  
وهكذا كان رُوْبَةُ فِي عَصْرِهِ يَشْتَهَرُ بِالفَصَاحَةِ ، وَكَانَ يَحْسُ ذَلِكَ إِحْسَاسًا  
وَاضِحًا ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا جَعَلَهُ فِي أَرَاجِيْزِهِ دَائِمَ الفَخْرِ بِمَعْرِفَتِهِ الَّتِي لَا تُبَارَى بِاللُّغَةِ ،  
وَخَاصَّةً وَحْشِيَّتِهَا وَغَرِيْبَتِهَا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مُتَسَنِّدٌ رَأَى عَلَى بَعْضِ الشُّعْرَاءِ إِذْهُ :  
« أَعْجَمٌ لَا يَعْرِفُ زَيْغَ الزَّيْغِ » (٢) . وَبَيْنَ أَيْدِينَا أَخْبَارٌ كَثِيْرَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ  
أَصْحَابَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ مِنْ مِثْلِ يونس كَانُوا مَا يَزَالُونَ يَلْتَقِطُونَ مَا يَنْثُرُهُ مِنْ دُرَرِ  
الْوَحْشِيِّ الغَرِيْبِ . وَفِي دِيْوَانِهِ إِشَارَاتٌ كَثِيْرَةٌ إِلَى النِّحَاةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ (٣) :  
« يَلْتَمِسُ النُّحُوِيَّ فِيهَا قَصْدِي » . وَيَفْتَخِرُ بِأَنَّ النُّحُوِيَّ مِمَّا كَانَ عَالِمًا بِاللُّغَةِ  
فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَهُ فِيهَا ، إِذْ يَقُولُ (٤) :

لَا يَنْظُرُ النُّحُوِيَّ فِيهَا نَظْرِي وَهُوَ دَهْمِيٌّ الْعِلْمِ وَالْتَعَبْرِ  
وَلَا يَقْرَأُ الْإِنْسَانَ فِي أَرَاجِيْزِ رُوْبَةَ حَتَّى يَشْعُرَ شَعُورًا وَاضِحًا بِأَنَّهُ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ  
وِظِيْفَةً غَرِيْبَةً ، هِيَ صِيَاغَةُ الْأَلْفَاظِ وَالْأَسَالِيْبِ ، وَالْإِتْيَانِ بِكُلِّ غَرِيْبٍ شَازٍ فِيهَا ،  
حَتَّى يَرْضَى ذَوْقَ اللُّغَوِيِّينَ وَحَاجَتَهُمْ ، وَاقْرَأْ لَهُ هَذَا الْمَطْلَعُ فِي أَرْجُوْزَةٍ لَهُ مَشْهُورَةٌ (٥) :

وَقَامَ الْأَعْمَاقُ حَاوِي الْمُخْتَرَقِ مُسْتَبِيهِ الْأَعْلَامِ لِمَسَاعِ الْخَمَقِ (٦)  
بِكَلِّ وَقَدْ رُيْحَ مِنْ حَيْثُ انْخَرَقِ شَازٍ مِنْ عَوَةِ جَدَبِ الْمُنْتَطَلِقِ (٧)  
نَاهٍ مِنَ التَّصْبِيْحِ نَائِي الْمُخْتَبِقِ تَبَلُّوْنَا أَعْلَامَهُ بَعْدَ الْفَرَقِ (٨)  
فِي قِطْعِ الْأَلِّ وَهَبَّوَاتِ الدُّقَقِ خَارِجَةً أَعْنَاقُهَا مِنْ مُعْتَنَقِ (٩)

(٦) وقد الرياح : أوطأ ، انخرق : هب ،  
وشأز : غليظ ، وعوو : أقام ، ويجذب  
المنطلق : ما يمر به يكون جدبا .  
(٧) ناه من التصحيح : يريد لا ماء فيه يورده  
بكثرة ، ونائى المنتبق : يريد أنه لا ماء فيه يورده  
عشية . تبلو لنا أعلامه بعد الفرق : يريد  
أنها تفرق في السراب ثم تبلو كأنها تسبح .  
(٨) الآل : السراب ، واللقق : جمع دق  
وهو التراب الدقيق اللين . وخارجة أعناقها : يريد  
الجمال . من معتق : من حيث اعتنقها السراب .

(١) انظر الأغانى ٥٧/٢١ وما بعدها .  
(٢) الديوان ص ٩٨ .  
(٣) الديوان ص ٤٨ .  
(٤) الديوان ص ٦١ .  
(٥) الديوان ص ١٠٤ .  
(٦) قائم : أسود . والأعماق : ج عمق وهو  
ما بعد من أطراف المغازاة التي يصفها ، ويخرق  
الرياح : مهجا ، وخراؤه : خلوه . ويشبهه  
الأعلام : الجبال ، يريد أنها متشابهة . ولما  
انلحق : السراب .

تَنْشِطَتْهُ كُلُّ مِغْلَاةٍ الْوَهْقِ مَضْبُورَةٌ قَرَوَاءٌ هِرْجَابٍ فَتُقُ (١)

وهذا المَطْلَعُ هو أسهلُ ما في هذه الأرجوزة التي يصف بها مَقَامَزةً ،  
 فإذا هو يُبْعِدُ عَلَيْنَا كُلَّ هَذَا الْبُعْدِ ، وَيَتَعَمَّقُ بِنَا كُلِّ هَذَا التَّعَمُّقِ فِي الْأَلْفَاظِ ،  
 وكأنه يريد أن يَنْزِعَ من يسمعونه من مَدِّ تَيْسِيهِمْ وَحَيَاتِهِمْ التي يَحْسِبُونَهَا إِلَى  
 حياة جديدة ، هي حياةُ الصَّحراءِ وَالْبَادِيَةِ . وهل من الممكن أن يوجد مثلُ هذا  
 الشعرِ أو مثلُ هذا الرَّجَزِ إِلَّا فِي قِيَعَانِ الصَّحراءِ حيثُ تَنْبِتُ اللُّغَةُ نَبَاتًا خَشِينًا  
 جَافًا لَا رَوْحَ فِيهِ وَلَا رِيحَانَ .

وهو هنا يصف المفازة وما فيها من رياح تَعَوِي بها ، وسَرَابٍ يَمَلَأُ أَرْكَانَهَا ،  
 ويخرج في البيت الأخير إلى وَصْفِ نَاقَتِهِ التي يَقْطَعُ بِهَا هَذِهِ الْمَفَاذَةَ . وَلَا رَيْبَ فِي  
 أَنَّ هَذَا شِعْرًا يُعَبِّرُ بِتَنْقِيسِ أَصْوَاتِهِ عَنِ الْمَعَانِي التي يريدها رُوِيَّةٌ .

ونحن لا نستطيع أن ننقل هنا كثيراً من هذه الأراجيز الوَحْشِيَّةِ إِنْ صَحَّ هَذَا  
 التَّعْبِيرُ ، لِأَنَّهَا تَعَسَّرَ عُسْرًا عَلَى الْمُتَخَصِّصِينَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ بِعِبَارَةِ أَدَقِّ  
 لِأَنَّهَا شِعْرٌ أُلْفَ مِنْ أَجْلِ مَنْ حَظُّوا بِأَكْبَرِ قَيْسُطٍ مِنَ التَّخَصُّصِ فِي مَتْنِ اللُّغَةِ  
 الْعَرَبِيَّةِ وَحِدِّقْهُ .

نحن إذن بإزاء مُتُونٍ تَوَلَّفَ لِإِيْزَاءِ أَشْعَارٍ تُصَاغُ وَيُعَبَّرُ بِهَا أَصْحَابُهَا عَنِ  
 حَاجَاتِهِمُ الْوَجْدَانِيَّةِ أَوْ الْعَقْلِيَّةِ ، فَقَدْ تَطَوَّرَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ ، وَأَصْبَحَتِ الْأَرْجُوزَةُ مِنْهُ  
 خَاصَّةً تَوَلَّفَ مِنْ أَجْلِ حَاجَةِ الْمَدْرَسَةِ الْقَوِيَّةِ وَمَا تَرِيدُهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالْأَمْثَالِ .

والأرجوزةُ الأُمِيَّةُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ تَعَدُّ أَوَّلَ شِعْرٍ تَعْلِيمِيٍّ ظَهَرَ فِي اللُّغَةِ  
 الْعَرَبِيَّةِ . وَلَعَلَّ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَوْضَعُ فِيهِ أَوَّ الَّذِي  
 وَضَعَتْ فِيهِ فَعَلًا ، فَكَانَهَا صُحُفُ الْعُلَمَاءِ مِنْ مِثْلِ يُونُسَ وَأَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ ،  
 يَتَعَلَّمُونَهَا ، وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ ، وَيَنْقُلُونَهَا إِلَى أَذْهَانِهِمْ ، وَيَنْقُشُونَهَا فِي عَقُولِهِمْ ،  
 لِيَدُلُّوا بِهَا عَلَى مَدِّ عِلْمِهِمْ فِي اللُّغَةِ ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ الْمُسْتَعْمَلَةِ وَالْمُهْمَلَةِ .

أُهَا مَسْرَعَةٌ ، وَمَضْبُورَةٌ : مَجْمُوعَةُ الْخَلْقِ ،  
 وَقَرَوَاءٌ : طَوِيلَةُ الظَّهْرِ ، وَهَرَجَابٌ : ضَخْمَةٌ ،  
 وَالْفُقَى : الْفَتِيَّةُ الْكَثِيرَةُ الْحَمَمِ .

(١) تَنْشِطَتْهُ : يَرِيدُ نَاقَتَهُ ، وَهِيَ خَبْرٌ قَامَ  
 الْأَعْمَاقُ ، وَتَنْشِطَتْهُ : جَازَتْهُ . وَالْوَهْقُ : مَدُّ  
 الْإِبِلِ أَعْنَاقَهَا فِي السَّيْرِ ، وَمِغْلَاةٌ الْوَهْقِ : يَرِيدُ

وهذا هو معنى أنها شعر تعليمي<sup>١</sup>، وهي ليست في الأعمال والأيام، كما صنع شاعرُ اليونانِ القديمِ هيزيود، ولا في أحكام الصوم كما صنع أبان بن عبد الحميد في العصر العباسي ولا في النحو كما صنع ابن مالك الأندلسي في ألفيته، وإنما في اللغة من حيث هي لغة<sup>٢</sup>. فالمعاني الشعرية لا بصيبتها تغيير، وإنما بصيب التغيير للغة من حيث هي، فيختارها الشاعر من القاموس غير المؤلف للناس، بل غير المؤلف للعلماء.

واقترأ في رؤيئة ما شئت فستشعر دائماً كأنك تسير في أرض وعرة صلبة، كلها هذه الصخور من الألفاظ التي يرصفها رصفاً، والتي لا نشك في أنه كان يأتي بها من أجل العلماء أمثال يونس. ومن يستطيع أن يقرأ هذا المطامع الذي استشهدنا به والذي قد بعد أسهل ما في أرجوزته دون أن يرتطم ويصنطد بالالفاظ ارتطامات واصطدات، لا يسعفه من الخروج من مأزقها سوى المعاجم المطولة، التي تجمع شواهداً من رؤيئة وأبيه العجاج ومن يكون على شاكلتهما ٢.

ونحن نؤمن بأن المسألة تحولت عند رؤيئة إلى حيس لغوي دقيق يصوغ به ألفاظاً غريبة، أو قل متوناً لغوية، وكثير من جوانب هذه المتون كان يعتمد فيه على هذا الحيس، بمعنى أنه كان يشتق أحياناً ألفاظاً جديدة يأتي بها ليطرف اللغويين، وليكون لهم مادة يتدارسونها.

وإذا كان الرواة يروون عن شاعر معاصر له أنه أتى بأربعة ألفاظ جديدة لم تكن معروفة في العربية، وهو ابن أحمر<sup>(١)</sup>، فإننا نؤمن بأن رؤيئة أتى بمئات الألفاظ الجديدة في شعره وأراجيزه. يدل على ذلك ما يروى عنه من أن الطرميَّاح كان يصير إليه، فيسأله ابن الغريب، فيخبره به، وسرعان ما يراه بعد في أشعاره<sup>(٢)</sup>. وكان الطرميَّاح يأتي بالفاظ غير معروفة للعلماء، حتى ليقول ابن حبيب: سألت محمد بن الأعرابي عن ثمان عشرة مسألة، كلها من غريب شعر الطرميَّاح، فلم يعرف منها واحدة، يقول في جميعها. لا أدري،

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٦/١٢.

(١) الشعر والشعراء ص ٢٠٨.



لا أدرى<sup>(١)</sup>. فإذا كان في ديوان الطرمّاح الذي يأخذ عن رُوْبَة، والذي يُقلِّدُه في غريبه ثمانى عشرة مسألة فأولتى أن يكون في ديوان رُوْبَة عَشْرَات المسائل بل هفت المسائل.

ويشعر كل من يقرأ رُوْبَة وَيُنْعِمُ النظرَ في أراجيزه أنه كان يَنْحَمِتُ الألفاظ كما يريد ويُسَوِّبُهَا على الصورة التي يراها لِيُعَبِّرَ عن معانيه. وكأنه كان يرى أن من حقه أن يَضَعُ ألفاظه وَيَصُوغُهَا، وهو لذلك قد يزيد في اشتقاق الكلمة حَرْفًا، وقد يَنْقُصُهَا حَرْفًا، وقد يُشَكِّلُهَا شكلاً جديداً، وقد يُعَيِّرُ في بعض حروفها، فإذا كانت وأوا جعلها هَمْزَةً مثلاً، وقد يأتي بها لأول مرة في تاريخ العربية، مُعْتَمِداً في ذلك على الحس اللغوي الدقيق الذي تحوّل فيه إلى ملكة خالقة، تَخْلُقُ اللَّفْظَ، وتَخْلُقُ له ما يريد من اشتقاق، ومن حروف وحركات.

ومن هنا تأتي أهمية رُوْبَة، ويأتي شعور يونس في النص الذي مرّ بنا يُشيد به فيه، إذ يشعر أنه غلامه، فهو وغيره من اللغويين عيال عليه، يتقنون بابه، ينتظرون ما يتساقط على مائدة شعره وأراجيزه من هذا الفُنَات اللغوي الجديد، الذي لم يُسَبِّقْ إليه.

ونحن لا نرتاب في أن رُوْبَة كان كلما أخرج اللغويين شيئاً من هذا الفُنَات اشتدت لهفتهم على غيره. ومن هنا تحوّل في أراجيزه إلى ما يشبه صاحب مَصْنَعٍ كبير تروج بضاعته في السوق، ويشدُّ الطلّابُ عليه فلا يجد أمامه سوى أن يزيد في طاقة مَصْنَعِهِ حتى يَسُدَّ حاجة الناس. يدل على ذلك أكبر الدلالة ما يروى عنه من أنه قال ليونس: «حَتّام تسألني عن هذه البواطيل وأزخرفها لك<sup>(٢)</sup>؟». فهو يعترف في وضوح بأن يونس كان يستحثه على هذه البواطيل التي يزخرفها، أو هذه الألفاظ والأساليب التي يصوغها ويستشققها، ويخزجها في أراجيزه.

وهذا لا ريب اتجاه جديد لم يكن الشعراء قديماً يعرفونه، فالشعر أصبح لا يؤلّف من أجل التعبير عن العواطف فحسب، بل أصبح يؤلّف أيضاً من أجل

(٢) أخبار النعويين البصريين ص ٢٥

(١) أغل ١٢/٣٦.

يونس وأضرابه من اللغويين . وقد استطاعوا أن يُمَرِّتُوا رُوْبَةَ وأن يُدَرِّبُوهُ في صُورٍ مختلفة على هذا الاتجاه الجديد ، وهو الإتيانُ لهم بالصياغات غير المألوفة في العربية ، ومن هنا يُسَمِّيها رُوْبَةُ بِتَوَاطِيلٍ ، ولم تكن بتَوَاطِيلٍ حَقِيقًا ، وإنما كانت أشياء جديدة غير مألوفة ، حتى للشاعر الذي يُصنِّدُ رُها ويَسْتَخْرِجُهَا .

وأظنُّ أن الفكرة اتضحت الآن ، فرُوْبَةُ كان يصنع أراجيزه ويأتى فيها بكل آيِدَةٍ لُغَوِيَّةٍ مسبوقة أو مبتكرة ، ليقدِّم ليونس وأمثاله مادة لغوية طريفة . ولذلك كنا نَسَمِّي هذه الأراجيز مُتَوَاتٍ ، وهي ليست متواترة عادية ، وإنما هي مُتَوَاتٍ غريبة ، تعتمد على الشاذِّ غير المألوف في اللسان العربي ، أو قل لأنها معاجمُ خاصة بالألفاظ المنبوذة غير المطروقة .

ولم يكف رُوْبَةُ بإيراده للغريب الذي يحفظه أو يُلغِّيه قومه تيم وشواذِّها ، بل ذهب يفتح هذا الباب الكبير الذي أوصله الشعراء ، وأوصلته كَشَرَتُهُمْ ، وهو بابُ الخَلْقِ في اللغة معتمداً على سَلْبِيَّتِهِ اللغوية ، التي مَرَّتْها في هذا المجال تمريناً واسعاً .

ومن هنا دار رُوْبَةُ في كتب اللغويين ، فهو مادةٌ لغوية قائمة بنفسها ، بل هو أطرفُ مادةٍ لغوية حصل عليها العصر الأموي ، إذا نظرنا إلى اللغة من حيث هي وتوسُّعِتها وتكثيرِ أبنيتها وهيئاتها ، فإنه كان ما يزال يتسَّرحُ على نفسه التعديلَ في صورة الألفاظ بزيادة بعض الحروف أو نقصها ، وبالتعديل في حركاتها والتقديم والتأخير فيها ، ووضعها وضعاً جديداً بأي صورة من الصور الممكنة ، فإن لم يصنع ذلك وجدناه يتعدَّلُ إلى مشتقات يصوغها ، أو ألفاظٍ يتَّصَّعها لأول مرة .

ونستطيع الآن أن نفهم لماذا كان يونسُ غلامُ رُوْبَةَ أقدمَ من رُوَيْتَ عنه غرائبُ اللغة ، وفي دار الكتب المصرية نسخةٌ مخطوطةٌ من كتاب الشوارد في اللغات للصاغاني ، وفي هذا الكتاب فصلٌ طويلٌ لما رُوِيَ عن يونس في هذا الجانب .

ومن ينظرُ في هذا الفصل يرى عجباً فيما يورد من شوارد الكلمات إذ تنغزُّ حركاتها وصُورُها تَغْيِيرًا يكاد يظن الإنسان معه أن كلَّ كلمة في اللغة يمكن أن

تُعَدَّل حروفها أو تُعَدَّل حركاتها ، أو يُنْقَص منها أو يُزَاد فيها بغير نظام ثابت .

ونحن نَقْطَعُ بأن يونس استمدَّ هذا الفصل من شعر رُوْبَة وأراجيزه ، وهو نصُّ طريف لما كان يقوم به رُوْبَة من تعديل في الألفاظ . وكان يضيف إلى هذا التمديل صياغات واشتقاقات جديدة لا عهد للغويين بها . ولذلك كان ديوانه ودواوين الرُّجَّاز الذين سبقوه في العصر الأموي على العموم أهمَّ مَرْتَبِعٍ لمن أَلْفَا في معاجم اللغة ومُتُونِها . ولكن ينبغي أن لا يغيب عَنَّا دائماً أن رُوْبَة يُوَضِّعُ في أعلى السجلِّ الخاصِّ بهؤلاء الرُّجَّاز ، فهو الذي نَمَتَّ عنده — إلى أقصى حدٍّ ممكن — سَلِكِيَّةُ الوَضِّعِ في اللغة والتغيير في حروف الألفاظ وحركاتها ، مُسْتَحْيِيًّا في ذلك كله بحسِّ مَرَهْفٍ دقيقٍ من جهة ، ولحاجة المدرسة اللغوية من جهة ثانية .

ولا ريب في أن هذا تَطَوُّرٌ واسع في تاريخ الشعر العربي إذ أخذت تُخَصِّصُ بعضُ جوانبه لأغراض تعليمية ، وهي أغراض اتسعت بعد عصر بني أمية ، ولكنه على كل حال هو الذي بدأها وهو الذي رَشَّحَ لها ، وهو الذي جعل الشعراء فيما بعد يَتَّجِهون إلى الرجز ، ليودعوا فيه ما يريدون من شِعْرِ تَعْلِيمِي .

ونحن نؤمن بأن هؤلاء الرُّجَّاز وفي مقدمتهم رُوْبَة هم الذين أَعَدُّوا شعراء العصر العباسي لا للشعر التعليمي فحسب ، بل لاقتباسهم للغريب في أشعارهم ، فالغريبُ أصبح جزءاً هاماً في مادة الشعر عند الشعراء الممتازين من أمثال بَشَّارِ وأبي نُؤَاسِ وأبي تَمَّامِ .

ولم يكن هؤلاء الشعراء يَسْتَرْفون على أنفسهم في الغريب كما أسرف رُوْبَة وزملاؤه الأمويون ، ولكنهم على كل حال عُنُوا به في أشعارهم ، وأصبحنا في بعض أجزاء منها نظن أنهم يَنْظِمُونَ بلسان رُوْبَة وأصحابه ، كأن الغريب غاية ، فهو يُقْصَدُ لِدَاتِهِ .

وما نتقدَّم إلى القرن الرابع في العصر العباسي حتى تظهر الأَسْتِمَات ، وهي صحفٌ قصصية من النثر العربي أريد بها تعليمُ اللغة ، ولذلك كان يمكن أن تُعَدَّ امتداداً لهذه الحركة التي بدأها الرُّجَّاز في العصر الأموي ، وغاية ما في

الأمر أن الموضوع اختلف ، ففي الممتامة كانوا يعتمدون على قصة أصحاب الكدبية أو السائلين من الأدباء ، وفي الأرجوزة كانوا يعتمدون على قصة الصحراء ووصف حيوانها ونباتها وسماتها وأرضها وكل ما يتصل بها من رياح وسرّاب .

على كل حال كانت الغاية تعليمية في كل من الأرجوزة والمقامة ، واتفقت الفكرة فيهما جميعاً ، إذ أريد بهما إلى تعليم اللغة ، وإن كنا نلاحظ أن المقامة صنّعت للناشئة من الأدباء وأن الأرجوزة كانت تُصنّع للمختصين في اللغة العربية من مثل يونس وأبي عمرو بن العلاء .

وهكذا كانت الغاية التعليمية في الأرجوزة أدق وأصعب وأكثر تعقيداً منها في المقامة ، فإن أصحابها لم يتحشّدوا فيها الألفاظ الشاذة في نحتها وحركاتها وحروفها على نحو ما كان يصنع رؤبة ، هم جاءوا بالغريب ولكنهم لم يجعلوه كل أهدأفهم .

ومهما يكن فقد ألهمت الأرجوزة الأموية أصحاب الشعر في العصر العباسي أن يقوموا بنظم شعرهم التعليمي ، كما ألهمت أصحاب النثر أن يقوموا بصنّع المقامة . وليس هذا كل ما قدمه رؤبة وزملاؤه لمن جاءوا بعدهم ، فقد جعلوا الوحدة في الأرجوزة الشطر لا البيت كما هو الشأن في القصيدة ، ولا نملك في أن أصحاب الموشحات والمربعات والخمسات قد تأثروا بهم في هذا الجانب .

وعلى هذا النحو اتسع إلهام الأرجوزة للشاعر العباسي والأندلسي ، وأيضاً لمن كتبوا في المقامات ، فهي مع صعوبة متّنها وغرابة ألفاظها كانت ذات تأثير واسع في العصور التالية .

وأكبر الظن أنه قد بان بياناً لا ريب فيه من هذه المتون الغوية التي كان يصنعها رؤبة وزملاؤه وما تحدثنا فيه من خمريات الوليد ، وهاشميات الكميث ولوحات ذى الرمة ، وغزك ابن أبي ربيعة ، أن طاقة الشعر العربي اتسعت في عصر بني أمية اتساعاً شديداً ، فلم يتجمّد عند الموضوعات القديمة ، بل أخذ يجدد فيها وينوع ويوجّه على هيات وألوان مختلفة .

## خاتمة

١

### خلاصة البحث

حاولنا في الصفحات السابقة أن نُصَوِّرَ الاتجاهات الجديدة في الشعر الأموي، فبدأنا بدرّسِ بيئاته المهمة وهي الحجاز ونجد والعراق والشام، وتعمّقنا ما كان فيها من حياة في الجاهلية والإسلام. ورأينا عناصر من الحضارتين الفارسية والرومية البيزنطية تسقطُ إلى الحجاز في العصر الجاهلي، حتى إذا كان عصر الفتوح انغمست الحجاز انغماساً في هاتين الحضارتين، فقد دخل بها أفواجٌ، بل أمواجٌ من الموالى والحوارى، قاموا على حياة الناس هناك، وإعداد هذه الحياة.

ووجدنا في هذه الديار، تحت تأثير الفتوح وما صبّ في حجور الحجازيين من أموال، طبقةٌ فارغةٌ عمّدت بعض عناصرها إلى اللهو، وسرعان ما قدّم لها مواليتها وحواريها نظريّةً جديدةً للغناء والموسيقى، وهي النظرية التي نقرأ رموزها عقب الأصوات والأدوار التي يأتي بها صاحب الأغاني. وهباً هذا كله لغزل جديد يُعبّر عن حياة لاهية، تحضّر أصحابها، وأتّرف حِسْمَهُمْ، وأتّرفت أذواقَهُمْ.

وبينا تغيّرت الحياة في الحجاز هذا التغيّر كان العرب في نجد لا يزالون يعيشون على شاكله آباءهم في الجاهلية، يرعون أنعامهم وأغنامهم، ويتبّعون مساقط الغنم والكتل، وقد ذهبوا يشكون مرّ الشكوى من ضريبة الزكاة، واستحذتوا لأنفسهم غزلاً جديداً يظهر فيه تغيير الإسلام لفسياتهم، فهو غزلٌ عفيف فيه مثاليّةٌ، وفيه طُهرٌ وأُبلٌ وتسامٍ على اللذائذ الحسية. وكان العراق منذ العصر الجاهلي شديد الصلة بالحضارة الفارسية، وكذلك بالحضارة الرومية البيزنطية، فقد دخلت إليه المسيحية، وتصرّت الحيرة وأجزاء

## تعليق وتعقيب

هذه هي أهم الاتجاهات التي وقفنا عندها في البحث، ولا نزعم أننا عرضنا كل أطراف الحياة العربية الجلديدة التي عاشها العرب في العصر الأموي، إنما عرضنا الأطراف البارزة، وميّزنا الخطوط الكبيرة في العصر، وبقيت خطوط صغيرة، أو بعبارة أدق بقيت فروع، هي فروع الحياة التي عاشها العرب، لا في إطارهم القديم فحسب، إطار الجزيرة العربية، بل في إطار واسع، اتسعت خطوط طولها من الهند وحبشود الصين إلى جبال البرانس والمحيط الأطلسي.

ومن المحقق أننا كلما أطلنا النظر في ظواهر الحياة في أثناء هذا العصر أمكننا أن نجلب إلى الشعر العربي موضوعات جديدة، وأن نلاحظ فيه جوانب طريقة، تستحق الوقوف عندها والتأمل خلالها فيما أصابه من تغيير وتطور وتجديد.

ومن الجوانب المهمة التي تلفت كل من يقرأ في نصوص الشعر الأموي جانب الحروب والفتوح الإسلامية في خراسان وغير خراسان، فقد نُظِّمَ في هذه الحروب شعر كثير، صور البيئات الجلديدة التي شاهدها العرب، وصور ما فيها من ثلوج ومن نبات وحيوان<sup>(١)</sup>، وصور أيضاً كل ما هنالك من رافة العيش والطعام وفاخر الفُرش والثياب، كما صور الجوارى الأجنبية اللاتي غنمنهن العرب في الحروب<sup>(٢)</sup>.

وظهر في أثناء ذلك موضوع جديد، هو الحنين إلى الوطن، وجرى على ألسنة الشعراء شعر كثير صوروا فيه هذه النزعة تصويراً دقيقاً، فقد فارقوا أوطانهم، وفارقوا عشائرتهم، وفارقوا أهلهم وأبنائهم، وخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يُلِّمُّ بهم طائفُ الذكري، وطائفُ الأهل والبنات والأبناء. وكانت هذه النزعة من الحنين تتضاعف في نفس الشاعر حين يصيبه مرض أو يترامى له الموت

١٧٢ والشعر والشعراء ص ٣٠٤ .  
 (٢) انظر على سبيل المثال الأغاني (طبع دار الكتب) ٣١٩/٢ ، ٣٤٤/٦ .

(١) أكثر الشعراء في هذا العصر من وصف الحيوان من مثل القردة والخنازير والجرذان والسائير واليهود والفيلة . انظر الحيوان للجاحظ ٦٤/٤ ، ٦٦ ، ٨١/٧ ، ١١٥ .

في عصر بني أمية شبكة تتصل خيوطها بكل مظاه الحياة ، بل بكل حواشها وذيولها .

وإذا كان هذا الشعر مثل البيئات الجديدة ونفسيات الشعراء فيها وما اتصل بهم من حروب وفتوح فإنه مثل أيضاً حياة العرب في السلم ، وفي مدنهم الجديدة من جميع أقطارها ، وخاصة حياة الخلفاء والولاة وما ارتبط بها من ترف ونظم وشُرطة وغير شُرطة .

وقد دخلت في الحياة العربية لهذا العصر نظم القود والقصاص والحدود مما شرعه الإسلام ، ودخلها الخوف من بطش الولاة ، وخاصة من عرفوا بالقسوة والشدة مثل زياد والحجاج . وقصة هرب الفرزدق من زياد معروفة . وغير الفرزدق كثيرون كانوا يفرّون من الولاة والخلفاء فراراً حين يقتربون ذنباً ، فتضيق الأرضُ بهم ، على نحو ما نجد عند عبد الله بن الحجاج ، وكان قد خرج مع نجدة بن عامر الحنفي الخارجي على عبد الملك بن مروان ، فلما قضى على نجدة ضاقت به الأرضُ بما رحبت ، ووصف هذا الضيق في قوله (١) :

كانَ بلادَ الله وهى عَرَبِيَّةٌ      على الخائف المطلوب كِفَّةٌ حابِلٌ  
تؤدِّي إليه أن كل نَسِيَّةٍ      تيممها ترمى إليه بقاتل

ولا ريب في أن هذا الخوف الشديد من الخلفاء والولاة أثر في نفسية الشاعر الأموي ، وجعله يفكر ويقدر ، ويتأني ويتسهل حتى إذا ظن الخليفة أو الوالي غاضباً عليه كاد يطير قلبه ، وحسب كل صيحة شرطياً ينادى عليه ويرصده . وصور ذلك من بعض الوجوه العديدة بل بن الفرخ العجلي حين توعده الحجاج ، فقال (٢) :

أخوفٌ بالحجاج حتى كأنما      يحترق عظم في القواد مهيب

والمهيب : الذي كسير ، ثم جبير ، ثم كسير . ومن القصائد الطريفة التي تصور فرع الشعراء ووجلتهم حين يسمعون بسلطان يتوعدهم ويتهددهم

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٢/١٣ .  
والشبية : الطريق في الجبل .  
(٢) البيان والتبيين ١/٣٩١ .

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٢/١٣ .  
وكفة حابِل : حباله الصائد ، وتكوي : تخيل ،

قصيدة ابن قيس الرقيات حين بلغه أن عبد الملك توعدته ، إذ كان يحطبُ  
في حبيل أخيه عبد العزيز ، وكان عبد الملك فكراً أن يخلمه من ولاية العهد على نحو  
بامرٍ في غير هذا الموضع ، ويولّي ابنه الوليد مكانه ، فندت على لسان ابن قيس  
آيات تدعو لعبد العزيز ضد أخيه ، وبلغت الآيات عبد الملك ، وسرعان ما تطورت  
الحوادث ، وتوفّي عبد العزيز ، وبقي ابن قيس خائفاً يترقب . وفي أثناء هذا  
الخوف كتب هذه القصيدة مستعظفاً ، واستهلها بقوله (١) :

بَشِّرَ الظَّبْيُ وَالغُرَابُ بِسُعْدَى	مَرَحِبًا بِالذِي يَقُولُ الغُرَابُ
قَالَ لِي إِنَّ خَيْرَ سَعْدَى قَرِيبٌ	قَدْ أَنْتَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ اقْتِرَابُ
قُلْتُ أَنَّى تَكُونُ سَعْدَى قَرِيبًا	وَعَلَيْهَا الحِصُونُ وَالْأَبْوَابُ
حَبَدًا الرَّثْمُ ذُو الوِشَاحَيْنِ وَالقَمَصُ	رُ الَّذِي لَا يَنَالُهُ الأَتْرَابُ
إِنَّ فِي القَصْرِ لَوْ دَخَلْتَ غَزَالًا	مُوصِدًا مُصَفَّقًا عَلَيْهِ الحِجَابُ
أُرْسَلْتُ أَنْ فَدَتْكَ نَفْسِي فَاحْدَرِ	شُرْطَةَ هَاهُنَا ، عَلَيْكَ غِيضَابُ
أَقْسَمُوا إِنَّ رَأُوكَ لَا تَطْعَمُ المَا	ءَ وَهَمَّ حِينَ يَقْدِرُونَ ذَنَابُ
قُلْتُ قَدْ يَخْفَلُ الرَّقِيبُ وَتُغْفِي	شُرْطَةَ أَوْ يَحِينُ مِنْهَا انْقِلَابُ
أَوْ عَسَى اللهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَمْرًا	لَيْسَ فِيهِ عَلَى المَحَبِّ ارْتِقَابُ
ارْجِعِي فَأَقْرَتِي بِالسَّلَامِ عَلَيْهَا	ثُمَّ رُدِّي جَوَابًا يَا رَبَّابُ
حَدَّثَنِيهَا بِمَا لَقِيتُ وَقَوْلِي	حَقًّا لِلعَاشِقِ الكَرِيمِ ثَوَابُ
رَجُلٌ أَنْتِ هَمَّهُ حِينَ يُحْسِي	خَامِرَتَهُ مِنْ أَجْلِكَ الأَوْصَابُ

وواضح أن ابن قيس يُعبر في هذه المقدمة لقصيدته عن كل ما اختلج به  
قلبه من خوف ، فهذه سعدى صاحبه التي كان يظن أنها رَضِيَتْ عنه ، يُبَشِّرُهَا  
ظبْيٌ وُغْرَابٌ أَوْ فَتَالٌ تُنْحَسُ وَقَالَ سَعْدَى ، وَهَا هُوَ يَخَافُ الاقْتِرَابَ مِنْ قَصْرِهَا  
وَمَا يَقُومُ عَلَيْهِ مِنْ حُرَّاسٍ وَحُجَابٍ وَرُقَبَاءَ ، وَإِنَّهُ لَيْسَتْ مُعْظَفَا ، وَيَتَوَسَّلُ إِلَيْهَا أَنْ  
تَمْنَحَهُ وَدَّهَا لَمَّا يَلَاقِبُهُ مِنْ عَذَابِ الإِعْرَاضِ وَالصَّدِّ بَعْدَ الإِقْبَالِ . وَكُلُّ ذَلِكَ رَمَزٌ  
عَنْ عَبْدِ المَلِكِ وَعِلَاقَتُهُ بِهِ ، إِذْ كَانَ ابْنُ قَيْسٍ زُبَيْرِيًّا ، وَطَلَبَهُ عَبْدِ المَلِكِ بَعْدَ قَتْلِ  
مِصْعَبٍ ، وَتَوَسَّلَ لَهُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَأُمُّ البَيْتِ ، فَعَفَقَا عَنْهُ عَبْدِ المَلِكِ ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُ



ابن قيس ومدحه ، ثم اختص بأخيه عبد العزيز . واليوم قد توفي عبد العزيز وأوعد عبد الملك وأنذر ، وكاد يطير بأبن قيس طيرةً بطيشاً سقوطها ، فارتاع ، وأصبح فواده كأنه كرة تنزى .

وكل ذلك جديد في حياة العربي وعلى نفسيته ، فلم يكن في العصر الجاهلي سلطان لأحد على أحد ، وإذا كان هناك سلطان لشيخ القبيلة فهو سلطان محدود . أما في هذا العصر فقد تغير أسلوب الحياة ، وأصبحت هناك الشرطة وألوان العقاب المختلفة من ضرب بالسياط ، ومن تعذيب بالسجن . وهذا ومثله يفكر فيه ابن قيس ويلون نفسيته هذه الألوان التي جعلته يصدر في قصيدته لعبد الملك عن هذا القلق والاضطراب الشديد ، فإذا هو يحدث هذه المقدمة الغزلية التي صورت كل ما جرى في قلبه من وساوس وأوهام .

وهذا الباب ، باب الخوف من أصحاب الأمر والنهي وما ينزلونه بالناس حين يرتكبون مخالفات أو يجتريون جنایات نجد له نصوصاً كثيرة في الشعر لهذا العصر . ومن أمثلة ذلك قصة محمد بن هشام والى مكة لهشام بن عبد الملك مع العرجي ، وهي قصة أطنب فيها أبو الفرج في أغانيه ، إذ كان في العرجي شر كثير ، فجلده محمد بن هشام ، وأقامه في الشمس أياماً ، فشكا العرجي ذلك في شعره من مثل قوله (١) :

أجرر في الجوامع كل يوم فيا لله مظلمتي وصبري

وكان بعض الشعراء يسجن لما اقتترف من جرائم ، وتوضع في أيديه وأرجله الأغلال والقيود ، فكانوا يتعرضون للخلفاء والولاة يستعطفونهم ، حتى يطلقوهم ، وكانوا في الوقت نفسه يصفون ما يلقون في غياب السجون ، وفي كتب الأدب طرّف من ذلك كثيرة ، واستمع إلى ابن مفرغ يصف سجنه بسجستان ، وقد حبسه عباد بن زياد بن أبيه (٢) :

حتى ذا الزور وانتهه أن يعودا  
من أساوير لا يتون قياماً  
إنّ بالباب حارسين قعوداً  
وخلانجيل تسهر المولودا

(١) أغاني ١/٤١٣ ، والجوامع : الأغلال .  
(٢) الشعر والشعراء ص ٢١١ .

وطمَاطِيمَ مِنْ سَبَابِجِ عُثْمِ . يُلبَسُونَ مع الصبَاح قُبُودًا  
فهو يصف حُرُاسَهُ مِنَ الأَسَاوِرَةِ ، أو مِنْ جُنُودِ الفَرَسِ ، وَمِن السَّبَابِجِ ، أو  
مِنْ جُنُودِ السِّنْدِ العُثْمِ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ بَيَانًا وَلَا إِفصَاحًا ، لِأَنَّهُمْ عَجُزٌ  
طمَاطِيمِ . وَيَذَكُرُ ابْنَ مَفَرَّغٍ إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ القُبُودِ الَّتِي يَكْبِتُونَهُ بِهَا كُلَّ صَبَاحٍ .  
وَأَمَامَ هَذِهِ السُّجُونِ كَانَ يَوجَدُ الحُكَّامَ والقَضَاةَ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ الشُّعْرَاءُ لَهُمْ  
يَدْعُونَهُمْ إِلَى العَدْلِ والحُكْمِ بِالقِسْطِ فِي غَيْرِ ظَلَمٍ وَلَا جَوْرٍ . زَوَى صَاحِبُ  
الأَغَانِي أَنَّ مُرَّةَ بِنِ مَحْكَانَ التَّمِيمِيِّ خَاصِمَ رِجَالٍ إِلَى الحَارِثِ بِنِ أَبِي رَبِيعَةَ  
(القُبَاعِ) وَالِى البَصْرَةَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ ، فَلَمَّا أَرَادَ إِمْقَاضَ الحُكْمِ عَلَيْهِ هَتَفَ بِهِ (١) :  
أَحَارٍ تَشَبَّتَ فِي القَضَاءِ فَإِنَّهُ إِذَا مَا إِمَامٌ جَارَ فِي الحُكْمِ أَقْصَدَا  
وَأَنْتَ مَوْقُوفٌ عَلَى الحُكْمِ فَاحْتَفِظْ وَمَهْمَا تُصِيبُهُ اليَوْمَ تَذُرْكَ بِهِ غَدًا

وهناك نصوص أخرى تتحدث عن القضاة ويشكو فيها الشعراء من أحكامهم  
وخاصة حين يحكمون لامرأة على صاحبها أو على أهلها (٢).

وإذا كان الشعر الأموي سجّل هذه الجوانب فإنه سجّل أيضًا كل ما  
اتصل بأعمال جديدة من حفر جداول أو قنوات أو بناء قصور واتخاذ مساجد  
أو احتفال بأعياد ومهرجانات (٣)، وحتى ما ابتدعه الحجاج من الحامل والسفن  
المقسيّرة ، نظمه الشعراء في أشعارهم (٤) ، وكأنما لا يوجد خسيطٌ في نسج الحياة  
العربية للعصر الأموي إلاّ وحكاية الشعراء في شعرهم ، حتى اللعيب الجديدة كلعبنة  
الشطرنج نجد عند الفرزدق وجريير إشارات إلى بعض مصطلحاتها من مثل البياذق (٥)  
وسبق أن تحدثنا في غير هذا الموضع عن كتابة الشعر في أثناء هذا العصر الأموي  
وأنها كانت متداولة وأن كثيرًا من الشعراء كانوا كاتبين وللمنقح الكندي قطعة  
بديعة في وصف القلم ، ذكرها في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد ، وفيها يقول (٦) :  
قَلَمٌ كَخَرَطُومِ الحَمَامَةِ مَائِلٌ مُسْتَحْفِظٌ لِلْعِلْمِ مِنْ عِلْمِهِ

(٥) نقائص جريير والفرزدق ص ٧٨٧ ،

٨٤٥ .

(٦) الحيوان ١/٦٥ .

(١) أغاني ٢٠/١٠ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٨١ وابن سعد ٦٤/٩٤ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٤٤٨ .

(٤) الحيوان ١/٨٢ .

يَسْمُ الحروفَ إذا يشاءُ بناءَها      لبيانها بالنقطة من أرسامه  
وبأنفه شقٌ تلاءمَ فاستوى      سقى المدادَ فزاد في تلامه  
مُسْتَعْجِمٌ وهو الفصيحُ بكلُّ ما      نطقَ اللسانُ به على استعجابه  
وله تراجمةٌ بالنسبةِ لهم      تبيانُ ما يتلَوْن من ترجمه

وكل ذلك معناه أن العرب عبّروا عن الحياة الجديدة التي عاشوا فيها في أثناء عصر بني أمية تعبيراً لم يترك شبيبةً من شياتها دون أن يُسجّلها تسجيلًا .  
وليس هذا فحسب ، فإنهم عبّروا عن الحفظ العقلي والروحية الجديدة ، وكل ما اتصل بحياتهم من سياسة واقتصاد واجتماع . والشعرُ الأمويُّ من هذه الناحية مرآة صافية ترنّسُم عليها حياة العرب الجديدة بكل قسّماتها وملاعها ، بل بكل ما صادفها من تطور . ولا يوجدُ عنصُرٌ من عناصر هذا التطور إلاّ نَبَتَه الشعراءُ في شعرهم سواء من حيث السموّ الروحي أو من حيث السموّ العقلي ، أو من حيث نظام الدولة والمعيشة .

ويستطيع كلُّ باحثٍ أن يستمر في هذا البحث وأن يَمُدَّ حلقاته وأطنا به إلى اتجاهات جديدة في نفسية العرب وعقلهم . فليس هناك ترجمةٌ لشاعر أموي في كتاب الأغاني نطّلع عليها إلا نستقبل فيها تأثيرات الحياة الأموية وما أصاب التفكير الفني من تطوُّر وتجديد . وقُلْ ذلك نفسه في دواوين الشعراء وما صاغوا من شعرهم . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة حافزاً للباحثين أن يُعْمِنُوا بحياة الشعر العربي في العصر الأموي عنايةً تكشفه من جميع أطرافه كشفًا دقيقًا .

## الفهرس

صفحة	
٦-٥	مقدمة الطبعة الثانية
١٠-٧	مقدمة الطبعة الأولى
٢١-١١	تمهيد : الشعر في صدر الإسلام
١١	(١) الإسلام
١٣	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
١٨	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٥٤-٢٢	الفصل الأول : بيئات الشعر الأموي
٢٢	(١) الحجاز
٣٠	(٢) نجد
٣٥	(٣) العراق
٤٣	(٤) الشام
٤٩	(٥) بيئات أخرى
١٣٠-٥٥	الفصل الثاني : تطور الشعر الأموي مع الحياة
٥٥	(١) الحياة الدينية
٧١	(٢) الحياة العقلية
٨٥	(٣) الحياة السياسية
١٠١	(٤) الحياة الاجتماعية
١١٧	(٥) الحياة الاقتصادية
٢١٨-١٣١	الفصل الثالث : التجديد في المديح والهجاء
١٣١	(١) مديح الأخطل والفرزدق وجرير
١٦٢	(٢) تحول الهجاء عند الأخطل والفرزدق وجرير إلى نقاض
١٦٦	(٣) نقاض جرير والأخطل
١٧٥	(٤) نقاض جرير والفرزدق
٢٠٣	(٥) مقارنة
٢٢٤-٢١٩	الفصل الرابع : ألوان جديدة
٢١٩	(١) غزل ابن أبي ربيعة
٢٤٣	(٢) لوحات ذى الرمة
٢٦٨	(٣) هاشميات الكميت
٢٩٢	(٤) خسريات الوليد
٣١٢	(٥) متون رؤبة
٣٢٧-٣٢٥	علمة
٣٢٥	(١) خلاصة البحث
٣٣١	(٢) تعليق وتعليق

## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

• الأدب العربي المعاصر في مصر  
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات

• البارودي رائد الشعر الحديث  
الطبعة الرابعة ٢٢٢ صفحة

• الشعر والغناء في المدينة ومكة لمصر  
بني أمية

الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

• البحث الأدبي : طبيعته - ومناهجه -  
أصوله - مصادره

الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

• الشعر وطواحه الشعبية على مر العصور  
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية  
• في النقد الأدبي

الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة

• فصول في الشعر ونقده  
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية  
• البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة

• المدارس النحوية  
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة

• تجديد النحو  
الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

• تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده  
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

في مجموعة نوايغ الفكر العربي  
• ابن زيلون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في الدراسات القرآنية

• سورة الرحمن وسور قصار  
عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي  
• العصر الجاهلي

الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة

• العصر الإسلامي  
الطبعة العاشرة ٤٦٦ صفحة

• العصر العباسي الأول  
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

• العصر العباسي الثاني  
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

• عصر الدول والإمارات ( ١ )  
الجزيرة العربية - العراق - إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

• عصر الدول والإمارات ( ٢ )  
مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية  
• الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة

• الفن ومذاهبه في النثر العربي  
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

• التطور والتجديد في الشعر الأموي  
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

• دراسات في الشعر العربي المعاصر  
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة

• شوقي شاعر العصر الحديث  
الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

## في مجموعة فنون الأدب العربي

• الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

• المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

• النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

## في التراث المحقق

• المغرب في حل المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد  
الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

• كتاب الرد على النخاعة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

• الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

• المقاد

الطبعة الرابعة

• البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

• معى

الطبعة الثانية

• الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٨٧/٢٤١٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٨٦-X	الترقيم الدولي

١/٨٧/٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)